

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِحِفْظِ الْمُجْمَعِ

اِحْرَافِيْشْ



23.3.2017



نجيب حفوظ

أحْرَافِيَشْ

دارالشُّرُوف

اِحْرَافِ یِشْ



الحرافيش

نجيب محفوظ

إخراج ولوحات الغلاف : حلمي التوني

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٦

الطبعة السادسة ٢٠١٥

تصنيف الكتاب: أدب / روايات

دار الشروق

٨ شارع سيفويه المصري

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تلفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

www.shorouk.com

رقم الإيداع ٢٠٠٦/٣٠٨٢٥

ISBN 978-977-09-1522-6

المحتويات

٧	عاشور الناجي : الحكاية الأولى
٩١	شمس الدين : الحكاية الثانية ..
١٥٣	الحب والقضبان : الحكاية الثالثة ..
٢١٣	المطارد : الحكاية الرابعة ..
٢٧٥	قرة عيني : الحكاية الخامسة ..
٣٣٧	شهد الملكة : الحكاية السادسة ..
٤٠٣	جلال صاحب الجلاله : الحكاية السابعة ..
٤٦٩	الأسباح : الحكاية الثامنة ..
٥١١	سارق النغمة : الحكاية التاسعة ..
٥٤١	التوت والنبوت : الحكاية العاشرة ..

Twitter: @ketab_n

عاشر الناجى

الحكاية الأولى من ملحمة الحرافيش

في ظلمة الفجر العاشرة، في الممر العابر بين الموت والحياة،
على مرأى من النجوم الساهرة، على مسمع من الأناشيد
البهيجـة الغامضة، طرحت مناجـة متجسدة للمعانـة والمسـرات الموعودـة
لـحارتنا.

مضى يتلمس طريقـه بـطـرف عصـاه الغـليظـة، مرـشدـته في ظـلامـه
الأـبـدـيـ. مـولـايـ يـعـرـفـ مـوـاقـعـهـ بـالـرـائـحةـ وـحـاسـبـ الـخـطـوـاتـ وـدـرـجـةـ
وضـوحـ الأـنـاشـيدـ وـإـلـهـاـمـ الـبـاطـنـيـ. بـيـنـ مـسـكـنـهـ عـنـدـ مـشارـفـ الـقـرـافـةـ وـبـيـنـ
الـحـارـةـ يـخـوـضـ أـشـقـ مـرـحلـةـ فـيـ طـرـيقـهـ إـلـىـ الـحـسـينـ وـأـعـذـبـهاـ. عـلـىـ غـيرـ
الـمـعـهـودـ تـنـاهـيـ إـلـىـ أـذـنـيـهـ الـحـادـتـيـنـ بـكـاءـ وـلـيدـ. لـعـلـهـ دـوـيـ أـكـبـرـ مـنـ حـجمـهـ
فـيـ سـاعـةـ الـفـجرـ. الـحـقـ قـدـ جـذـبـهـ مـنـ سـكـرـةـ الرـؤـىـ وـنـشـوـةـ الـأـنـاشـيدـ. فـيـ
هـذـهـ السـاعـةـ تـهـيـمـ أـمـهـاتـ بـأـطـفـالـهـنـ! هـاـ هـوـ ذـاـ الصـوتـ يـشـتـدـ وـيـقـتـرـبـ
وـعـماـ قـلـيلـ سـيـحـاذـيـهـ تـاماـ. وـتـنـحـنـحـ كـيـلاـ يـقـعـ اـرـتـطـامـ فـيـ مشـهـدـ الـفـجرـ.
وـتـسـأـلـ: مـتـىـ يـكـفـ الطـفـلـ عـنـ الـبـكـاءـ لـيـرـتـاحـ قـلـبـهـ وـيـعـاـوـدـ خـشـوعـهـ؟ الـآنـ
صـارـ الـبـكـاءـ يـنـخـسـ جـنـبـهـ الـأـيـسـرـ. تـبـاعـدـ يـمـنـةـ حـتـىـ مـسـ كـتـفـهـ سـورـ التـكـيـةـ،
وـتـوقـفـ قـائـلاـ:

- يا حرمة .. أرضعى الطفل !

ولكن لم يجبه أحد وتواصل البكاء ، فهتف :

- يا حرمة .. يا أهل الله !

فلم يسمع إلا البكاء . ساور الشك قلبه فولت البراءة المغسولة بماء الفجر ، واتجه نحو الصوت بحذر شديد جاعلا عصاه لصق جنبه . انحنى قليلا فوق الصوت ، مدرارته برحة حتى مس سبابته لفافة . هو ما توقعه القلب . جال بأصابعه في طياتها حتى لامس وجهًا طرياً متشنجاً بالبكاء . هتف متاثراً :

- تدفن القلوب في ظلمة الإثم ..

وصاح بغضب :

- لعنة الله على الظالمين ..

وتفكر قليلاً ولكنه قرر ألا يهمله ولو فاتته صلاة الفجر في الحسين . النسمة باردة في هذه اللحظة من الصيف ، والزوابح شتى ، والله يمتحن عبده بما لا يحرى له في حسبان . وحمله برفق ، ثم عزم على الرجوع إلى مسكنه ليشاور زوجته في الأمر . وترامت إليه أصوات آدميين لعلهم ذاهبون إلى صلاة الفجر فجعل منها فجاءه صوت يقول :

- سلام الله على المؤمنين !

فأجاب بهدوء :

- سلام الله عليكم ..

وعرف المتكلم صوته فقال :

- الشيخ عفرة زيدان؟ ماذا أخرك؟

- إنني راجع إلى البيت ولله الأمر من قبل ومن بعد .

- سلامتك ياشيخ عفرة !

فقال بعد تردد:

- عثرت على وليد تحت السور العتيق ..

وانداحت هممة بين الرجال حتى قال أحدهم:

- اللعنة على الآثميين ..

وقال ثان:

- اذهب به إلى القسم!

وسأله ثالث:

- ماذا أنت فاعل به؟

فقال بهدوء لا يناسب المقام:

- سوف يهديني الله إلى مشيئته ..

٣

انزعجت سكينة لدى رؤيتها زوجها الشيخ على ضوء المصباح
المعروف بيسراها، وتساءلت:

- ماذا أرجوك كفى الله الشر؟

وسرعان ما رأت الوليد فهافت:

- ما هذا ياشيخ عفرة؟

- عثرت عليه في المر ..

- يا رحمة الله!

تناولت الوليد برقه. جلس الشيخ على كنبة بين البئر المغطاة والفرن
وهو يغمغم:

١٠

- لا إله إلا الله!

راحت سكينة تهدى الطفل، ثم قالت بحنان:

- إنه ذكر يا شيخ عفرة!

فحرك رأسه صامتاً، فقالت باهتمام:

- يلزمك غذاء ..

- وما درايتك بذلك وأنت لم تنجبي ذكره ولا أنت؟!

- أعرف أشياء، ومن يسترشد يجد من يرشده، ماذا أنت فاعل به؟

- نصحونى بأن أذهب به إلى القسم.

- هل يرضعونه في القسم؟ لتنظر حتى يظهر من يبحث عنه.

- لن يبحث عنه أحد ..

وتحلى صمت مفعم بالانفعالات حتى تعم الشیخ عفرة زیدان:

- أليس من الخطأ أن نقیه أكثر مما ينبغي؟

فقالت بحماسة وحرارة:

- الخطأ خطأ من ضيعه ..

ثم قالت وهي تتلقى إلهاماً بالرضا:

- لم يبقَ لي أمل في الإنجاب!

فحسر العمامة عن جبهته البارزة مثل قبضة الجندرة وتساءل:

- فیم تفكرين يا سكينة؟

فقالت ثملاً بإلهامها:

- يا سيدنا الشيخ، وهبنا الله رزقاً فكيف أرفضه؟

مسح بمنديله عينيه المطبتين ولم ينس، فقالت بظفر:

- أنت نفسك تريدين ذلك ..

فتتجاهلها يقول متشكياً:

- فاتتني صلاة الفجر في الحسين .

فقالت بشرى باسم وعيناها لا تفارقان الوجه المحتقن :

- الضوء شقشق والله غفور رحيم ..

وقام الشيخ عفرة زيدان ليصل إلى على حين هبط من السلم درويش زيدان مثقل الجفون من أثر النوم وهو يقول :

- جوعان يا امرأة أخرى ..

ورأى الوليد فذهل كما ينبعى لغلام في العاشرة من عمره وتساءل :

- ما هذا؟

فأجابته سكينة :

- رزق من الله العلي القدير .

فرنا إليه مليا ثم تسأله :

- ما اسمه؟

فترددت المرأة ثم غمغمت :

- ليكن اسم أبي اسم الله ، عاشور عبد الله ، وليشمله الله بركته ورضوانه ..

وارتفع صوت الشيخ عفرة بالتلاؤة .

٤

وتتابعت الأيام على أنغام الأناشيد البهيجـة الغامضة . وذات يوم قال الشيخ عفرة زيدان لشقيقه درويش :

- بلغت العشرين من عمرك ، فمتى تتزوج؟

فأجاب الفتى بفتور :

- عندما يشاء الله ..

- إنك حمال قوى والحمل ذو رزق موافر .

- عندما يشاء الله ..

- ألا تخشى على نفسك من الفتنة؟

- الله يحفظ المؤمنين .

فحرك المقرئ الضرير وجهه يمنة ويسرة وقال بأسف :

- لم تتفطن بالكتاب ولم تحفظ من كتاب الله سورة واحدة!

قال بامتعاض :

- العمل هو ما يحاسب عليه وإنني أحصل على زرزقى بعرق الجبين ..

فتفكر الشيخ مليا وقال :

- في وجهك ندوب فما شأنها؟

فأدرك درويش أن امرأة أخيه قد وشت به فرمقها مقطبا وهى عاكفة

على إشعال الفرن بمساعدة عاشور ، فقالت باسمة :

- أتوقع مني يا درويش أن أخفى عن أخيك ما يضرك؟

وسأله الشيخ عفرة معتابا :

- أتقلد أهل العنف والشر؟

- أحيانا يتعرّض بي أهل الشر فأدافع عن نفسي ..

- يا درويش ، لقد نشأت فى بيت خدمة القرآن شرفه وعزته . ألا ترى

إلى سلوك أخيك الطيب عاشور؟

قال بحدة :

- ليس عاشور بأخي !

لاذ الشيخ بالصمت مستاء .

وكان عاشر يتبع الحديث باهتمام فصدق صدمة متوقعة على أي حال.

إنه يفعل ما بوسعي ولا يدعى أكثر مما له . يقوم بتنظيف البيت ، وشراء الحاجات من السوق ، ويمضي كل فجر بولى نعمته إلى الحسين ، ويملأ الدلو من البئر ، ويشعل الفرن ، وعند الأصيل يجلس عند قدمي الشيخ فيحفظه ما يتيسر من القرآن ويلقنه آداب السلوك والحياة . الحق أن الشيخ أحبه ورضي عنه ، وكانت سكينة ترممه بإعجاب وتقول :

- سيكون فتي طيباً وقوياً .

فيقول الشيخ عفرة زيدان :

- لتكن قوته في خدمة الناس لا الشيطان .

٥

جادت السماء ببركاتها على عاشر فسعد به قلب الشيخ عفرة زيدان عاماً في إثر عام بقدر ما سخط على درويش شقيقه ورببه . لم ياربي وقد نشأ في حظيرة واحدة؟ ولكن درويش نأى عن ظل الشيخ سعياً وراء الرزق بعد أن رفض التعلم قلبه . انطلق إلى العالم غلاماً طرياً فتربي في أحضان المرأة والعنف قبل أن يستقيم عوده ، قبل أن تتشرب روحه بالصلابة والنقاء . أما عاشر فتفتح قلبه أول ما تفتح للبهجة والنور والأنشيد ، ونما نموا هائلاً مثل بوابة التكية ، طوله فارع ، عرضه منبسط ، ساعده حجر من أحجار سور العتيق ، ساقه جذع شجرة توت ، رأسه ضخم نيل ، قسماته وافية التقطيع غليظة مترعة بماء الحياة . تبدلت قوته في تفانيه في العمل ، وتحمله لمشاقه ، ومواصيله بلا ملل أو كلل ، وفي تمام من الرضا والتوب . وأكثر من مرة قال له الشيخ :

١٤

ـ لتكن قوتك في خدمة الناس لا في خدمة الشيطان!
وذات يوم أعلن الشيخ رغبته في أن يجعل منه مقرئاً للقرآن مثله،
فضحك درويش ساخراً وقال معلقاً على رغبة شقيقه:
ـ ألا ترى أن هيكله الضخم جديراً بأن يلقى الرعب في قلوب
المستمعين؟!

ولم يحفل بتعليق درويش ولكنه اضطر إلى العدول عن رغبته عندما
وضح له أن حنجرة عاشور لا تسعفه بحال، وأنها عاجزة عن تطوير
النغم، لاحظ لها من الحلاوة والمرونة وكأنها بخشونتها ترن في جوف
قبو، فضلاً عن قصوره عن حفظ السور الطويلة.

وقع عاشور بعمله كما قنع ب حياته، وظن أنه سيقى بالفردوس حتى
آخر الأجل.. وصدق ما قيل له من أن الشيخ تكفل به بعد وفاة والديه
طيبين مقطوعين من شجرة، وحمد الله الذى قدر ولطف، فرعاه
برحمة لا يستظل بمثلها مأوى آخر في الحرارة. وفي ذات الوقت رأى
الشيخ عفرة أنه استأثر به مدة كفت لتعليمه وتهذيبه وأنه آن له أن يرسله
لتلقين حرف من الحرف. غير أن حتم الأجل كان أسرع فمرض الشيخ
بحمى لم تنفع في علاجها الوصفات الشعبية، فانتقل إلى جوار ربه
ووجدت سكينة نفسها بلا مورد أو قدرة على العمل فرحلت إلى قريتها
بالقليوبية. كان الوداع بينه وبين سكينة مؤثراً ودامعاً. قبلته ورقته
ومضت، وسرعان ما شعر بأنه وحيد، في دنيا بلا ناس، اللهم إلا سيده
العنيد درويش زيدان.

وأسبل جفنيه الغليظين متفكراً، شعر بأن الخلاء يلتهم الأشياء، وأنه
يود أن يتسلق شعاع الشمس، أو يذوب في قطرة الندى، أو يمتنع
الريح المزمرة في القبو، ولكن صوتاً صاعداً من صميم قلبه قال له إنه
عندما يحل الخلاء بالأرض فإنها تمتليء بدققات الرحمن ذى الجلال.

تفحصه درويش وهو مقرفض على كثب من الفرن منكسر القلب . يا له من عملاق ، له فكا حيوان مفترس ، وشارب مثل قرن الكبش ! قوة بلا حيلة ولا عمل ولا رزق . من حسن الحظ أنه لم يتعلم حرفة ، ولكنه لا يمكن الاستهانة به ، ترى لم لا يحبه ؟ تذكره صورته المغروسة في الأرض بصخرة مدبية تعترض الطريق ، بهبة من هبات الخمسين المثلثة بالغبار ، بقبر يتجلّى في الأعياد متحديا ، يجب الانتفاع به عليه اللعنة !

سأله دون أن ينظر نحوه :

- كيف ستحصل على لقمتك ؟

فتح عينيه العميقتين العسليتين وقال باستسلام :

- في خدمتك يا معلم درويش ..

فقال ببرود :

- لست في حاجة إلى خدمة أحد .

- على أن أذهب .

ثم مستدركاً في رجاء :

- هلا تركتني آوى إلى البيت الذي لا أعرف سواه ؟

- إنه بيت لا فندق .

- تبدت فوهه الفرن خامدة مظلمة ، وندت عن الرف خشخشة رجل فأر ترتطم بأعواد الثوم الجاف .

وسعل درويش ثم سأله :

- أين تذهب ؟

- دنيا الله واسعة ..

فقال متهكمًا :

- ولكنك لا تعرف عنها شيئاً وهي أقسى مما تصور

- سأجد على أي حال عملاً أرتزق منه.

- جسمك أكبر عائق ، لن يقبلك بيت ، ولا معلم حرفة ، ثم إنك
تقترب من العشرين !

- لم أستغل قوتي قط فيما يضر .

فضحك عاليًا وقال :

- لن تحوز ثقة أحد ، الفتوة يظنك متحديا ، والتاجر يحسبك قاطع
طريق ..

ثم بهدوء عمق :

- ستلوك جوعا إذا لم تعتمد على قوتك .. .

فقال بحرارة :

- أهبها عن رضا لخدمة الناس والله شهيد .. .

- لا فائدة من قوتك إن لم تغسل مخلك من الغباء !

فمد إليه بصرًا حائرًا ثم قال :

- شغلني حمala معك .. .

فقال ساخرا :

- لم أشتغل حمala ساعة واحدة من حياتي .

- ولكن .. .

- دعك مما قلت ، أكان بوسعي أن أقول غيره ؟

- فما عملك يا سيدى ؟

- صبرك سوف أفتح لك باب الرزق ، لك أن تدخل ولنك أن
تنذهب .. .

ترامى من القرافة صوات يشى بتشييع جنازة فقال درويش :

- كل من عليها فان .

فقال عاشور وقد نفذ صبره :

- إنى جوعان يا معلم درويش !

فمد له يده بنكلة وهو يقول :

- إليك آخر هبة مني !

غادر عاشر البيت والمغي卜 يهبط على القبور والخلاء . أمسية من أمسى الصيف وثمة نسمة رقيقة تهادى حاملة أخلاط التراب والريحان . مضى في المر حتى بلغ ساحة التكية . . بدا لعينيه القبور مظلما ، وترامت أشباح أشجار التوت من فوق الأسوار . تصاعدت الأنماض بغموضها فصمم على طرح الهم جانبًا وقال لنفسه :

- لا تحزن يا عاشر فلك في الدنيا إخوة ليس لعدهم حصر . .

ومضى تلاحقه الأنماض :

أى فروع ماء حسن إز روی رخشان شما

ابروی خوبی از جاه ر نخدان شما

V

امتلاً عاشر بأنفاس الليل . انسابت إلى قلبه نظرات النجوم المتألقة .
هفت روحه إلى سماء الصيف الصافية . قال ما أجد لها ليلة بالعبادة .
كي يجثو فوق الأعتاب . كي يناجي رغبات نفسه الكظيمة . كي ينادي
الأحبة وراء سياج المجهول .

وَثِمَةٌ شَبَحٌ يَقْفَ مِنْهُ عَلَى بَعْدِ شَبَرِينْ يَعْكُرُ عَلَيْهِ صَفْوَهُ وَيُشَدِّهُ إِلَى
عَالَمِ الْقَلْقِ، فَرْفَعَ صَوْتَهُ الْأَجْشَ مُتَسائِلاً:

- مَاذَا تَنْتَظِرُ يَا مَعْلُومَ دَرْوِيشَ؟

فَلَكَزَهُ دَرْوِيشُ فِي صِدْرِهِ وَهَمْسَ بِحَنْقٍ:

- أَخْفَضْ صَوْتَكَ يَا بَغْلَ!

كَانَا يَلْبِدَانْ وَرَاءَ تَعْرِيَشَةَ عَنْدَ طَرْفِ الْقَرَافَةِ بِمُشارَفِ الصَّحَراءِ. الْجَبَلُ
فِي أَقْصَى الْيَمِينِ وَالْقَبُورُ إِلَى الْيَسَارِ. لَا نَائِمَةَ، لَا عَابِرَ سَبِيلَ، حَتَّى
أَرْوَاحُ الْمَوْتَى مُسْتَكْنَةٌ فِي مَقْرَبٍ مَجْهُولٍ، فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مِنَ اللَّيلِ.
وَالْخَواطِرُ تَجَسِّدُ فِي الظَّلْمَةِ كَالنَّذَرِ وَيَخْفَقُ الْقَلْبُ الطَّيِّبُ فِي غَيْرِ مَا
اَرْتَيَاهُ. هَمْسَ عَاشُورَ:

- نُورِنِي نُورَ اللَّهِ قَلْبَكَ ..

فَنَهَرَهُ هَامِسًا:

- اَنْتَظِرْ، أَلِيْسَ عَنْدَكَ صَبَرَ؟

ثُمَّ وَهُوَ يَمْيِلُ نَحْوَهُ:

- لَا أَطْالِبُكَ بِعَمَلِكَ، سَأَقُومُ بِكُلِّ شَيْءٍ، عَلَيْكَ أَنْ تَحْمِيَ ظَهْرِيَ إِذَا
اَقْتَضَى الْأَمْرُ حَمَيَّةً ..

- وَلَكُنِي لَا أَدْرِي عَمَّا تَنْوِي شَيْئًا ..

- اَسْكُتْ، سَيَكُونُ لَكَ الْخِيَارَ ..

وَتَخْضُنْ جَانِبَ الصَّحَراءِ عَنْ نَائِمَةَ. وَحَمْلُ الْهَوَاءِ عَطْرَ حَىٰ وَارْتَفَعَ
صَوْتُ مُوسُومٍ بِالشِّيخُوخَةِ يَقُولُ:

- تَوَكَّلِي عَلَىِ اللَّهِ ..

وَعِنْدَ الْقَرْبِ وَضَعَ أَنَّ الْعَجُوزَ يَمْتَطِي حَمَارًا. وَعِنْدَمَا حَادَاهُمَا تَامَّا
وَثَبَ عَلَيْهِ دَرْوِيشَ .. ذَهَلَ عَاشُورَ وَتَحَقَّقَتْ مَخَاؤُفَهُ. لَمْ يَرْ شَيْئًا
بِوْضُوحٍ وَلَكِنَّهُ سَمِعَ صَوْتَ دَرْوِيشَ وَهُوَ يَقُولُ مُتَوَعِّدًا:

- هات الصرة وإلا ..

فتردد صوت مرتعشا بالكبير والذعر:

- الرحمة .. خفف قبضتك ..

اندفع عاشر إلى الأمام بلا وعي وهتف:

- دعه يا معلمي!

صرخ به درويش:

- اخرس ..

قلت لك دعه ..

وطوقة بذراعيه وحمله بلا جهد فضربه الآخر بکوعه قائلاً:

- الويل لك ..

لم يتحرك في درويش بعد ذلك إلا لسانه، أما عاشر فخاطب

العجوز قائلاً:

- اذهب بسلام!

حتى إذا أطمأن إلى نجاة الرجل أطلق درويش وهو يقول معتذراً:

- اغفر لي خشونتي ..

فصاح به:

- أيها اللقيط الجاحد!

- لقد أنقذتك من شر نفسك ..

- أيها البغل الخسيس المخلوق للتسول ..

- فليس أحكم الله ...

- أيها اللقيط القدر ..

فصمت عاشر محزونا فعاد الآخر يقول:

- لقيط ، ألا تفهم؟ هذه هي الحقيقة.

- لا تستسلم للغضب ، لقد قال الشيخ المرحوم كلمته ..

فقال بحقد :

- الحقيقة هي ما أقول . لقد وجدك في الممر مهجوراً من أم فاسقة !

- رحم الله الطيبين ..

- بشرفي ورحمة أخي إنك لقيط ابن حرام .. ، لماذا يخلصون من وليد بليل ؟ !

فاستاء عاشور وصمت فراح درويش يقول :

- ضيغت جهدي ، أغلقت باب الرزق في وجهك ، إنك قوى ولكنك جبان ، وهاك الدليل .

وهوى بكفه على وجهه بجامع قوته فهو غوث عاشور بأول لطمة يتلقاها في حياته ، وصاح درويش بجنون :

- أيها الجبان الرعديد !

عصف الغضب بعاشور . اجتاحت عاصفته جدران معبد الليل . وجه من راحته الكبيرة ضربة إلى رأس معلمه هوى على أثرها فاقد الوعي . لبث يصارع غضبته حتى تراحت للسكون . أدرك خطورة ما أقدم عليه . غمغم :

- غفرانك يا شيخ عفرة .

انحنى فوق الرجل فحمله بين يديه . مضى به يشق سبيله بين القبور حتى دخل به البيت . أنامه على الكتبة . أشعل المصباح . مضى ينظر إليه في قلق وإشفاق . تتابعت دقائق ثقيلة حتى فتح عينيه وحرك رأسه ..

تطاير من عيني درويش شرر ينم على التذكرة . ترامقا مليا في صمت . خيل إلى عاشور أن عفرة وسكتينة حاضران ، ينظران في وجوم ..

غادر عاشور البيت مغمماً :

- توكلت على خالق السماوات والأرض ..

هام عاشر على وجهه. مأواه الأرض. هي الأم والأب لمن لا أم ولا أب له. يلتقط الرزق حيثما اتفق. في الليالي الدافئة ينام تحت سور التكية. في الليالي الباردة ينام تحت القبو. ما قاله درويش عن أصله قد صدقه. طارده الحقيقة المرة وأحدقت به. لقد عرف من حقائق الدنيا على يد درويش في ليالٍ مالٍ لم يعرفه طيلة عشرين عاماً في كنف الشيخ الطيب عفرة زيدان. الأشرار معلمون قساة وصادقون. خطيبة أو جدته، توارى الخطأ، ها هو يواجه الدنيا وحده، ولعله يعيش الآن ذكرى محترقة في قلب مؤرق.

ومن شدة حزنه استمع إلى أناشيد التكية بحب .. معانيها المترنمة تختفي وراء ألفاظها الأعجمية كما يختفى أبواه وراء وجوه الغرباء . وربما عشر ذات يوم على امرأة أو رجل أو معنى . وربما فك ذات يوم رمزاً أو أرسل دمعة رضا أو تجسست إحدى رغائبه ، في مخلوق حنون . ويتأمل الحديقة بأشجارها الرشيقـة الحانية ، ووجهـها المعـوشـب ، وعصافيرـها المعـشـشـة الشـادـية ، ويتأمل الدرـاوـيش بعبـاءـاتـهم الفـضـفـاضـةـ . وقاـوـاتـهم الطـولـيةـ وخطـواـتـهم الـخـفـيفـةـ .

وسائل نفسه مرة:

- لماذا يقومون بالخدمة كالفقراء؟ لماذا يقومون بالكنس والرش
والسقى ، أليسوا في حاجة إلى خادم أمين؟

- البوابة تناديه. تهمس في قلبه أن اطرق، استأذن، ادخل، فز بالنعم والهدوء والطرب، تحول إلى ثمرة توت، امتليء بالرحيق

العذب، انفث الحرير، وسوف تقطفك أيد طاهرة في فرح
وحبور.
وملكه الهمس الناعم فمضى إلى الباب المغلق وهتف بخشوع
وأدب:

- يا أهل الله ..

وكرر النداء مرات.

إنهم يتوارون. لا يردون. حتى العصافير ترمي بحذر. يجهلون
لغته ويجهل لغتهم.. الجدول كف عن الجريان. الأعشاب توقفت عن
الرقص. لا شيء في حاجة إلى خدماته.

فتر حماسه. انطفأ إلهامه. جلل الحياة. عاتب نفسه. عتف عشقه.

شد على إرادته. قبض على شاربه الشامخ. قال لنفسه:

- لا تجعل من نفسك حديث كل من هب ودب ..

وتراجع وهو يقول:

- انصرف عن الذين يرفضون يدك لأنهم في غير حاجة إليها،
وابحث عنهم في حاجة إلى خدماتك ..

ذهب وجاء وراء اللقبة. يجد زفافاً فيستطيع للخدمة أو يصادف مائماً
فيستطيع أيضاً. يتقدم من يريد حملاً أو رسولاً. يرضي بالملائم أو
بالرخيص أو حتى بكلمة طيبة.

وصادفه رجل ربعة قبيح الوجه كان أصله فأر، فناداه قائلاً:

- يا ولد!

فذهب إليه عاشر بأدب واستعداد للخدمة فسألته:

- ألا تعرفني؟

فأجابه مرتبكاً:

- اعذر غريبا جهلك .

- ولكنك من أبناء حارتنا؟

- ما عشت فيها إلا منذ قريب .

- كليب السمانى من رجال فتوتنا قنصوه .

- تشرفنا يا معلم ..

وتحفظه مليا ثم سأله :

- تنضم إلينا؟

فقال عاشور بلا تردد :

- لا قلب لي على ذلك ..

فضحك كليب ساخرا ومضى وهو يقول :

- جسم ثور وقلب عصفورة !

وكان يرى حمير المعلم زين الناطورى وهى ترابط فى الحظيرة عقب يوم طويل فى قضاء المشاوير .. يتطلع بتنظيفها وتقديم العلف لها وكتن الفناء ورشه على مرأى من المعلم ثم يذهب دون أن يسأله شيئا .

وذات يوم ناداه المعلم زين وسأله :

- أنت صبي المرحوم الشيخ عفرة زيدان؟

فأجاب بخشوع :

- نعم ، رحمه الله رحمة واسعة ..

- بلغنى أنك رفضت الانضمام لرجال الفتوة قنصوه؟

- لا مأرب لي في ذلك ..

فابتسم المعلم وعرض عليه أن يعمل عنده مكاريا . ومن فوره قبل وقلبه من الفرحة يرقص .

ومضى بحماره متocomسا لعمله بكل قواه وحيويته . وكلما مضى يوم

اطمأن المعلم إلى سلوكه وأدبه وتقواه، وأثبت عاشور بدوره أنه أهل للثقة.

وكان وهو يعمل في فناء البيت يتتجنب النظر إلى الناحية التي يحتمل أن يلمح فيها زوجة المعلم. ولكنها رأى ابنته زينب وهي ذاهبة إلى الطريق فخانه طرفه لحظات خاطفة ولكنها جديرة بالندم. وتفضي الندم أكثر عندما اجتاحته شعلة ألهمت الصدر والجهاز الهضمي واستقرت في الجوهرة الحمراء المشعة للرغبة الجامحة. غغمم وهو ثمل بنشوة دسمة نهمة:

- ليحفظنا الله!

ولأول مرة يردد اسم الله بطرف لسانه وفكرة مشدود إلى غيره. وحضرته تجاريه الجنسية البدائية المحدودة في ر杰فة من الحيرة والقلق والغربة..

واقتنع المعلم زين الناطورى بعزايه كحارس أمين فسألة:
- أين تسكن يا عاشور؟

فأجاب ببساطة:

- سور التكية أو تحت القبو.

- يسرك ولا شك أن تنام في الخظيرة؟

فأجاب بسرور:

- نعمه أشكرا لك يا معلم..

يستيقظ في الفجر. إنه يألف ظلمته المشعشعة بالبسمات. ودبب أهل التقوى والفحجر. وأنفاس الكون النقية المسربلة بالأحلام. ينفض

عن قلبه صورة زينب المتحدية و يصلى . يلتهم رغيفا مع الزيتون المخلل والبصل الأخضر . يربت ظهر حماره ثم يسوقه أمامه نحو الميدان مستقبلاً يوم الرزق والعمل . يفيض بحيوية متدفقة ، يمتليء بشقة غير محدودة في قدرته وصبره وامتلاكه للمجهول . تكتنفه دوامة تكاد تقتلعه من جذوره .. دائمًا تقدمه زينب فتغلبه بنداء غامض .. وجهها مشوب بشحوب ، أنفها بارز ، شفتها غليظتان ، جسمها صغير ومدمج ولكنها تستمد تأثيرها عليه من مصدر مسحور . دائمًا تشعل جذوة في أعماقه ، وأحيانا لا يرى الحمار وراكبه .

وفي أوقات الراحة يقف أمام البيت يتبع تيار السابقة . ما أكثر العاملين في الدكاكين أو وراء عربات اليد والسلال والمقاطف ، وما أكثر المشردين من الحرافيش بلا عمل ! من أبوه بين هؤلاء الرجال ؟ من أمه بين هؤلاء النساء ؟ رحلا عن الدنيا أم يعيقان ؟ هل يعرفانه أم يجهلان ؟ من الذي أورثه هذا الكائن الهائل المفعم بمعرفة الشيخ عفرة زيدان ؟ ويطرد عن رأسه الأفكار العقيمة المضنية فتبارد إليه زين زين الناطورى بندائها الغامض . وقال لنفسه :

- كل شيء يتحرك فلا بد أن تحدث أمور .

وقال لنفسه أيضًا :

- ليكن الطيب حليفي جزاء نيتى البيضاء .

وترامى إليه صوت زين الناطورى وهو يحتمد غضبا . رآه في الفنان مشتبكا في معركة لفظية مع أحد العملاء .. وبعنف صالح به :

- أنت لص لا أكثر ولا أقل !

صالح العميل :

- احبس لسانك القذر !

وإذا بالعلم يصفعه فيمسك الرجل بتلايبيه . هرع عاشور إليهما وهو يهتف :

- وحدوا الله !

رمى نفسه بينهما فركله العميل وهو يسبه . ضمه عاشور إلى صدره بقوة حتى صرخ . تركه يفلت وهو يقول له :
- اذهب بسلام فهو خير لك .

سرعان ما خلا منه الفناء . وتوكأأت النساء في النافذة وصاحت الأم :

- لم يبق إلا أن يعتدي علينا في بيتنا !

ورمق زين الناطورى عاشور بامتنان وقال مداريا حياءه :
- الله يفتح عليك .

ومضى المعلم إلى الداخل . ولم يبق في النافذة إلا زينب . عاد عاشور عند موقفه عند الباب وهو يقول لنفسه :
- لم يبق إلا أن تتبادل النظارات !

واستند إلى الجدار فلمح قطة تتوثب لتخويف كلب أسود يتنحى تجنبًا للمعركة .. وقال لنفسه :

- حذار يا عاشور ، هذه وصية والديك !

واستسلم لأنامل الأحلام الناعمة حتى حرقته أشعة الصيف .

١٠

قالت عدلات لزوجها زين الناطورى :
- إنك تؤكد أنه أهل للثقة ؟

-أجل، صارلى به ابن ..

فقالت بنفاذ صبر :

-عظيم، زوجه لزينب ..

فقطب زين الناطورى متفكر اثى قال :

-آمل فيمن هو خير منه!

-طال الانتظار، وكلما جاء عريس لإحدى أخواتها رفضته إكراما لسنها.

فقال باستياء :

-لو كانت من لحمك ودمك ما قلت ذلك ..

-أصبحت عقبة فى سبيل بناتى ، وهى فى الخامسة والعشرين ولا جمال لها ، وطبعاها تسوء يوما بعد يوم .

فكرر عابسا :

-لو كانت من لحمك ودمك ما قلت ذلك !

-ألا يكفى أنك تثق به؟ وأنت فى حاجة إلى من تثق به فى كبرك .

-وزينب؟

-ستفرح، أنقذها من يأسها ..

١١

سمع عاشور المعلم زين يناديه من المنظرة . ولما ذهب إليه أفسح له مكانا إلى جانبه على الأريكة الخشبية المفروشة بفروة خروف . تردد عاشور ثم جلس . عند ذاك سأله المعلم برقه :

-ألا تفكري يا عاشور فى ضمان نصف دينك؟

الفرحة والنور. عندما يصير الحلم نعمة تشدوا في الأذن والقلب. عندما تشرق وجوه العباد بضياء السماح، وحتى الحشرات تمسك عن ارتكاب الأذى.

ذهب عاشر إلى حمام السلطان فأزال الشعر والعرق، مشط شعره وهدب شاريته، تطيب بالجلاب، ونظف أسنانه بالسواك، رفل في جلباب أبيض ومرکوب فصل خاصة لقدميه الضخمتين.

احتفل بزفاف مناسب في بيت الناطورى، ثم أقام العروسان في بدرؤم مكون من حجرة ودهليز يقع أمام بيت الناطورى. واندلق عاشر في الحب حتى قمة رأسه، وكان بعض أهل الفجور عقب انطلاقهم من الغرز في النصف الثاني من الليل يقرفصون في الظلام لصق شباك البدرؤم يتتصتون ويحلمون.

وأنجب مع الأيام حسب الله ورزق الله وهبة الله، وفي أثناء ذلك تُوفى المعلم زين وزوجه وتتزوجت البنات.

تنعم عاشر بحياة زوجية سعيدة. ظل يعمل مكاريا وأصبح مالكا للحمار الذي وله إيه الناطورى ليلة زفافه. وعملت زينب من ناحيتها بتربيه الدجاج وبيع البيض فتيسرت المعيشة وفاح الدهليز برائحة التقليمة. وتقدم الأولاد صوب الشباب فعملوا في مختلف الحرف. عمل حسب الله صبي نجار، ورزق الله مبيض نحاس، وهبة الله صبي كواه بلدى. ولم يرزق أحدthem عملقة أبيه ولكنهم كانوا أشداء لدرجة تستوجب الاحتراض في الحرارة.

ورغم ما عرف به عاشر من دماثة الخلق فإن واحداً من رجال قنصوه الفتوة لم يتحرش بها. ولم تكن زينب تماثله في دماثته. كانت عصبية، سيئة الظن، طويلة اللسان ولكنها كانت مثالاً طيباً للجد والاجتهاد والوفاء.

وكانت تكبره بخمس سنوات، ويقدر ما حافظ هو على حيويته وشبابه سارع إليها التغير والنضوب قبل الأوان. على ذاك لم تنزع له عين ولم يزهد في جوها.

وبمرور الزمن ابتاع بنقوده ونقود زينب كارو فترقى من مكار إلى سواد. وقالت له زينب بنبرة وعيده:

- كان زبائنك من الرجال، ومن الساعة لن تحمل إلا النساء!
فضحك متسائلاً:

- وهل يقصدنى إلا زائرات الأضرحة والقبور؟!
فهتفت به:
- ببني وبينك ربنا!

وأحزنه أنه مضى ينسى ما حفظه من القرآن فلم تبق له إلا السور الصغيرة التي يتلوها في الصلوات، ولكن حبه الخير لم يفتر فقط. وتعلم أن درويش زيدان ليس الشرير الوحيد في الحياة. تعلم أن الحياة حافلة بالمكر والعنف ورذائل لا حصر لها. ولكنه واظب على الاستقامة ما وسعه ذلك، وكان يحاكم نفسه محاكمة قاسية كلما تورط في خطأ. ولم ينس أنه استولى على جميع مدخلات زينب وبعض أجور أبنائه لكي يبتاع الكارو، وأنه في سبيل ذلك قسى عليهم بعض الشيء وغضب غضبات كاسرة!

وكان يشاهد ما يصيب بعض جيرانه من عنت الفتوة ورجاله فيكتظ غيظه ويطيب خاطر المظلومين بكلمات لا تغنى ويدعو للجميع بالهدى، حتى قال له جار ذات يوم:

- إنك لقوى يا عاشور ولكن ماذا أخذنا من قوتك؟!
 علام يلومه الرجل؟ علام يحرضه؟ أليس حسنه أنه رفض الانضمام
 إلى الطغاة؟ أليس حسنه أنه لا يستغل قوته إلا فيما ينفع الناس؟
 رغم ذلك هفت في ضميره الوساوس كما يهفو الذباب في يوم قائظ
 وقال إن الناس لا يرونها بالعين التي يرى بها نفسه، وتساءل في حزن:
 - أين صفاء البال؟ أين؟!

١٣

كان يتربع في الساحة أمام التكية مودعا الغروب، مستقبلاً المساء،
 يتظر انسياط الأنashiد ونسمة من نسائم الخريف معطرة بالبرد والأسى
 تنزلق من فوق سور العتيق تشدق بذيلها طيفاً من أطياف الليل. بدا
 عاشور متاخماً بالسكونية ولم تشب له شعرة واحدة. كان يحمل فوق
 كاهله أربعين عاماً وكأنها هي التي تحمله في رشاقة الخالدين.

همسة في باطنـه جعلـته يحول عينـيه نحوـه القرـافة فرأـى رجـلاً يخـرج
 منه يـسـير فيـ تـكـاسـلـ. لمـ يـسـطـعـ أنـ يـسـترـدـ عـيـنـيهـ، عـرـفـهـ فيـ بـقـيـةـ ضـوءـ
 الـمـغـيبـ، دقـ قـلـبـهـ، وـخـمـدـ سـرـورـهـ. أـقـبـلـ الرـجـلـ نحوـهـ حتـىـ وـقـفـ أـمـامـهـ
 حـاجـباـ عنـهـ التـكـيـةـ وـمـضـىـ يـنـظـرـ إـلـيـهـ باـسـماـ.

تم عاشور:

- درويش زيدان!

قال درويش معتاباً:

- هلـاـ بدـأـتـ بـالـتحـيـةـ؟ مـسـاءـ الـخـيـرـ يـاـ عـاـشـورـ!

فـنهـضـ باـسـطاـ يـدـهـ وـهـ يـقـولـ بـنـبـرـةـ مـحـايـدـ:

- أهلا بك يا درويش ..

- لم أتغير كثيرا فيما أظن ..

مؤسف هذا الشبه بينه وبين المرحوم عفرة، ولكن غلظت قسماته وتحجرت . قال:

- بلى ..

فحذجه بنظرة ذات معنى وقال:

- رغم أن كل شيء يتغير !

فتتجاهل عاشور ملاحظته متسائلا :

- أين غبت طوال ذاك العمر؟

فقال باستهانة ساخرة :

- في السجن !

ورغم أنه لم يدهش فقد هتف :

- السجن !

- الجميع أشرار ولكنني سيء الحظ !

- اللَّهُ غفور رحيم ..

- عرفت أن أحوالك رائعة؟

- الستر لا أكثر من ذلك ..

فقال باقتضاب :

- إنني في حاجة إلى نقود .

تضاعيق عاشور ، ولكنه دس يده في صدره فاستخرج ريالا ، أعطاه له قائلا :

- إنه قليل ولكنه كثير بالقياس إلى حالى ..

تناوله بوجه مكفار و قال بنبرة ذات معزى :

- لنقرأ الفاتحة على روح أخرى عفرة .
فقرأها ثم قال :
- لم أنقطع عن زيارة قبره . .
فسألته بجرأة :
- هل أجد عندك مأوى حتى أقف على قدمي ؟
فبادره قائلاً :
- لا مكان في حجرتى لغريب . .
- غريب !؟
فقال بإصرار وجرأة :
- لو لا ذكرى مولاي ما مددت لك يدي !
فقال بقحة :
- أعطنى ريالا آخر وسوف أسدّد ديني عند الميسرة .
فلم يضن عليه بالنقود وهو من الضيق في غاية .
ومضى درويش نحو القبو صامتا على حين تهادى من التكية صوت
عذب ينشد :
زكريه مردم جشم نشسته در خونست

١٤

رأى عاشور وهو ينطلق بالكارو جماعة تتجمهر في خرابة على كثب
من مدخل الحارة . وعندما اقترب منهم وضح له أنهم عمال بناء
يحدقون بأكواام من الصفائح والأخشاب وسعف النخل ، ورأى بينهم

درويش زيدان . انقبض صدره وقال إن الرجل يشيد لنفسه مأوى .
وصاح به دروיש حين مر به :
-إنى أبذل ما فى وسعى لخدمتكم ..
فقال له بجفاء :
-حسن أن يكون للإنسان بيت .
-بيت؟!

وضحك دروיש ضحكة عالية ثم واصل :
-سيكون بيت من لا بيت له !

١٥

وقال حسب الله لأبيه عاشر :
-وضح الأمر ، الرجل يبني بوظة !
فذهل عاشر متسللا :
-خمارة؟!
فقال رزق الله :
-الجميع يقولون ذلك .
فهتف عاشر :
-رباه .. لقد أسممت نقودي في بنائها !
فقال هبة الله :
-إنما الأعمال بالنيات ..
والحكومة؟

- أخذ الرخصة ولا شك .
قال عاشر محزونا :
ـ حارتني لم يشيد بها سيل للعطشى ولا زاوية للمصلين بعد ، فكيف
تقام بها بوظة ؟ !
وافتتح البوظة قنصوه الفتوة ورجاله فزادت كأبة عاشر وقتم :
ـ وأيضاً وجد الحماية !

١٦

ثمة ضجة وراء شباك البدرورم . ما هذا ؟ ألا تكف هذه الحرارة عن
الشجار ؟ عاشر فوق الكتبة الوحيدة بالحجرة يحتسى قهوته ، والمصباح
لم يشع بعد . ضلعة الشباك ترتعش بهبة من أنفاس الشتاء الباردة ،
وزينب عاكفة على كى ملابس بالجندرة . رفعت زينب رأسها وقالت
بانزعاج :
ـ هذا صوت رزق الله !

ـ الأولاد يتشاركون ؟ !
وهرعت زينب إلى الخارج وسرعان ما جاءه صوتها وهي تصيح :
ـ يا مجانين احتشموا ..

ـ وثبت عاشر ناهضا . في لحظة كان يقف وسط أبنائه . صمتوا
ولكن الغضب لم يتلاش من وجوههم . هتف :
ـ ما شاء الله !

لاحت منه نظرة إلى الأرض فرأى مخطط سجدة مبعثرة فوق
حصوات اللعب فتساءل بحدة :

- تلعبون أم تقامرون؟

لم يجده أحد. اشتعل غضباً. تسأله:

- متى تصيرون رجالاً؟

وجذب إليه حسب الله قائلاً:

- أنت الأكبر، أليس كذلك؟

وفغمته رائحة غريبة تتناثر من فيه فجزع. جذب الآخرين وتشمم أنفاسهم. آه. فلتختسف الأرض من عليها!

- سكارى؟! يا كلام..

وراح يعصر آذانهم وعضلات وجهه تتوهج بسحب حمراء. وتجمعت غلمان يتفرجون فهتف حسب الله متوسلاً:

- فلندخل البيت.

فصاح بصوته الأجيش:

- تخجلون من الناس ولا تخجلون من الله؟!

وشدته زينب من ذراعه وهي تقول:

- لا تجعلنا جرسة بين الأوباش..

فاستسلم ليدها وهو يقول:

- هم.. هم الأوباش!

فهمست بحدة:

- ليسوا أطفالاً..

- لا خير فيهم ولا فيك..

- البوظة لا تفرغ من الناس!

فانحط على الكتبة وهو يتمتم:

- يا للخسارة! لا فائدة ترجى منك.

أشعلت المصباح ووضعته داخل الكوة ثم قالت بنبرة لطيفة:
ـ إنى أعمل أكثر منك، لولاي ما ملكت الكارو وما اشتعل لك
ـ كانون ..

فقال بضجر:

ـ لم يبق منك إلا لسان مثل السوط ..

ـ فهتفت بحدة:

ـ ذبل الشباب فى خدمتكم ..

ـ لا بد من تأدبيهم ..

ـ ليسوا أطفالاً وسيذهبون ..

إنها تعلم أن الخصم سيتلاشى سريعاً، وأن الكلمات القارصة
والهمسات العذبة تمتزج في قدر واحد ..
وفكر عاشر في أمر أولاده بقلق.

لم يفلح أحد هم في الكتاب. لم يوجد أحد منهم عناء من والديه
لانشغالهما بعملهما المتواصل. لم يحظوا بما حظى هو به في كنف
الشيخ عفرة. تشربوا بعنف الحرارة وخرافاتها وغابت عنهم فضائلها.
حتى قوته لم يرثها أحد منهم. لم يتعلق أحد هم به أو بأمه، حبهم
سطحى متقلب، قلوبهم متمرة من قديم وإن لاذت بالصمت. لا
موهبة ولا ميزة، سيظلون صبياناً ولن يترقى أحد منهم إلى درجة معلم
أبداً. وها هم أولاء يهربون إلى البوطة عند أول إشارة، ولن يقفوا عند
حد.

قال بحزن:

ـ لن يجيئنا منهم إلا ما يකدر القلب.

ـ فقالت بتسلیم:

ـ إنهم رجال يا معلم!

مرة وهو مقبل بالكارو فيما أمام الخمارة تصدى له درويش قائلاً :
- مرحبا ..

لم يتجاهله هذه المرة . رغم مقته له لم يتجاهله . شد اللجام فتوقف الحمار عن السير ، ووثب واقفا أمام درويش وقال له بحزم :

- هذا العمل لا يليق بذكرى أخيك ..

فابتسم درويش متهدكمما وقال :

- أليس خيرا من قطع الطريق ؟

- إنه سيئ مثله .

- معدنة فإنى أحب المغامرات ..

- بحارتنا من الشر ما يكفى وزيادة ..

- البوظة كما أنها تضاعف من شر الشرير ، فإنها تضاعف من طيبة الطيب ، شرف وجرب ..

- عليها اللعنة ..

عند ذاك لمح داخل البوظة مخلوقا يمر بسرعة من جانب إلى جانب فذهل متسائلاً :

- النساء أيضا؟

- لعلك رأيت فلة؟

لم يكن رأى منها شيئاً ذا دلالة ، فسأله :

- هل يجيئك نساء أيضا؟

- كلا . إنها بنت يتيمة تبنيتها ..
ثم مواصلاً بلهجة ذات مغزى :
- أنت لا تصوّر أني قادر على فعل الخير ، ولكن أليس تبني لقبطة
خيراً من بناء زاوية ؟
تلقي الغمزة صابراً وسأله :
- ولماذا تجبيء بها إلى الخمارة ؟
- لتكسب رزقها بعرق جبينها !
فغمغم آسفاً :
- لا فائدة .

ووَثَبَ إِلَى مَقْدَمِ الْكَارُو وَهُوَ يَصْبِحُ « حَا » فَمَضَى الْحَمَارُ مَرْسَلاً
بِحَدَوَاتِه طقطقاتِه الموسيقية .

١٨

لم يعد عاشر يرى من النهار إلا غباره ، ولا من الليل إلا ظلامه ،
وكلما أقدم على عطفة توقع عشرة ليست في الحسبان ، وترف عيناه
فيغمغم اللهم اجعله خيراً . ترى هل أصاب البيان شرخ يتذرع ترميمه ؟
وكان يستنئم إلى مضجعه عقب متصف الليل عندما ترافق إليه
صوت يزعق من وراء النافذة :
- يا معلم عاشر .. يا معلم عاشر ..
هرع إلى الشباك ففتحه وهو يغمغم « الأولاد ! » فرأى شبحاً منحنياً
فوق القスピان ، سأله :

- مَاذَا هنَاك؟

- أَدْرَكَ أُولَادَكَ، إِنَّهُمْ يَتَقَاتِلُونَ فِي الْبُوْظَةِ بِسَبَبِ الْبَنْتِ فَلَةً!

وَهَتَفَتْ زَينَبْ :

- أَبْقَيْتَ وَدَعْنِي أَذْهَبَ إِلَيْهِمْ ..

فَأَزَاحَهَا عَنْ طَرِيقِهِ، دَسَ قَدْمِيهِ فِي الْمَرْكُوبِ، انْطَلَقَ مُثْلِ عَاصِفَةٍ ..

١٩

مَلِأَ هِيَكْلَهُ فَرَاغَ الْبَابِ. اتَّجَهَتْ نَحْوَهُ أَبْصَارِ السَّكَارِيِّ الْمَطْرُوحِينَ عَلَى الْجَانِبَيْنِ. وَثَبَ نَحْوَهُ دَرْوِيشَ وَهُوَ يَهْتَفُ :

- سَيْهُدُمْ أَوْلَادَكَ الْمَكَانَ!

رَأَى هَبَةَ اللَّهِ مُلْقَى عَلَى الْأَرْضِ بِلَا حِيلَةَ. رَأَى حَسْبَ اللَّهِ وَرِزْقَ اللَّهِ مُشْتَبِكِينَ فِي صَرَاعِ حَقُودِ، عَلَى حِينَ انْطَرَحَ السَّكَارِيُّ غَيْرَ مُبَالِيْنَ.

صَاحَ بِصَوْتٍ فَظِيعَ :

- تَأْدِيبٌ يَا وَلَدَ.. .

انْفَصَلَ الشَّابَانَ وَهُمَا يَنْظَرَانَ نَحْوَ مَصْدِرِ الصَّوْتِ بِرْعَبٍ. بَظَاهِرٌ كَفَهُ لَطْمُ الْأُولِيَّ فَالثَّانِي فَتَهَاوِيَا فَوْقَ الْأَرْضِ التَّرْبَةِ الْعَارِيَّةِ. وَقَفَ يَقْلُبُ عَيْنِيهِ فِي الْوَجْهِ مُتَحَدِّيَا فَلَمْ يَنْبِسْ أَحَدٌ. قَذْفَ دَرْوِيشَ بِنَظَرَةِ مُتَحَجَّرَةٍ وَصَاحَ بِهِ :

- مَلْعُونُ أَنْتَ وَمَلْعُونُ جَحْرُكَ الْمُوْبُوءِ!

عِنْدَ ذَاكَ ظَهَرَتْ فَلَةٌ لَا يَدْرِي مِنْ أَيْنَ جَاءَتْ وَتَمْتَمَتْ :

- إِنِّي بَرِيَّةٌ!

وقال درويش :

- إنها تقوم بالخدمة ، ولكن أولادك طمعوا فيها !

فصاح به :

- اخرس يا قواد .

فتراجع درويش قائلاً :

- سامحك الله ..

- في قدرتى أن أهدم هذه البؤرة فوق رءوسكم ..

تقدمت فلة خطوة حتى مثلت أمامه تماماً وقالت :

- إنى بريئة !

قال لها بخشونة وهو ينزع عينيه منها :

- أغربى عن وجهى ..

دفع بأولاده المترنحين إلى الخارج بعنف واحداً في إثر واحد .

عادت فلة تسأله :

- ألا تصدق أنى بريئة ؟

انتزع عينيه منها مرة أخرى هاتفاً :

- بل شيطانة صغيرة من صنع شيطان كبير ..

وغادر المكان وهو يتتجنب النظر إليها ..

في ظلام الحرارة تنفس بعمق . شعر بأن سراحه قد أطلق وأنه غلص من قبضة شريرة . الظلام كثيف لا عين له . أحد بصره ليغسر على أشباح أولاده ولكنهم ذابوا . هتف :

- حسب الله !

لا شيء سوى الصمت والظلم . بصيص ضوء ينساب من القهوة هناك ولا شيء بعد ذلك . قلبها يحدّثه أنهم لن يرجعوا . سيهجرون

مهدهم وسلطانه . سيتراءون في المستقبل كالغرباء . لا أبناء يلتصقون بأصولهم في هذه الحارة إلا أبناء الوجاه .

شعر وهو يشق طريقه في الظلام بأنه يودع الطمأنينة والثقة . ها هو ذا تيار مضطرب يلفه في دوامته ، وهو يساوره الخوف كما يساوره النوم . وقال لنفسه : إن البنت بهرتهم بجمالها . وقال أيضاً : إن البنت بهرتهم بجمالها الفتان ، لماذا لا يتزوج الحمقى ؟ أليس الزوج ديناً وواقية ؟

٢٠

في انتظاره كانت زينب أمّام الباب . اهتدى إلى مسكنه بضوء مصباحها الموضوع على عتبة المدخل .. سأله بلهفة :

- أين الأولاد ؟

فتساءل بوجوم :

- ألم يرجعوا ؟

فنتهدت بصوت مسموع فتمت :

- لتكن إرادة الله .

وهو يجلس على الكنبة قالت له بحدة :

- كان يجب أن تدعني أذهب ..

- تذهبين إلى البوطة في خضم السكارى ؟ !

- ضربتهم ، ليسوا أطفالاً ، ولن يرجعوا إلى البيت .

- يتذكرون يوماً ثم يرجعون ..

- إنّي أعرف بهم منك .

فلاذ بالصمت فواصلت تسأله :

- وما هذه الفلة التي رمانا بها درويش؟

تجنب النظر إليها وقال بازدراء:

- فيم تسألين؟ بنت تقىم فى خماره!

- جميلة؟

- داعرة.

- جميلة؟

فقال بعد تردد:

- لم أنظر نحوها.

فقالت متأوهة:

- لن يرجعوا يا عاشور..

- لتكن إرادة الله.

- ألا تسمع عما يفعل الشبان؟

فلم ينبس فقالت:

- علينا أن نسامح مع الأخطاء..

فتساءل بذهول:

- حقاً؟!

وتبدت لعينيه ناضبة شاحبة طاعنة في السن مثل جدار الممر العتيق
فتمتم:

- إنى أرثى لك يا زينب..

فقالت بحدة:

- ستبادل الرثاء كثيرا.

- على أى حال فليسوا في حاجة إلينا..

- بغيرهم لا أنفاس في البيت تردد.

-إنى أرثى لك يا زينب .
أسندت رأسها إلى راحتها وتمتمت متسلكة :
-لدى عمل فى الصباح الباكر .
-جربي النوم .
-فى هذه الليلة ؟
فقال بضجر :
-فى أى ليلة !
-وأنت ؟!
فقال بتصميم :
-الحق أنى بحاجة إلى نسمة هواء فى الخارج !

٢١

الظلام مرة أخرى .. يتجسد فى القبو . يغطى المسؤولين والصعاليك . ينطق بلغة صامتة . يحتضن الملائكة والشياطين . فيه يختفى المرهق من ذاته ، ليغرق فى ذاته . إن قدر الخوف على أن ينفذ من مسام الجدران فالنجاة عبث .

٢٢

خرج من القبو إلى الساحة . انفرد بأناشيد التكية والجدار العتيق والسماء المرصعة بالنجوم . جلس القرفصاء دافنا وجهه بين ركبتيه ، منذ

نيف وأربعين عاما تسللت به أقدام خاطئة لتواري خطبيتها في ظلمة
المر. كيف وقعت تلك الخطيئة القديمة؟ أين؟ في أي ظروف؟ ألم يكن
لها ضحية سواه؟ تخيل إن استطعت وجه أمك الحالم ووجه أبيك
المحتقن، استعد إن استطعت كلمات التغريب المعلولة، استحضر
اللحظة الخامسة التي تقررت بها مصائر. كان يقف إلى جانبهما ملاك
وشيطان ولكن الرغبة تهزم الملائكة. تخيل صورة أمك.. لعلها
مثل..؟! لكن تختدم المعركة لا بد من بشرة صافية وعينين سوداويتين
مكحولتين وقسمات دقيقة مثل البراعم. لا بد من الرشاقة والسحر
وعذوبة الصوت. وقبل ذلك لا بد من القوى الخفية المتداقة المناسبة
القادرة المفترضة بلا ضمير. والطُّعم الفواح تضعه الحياة في الفخ
وتنتظر. وتودع ذلك كله خمسة عشر عاما من عمر البشر.

لذلك دق باب الأناشيد ولكنه لم ينفتح. الحق كان بوسعي أن تدفعه
بقوتك ولكنك لم ترد. ومن يتزوج الحياة فليحيض ذريتها المعطرة
بالشبق. ولكن لا مفر من أن تعرف بأن ما يحدث لا يمكن أن يصدق.
 وأن تعانى إحساس المطارد إذا سبق. فالبسمة قدر والدمعة قدر. وهما هؤلئك
الخلوق جيد يولد مكللا بالطموح الأعمى والجنون والندم. ويُسأل
الغوث من الرحمن فتنسكب عليه خمر الفتن.
وثقل رأسه فغفا.

رأى الشيخ عفرا زيدان أمام قبره، حمله بين يديه فسأله في جزع:
- إلى القبر يا مولاى؟

ولكنه مضى به إلى المر، ومن المر إلى الساحة، ومن الساحة إلى
القبو..

واستيقظ على شيء.

فتح عينيه فسمع صوت زينب وهي تقول:

- هذا ما خمنته ، تنام حتى مطلع الفجر؟
نهض فرعا . أسلم لها يده . مضيا صامتين .

٢٣

ما يدرؤن إلا وهيكله العظيم يملأ باب البوظة .
اختلجمت الجفون الثقيلة ، وترددت التساؤلات تحت غيوم الأعين :
- ماذا جاء يفعل ؟
- مطاردة أولاده ؟
- لا توقعوا من ورائه مسراة !
مسح المكان بيصره حتى وجد فراغا في الجناح الأيسر فمضى إليه
وتربع هناك في هدوء تستر به على ارتباكه . هرع إليه درويش قائلا :
- خطورة عزيزة . .
ثم وهو يبتسم :
- فليعنى الله على التصديق !
تجاهله تماما . وفي الحال جاءت فلة تسعى بالقرعة وقرطاس الترميس
المدعوك بالشطة . أسبل جفنيه وتذكر قصة الطوفان . نحو القرعة
جانبا ، وأدى الشمن ، بلا كلام . وجعل درويش يراقبه بحيرة ثم همس
له ، وهو يهم بالابتعاد :
- نحن في الخدمة أيّا تكون !

سرعان ما نسيه الآخرون . أما فلة فسائلت نفسها عما يزهده في
الشراب . اقتربت منه مرة أخرى وقالت وهي تومئ إلى القرعة :

- إنها جيدة فوق الوصف!

فحنى رأسه فيما يشبه الشكر . وقال لها أحد السكارى :

- أبعدى عنه يا بنت .

فرجعت ضاحكة وهى تقول بصوت مسموع :

- ألا ترى أنه يشبه الأسد؟!

قطرت السماء فرحة من أفراح الطفولة ولكن عضلات وجهه تصليب أكثر . ولم تعد ملابسه تحجب عريه عن الأعين . واختصر طريق حياته بين زاوية الممر وهذا المجلس بالبوظة . ما عدا ذلك طوى وتلاشى في نغمة جديدة غامرة .. وسرعان ما استنام إلى الهزيمة جذلان بإحساس الظفر .

ووقفت فلة بين الأوعية الفخارية ترنو إليه باهتمام على حين اقتحم الباب حسب الله ورزق الله وهمة الله .

سرى التوقع في ثنيا الخمول واشرأبت الأعناق . هتف حسب الله :
سلام الجدعان .

ولمح أبياه فتشنج حلقه وجمد . وحمد حماس رزق الله وهمة الله .
وقفوا لحظة مذهولين ثم استداروا فتللاشوا كشىء لم يكن . وارتفت
ضحكة هازئة . ونظرت فلة نحو درويش فلم ينبع ولكن تجلى الضيق
في وجهه ..

احتاجت قسمات زيب وسألته :

- وهل يستمر ذلك إلى الأبد؟

فتساءل عاشور في قهر :
ـ ما الحيلة ؟

ـ عظيم أن تصدهم عن البوطة ولكن بأى ثمن ؟
ـ فحرك رأسه الكبير بحيرة صامتا فهتفت بحدة :
ـ النتيجة أنك بت الزبون الدائم عند درويش !

٢٥

كان يمضى بالكارو عندما مرقت فلة من باب الخمارة فاعتبرضت طرقه . شد اللجام وهو يقول لنفسه : « التدركتى رحمة السماء ». ودون كلمة وثبت إلى الكارو برشاقة ، تربعت وهي تحبك ملاعتها حولها ، وكانت سافرة الوجه . نظر إليها مستفهمًا فقالت بعذوبة :

ـ وصلنى إلى مرجوش ..

ـ وظهر درويش باسمها وهو يقول :
ـ في رعايتك ، وحسابها عندي .

رأى خيوط العنكبوت ولكنه لم يبال . طرب حتى ثمل . هرس تراثه تحت حوافر الحمار . سارت الكارو وظهره ينصلب بالسخونة .
ـ وإذا بصوتها يقول :

ـ لو أنصفت نفسك لكنت الفتوة ..

ـ فامتلاً بشاشة وتساءل :
ـ أترىتنى شريراً ؟

ـ فضحك ببرقة وتساءلت بدورها :

٤٨

- وما جدوى الخير مع أناس لا خير فيهم؟
- مازلت صغيرة ..
فقالت بنبرة لاذعة:
- لم أعامل كصغيرة قط ..
فتحهم وجهه مقطباً . و حتى تلك اللحظة لم تغب عن عينيه النظارات
المتطلعة إلى حمله الثمين .. و وجد نفسه يسألها:
- لماذا تذهبين إلى مرجوش؟
ولما لم تجبه ندم على ما فرط منه .. و طلبت منه التوقف عند مدخل
مرجوش ، ثم قالت:
- تمنيت لو كان المشوار أطول ..
ثم وهي تهم بالذهاب:
- ولكن الليل ليس بعيداً!
ربت عنق الحمار وهمس في أذنه:
- انتهي صاحبك ..

٢٦

مع أول شعاع للشمس اقتحم باب البوطة . استيقظ درويش صاحبا
محتججا ثم ذهل لمرأة ثم تسأله:
- ماذا وراءك؟
فأقامه بيده وحدجه بنظرة هائجة وتمتن:
- لا بد مما ليس منه بد ..

- مَاذَا جاء بك يا عاشر؟

فقال بغلظة:

- إنك خبيث وشرير وتعرف كل شيء ..

فدعك درويش قفاه وهو يطالعه بعينيه المحمريتين وتم:

- هذا وقت الرزق!

فقال ملقيا بنفسه في اليم:

- قررت أن آخذها ..

فقال باسما:

- لكل شيء وقته!

فقال باستسلام نهائى:

- على سنة الله ورسوله!

اتسعت عينا درويش من وقع المفاجأة وراح يترافقان في صمت حتى

تم:

- ما معنى هذا؟

- ليست كما تظن ..

- أجبتني يا عاشر؟

- ربما ..

فكسه الفتور وقال:

- إنني لا أستطيعي عنها!

- سوف تستغنى عنها يا درويش!

- هل فكرت في العواقب؟

- لا دخل للتفكير في ذلك!

فتسائل في خبث:

- ألا تعلم أنه ما من رجل ..
وقطاعه صوت فلة وافدا من فوق أريكتها مما قطع بمتابعتها للحديث
وهو يقول :
- ماذ تريد أن تقول؟ لو كان في حاجة إلى شهادتك لسألتك !
فشار درويش وصالح :
- ستصير أحدوثة الصغير والكبير ..
فصاحت فلة :
- إنه قادر على حماية ما يملكه ..
فانقض عليها فلطمها حتى صرخت فوثب عاشور نحوه وطوقه
بذراعيه . وشد حتى صاح متاؤها :
- أنا في عرض النبي ..
فتركه وهو يز مجر غاضبا فتهاوى درويش على الأرض وهو يصرخ :
- في ألف داهية ..

٢٧

جري عاشور مع عزمه بجرأة مستهترة . حتى حزنه لزينب وذكرياتها
لم يوقفه . وقال لها حانى الرأس :
-قضاء الله لا حيلة لنا فيه ..
فنظرت إليه ببراءة مستطلعة فقال :
- سأتزوج من أخرى يا زينب !
وتصعدت المرأة : ذهلت تماما وطارت من رأسها عصافير مصووصة
وصاحت :

- أنت الرجل الطيب؟!

فقال بخشوع:

- قضاء الله ..

فصرخت:

- لم تتمحكون باسم الله؟ لم لا تعرف بأنه الشيطان؟ ترمينى قشرة
وتذهب؟

فقال بتوكيد:

- مصونة جميع حقوقك!

فصاحت وهى تشرق بالدموع:

- لى الله وحده يا غادر يا خائن العيش والملح ..

٢٨

زفت فلة إلى عاشر في حفل صامت. استأجر لها بدرومًا في طرف
الحارة من ناحية الميدان. وسعد الرجل بزواجه حتى خيل إلى من يراه أنه
رجع إلى شبابه الأول.

٢٩

واجتاج خبر الزواج الحارة كالنار. تسأله كثيرون:

- ألم يكن بوسعه أن يفعل مثل الآخرين؟!

٥٢

وقال حسب الله :

ـ إذن كان يصدنا نحن أبناءه ليستولى هو عليها!

وتصافع من أثر الخبر ما عرف به عاشر من الطيبة والاستقامة.

أهكذا يقع الناس الطيبون؟ أين الوفاء لزينب؟ وأين الوفاء لزين
الناطورى؟ من الذى جعل منه مالك كارو بعد أن كان مكاريا؟ ومن
الذى انشله من التشرد فجعله مكاريا؟

وكان عاشر يقول مدافعا عن نفسه:

ـ لولا أننى عاشر ما تزوجتها!

وتفضى الأيام وهو يزداد سعادة وامتناناً، واستهانة بالأقاويل.
وتعلقت به فلة تعقلالم يحلم به. صممت على أن تثبت له أنها ست
بيت ، مطيعة ، بعيدة كل البعد عما يثير غيرته . وما جعلها أثيرة عنده
أكثر أنه وجدها - مثله - مجحولة الأب والأم . وبسبب من شدة حبه له
تسامح مع جهلها بكثير من الشئون النافعة ، كما تسامح مع كثير من
العادات السيئة . ومن أول الأمر أدرك أنها بلا دين إلا الاسم ، وبلا
أخلاق ، وأنها تتبع في مسيرتها الغرائز وملابسات الحياة ، فتساءل : متى
يجد وقتا ليلقنهما ما ينقصها حقا في الحياة؟ الحب وحده ما يحفظها ولكن
متى يكفى ذلك؟

ولم ينقطع عن زينب ، ولم يغبط لها حقاً ، ومضت هي تألف الحياة
الجديدة ، وتعاصر جرحها معاشرة التسليم ، فلا تقدر زياراته بمقدار .

وجعل درويش يراقب الأمور ويقول بحدق:

ـ العقرب تعبدك ، ما زالت تعبدك ، فمتى تلسعه؟

وتفضى الأيام فتحبلى فلة ، ثم تنجب ذكرا يسميه أبوه «شمس الدين»
ويفرح به عاشر فرحة كبرى لأنها هو بكريه .

وتفضى أيام صفاء وسعادة لم يجدهما عاشر فيما سلف من عمره .

ماذا يحدث بحارتنا؟

ليس اليوم كالامس ، ولا كان الامس كأول امس . أمر خطير طرأ .
من السماء هبط أم من جحيم الأرض انفجر؟ وهل تجرى هذه الشئون
بحض المصادفة؟ ومع ذلك فالشمس ما زالت تشرق وتقوم برحلتها
اليومية ، والليل يتبع النهار ، والناس يذهبون ويجيئون والخانجر تشدوا
بأناشيد الغامضة ..

ماذا يحدث بحارتنا؟

وجعل يراقب شمس الدين الشمل بالانهماك في الرضاع ويتسنم ،
رغم كل شيء فهو يتسنم . وقال :
- ميت جديد ، ألا تسمعين الصوات؟
فتساءلت فلة :

- بيت من يا ترى؟

فمد بصره من خلال قضبان النافذة متنصتا ثم تعم :
- لعله بيت زيدون الدخاخنى !

فقالت فلة بقلق :

- ما أكثر أموات هذا الأسبوع !

- أكثر من يموتون عادة في عام !

- وقد يمر العام بلا ميت واحد ..

ولم تهدأ ثائرة الطارئ الجديد .

وكان عاشر ماضيا بالكارو عندما اعترضه درويش وقال له :

- الأقاويل كثيرة، ألم تسمع شيئاً يا عاشور؟
 - عم تتحدث؟
- يتحدثون عن قيء وإسهال مثل الفيضان ثم ينهار الشخص ويلتهمه الموت ..
- فتمت عاشور بامتعاض:
 - ما أكثر ما يقال في حارتنا!
- أمس أصيّب زبون عندي بذلك حتى لوث المحل ..
- فرمّقه بازدراء فعاد درويش يقول:
 - حتى بيوت الأعيان لم تسلم، ها هي ذي حزم البناء توفيت صباح اليوم!
- فقال عاشور وهو يمضى:
 - إذن فهو غضب الله!

٣١

تفاقم الأمر واستفحّل.
 دبت في ممر القرافة حياة جديدة.. يسير فيه النعش وراء النعش .. يكتظ بالمشيعين. وأحياناً تتتابع التعوش كالطابور. في كل بيت نواح. بين ساعة وأخرى يعلن عن ميت جديد. لا يفرق هذا الموت الكاسح بين غني وفقير، قوى وضعيف، امرأة ورجل، عجوز وطفل، إنه يطارد الخلق بهراوة الفناء. وترامت أخبار مماثلة من الحارات المجاورة فاستحكم الحصار. ولهاجت أصوات معولة بالأوراد والأدعية والاستغاثة بأولياء الله الصالحين.

وقف شيخ الحرارة عم حميدو أمام دكانه وضرب الطلبة براحته
فهروع الناس إليه من البيوت والحوانيت.

وبوجه مكفره راح يقول:

- إنها الشوطة، تجىء لا يدرى أحد من أين، تحصد الأرواح إلا من
كتب الله له السلامه..

وسيطر الصمت والخوف فترث قليلاً، ثم مضى يقول:
- اسمعوا كلمة الحكومة..

أنصت الجميع باهتمام، ترى أفى وسع الحكومة دفع البلاء؟!
- تجنبوا الزحام!

فترامقوا في ذهول. حياتهم تجرى في الحرارة. والحرافيش يتلاصقون
بالليل تحت القبو وفي الخرابات، فكيف يتتجنبون الزحام؟ ولكن قال
موضحاً:

تجنبوا القهوة والبؤة والغرز!

الفرار من الموت إلى الموت! لشد ما تتجهمنا الحياة!
والنظافة.. النظافة..

تطلعت إليه في سخرية أعين الحرافيش من وجوه متوادية وراء أقنعة
من الأثيرية المتلبدة.

- اغلوا مياه الآبار والقرب قبل استعمالها.. اشربوا عصير الليمون
والبصل..

ساد الصمت، وظل الموت ممتدًا فوق الرءوس حتى تسأله
صوت:

- أهذا كل شيء؟

فقال حميدو بنبرة الختام:

- اذكروا ربكم وارضوا بقضائه..

رجع الناس إلى البيوت والدكاكين واجمدين ، وتفرق الحرافيش في
الخرابات وهم يتبادلون الدعابات الساخرة ، ولم يتوقف موكب النعوش
ساعة واحدة ..

٣٢

دفعه القلق إلى الساحة في جوف الليل . الشتاء يطوى آخر طيبة في
ردائه ، الهواء منعش لين القبضة ، النجوم متوارية فوق السحب . في
ظلمة داجية تهادت الأناشيد من التكية في صرحها الأبدى . لأنغمة رثاء
واحدة تنداح بينها . ألم تعلموا يا سادة بما حل بنا؟ أليس عندكم دواء
لنا؟ ألم يتراهم إلى آذانكم نواح الثكالي؟ ألم تشاهدوا النعوش وهي
تحمل لصق سوركم؟

رنا عاشر إلى شبح البوابة ، إلى هامتها المقوسة ، بإصرار حتى دار
رأسه . تضخمت البوابة وتعلقلت حتى غابت هامتها في السحب . ما
هذا يا ربى؟ إنها تتمخض عن حركة بطيئة دون أن تبرح مكانها . تتموج
وقد تنقض في أي لحظة . وشم رائحة غريبة لا تخلو من نفحة ترابية .
إنها تتلقى من النجوم أوامر صارمة . جرب عاشر الخوف لأول مرة في
حياته . نهض مرتعداً ، مضى نحو القبو وهو يقول لنفسه: إنه الموت .
تساءل في أسى وهو يقترب من مسكنه: لماذا تخاف الموت يا عاشر؟!

٣٣

أشعل المصباح فرأى فلة نائمة ، وشمس الدين لا يبدو من الغطاء إلا
شعر رأسه .. جمالها مستسلم لسيطرة النوم ، ثغرها مفتر بلا بسمة .

٥٧

منديلها منسحب وخصلات شعرها نافرة . دق الرعب أبواب رغبته الغافية . تمطى نداء مثل لسان من لهب . جن بالشهوة فاندفع بلهوجة المطارد . همس باسمها حتى فتحت عينيها . نظرت إليه منكرا حتى عرفته . . فقهت وفقته ونظره عينيه فتزحزحت من تحت الغطاء بارزة ، وثناء بت ، وابتسمت ، وتساءلت :

ـ ماذا دهاك في الليل ؟

ولكنه من شدة الانفعال صمت . امتلاً صدره العريض بالعنف والأسى .

٣٤

نام ساعتين .

رأى في وسط الحارة الشيخ عفرة زيدان . هرع نحوه مجنوياً بالأسواق . كلما تقدم خطوة سبق الشيخ خطوتين . هكذا اخترقا الممر والقرافة نحو الخلاء والجبل . وناداه من أعماقه ولكن الصوت في حلقة انكم .

واستيقظ في غاية من القهر .

وقال لنفسه : إن هذا ليس لغير ما سبب . وفكرا طويلا . وعندما نصح الشباك بلون الفجر تلقى عزمه . ونهض مرحبا بعزمته . أيقظ فلة . بكى شمس الدين . غيرت لفته ودست برفق ثديها الثرى في ثغره ثم التفتت إلى الرجل تعنته .

مسح على شعرها بحنان وقال :

ـ حلمت حلما مذهلا ..

فقالت متحججة :

- لم أشبع من النوم ..

فقال بجدية غير متوقعة :

- علينا أن نهجر الحرارة بلا تردد.

فرمقته غير مصدقة فعاد يقول :

- بلا تردد ..

فتساءلت مقطبة :

- ماذا حلمت يا رجل؟

- أبي عفرة أراني الطريق ..

- إلى أين؟

- إلى الخلاء والجبل!

- إنك ولا شك تهذى ..

- بل رأيت الموت أمس ، ورائحته شمت ..

- وهل الموت يعاند يا عاشور؟

فقال وهو يحنى رأسه في حياء :

- الموت حق والمقاومة حق ..

- ولكنك تهرب!

- من الهرب ما هو مقاومة!

فتساءلت في قلق :

- وكيف نعيش في الخلاء؟

- الرزق في الساعدين لا في المكان.

فتهنّدت قائلة :

- سيسحق الناس من جهلنا!

فقال عاشور :

- لقد جفت ينابيع الضحك .
- فأجهشت في البكاء فتساءل في قلق :
 - هل تتخلى عنى يا فلة؟
 - فقالت وهي تت控股 :
 - لا أحد لي سواك ، سوف أتبعك .

٣٥

- اجتمع عاشور بأسرته الأولى ، زينب وحسب الله ورزرق الله وهبة الله ، وباح لهم بحلمه وعزمته ، ثم قال :
- لا تترددوا ، فالوقت ثمين .
 - ذهلوا جميعاً وارتسم في وجوههم الرفض . وقالت زينب ساخرة :
 - ها هي ذي وسيلة جديدة لتجنب الموت !
 - وقال حسب الله :
 - أرزاقنا هنا ، ولا مجال لنا سواه ..
 - فقال عاشور غاضباً :
 - لنا سواعدنا ، ولنا أيضاً الكارو والحمار .
 - فسألته هبة الله :
 - ألا يوجد الموت في الخلاء يا أبي ؟
 - فقال عاشور وهو يزداد غضباً :
 - علينا أن نبذل ما في وسعنا وأن نقدم الدليل للمولى على تعليقنا ببركته .

٦٠

فهفت زينب :

- أفسدت البنت عقلك !

فقلب وجهه فى وجوهم وتساءل :

- ما قولكم ؟

فأجابه حسب الله :

- عفوا يا أبي ، نحن باقون ولتكن مشيئة الله !

هام عاشور فى حزن عميق ثم غادر المكان .

٣٦

رفع شيخ الحرارة حميدو رأسه عن مكتبه ليرى عاشور واقفا أماماه مثل الطود فسألها بحدة :

- ماذا تريده يا عاشور ؟

وقبل أن يجيئه عاشور قال :

- حدثني ابنك حسب الله عما عزمت ، ولله في خلقه شئون !

فقال عاشور بهدوء عجيب :

- جئتكم لتدعوا الناس بنفسكم فهم أجرد أن يسمعوا لك !

فصاح شيخ الحرارة :

- أجبتني يا عاشور ؟ أتفهم أنت خيرا من الحكومة ؟

- ولكن ...

فقطاطعه بحدة :

- حذار أن تعطل الأرزاق وتنشر الفوضى ..

- لقد رأيت الموت والحلّم !
- هذا هو الجنون بعينه ، الموت لا يرى ، ونصف الأحلام مصدرها إبليس !
- إنّي رجل طيب يا معلم حميدو ..
- ألم تذهب يوماً إلى البوظة لتنقذ أبناءك من امرأة ثم وقعت أنت في هواها واستأثرت بها لنفسك ؟
- فقال بغضب :
- لقد أنقذتها من الشر ، ثم إنّي لا أبرئ نفسي من الذنوب . . .
- فصاح شيخ الحرارة :
- افعل بنفسك ما تشاء ولكن لا تغرس به أحداً وإنّما أبلغت عنك القسم . .

٣٧

هاجر عاشور في الفجر . وتحركت به الكارو نحو القبو كما تفعل في مواسم القراءة . تربعت فوق سطحها المترجّج فلة محاطة شمس الدين ، أمامها بقجة مكتظة ، وراءها أجونة من الفول السوداني وبلايليس من الليمون والزيتون المخلل ، وزكائب من العيش المقدد . ولما خلصت العربية إلى الساحة ، استقبلتها تراتيل آخر الليل وهي تشدو :

جز آستان تو ام درجهان بناهى ينسـت
سر مرا بجز آين در حواله كاهـى ينسـت

استمع عاشور إليها بحزن ، ثم دعا لحارته بالهدایة من أعماق قلبه . واخترق المر الطويل ، ثم شق سبيله بين القبور ، قبور لا تقاد تغلق

حتى تفتح ثانية ، ثم انتهى إلى الخلاء . غمره تيار خفيف بارد ، منعش وودود ، ولكنها قال :

- أحبكى الغطاء حولك وحول الولد .

فقالت متشكية :

- لا حى موجود .

- الله موجود .

- أين نقف ؟

- عند سفح الجبل .

- هل نتحمل جوه ؟

- أقوى مما تحمله التلال ، وتوجد ثمة كهوف ..

- وقطاع الطريق !

فقال هازئا :

- فليقدم من كتب عليه الهلاك !

وراحت الكارو تتقىم والظلام يخف . تذوب الظلمة فى ماء وردى شفاف فتكتشف عوالم فى السماوات والأرض . تنساب منها ألوان عجيبة متداخلة حتى اصطبغ الأفق بحمرة نقية متباهية ، تلاشت أطرافها فى زرقة القبة الصافية ، وأطل من وراء ذلك أول شعاع مغسول بالندى . وتراءى الجبل شاهقا ، رزينا ، صامدا ، لا مباليا . هتف عاشور :

- الله أكبر ..

ونظر نحو فلة وقال مشجعا :

- انتهت الرحلة ..

ثم وهو يضحك :

- بدأت الرحلة !

قضى عاشر وأسرته فى الخلاء ما يقارب الستة الأشهر .

لم يكن يغادر موقع الكهف إلا ليحضر ماء من حنفيه الدراسة أو يبتاع علفاً للحمار أو بعض الضرورات في نطاق ما يملك من مدخل قليل . واقتصرت فلة أن تبيع قرطها الذهبية ولكن رفض . وأخفى عنها أسباب زهذه . لقد جاءته والقرط في أذنيها فهو من مال حرام جاء !

وتبدت الحياة في الأيام الأولى نزهة ومحاصرة ورياضة ، ولم تشعر بخوف في ظل زوجها الجبار . وسرعان ما تبدت حالية مضجرة لا تحتمل . ماذ؟ هل جئنا نحسب الزمن بدبيبه المتتابع فوق جلوتنا؟ هل جئنا لنعد حبات الرمال والنجوم الساهرة؟

وقالت له فلة :

- حتى الجنة لا تطاق بلا ناس وبلا عمل ..

فلم يعترض ولكن قال :

- نحن مطالبون بالصبر ..

وقت طوييل من وقته مضى في العبادة . ووقت طوييل مضى في تذكر أسرته هناك وأهل حارته ، حتى قال لزوجه مرة :

- ما أحبيت الناس قط كما أحبهم اليوم .

وكان يحظى بنصيبيه من النوم في النهار ويُسهر الليل بطوله . وترامت تأملاته حتى شعر شعوراً عجيباً بأنه عما قريب سيسمع أصواتاً ويرى أشباحاً .. بات صديقاً للنجوم وللفجر . وقال إنه من ربه قريب ، لا يحجزه عنه شيء ، وإنه لا يدرى لم يستسلم أهل حارته للموت ؛ ولا لم

يقرؤن بعجز الإنسان، أليس الإقرار بعجز الإنسان كفرا بالخالق؟
واشتبك فى أحاديث صامدة لا نهاية لها مع ماضيه، الشيخ عفرة،
ست سكينة، الناطورى، زينب، وأحاديث حميمة حزينة مع
حسب الله ورزق الله وهبة الله . حسب الله كان مرشحا دائمًا
لصداقه فيا للخسارة! رزق الله لا خير فيه ولكن ذكي ، أما هبة الله
فمتعلق بأمه بدرجة لا تليق . على ذلك فهو يقر بأنهم خير من كثيرين من
أضرابهم ، ودعى لهم ولأمهم طويلا . ولاحت له حارته مثل جوهرة
غارقة في الوحل . إنه الآن يحبها حتى بسوءاتها! ولكن ثمة فكرة تتسلل
إليه خلال عباداته المتواصلة بأن الإنسان يستحق ما يعانيه ! الوجهاء
والحرافيش ودرويش يدورون حول محور منحرف يرحب حقيقة في
القبض على سره الماكر العسير .وها هو ذا الله يعاقبهم جميعاً كما نما قد
ضاق بهم ! ورغم ذلك يشمل الفجر بغضبه الوردية ، ويرقص شعاع
الضياء في مرح أبدى ! إنه على وشك أن يسمع أصواتا ، ويري أشباحا ،
إنه يتمخض عن ميلاد جديد .

٣٩

وثمة فرصة ستحت ليملاً قلب فلة بالإيمان . إنها امرأة صغيرة
جميلة لا دين لها . لا تعرف الله ولا الأنبياء ولا الثواب ولا العقاب .
يحفظها في هذه الدنيا المرعبة حبها وأمومتها . حسن ، إنه يلقى عنااء في
تعليمها . ولو لا ثقتها فيه ما صدقـتـ كلمة واحدة مما يقول . تحفظ سور
الصلوة في عنااء . يغلـبـهاـ الضـحـكـ فـتـخـرـجـ منـ الصـلـوةـ . وـتـصـلـىـ اـنقـاءـ
لغضـبـهـ وـاستـجـلـابـاـ لـمـرـضـاتـهـ .

وسائله ببراءة :

٦٥

- لماذا ترك الله الموت يفتك بالناس؟

فأجابها بعنف:

- من يدرى، لعلهم فى حاجة إلى تأديب؟!

فقالت مداعبة:

- لا تغضب مثل الله..

- متى تهذبين ألفاظك؟

- عظيم، ولم خلقنا بهذا القدر من السوء؟

فضرب الرمل براحته وتساءل:

- من أنا حتى أجيبك نيابة عنه عز وجل؟

ثم برجاء:

- علينا أن نؤمن به فقط، علينا أن نضع قوتنا في خدمته...

فانسحبت من الحديث جملة وهرتقت متشكية:

- الأيام عمر والوحدة ثقيلة أفعظ من الموت.

فحول عنها ناظريه فى صمت. إنها تنذر بالتمرد. هل تغادره هاربة

بشمس الدين؟ وماذا يبقى له فى الحياة؟

شمس الدين سعيد. يزحف فوق الرمل، يجلس ليعبث بالحصى،
يعرف النوم ولا يعرف الملل، ينضج في الهواء والشمس، يجد غذاءه
الطبيعي متوافقاً. الحمار أيضاً سعيد. يأكل، ينعم براحة كبيرة، يهش
الذباب بذيله، يهيم في ملكوته مزوداً بصبر لا نهائي. ويرمقه عاشور
بعطف وتقدير. إنه صاحبه ورفيقه ومصدر رزقه، وبينهما مودة
راسخة.

وتمضي الأيام . يقتربون من حافة الانهيار .
 وذات يوم قال لها عقب عودته من الدراسة :
 - يقولون هناك إن الها لا يولي مدبرا .
 فصفقت فلة وصاحت :
 - لنرجع في الحال ..
 فقال بحزن :
 - بل ننتظر حتى أتحقق من الخبر ..

رجعت الكارو تشق طريقها بين القبور في الهزيع الأخير من الليل .
 طفت قلوب أصحابها بالسعادة تحت النجوم وانتفضت بأمانى النجاة .
 ولما انعطفت إلى الممر واستقبلتها الأناشيد دمعت الأعين وقالت
 الأناشيد إن كل شيء سيكون كالعهد به .
 ها هي ذى الحارة مستغرقة في النوم ، الإنسان والحيوان والجماد .
 عجيبة في سباتها كما هي عجيبة في يقظتها ، ولسوف تندر به طويلا .
 عند مسكن زينب توقف قلبه ولكنه أشفع من إزعاجهم ، وأجل ارتباكه
 ساعتين . من القلوب انسابت قبلات تلثم الجدران والأديم والخدود
 وترقص بالطرب . الموت لا يجهز على الحياة وإنما لأجهز على نفسه ،
 ولكن ثمة شعور بالنندم والخجل .

وضمتهم أخيرا حجرتهم فامتلأت خيالاتهم برائحة التراب
والعطن ، وبادرت فلة تفتح النافذة وهى تقول :

- كيف يلacak الناس يا عاشور؟

فقال بتحد كاذب :

- كل يعمل بيامنه !

٤٢

قبح وراء قضبان النافذة يتربّى بصبر انطواء آخر ذيول الظلام . ها هو
ذا أول ضياء يتضامن فوق الجدران ، ها هي ذى معاملها تتحدّد كوجه
صديق قديم . من أول قادم يكون؟ لعله اللبناني أو خادم من بيوت
الوجاه . . سيجيّبه بصوت يمزق الصمت وليلقى من السخرية حظه
المقسم . ها هو ذا النور يشعّش في الحرارة وحتى دكان الفول لم يفتح .

تراجع متملما وهو يقول :

- الظاهر أن تعاليم الحكومة قد غيرت من عادات حارتنا . .

ودس قدميه في المركوب قائلاً :

- سأذهب لزيارة الأولاد . .

٤٣

انطلق في خلاء ، بين أبواب ونوافذ موصدة . إلى بدروم زينب . دفع
الباب فانفتح ، وجد نفسه في حجرة خالية عبقة برائحة محزنة . الفراش

كما هو مغطى بطبقة من التراب ، والكنبة الوحيدة عليها أشياء كالخرق
البالية ، والمهد الخشبي مقلوب على مسنه ، وتحت الفراش تكومت
الحلة والأطباق والكانون ومقطف ملوء بالفحم إلى متصفه . والسحارة
ليست خالية ، توجد بها الملاعة وجليب ومشط ومرأة ومنشفة ..

- هاجروا؟ ولكن لم يتركون الملابس؟!

عيشا حاول أن يدفع البلوى أو أن يؤجل تحرعها . ضرب جبينه
براحته . تأوه .. أجهش في البكاء . قال إنه سيعلم من الآخرين الخبر ،
وإنه لم يفقد بعد الأمل .
غادر المكان متمنحا ..

٤٤

اندفع في الحرارة حتى مطلعها عند الميدان . يا له من صمت ! وباله من
خلاء ! لا باب مفتوح ولا نافذة . تقدم ببطء وذهول . الخمارة مغلقة ،
البيوت ، الوكالة ، القهوة ، لأنامة ، لاقطة ، ولا كلب ، لا رائحة لحياة ،
الدور التربية غارقة في نفس الفناء .

الشمس ترسل أشعتها بلا جدوى ، هواء الخريف يتموج في فتور
وبلا هدف .

وصاح بصوته الأجيش الباكي :

- يا ههو ! يا أهل الله ..

فلم يجده أحد . لم تفتح نافذة . لم تشرئب رأس من جحر . ليس
سوى صمت اليأس العنيف ، والرعب المتحدي ، والقهر الصليد .
اخترق القبو إلى الساحة فطالعته التكية كما هي دائمًا . رنت إليه

أوراق التوت فرأى رحيقها يسيل دما . سكت الأنashiد وتلفعت بطيلسان اللامبالاة . رنا إليها طويلا والحزن يعصف بجذور قلبه ودموعه تسيل .

وبصوت كالرعد صاح :

- يا درويش !

خيل إليه أن غصون الأشجار تميد من صوته ، ولكن لم يعجبه أحد .
وراح يصبح دون توقف ، وبلا جدوى ..

وقهقهة كالأبله ثم تساءل :

- متذا يسمع أناشيديكم اليوم ، ألا تعلمون؟

٤٥

قال لفلة وهو يجفف دمعه :

- لا حى في الحارة !

رأى في حمرة عينيها أنها فضلت إلى الكارثة بطريقة ما . سمعها وهي تقول منتخبة :

- من الخلاء إلى الخلاء يا عاشور ..

وراح يتأنوه ، فقالت :

- فلنهاجر إلى مكان معمور .

فنظر إليها بحيرة وصمت فتساءلت بحدة :

- أنبقى في هذه القرافة ؟

فتمتنم بفتور :

- ستتجول فوق عربتنا، لن تبقى في البيت، أما المأوى فلا مأوى لنا
إلا هنا..

صاحت:

- بيت في حارة خالية؟!

فصاح بغضب:
- لن تبقى خالية إلى الأبد!

٤٦

لا حزن يدوم ولا فرح.

عاد عاشر إلى مارسة عمله كسوق كارو. وكان يأخذ معه فلة وشمس الدين النهار كله وشطرا من الليل، ثم يأowون إلى البدروم في كتف الرجل العملاق.

أدرك عاشر أن الحرارة أصبحت مناسبة في غمار المسؤوليات التي واجهت الحكومة بسبب انتشار الشوطة في جميع الأحياء. لا أحد يدرى به في هذا الركن الفانى ولكنهم سيأتون، يوما ما سيأتون. سيجيء أنس من هنا وهناك وستردد الأنفاس من جديد وترسل دفتها في البقاع.

وكلما خرج مبكراً ليعد العربية جذبت عينيه دار البنان. تعجبه هامتها الأرجوانية وضخامتها المهيبة وأسرارها المنظوية. ماذا بقى في الداخل؟
ألا يوجد من آل البنان من يهمه استردادها؟

ويرسخ الإغراء في أعماقه وينفتح أحلاما سحرية. كما اشتاق يوما إلى الاطلاع على أسرار التكية. غير أن دار البنان قريبة ولا حتى سواه في الحرارة. ليس بينه وبين تحقيق الحلم إلا حركة، حركة مغلفة بالأمان!

هز منكبيه العريضين استهانة ودفع الباب فانفتح . التراب يغطى
الفسيفساء . كما يغطى أرض السلاملك الرخاميه . التراب هو ما يسود
في كل مكان . وقف عند البهو مرتاعا . إنه ميدان يا عاشور . سقفه عال
جداً لا تبلغه رءوس الجان . في وسطه نجفة مثل قبة الغوري ومن أركانه
تدلى القناديل . على جوانبه أرائك مغطاة بالسجاجيد المزركشة ، كما
تغطى جدرانه بالحصر الفاخرة وأطر الآيات المذهبة .
ترامى إليه صوت فلة وهي تنادى فجرى نحوها . رمقته بذهول .
تساءلت :

- ماذا فعلت ؟

فأجاب بحياه :

- أمنية طارئة حققتها !

- ألا تخشى أن يعلم أصحابه ؟

- لا صاحب له ..

وترددت تلعب بها الأهواء ثم أشارت إلى الكارو وقالت :
- تأخرنا ..

فقال بحياه أشد :

- إنى أدعوك للمشاهدة يا فلة ..

أمضيا النهار في التنقل من حجرة إلى حجرة ، وقفا طويلا في الحمام
والمطبخ ، جريا الجلوس على دواوين مقاعد وأرائك ، طفر الجنون من
عيني فلة الجميلتين . قالت :

- نبيت ليتنا هنا ..

صمت عاشر وهو يعاني ضعفاً أشد فقالت:

- نستحم في الحمام العجيب، نرتدي ثياباً جديدة، وننام فوق هذا الفراش، ليلة واحدة نعود بعدها إلى الكارو ..

٤٨

لكنها لم تكن ليلة واحدة

كانا يغادران الدار فجراثم يتسللان إليها مع الليل. في النهار تمضي بهما الكارو من حى إلى حى، يتناولان طعامهما عدسًا وفولًا وطعمية، وفي الليل يرفلان في الثياب القطنية والحريرية، يستريحان في السلاملك الداخلى أو فوق الدواوين، وينامان فوق فراش وثير يصعد إليه بسلم قصير من الأبنوس. وتحسّن فلة الستائر والوسائد والطنافس براحتيها وتهتف: - لم تكن حياتنا إلا كابوسا ..

وتبدى لهمما الحرارة، في الليل من المشربية ظلمة وهيأكل أشباح غارقة في التعasseة فيتمم عاشر في أسى:

- حكمة الله تعز على العقول!

فتحبيه بتحد:

- ولكنه يهب الرزق لمن يشاء ..

ويتسئم متسائلاً حتى متى يدوم هذا الحلم؟ ولكنها كانت تفكّر في أمور أخرى فقالت:

- انظر إلى التحف خولنا، لا شك في أنها غالية الثمن، لم لا نبيع بعضها لتأكل مثلما نعيش؟!

فقال بإشراق:

-ولكنه مال الغير ..

-لا صاحب له كما ترى، هو رزقنا من الله ..

وتفكر عاشور ملياً. زحف عليه الإغراء كما يزحف النوم على المكود. وصم على أن يجد لأزمته حلاً. واهتدى إلى حكمة جديدة :
فقال :

- المال حرام مالم ينفق في الحلال!

فقالت متوبة للخصام :

- هو رزقنا يا عاشور، وما نريد إلا أن نأكل ..

ومضى يذرع السلاملك حائراً، ثم قتم :

- هو حلال ما دمنا ننفقه في الحلال!

٤٩

وبمرور الأيام هان كل شيء، فأصبحت إقامة عاشور وأسرته بدار
البناء دائمة. سرح الحمار في الفناء الخلفي، وووريت الكارو في
البدروم. خطط عاشور في الدار مثل الوجهاء، بعمامة مقلوبة وعباءة
فضفاضة، وعصا ذات مقبض ذهبي. وتبجلت فلة في نصاراة النعيم
كأجمل هانم عرفتها الحارة. أما شمس الدين فكان يبول على سجاد
شيرازى يقدر ثمنه بالمئات. وشاع الدفء في المطبخ، وتطايرت منه
روائح اللحوم بأنواعها.

وبمضي الأيام أخذت الحياة تسرب إلى الحرارة. جاء حرافيش فأواوا
إلى الخربات. وكل يوم يعمريت بأسرة جديدة. ومضت الدكاكيين

تفتح أبوابها. ترددت أنفاس الحياة، ارتفعت الحرارة، تجاوالت الأصوات، هلت الكلاب والقطط، عادت الديكة تصبح في الفجر، ولم تبق خالية إلا دور الأغنياء.

وعرف عاشر بوجيه الحارة الوحيد. يشار إليه بـأكبار، ويقال بإخلاص:

ـ سيد الحارة ..

وشاع أنه الوحيد الذي نجا من الشوطة، فأطلق عليه «عاشر الناجي». وتحمس الجميع لإغداق الثناء عليه بجوده وإحسانه وعطفه. كان راعي الفقراء، يتصدق عليهم، ولم يقنع بذلك فكان يشتري الحمير ويُسرح بها العاطلين، أو يبتاع لمن يريد عملاً السلال والمقطاف وعربات اليد، حتى لم يبق عاطل واحد في الحارة عدا العجزة والمجاذيب.

الحق أنه لم يعرف عن وجيه من قبل مثل ذلك. لذلك رفعوه إلى مرتبة الأولياء، وقالوا إنه لذلك نجاه الله من دون الآخرين.

وهذا عاشر واستكمل ضميره الحى. وشرع في تحقيق أحلام كانت تراوده من قبل، فجاء بعمال لتنظيف الساحة والمر، وتطهيرها من تلال الأتربة والزباله، وشيد حوض مياه الدواب، والسبيل، والزاوية، تلك المعالم التي رسخت في وجдан حارتنا مثل التكية والقبور والسور العتيق، وبها وبه صارت الحارة جوهرة الحى كله.

٥٠

ترامت إلى أذنيه حركة غريبة آتية من ناحية الخمارة!
كان في طريقه إلى الحسين فتوقف.رأى عملاً يرمون المكان
ويعدونه لحياة جديدة. مال نحو المدخل ثم تساءل بصوت مرتفع:

- لحساب من تعملون؟

فجاءه صوت من ركن مظلم إلى يمين الداخل يقول:

- لحسابي أنا يا سيد الحارة!

وبرز درويش من الظلام فتراءى أمامه. دهمته قشعريرة مفاجأة مختلطة بوتقة غضب. هتف:

- أنت حى يا درويش!

قال حانيا رأسه بامتنان:

- بفضلك يا سيد الحارة!

ورآه في حاجة إلى إيضاح فقال بنبرة لم تخل من سخرية:

- عملت بحكمتك فها جرت إلى الخلاء، لم أكن بعيدا عنك طيلة الوقت ..

فصمم على مواجهة الموقف بالقوة الضرورية فقال:

- لن أسمح بفتح البوظة!

- إنك سيد الحارة ووجيهها الأوحد ولكنك لست القانون ولا الفتوة!
فسأله بحق:

- لم لا تذهب إلى أي حارة أخرى؟

- هنا وطني يا سيد الوجهاء ..

وبتبادل نظرة طويلة حتى قال درويش:

- بل إنني أتوقع أن يشملنى إحسانك العميم!

ها هو ذا يخطط للابتزاز! وأرعيشه الغضب فسحبه من يده إلى الخارج ثم قال له:

- لعلى لا أستطيع أن أغلق خمارتك ولكنى لن أخضع لأى تهديد ..

- ولكنك تجود على كل محتاج؟!

في سبيل الخير أعطى لا في سبيل الشر .

فقال بنبرة ذات مغزى :

- إنك حر في «مالك» يا سيد الحرارة !

وضغط على «مالك» ضغطاً موحياً فرفع عاشور منكبيه استهانة

وقال :

- قد تسل لك نفسك أن تشى بي ، وأن تفشى سرى بين الناس ، هذا

ممكن يا درويش ، ولكن أتدرى ماذا ستكون عواقب ذلك ؟

- تهددى يا عاشور ؟

- أعجنك ورأس الحسين حتى لا يعرف لك رأس من قدم !

- تهددى بالقتل ؟

- وأنت تعرف أنتى على ذلك قادر !

- من أجل أن تستأثر بمال لست صاحبه ؟

- إنى صاحبه ما دمت أنفقه فيما ينفع الناس ..

تبادل نظرة طويلة مرة أخرى . تحلى التخاذل في عيني درويش ،

فقال ملاينا :

- ما أريد إلا أن تجود على مثل الآخرين ..

- ولا مليم لأمثالك ..

وساد صمت فرجع عاشور يتساءل :

- ماذا قلت ؟

فتمتم درويش بأسف :

- ليكن ، رغم أننا أخوان فسنعيش كالغرباء !

تلقت فلة الخبر بانزعاج شديد حتى تجهم وجهها العذب بالتعasse ثم

قالت برجاء :

- غير معاملتك له ، أعطه ما يطمع فيه ، أبعد عنا شبح الغدر .

فقال عاشر مقطبا :

- ألم يظهرك هواء الخلاء من الضعف ؟

فلوحت له بخمار من الحرير الدمشقى وقالت :

- أخاف على هذا ..

فحرك رأسه بحدة فقالت :

- لم يعد الأمان كما كان يا عاشر ..

فقال باستهانة :

- إنه شرير حقا ولكنه جبان ..

وأشرت الشمس من جديد فى أعقاب ليلة عاصفة باردة . ها هو ذا
دكان شيخ الحرارة يفتح أبوابه ، ويحل به شيخ جديد عم محمود
قطائف . أدرك الناس أن الحكومة أخذت تقيق من هجمة الموت فتعين
أحياء مكان من هلك من عمالها .

وتفاءل كثيرون بالحدث ولكنه كان ذا رجع مختلف في دار عاشور.
انقبض قلب عاشور لا شك ، وفزع فلة فضمت شمس الدين إلى
صدرها وتعمت :

- لا شيء يتنسم .

فتساءل عاشور في قلق :

- أليس ما مضى قد مضى ؟

- ولكنك تشاركتني مخاوفى يا عاشور !

- ماذا جنينا؟ وجدنا مالا بلا صاحب فأنفقناه فيما ينفع الناس ..

- ألا ينذر وجه ذلك الرجل بشر ؟

فغضب عاشور وصاح :

- فلنثق بصاحب المال الأصلى جل جلاله ..

فهددت فلة شمس الدين وقالت :

- أما أنا فأرحب في أن يمتد نهر الخير حتى يسبح فيه هذا الولد !

٥٣

وقرر عاشور أن يواجه التحدى بلا تسوييف .
مال في طريقه إلى دكانشيخ الحارة ليحييه . استقبله الرجل بحرارة
وهو يقول :

- أهلاً بسيد الحارة وراعيها ..

فشاع السرور في صدر عاشور وقال :

- أهلاً بشيخ حارتنا !

وإذا به يقول :

- أتدرى يا معلم أتنى كنت على وشك الذهاب للقائك؟

فخفق قلبه ولكنه قال :

- أهلا بك في أي وقت.

- أجدى في حاجة إلى رأي الناجي أحق الناس بالكلام عن الحارة
الهالكة.

٥٤

هكذا دخل محمود قطائف دار عاشور. وجلسا متجلوارين على
ديوان بالبهو على حين توارت فلة وراء الباب الموارب. احتسيا القهوة
وهما يتبدلان كلمات المجاملة حتى قال الرجل :

- بحاجة أنا إلى رأي رجل يعده الجميع ولئن نعمتهم!

فقال عاشور بفتور :

- في خدمتك يا شيخ حارتنا ..

فترثت الرجل قليلا ثم قال :

- تكونت لجنة منذ قليل لجرد دور الأغنياء ومحسوبيك عضو فيها . .

- ليرحم الله من مات .

- وقد تبين لنا أن الدور قد نهيت يا صاحب النجاة!

- ولكن لم يكن بالحارة حي !

- ذاك ما كشف عنه الجرد .

فقال عاشور بحنق :

- إنه لغريب ، أسأل الله أن يكون المال قد وقع في يد من يستحقونه !
- يستحقونه ؟

- أعني القراء من أبناء حارتنا .

فابتسم محمود قطائف وقال :

- هذه نظرية ولكن للحكومة نظرية أخرى .

- وما نظرية الحكومة ؟

- الدور تعتبر ملكاً لبيت المال وسوف تعرض للبيع في المزاد ..

فحذجه عاشور بحدة وسألة :

- وماذا عن النهب ؟

فهز منكبيه قائلاً :

- رأت اللجنة أن تتغاضى عنه منعاً لتعريف الأبرياء للتهم !

أدرك عاشور أن اللجنة قد نهيت الدور ، ورغم شعوره بالازدراء فقد استعاد الكثير من طمأنيته ، وقال مداعباً :

- لعل اللجنة تعمل بنظريتي يا شيخ محمود .

فقال شيخ الحرارة بإشراق :

- تبقى مشكلة واحدة .

فتساءل عاشور بعينيه وهو يشعر بأنه وافى شاطئ الأمان . وقال شيخ الحرارة :

- تزيد اللجنة أن تطلع على وثائق ملكيتك لهذه الدار ، وبذلك تنتهي مهمتها ..

اغتيل الأمان بطعنة غادرة ، فاختطفت عينيه نظرة من الباب الموارب ،
وتساءل :

- أئمة شك في ملكيتي لها ؟

- معاذ الله ولكنها الأوامر !

فقال بحدة بصوته الخشن :

- أريد أن أعرف ما تعنيه أوامرك ؟

فقال محمود قطائف بصوت منخفض :

- اغتصبت بعض دور الالكترين في الأحياء المجاورة !

وغرقا معا في صمت ثقيل مشحون بالتجسس والريب حتى رفع

عاشور صوته قائلاً :

- هبها فقدت في فوضى الموت والهجرة !

فتمتم شيخ الحرارة بأسف :

- ستكون ورطة أى ورطة !

فصاح عاشور غاضباً :

- ورطة ! ألم تقنع اللجنة بما نهيت ؟

فارتعد الرجل من شدة الصوت وقال كالمعذر :

- ما أنا إلا عبد الأمر ..

- عندك معلومات فصرح بما في نفسك ..

- المسألة أن عضوا من أعضاء اللجنة أعلن بعض التساؤلات ..

- عليه اللعنة ..

- الوثائق تخسم كافة الريب ..

- ولكنها ضائعة !

فقال بلين وخوف :

- ستكون ورطة يا معلم عاشور ..

عند ذاك اقتحمت الحجرة فلة ثائرة وهفت مخاطبة شيخ الحرارة :

- لندع اللف والدوران .

فنهض الرجل مرتبكاً فقالت بصرامة مثل ضربة نبوت:
 -لن يصعب عليك صعب فلنسو الأمر فيما بيننا ..
 فقال الرجل بأسف:
 -لو كان الأمر بيدي لهان!
 ونهض عاشر محظياً وهو يقول:
 -لتكن إرادة الله .. .

٥٥

تحدث أمور في السر والعلانية. الحارة الغارقة في نشاطها الدائب لا تفطن لها. قليلون جداً من يلاحظون أشياء دون أن يرتبوا عليها نتائج ذات بال. والقلوب ثملة بالأمال مؤمنة بالضياء ..

وذات صباح خرج عليهم عاشر الناجي منكس الرأس. بجسمه العملاق ولكنه منكس الرأس ومكبل اليد بقيد حديدي أيضاً. هو عاشر الناجي دون غيره. يحف به جنود، يتقدمهم ضابط وسير محمود قطائف في ذيل الموكب.

انتشر شرر الذهول الغاضب بين الناس فشدهم من الدكاكين والبيوت وملأ بهم النوافذ.

- ماذا نرى؟!

- ماذا وقع للدنيا؟!

- الرجل الطيب في الحديد؟!

وهتف الضابط بحدة:

- أوسعوا الطريق ..

ولكنهم تجمعوا وراء الموكب وتبعوه كالظل حتى صاح الضابط مرة أخرى :

- الويل لمن يقترب من القسم !

وجعل درويش الخمار يتساءل عن معنى ما يرى ويرفض تصديقه، وبصوت مرتفع قصد أن يسمعه عاشر قال :

- ورحمة أخي ما خرجمت من لسانى كلمة واحدة ..

وتبدت فلة آية في الجمال والحزن، متوركة شمس الدين، حاملة بقحة، محممة العينين من البكاء ..

٥٦

وكانت محاكمة عاشر من الأحداث المستعصية على النسيان. شهدتها جمع غفير من الحارة وخافت لها القلوب. لأول مرة تحب الحارة وتعشق. ووقف عاشر في القفص مزهوا بحرارة القلوب من حوله. ولعل القضاة أعجبوا بعملقته، وبصورة الأسد المرسومة في صفحة وجهه. ولم ينس الناس صوته الأخش وهو يقول :
- لست لصا، لم اعتدى على أحد صدقوني، كان الموت قد أهلك الحارة، رجعت من الخلاء فوجدتها خالية، وجدت الدار بلا صاحب، ألا تستحق أن تذهب للوحيد الذي نجا؟ ولم أستأثر بالمال لنفسي، اعتبرته مال الله، واعتبرت نفسي خادما له في إنفاقه على عباده، فلم يعد يوجد جائع ولا متعطل، ولم يعد ينقصنا شيء، فعندنا السبيل والخوض والزاوية، لماذا قبضتم على كاللصوص؟ لماذا تعاقبونني؟

وقال الناس أمين .. و حتى القضاة ابتسم باطنهم طوال الوقت .
و حكموا عليه بعام واحد .

٥٧

رجعت فلة إلى البدروم وهي لا تملك مليما واحدا وجدت رعاية
صادقة . جاءها الطعام ، وحمل إليها الماء والوقود . وعقب مسكنها
بالكلمات الطيبة وانحسار الستر عن سر عاشور لم ينل من حب الناس
له أو احترامهم ، بل لعله خلق منه أسطورة أغنى بالبطولة والجود .
ولكنها قررت ألا تعيش على جود المحسنين ، وأن تعمل في سوق
الدراسة بعيداً عن الأعين .

واعترض طريقها درويش وقال لها بخشوع :

- قلبي معك يا أم شمس الدين ..

فقالت له بحدة :

- اشمت بنا ما تشاء يا درويش !

فقال لها بحرارة :

- لا دخل لي فيما كان ومحمد قطائف شاهد على ذلك ..

- ولكنه جاء على هواك ..

-سامحك الله .. ماذا أفيد من سجنه؟!

- لا تخف فرحك يا درويش .

فقال متوددا :

- سامحك الله ، دعى الخصم واقبل مشورتي ..

٨٥

- مشورتك؟

- لا يصح أن تعمل في سوق الدراسة وحدك ..

فسألته ساخرة:

- عندك عمل أفضل؟

- تحت رعايتي أفضل من العمل وحدك في سوق!

- في البوظة؟!

- مع الحفظ والصون!

فصاحت به:

- ملعون أنت في الدارين!

وغادرته بلا تحية.

وفي المساء ترامت إليها أنباء بأنه يكون عصابة لينصب نفسه فتوة
للحرارة ...

٥٨

ولما زارت عاشور ورأته في لباس السجن اغرورت عيناها. وتواثب
شمس الدين مرحًا حتى تلقى قبلة أبيه من وراء الحاجز. وسألها عن
حالها فقالت:

- أعمل في السوق والحال معدن ..

وبدا متعضاً متمراً، وقال:

- الظلم أقع من السجن نفسه ..

وأكثر من مرة قال:

٨٦

ـ لا أستحق العقاب ..

ـ وبلغت نبرته غاية الاحتجاج وهو يقول :

ـ ليس بين المساجين من يماثل درويش في شره ..

ـ فقالت ساخرة :

ـ ألا تعلم؟ لقد دعاني إلى العمل عنده!

ـ الوغد، وماذا عن شيخ الحرارة؟

ـ يعاملنى باحترام ..

ـ وغد آخر ولص حقيقي ..

ـ أحمل إليك تحيات لا عد لها ..

ـ مباركة تحياتهم، وكم أتوق إلى سماع الأناشيد ..

ـ سترجع إلى سماعها، أما الزاوية والسبيل والخوض فأصبحت تذكر مقرونة باسمك ..

ـ بل يجب أن تقرن باسم صاحبها الحقيقي جل شأنه ..

ـ وابتسمت فلة بفتور وقالت :

ـ من أخبارنا التعيسة أن درويش أصبح فتوتنا ..

ـ فقطب عاشر وتم :

ـ لن ينفعه ذلك ..

ـ وعجبت فلة فقد خيل إليها أن عاشر يزداد صحة ونضارة ..

لم ينقطع الناس عن التفكير في عاشر الناجي طيلة مدة سجنه .
انتظر الحرافيش على لھف يوم عودته ، وعمل آخرون لذلك اليوم ألف

حساب. حصن درويش نفسه بالأتباع، وأغدق عليهم النقود من حصيلة الإتاوات المفروضة على العباد. وشجعه على ذلك محمود قطائف قائلاً:

ـ إن الكثرة تغلب الفرد مهما تكن قوته.
وأيده الأعيان خوفاً من حب الحرارة للغائب، حتى اتفق الرأى على إخضاعه أو اغتياله.
وتتابعت الفصول، وظلت التكية تشدو بالأناشيد الغامضة، حتى جاء اليوم الموعود.

وتلفت شيخ الحرارة فيما حوله وغمغم حانقاً:
ـ ما شاء الله !

رأى الأعلام ترفرف في أعلى الدكاكين والأسطح، رأى الكلوبات تعلق، رأى الأرض تفرض بالرمل الواقع، سمع موجات الأصوات وهي تهدأ بتبادل التهاني . عاد يغمغم :

ـ كل ذلك من أجل عودة لص من سجنه !
ورأى درويش قادماً فسألة :
ـ هل أعددت العدة لاستقبال الملك ؟
فهمس درويش بصوت مضطرب :
ـ أما علمت بما حدث ؟

وقص عليه حكاية العصابة، كيف انفضت من حوله وذهبت إلى الميدان لاستقبال العائد فلم يبق معه رجل واحد. أصفرَ وجه شيخ الحرارة وقتهم :

ـ الأوغاد !

وهمس في أذن درويش :

ـ علينا أن نعيد التفكير لمواجهة الخمسين ..

فمضى درويش وهو يقول :

ـ إنه الفتوة الجديد بلا منازع ..

ـ ومن الميدان ترامى طبل وزمر ..

وفي الحال خرج إلى الحارة أهلها نساء ورجالاً وصغاراً. وتهادت
كارو من ذوات العجلات الأربع قد تربع في وسطها عاشرة تقدمها
الزفة، ويحدق بها رجال العصابة.

صفق الناس وهلوا ورقصوا، ومن شدة الزحام قطعت العربية
المسافة بين مدخل الحارة والزاوية في حوالي الساعة.
ـ وتواصل الرقص والطرب حتى فجر اليوم التالي.

خاتمة

وَجَدَ عَاشُورَ النَّاجِي نَفْسَهُ فِتْوَةً لِلْحَارَةِ دُونَ مَنَازِعٍ . وَكَمَا تَوَقَّعَ
الْحَرَافِيشُ أَقَامَ فِتْوَتِهِ عَلَى أَصْوَلِ لَمْ تُعْرَفْ مِنْ قَبْلٍ . رَجَعَ إِلَى عَمَلِهِ
الْأَوَّلِ وَلِزَمْ مَسْكُنَهُ تَحْتَ الْأَرْضِ كَمَا أَلْزَمَ كُلَّ تَابِعٍ مِنْ أَتَبَاعِهِ بِعَمَلِ
يَرْتَزِقُ مِنْهُ ، وَبِذَلِكَ مَحَقَّ الْبَلْطَجَةَ مَحْقًا . وَلَمْ يَفْرُضْ إِتَاوَةً إِلَّا عَلَى
الْأَعْيَانِ وَالْقَادِرِينَ لِيَنْفَقُهَا عَلَى الْفَقَرَاءِ وَالْعَاجِزِينَ . . وَانتَصَرَ عَلَى
فِتْوَاتِ الْحَارَاتِ الْمُجاوِرَةِ فَأَضْفَى عَلَى حَارَتِنَا مَهَابَةً لَمْ تَحْظِ بِهَا مِنْ قَبْلٍ ،
فَحَفَّ بِهَا الإِجْلَالَ خَارِجَ الْمِيدَانِ كَمَا سَعَدَتْ فِي دَخْلِهَا بِالْعَدْلِ
وَالْكَرَامَةِ وَالْطَّمَانِيَّةِ .

وَكَانَ يَسْهُرُ لِيلَهُ فِي السَّاحَةِ أَمَامَ التَّكِيَّةِ ، يَطْرُبُ لِلْأَلْحَانِ ، ثُمَّ يَبْسِطُ
رَاحْتِيهِ دَاعِيَاً : «اللَّهُمَّ صَنْ لِي قُوَّتِي ، وَزِدْنِي مِنْهَا ، لِأَجْعَلَهَا فِي خَدْمَةِ
عِبَادِكَ الطَّيِّبِينَ» !

* * *

شمس الدين

الحكاية الثانية من الحرافيش

١

في ظل العدالة الحنون تطوى آلام كثيرة في زوايا النسيان . تزدهر القلوب بالثقة وتمتلئ برحيق التوت . ويسعد بالألحان من لا يفقه لها معنى ، ولكن هل يتوارى الضياء والسماء صافية؟

٢

لأول مرة تستيقظ فلة فلا ترى عاشر جنبها يغط في نومه . قلت عينها المقلتان بالنوم وانقبض صدرها .. استعادت بالله من همسات الغيب في القلب العاشق ، وأسفر عالمها العذب عن خلاء . أين الشاب العجيب البالغ الستين من عمره؟ القوى النشيط الفاحم الشعر؟ هل غلبه النوم في سهرته الليلية أمام التكية؟
ونادت شمس الدين حتى فتح عينيه متذمرا . طالعها بوجهه الجميل متسائلا ، فقالت له :

- أبوك لم يرجع من سهرته!

ولما استوعب قولها أزاح عنه الغطاء ، ونهض بجسمه الرشيق المائل إلى الطول ، وبقلق غمض :

- ماذا حدث؟

فقالت تتحدى هواجسها:

- لعل النوم قد غلبه ..

تجلت رشاقته أكثر وهو يرتدي جلباه، ووسامته المكللة ببراءة
الشباب الأول. ومضى وهو يقول:

- كيف يطيب السهر في فجر الخريف؟!

٣

في الجو نسيم رطيب، وذيل شابورة تتلاشى في المجهول، وفي
الجنبات تتدفق حياة البشر. عما قليل سيلقى أباه. سيجده مستلقياً بلا
غطاء. سيعاتبه بما له عليه من دالة.

واخترق القبو إلى الساحة. سبقته عيناه وهو يتأنب لللحمة اللقاء.
ولكنه وجد المكان خاليا. جال بيصره فيما حوله في صمت وقهر.
الساحة والتکية والسور العتيق ولا أثر لإنسان. في هذا الموضع يجلس
العملاق عادة، فأين ذهب؟

وألقى على التکية نظرة حانقة. هي شاهد لا يدلّى بشهادته. وتساءل
مرة أخرى: «أين ذهب؟».

٤

لعله يجد الجواب عند غسان أو دهشان أقوى مساعدين للرجل.
ولكنهما تلقيا السؤال بعجب، وقالا إنه يذهب إلى الساحة قبيل

منتصف الليل فيمكث ساعة أو أكثر، لا يتقدم ولا يتأخر. وسأل شمس الدين :

- ألم يكن هناك ميعاد به ارتبط؟
ففيما علمهما بأى شيء عدا ما ذكر.

وبعد تردد قصد شيخ الحرارة محمود قطائف فتلقى الرجل الخبر بدهشة، وراح يفكر ويذكر ثم قال:

- لا تقلق لغياب الأسد، عذرء معه، وسيرجع قبل الضحى ..

٥

وخذلت فلة إرادتها فهتفت :

- أفرع إليك يا ربى من قلبي ومخاوفه ..

وجلس شمس الدين بين رجال أبيه في القهوة يتناقشون ويتظرون، ينظرون نحو القبو تارة ونحو مدخل الميدان تارة أخرى. وانتشرت سحائب الخريف مفضضة بالنور المستتر. وانتصف النهار ولم يظهر لعاشور أثر. عند ذلك تفرق الرجال في شتى الأنحاء وراء شهادة أو خبر. وعرفت الحرارة الواقعة فاشتعلت بها، وشغلت بها عن الرزق والكدر.

٦

وغا الخبر إلى الأعيان والتجار فدهمهم الذهول. وتفشى في جوهم سحر كالمعجزة. أجل فعندما تستحكم القبضة ولا يوجد منفذ واحد

للأمل ، تؤمن القلوب القانطة بالمعجزة . ولو لا الإشراق من خيبة عاجلة
لأسدلو الستائر وجهروا بالشماتة والفرح . ماذا ينقدهم من سطوة
الجبار وشبابه المتجدد وإرادته الحديدية إلا معجزة؟! فليدم الغياب ،
ولتطو الأسطورة ، ولينقلب الوضع إلى الأبد!

وسعى درويش الخمار إلى محمود قطائف وسأله :
- أين ذهب الرجل؟

فقال شيخ الحارة بنبرة ساخرة :
- وهل أنا على الغيب مطلع؟

فحرّك درويش رأسه الأبيض وغمّم :

- ثمة احتمال لا يجوز أن يغيب وهو ضعفه المباغت أمام النساء !
فابتسم محمود قطائف بازدراء ولم يعلق فواصل الآخر :

- كنت أحسب له للبقاء مائة سنة !
فغمغم شيخ الحارة :

- «ويخلق ما لا تعلمون» .

٧

وهبط المساء ، وساقت أمواج الليل برودة غير متوقعة ، ولم يظهر
لعاشور الناجي أثر . وغضّيشت الكآبة القهوة والبوظة والغرز . ولم ينم من
أسرته أو رجاله أحد . وتأوهت فلة قائلة :

- ما أكثر الرجال ! وما أقل الحيلة !

فتساءل شمس الدين بحزن :

- هل أغفلنا باباً أو تهاونا في عمل؟

فتركـت دموعها تسـيل وـقالـت:

- قلـبي رـفض مـن بـادـي الـأـمـر أـن يـخـدـع بـالـأـمـل ..

فـصـاح بـحـقـ:

- إـنـى عـدـو الـقـلـوب الـضـعـيفـة الـمـشـائـمـة، مـا كـان أـبـي لـعـبـة لـيـخـتـطـفـ،

وـلـا كـان غـرـا لـيـمـضـى إـلـى شـرـكـ بلا حـذـرـ، وـمـا يـحـزـنـنـى إـلـا اـنـسـدـادـ

الـسـبـلـ ..

٨

وـفـي ضـحـى الـيـوـم التـالـي اجـتـمـع رـجـالـ عـاـشـورـ فـي الـقـهـوةـ، بـيـنـهـمـ
شـمـسـ الدـيـنـ وـفـلـةـ، وـانـضـمـ إـلـيـهـمـ مـحـمـودـ قـطـائـفـ شـيـخـ الـحـارـةـ وـحـسـينـ
قـفـةـ إـمامـ الزـاوـيـةـ. لـفـتـهـمـ الـحـيـرـةـ جـمـيـعـاـ وـغـصـتـ قـلـوبـهـمـ بـالـنـذـرـ.
وـسـاـوـرـتـهـمـ مـخـاـوـفـ وـلـكـنـ لـمـ يـجـرـؤـ أـحـدـ عـلـىـ التـصـرـيـعـ بـاـيـسـاـوـرـهـ.
وـقـالـ دـهـشـانـ:

- مـعـلـمـنـا لـمـ يـخـرـجـ عـنـ عـادـاتـهـ مـرـةـ طـوـالـ عـشـرـيـنـ سـنـةـ.

فـقـالـ الشـيـخـ حـسـينـ قـفـةـ:

- فـي الـأـمـر سـرـ!

فـقـالـ غـسـانـ:

- لـا يـخـفـي عـنـ اـنـسـراـ.

وـقـالـتـ فـلـةـ:

- وـلـا عـنـيـ منـ بـابـ أـولـىـ.

فتساءل حسين قفة :

- ألا يكون قد انضم إلى التكية؟

فارتفع أكثر من صوت يقول :

- خيال لا يقبله عقل ..

فقال محمود قطائف :

- قلبي يحدثني بأنه سيظهر فجأة كما اخترى فجأة ..

فقالت فلة بنبرة باكية :

- لا يوجد أمل !

وعند ذاك صاح دهشان :

- لعله الغدر !

وخفقت القلوب وتطاير من الأعين الشرر ، فعاد دهشان يقول :

- حتى الأسد يجري عليه الغدر ..

فصاح محمود قطائف :

- الصبر الصبر يا رجال ، لا يوجد بحارتنا كاره واحد لخير من
حملت الأرض ..

- يوجد كارهون وغادرون !

- احذروا الفتنة واصبروا والله شهيد ..

وكان درويش يقدم قزعة لسكيير ، فقبض الرجل على ذراعه وهمس
في أذنه :

- سمعت الرجال وهم يقولون إنه لا يغدر عاشر إلا درويش !
ففرز الخمار وهرع إلى دكان محمود قطائف وأفضى إليه بما سمع
وهو يرتعد من الذعر حتى ضاق به شيخ الحرارة وقال له بحدة :
- لا تفعل كالنساء .

- كيف أتهم وأنا لا أغادر البوظة ليلًا ونهاراً؟!
فتفكر شيخ الحرارة ملياً وقال له :
- اهرب .. لم يعد أمامك إلا الهرب .

وقد اختفى درويش زيدان فجأة ، فلم يعد يعرف إن كان
هرب أم قتل ، ولم يسأل أحد عنه ، وتجاهله محمود قطائف تماماً ، وما
لبث أن حل محله عليوة أبو راسين بيع المترمول وكأن درويش لم
يكن ...

١٠

ومضت الأيام لا تحمل بصيصاً من أمل . تسير بطئئة ثقيلة مسرولة
بالكآبة . ويُش كُل قلب من أن يرى من جديد عاشر الناجي وهو
يمضي بهيكله العملاق ، يكبح التجبرين ويرعي الكادحين وينشر
القوى والأمان .

وترتدي فلة الحداد ، ويبكي شمس الدين بلا حساب ، ويغرق
الأuan في الحزن والتفكير . وقد اعتقاد قوم أن درويش غدر بالرجل في
مجلس السماع ثم سحبه إلى القرافة فدفعه في قبر مجهول . وأصر أناس
رغم اليأس على أنه سيرجع ذات يوم هازئاً من كافة الظنون . ومن شدة
الحزن تصور آخرون أن اختفاءه كرامة من كرامات الأولياء .

- ومضى سحر العادة القاسى يفعل فعله بالخطب ، يعاشره ويألفه
ويهونه ، ويدفعه فى تيار الأحداث اللانهائية فيذوب فى عبابها .
لقد اختفى عاشور الناجى .
ولكن الزمن لن يتوقف وما ينبغى له ..

١١

وكان لا بد من اختيار فتوة جديد للحرارة قبل أن ينفرط نظامها أو
تدوسرها أقدام الحارات المتربيصة . . وانحصر الاختيار بين غسان
ودهشان باعتبارهما أقوى الرجال وألصقهما بالناجى ، ولم يلتفت إلى
شمس الدين لحداثة سنّه ونعومة مظهره . وانحاز رجال لكل رجل فتقرر
اتباع ما يتبع عادة في هذه الأحوال . وهو أن يتصارع المتنافسان في
صحراء الماليك ، ثم يتوج الفائز فتوة للحرارة .

تلقت فلة تلك الأنباء ، ورأت شمس الدين وهو يرتدي جلباه
استعداداً لشهود المعركة ضمن الأتباع ففاضت دموعها وراحت تندب
حظها . وضاق الشاب بذلك فقال :

- لا يمكن أن تعيش الحارة بلا فتوة .

فتساءلت بحدة :

- وهل تختلف القطط الأسود ؟

- لا حيلة أمام قضاء الله .

- سوف ترتد الفتونة إلى عهد البلطجة والطغيان .

فقال الشاب بحرارة :

- ليس من اليسير النكوص عن تراث الناجى ..

فنتهدت وقالت وهي تخاطب نفسها :

- أمس كنت رغم الفقر السيدة، ومن الغد سأكون الأرملة الحزينة
المهجورة، أبتهل للمجهول بلا أمل، أحلم بالفردان المفقودة،
أنزوى عند الأفراح، أخاف الظلام، أحذر الرجال، أتجنب
النساء. ولا صديق إلا الإهمال والنسيان..

فقال بتعاب:

- ولكنى لم أمت بعد يا أمى!

- فليمد الله فى عمرك حتى تلعن الحياة، ولكنه تركك يافعا، سواق
كارو، لا مال ولا جاه، ولا عملقة تضمن لك الفتونة..

فتمت فى كآبة:

- آن لى أن أذهب، أستودعك الحى الذى لا يموت.
وتربط عصا أبيه العجراء وذهب.

١٢

نشأ شمس الدين فى مسكن متقشف فلم يعرف من الحياة إلا البساطة
والكذب. لم تحفظ ذاكرته بصورة واحدة من دار البنان الساقمة. وكان
عاشور يتملى وجهه الوسيم. القتبس من وجه أمه، ويقول باسمها:
ـ لن يصلح هذا الولد للفتونة..

وأرسله إلى الكتاب، وسكب فى قلبه أعدب الحان الحياة، ولم
يهمل جانب القوة فعلم ركوب الخيل ولللعب بالعصا والمصارعة وإن
لم يفكر قط فى إعداده للفتونة. ولما درج شمس الدين فى الوعى بنفسه
و بما حوله. أدرك سطوة أبيه غير المحدودة، وسرعان ما ارتطم بالتناقض
الحاديin «عظمته» وبين حياته الفقيرة الكادحة. وقال له مرة عند قدوم
عيده:

١٠٠

ـ أريد يا أبي أن أرتدي عباءة ولاية..

فقال عاشر بحزم:

ـ ألا ترى أن أباك لا يرتدى إلا الجلب؟

وكان فلة تضيق بالحياة مثل ابنها، وكانت تقول لعاشر على مسمع من شمس الدين:

ـ لو أخذت من الإتاوات ما يضمن لك حياة كريمة ما لامك أحد..

فيقول لها عاشر:

ـ بل عليك أن تربى الدجاج لتهبى حياتنا شيئاً من اليسر المشروع..

ثم يقول مخاطباً شمس الدين:

ـ لا قيمة لبريق في هذه الحياة بالقياس إلى طهارة الضمير وحب الناس وسماع الأناشيد.. !

ودربه على الكارو، وتبادل العمل عليها، ولما شارف السنتين تركها له أكثر الوقت. وكان شمس الدين يعجب بأبيه ويجله، ويحن في الوقت ذاته إلى الحياة السائفة، ويرؤى أحياناً أمانى أمه الجميلة، وبدافع من هذه الرغائب الكامنة قبل بسلامة نية «عيدية» قدمها له صاحب الوكالة، فبادر إلى شراء عباءة ولاية ومرکوب، وخطر مزهواً بها صباح يوم العيد. وما إن رأه عاشر حتى أخذه من تلابيه إلى البدروم ثم لطمه لطمة دار بها رأسه وصاحت به:

ـ يتسللون إلى من ثغرة ضعفك بعد أن أعيتهم إرادتي الصلبة..

وألزمه برد الملابس إلى البائع ثم برد العيدية إلى صاحب الوكالة. وأدرك شمس الدين أنه لا قبل له بغضب أبيه. وخجل من نفسه، وخذله أمه فلم تجرب على الدفاع عنه أو الوقوف إلى جانبه.

ـ ولكن الحبـ لا العنفـ. كان ما يربط شمس الدين بأبيه، فكان تلميذه ونحيفه وصديقه، وتشبع بكلماته وبيثاله ويتقواه ونزوعه إلى

الألحان والنجوم، ومضى بالكارو فخورا، وقاها التزعات
الضعف التي تومن بين الحين في أعماقه.
ورغم الفقر كان الحب والإجلال يحفان بهما حيثما ذهبا فهل يستمر
الحال كما كان؟
ها هي ذي أمه ترنو إلى الغد بأعين طافحة بالهوا جس!

١٣

في صحراء المالك الوحشية المترامية لاح الرجال كحفة من رمال.
أرض الهارين وقطاع الطرق، مأوى الجن والزواحف، مقبرة العظام
المطمورة. غسان يتقدم هلالا من رجال، يقابلهم غير بعيد دهشان
ورجاله. الأعين تترافق تحت أشعة شمس محروقة وتتلقي من لظى
الرمال جحينا.. الخلاء المحيط يرنو بعين باردة ساخرة قاسية متذرا
المنهزم بالضياع الأبدي.

أقبل شمس الدين هادئا، اختار موقفه في مركز بين الجماعتين،
معلنا حياده، ومعلتنا في الوقت ذاته استعداده للانضواء تحت راية
المتصر. ورفع يده تحية وقال بصوته الجهوري الخشن الذي لم يرث عن
عاشور سواه:

-سلام الله على رجال حارتنا.

فتمتمت شفاه جافة من التحفظ والإصرار:

-سلام الله على ابن العظيم الطيب.

وتذكر شمس الدين أن أحدا من الفريقين لم يسع إلى ضمه إليه ولا
إلى نيل بركة أمه. أجل ففى ميدان الصراع الوحشى لا يكتثر بالنساء
ولا باليافعين.. .

١٠٢

وانضم شعلان الأعور إلى موقف شمس الدين، وهو فتوة متقدعاً
بالكبير ويقوم من الجماعة مقام الناصح الأمين. قال شعلان يمهد
للمصارعة:

- سيدأ الصراع بين غسان ودهشان. فليذكر كل واحد من الجماعة
واجبه ..

وحرّك يده محذراً وواصل:

- يلزم كل مكانه، يرضى بما يقع، وخرق العهد معناه الضياع
للجميع ..

لم ينبع أحد، ظل الخلاء يرنو بنظرته الباردة القاسية الساخرة،
ونعى غراب في القبة الصافية، فعاد شعلان الأعور يقول:
ـ للفائز الحق، وعلى الجميع الطاعة وأولهم الخاسر.

استسلمت الجبهة المبللة بالعرق للمقادير ولم تتعرض، فخاطب
شعلان غسان متسائلاً:

- تعهد بالطاعة إذا الآخر انتصر؟

فقال غسان:

- أتعهد والله شهيد.

- وأنت يا دهشان؟

- أتعهد والله شهيد.

فقال شعلان:

- اللمسة كافية لتقرير النصر، والخذر الخذر من عنف لا يورث إلا
الضغينة.

واتسعت الدائرة فاقتصرت الحلقة على غسان ودهشان. جسمان
متينان يلعبان بالنبوت لعبة الحواة ويتحفزان. وثبت غسان إلى الأمام
فانقض عليه دهشان. التحتم النبوتان وتحاورا برشاقة ومكر ودهاء.

يجهد كل للنفاذ إلى ملمس فيقابل بالصد والرد والإفلات، ويستحر
الهجوم والخذر والإصرار، وتبارك الشمس النضال بجحيمها المستعر.
وبحركة خاطفة مباغته يعمى الخذر فيلمس نبوت غسان ترقوة
دهشان.

وتهتف جماعته بحماس متقد:

- غسان.. غسان.. اسم الله عليه!

وتراخي دهشان وهو يلهث ويتجرع الأسى. ومدل له غسان يده وهو
يقول:

- نعم الأخ أنت!

فسد عليها دهشان وهو يتمتم:

- ونعم الفتورة أنت!

ورددت الأفواه بنبرة منغومة:

- اسم الله عليه.. اسم الله عليه..

ودار غسان حول نفسه في رشاشة وسعادة وهو يتساءل:
- هل من معترض؟!

استباق الخاجر إلى المبايعة. ولما هدأت العاصفة ارتفع صوت
يقول:

- إنى أعتراض يا غسان.

١٤

انجذبت الأنظار نحو شمس الدين في ذهول. كان يقف بقامته
الرشيقه المائلة للطول، رافعاً وجهه الوسيم، وبشرته بأشعة الشمس
تحترق. غنم غسان:

- أنت يا شمس الدين؟

فأجابه بثبات:

- نعم يا غسان..

- أتطعم حقاً في الفتونة؟

- هي واجبي ومصيري.

فقال شulan الأعور بإشفاق:

- أبوك نفسه لم يعدك لها!

- تعلمـتـ أشيـاءـ، وعرفـتـ أشيـاءـ لا يستـمرـها مـثـلـ فـتوـةـ!

- الخـيرـ وحـدهـ لا يـكـفـيـ!

فلعب شمس الدين بنبوت أبيه في رشاقة خلابة، فصاح غسان:

- يـعزـ عـلـىـ آنـ أـسـىـءـ إـلـيـكـ ..

- لـندـعـ النـبـوـتـ يـتـكـلـمـ !

- إـنـكـ غـلامـ يـاـ شـمـسـ الدـيـنـ !

فقال ياصرار:

- إـنـىـ رـجـلـ مـنـ صـلـبـ رـجـلـ ..

فرفع غسان وجهه إلى السماء تحت النار المندلعة وصاح:

- عـفـوكـ يـاـ عـاشـورـ وـمـعـذـرـةـ !

لم يرتع أحد لما يجري. التوت الشفاه بالامتعاض. وتبعدت نظرة
الخلاء أبداً وأقصى وأسخر مما كانت.

وببدأ شمس الدين المعركة فتلاقى الخصمـانـ. وتفجرـتـ معـجزـةـ فيـ
اللحـظـةـ الـأـولـىـ فـتـسلـلـ نـبـوـتـ شـمـسـ الدـيـنـ إـلـىـ سـاقـ غـسـانـ وـالتـصـقـ.
وقف غسان ذاهلاً. وخـيلـ إـلـىـ كـثـيرـينـ أـنـهـ اـسـتـهـانـ بـخـصـمـهـ فـحـدـثـ ماـ
حـدـثـ. المـعـرـكـةـ لـمـ تـبـدـأـ، فـكـيـفـ هـكـذـاـ تـتـهـيـ؟ـ وـتـمـادـيـ غـسـانـ فـيـ ذـهـولـهـ،
ولـمـ يـهـتـفـ أـحـدـ. وـمـدـ شـمـسـ الدـيـنـ يـدـهـ وـهـوـ يـقـولـ:

-نعم الأخ أنت!

فتتجاهل غسان يده، وتتوثب بين حاجبيه الغضب. وصاح شعلان
الأعور مشفقاً ومحذراً:
- غسان امدد يدك!

فهتف غسان:

- إنها ضربة حظ وقدر.
- ولكن شاء الله أن يتتصر.
فهتف غسان بإصرار:

- النبوت حكم فاصل لمتماثلين في القوة، ولكن شمس الدين عود
أخضر ما أيسر أن ينكسر، أم تريدون أن تكونوا القمة سائفة لكل
حارة ولعبة بيد كل فتوة مقتدر؟!

عند ذاك رمى شمس الدين نبوته، ونضا عنه ملابسه إلا ما للعروة
يستر، ووقف بقامته الرشيقه المتألقه بلعب الشمس يتظر.
وابتسم غسان ابتسامة ثقة، وفعل مثل صاحبه، وهو يقول:
- سوف أحميك من شر نفسك.

وتقاربا خطوة فخطوة حتى التصقا تماماً ولف كل منهما ذراعه حول
الآخر. وشد كل بما فيه من عزم وإصرار وقوة حتى انتفخت منه
العضلات ونفرت العروق. انغرزت الأقدام في الرمال، وتعملقت
إرادة صلبة تروم اعتصار الخصم وتصفية ماء حياته. وحملقت الأعين
في ذهول وتوقعت لدم أن ينفجر. وتتابعت الشوانى منصهرة في الأتون
المتل heb. وانحبست الأنفاس فلم تسمع نائمة واحدة. حتى تلاقي حاجبا
غسان في عبوسة حاقدة. وبدا متهدياً للمستحيل والقدر. أو أنه يغالب
الغرق. ويدافع المجهول ولو بالجنون. ويطلق الحقد الأعمى على اليأس
الراحف.. ويتخاذل رغم الإصرار والكبرباء والغضب. ويختبط

وتترنح ساقاه . ويتهاوی فى العجز ويشهق فلا يرحمه شمس الدين حتى تسقط ذراعاه وتتداعى رجلاه وينهدم .

ويقف شمس الدين لاهثا غارقا فى العرق ، ويغلب صمت الذهول ، حتى يمضى شعلان الأعور إليه ملبسه وهو يقول :

- نعم الفتى .. ونعم الفتوة ..

وتنطلق الخناجر هائفة :

- اسم الله عليه .. اسم الله عليه ..

وصاح دهشان :

- ها قد بعث عاشور الناجي !

فقال شعلان الأعور :

- اسمه الجديد شمس الدين الناجي ..

وظل الخلاء محاطا متراميا مثابرا على جلاله وتعاليه ..

١٥

وكانت الحارة تتظر زفة الفتوة الجديد . راهن كثيرون على غسان كما راهن كثيرون على دهشان ، ولكن لم يخطر ببال أحد الفتى المليح شمس الدين . ولما ترامت الأخبار ذهل الجميع ، وسرعان ما انقلب الذهول فرحة شاملة . فرح الحرافيش ورقصوا وقالوا إن هذا يعني أن عاشور حى لم يمت .

وتساءل محمود قطائف بامتعاض شديد :

- هل رجع عصر المعجزات ؟

واستقبل شمس الدين بالبهجة والأفراح ، وحتى فلة زغردت رغم الحداد .

واستمع شيخ الحرارة إلى القصة كما رواها شعلان الأعور بكابة دفينة ، وراح يتساءل :

- ترى هل يمتد عهد التجهم والفقر؟ !

١٦

. وقال شمس الدين لأمه فلة مزهوا :

- كنت أعد نفسي لذلك .

فقالت بابتهاج :

- حتى أبوك لم يصدق .

فقال بجدية :

- ما أشق أن يكون مثلى خليفة لأبى . . .

فقالت بدهاء :

- لا تنس عدوك غسان ، ولكن ييدك أن تملك قلوب رجالك !

فتجهم وجهه وقال :

- إنى اليوم الأمل فلا خاب الأمل . .

فقالت بإغراء :

- الاعتدال سيد الأخلاق .

فقال بإصرار :

- إنى اليوم الأمل ، فلا خاب الأمل .

ومضت الأيام هازجة بالأفراح ، وآمن الناس بأن عاشر الناجي لم يمت .

وكان غسان يسهر في البوظة فيسكر ويغنى :

البخت إن مال حتعمل إيه بشطارتك

وذات مرة قال له شعلان الأعور :

- ألم تشبع من هذا الموال؟ عليك أن تنقى قلبك ..

فقال دهشان :

- إنه يفتحه للشياطين ..

فقال غسان بغلظة :

- إنك لا تغفر لي انتصارى عليك يا دهشان .

- عليك اللعنة ، بل عاملتك بالأصول ..

- لولا الحقد ما رحبت بفتونة غلام !

فتساءل دهشان بحق :

- ألم يتصر بكل جدارة؟

وعند ذاك تسأله عليه أبو راسين الخمار :

- قلبي يحدثنى بأن فتوتنا الجديد سيكون من زبائنى الكرام ..

فقهقه غسان وقال :

- أحلق شاربى لو فعل ، ولن نحظى منه إلا بالفقر ..

فصاح شعلان الأعور :

- لن تمر الليلة على خير !

فقال غسان ساخرا :

- هذيان سكران يا شعلان ، ستمر الليلة مثل كل ليلة ، ومثل الليالي السعيدة الغابرة التي شهدت ست السنوات وهى تخطر بين السكارى بجمالها الفتان !

ورماه دهشان بالقرعة فأصاب صدره وصرخ فى وجهه :

ـ يا وغد ..

ـ ووقف غسان متحدياً فوثب شعلان نحوه وقال له بحزم :

ـ لا حياة لك فى هذه الحارة ..

ـ فأدرك خطأه رغم سكره ، وغادر البوطة وهو يترنح ..

١٨

ولم يفكر أحد فى إبلاغ شمس الدين بما قيل عن أمه . قال شعلان دهشان :

ـ لا علم للفتى بذلك التاريخ القديم .

فقال دهشان :

ـ ولكن من حقه علينا أن نبلغه بشمرد غسان ..

وصمم شمس الدين على حسم الأمر بالسرعة الواجبة فقصد غسان فى مجلسه بالقهوة ، وقف أمامه بوجه يموج بالغضب ، وسألة :

ـ يا غسان هل يمكن أن تخلص لى كما أخلصت لأبى ؟

فقال غسان :

ـ لقد عاهدتك على ذلك ..
ـ ولكنك كاذب وغير أمين ..
ـ لا تصدق الوشاة ..
ـ أصدق المخلصين ..
ومال نحوه وهو يقول:
ـ لن تكون بعد اليوم من رجالى ..
ولم ير غسان بعد ذاك اللقاء فى الحارة ..

١٩

لم يتغير شيء من عهد عاشر الناجي .. خلفه شمس الدين راعيا للحرافيش شاكما للسادة والأعيان، وثابر الفتوة على عمله سواقا للكارو، كما اشتغل كل رجل من رجاله بحرفته. ولم يتخل عن شقته الصغيرة مسكنًا، وسد أذنه دون همسات أمه المتسللة. امتلأت أعطافه بالعظمة الحقيقة، وروى ظمآن قلبه بحب الناس وإعجابهم، وسرعان ما صار من رواد الزاوية وأصدقاء الشيخ حسين قفة. ومن أموال الإتاوات جدد أناث الزاوية، ورحب باقتراح للشيخ حسين قفة فأنشأ كتابا جديدا فوق السبيل.

ولم يغفل عن مسئوليته حيال الحرارة والناس قط. شعر بثقل الأمانة وخطوتها شأن المخلصين من الرجال. ولا شك أن فتوات الحرارات المجاورة قد استردوا أنفاسهم باختفاء العملاق المهيب، وراحوا يتحرشون ببعض الباعة المتجولين من أبناء الحرارة. فلكى يؤكّد قوته وينفض عنها شبّهات الظنون، ولكي يثبت أن ملاحته ورشاقته لا

ينقصان من فتونته ، قرر أن يتحدى أقوى الفتوات وهو فتوة العطوف .
وتحين فرصة زفة عطوفية فتعرض لها فى ميدان القلعة ، فدارت بين
الفريقين معركة حامية انتصر فيها انتصاراً حاسماً اجتاحت أنباؤه
الحارات جميعاً . فأيقن كل من داعبه أمل التحدي أن شمس الدين لا
يقل عن عاشور قوة وبأساً .

هكذا حافظت الحارة على نظامها المثالى فى الداخل وعلى سمعتها
خارج نطاق الميدان .

٢٠

رغم ذلك رجع شمس الدين من معركة العطوف مبلبل الخاطر .
الزويعة الشملة بالقوة والنصر تشرب بالأترية والقاذورات . لقد قال له
فتوا العطوف وهو يتوب للالتحام :

- أقدم يا بن الزانية . . أقدم يا بن عاهره خماره درويش !
وملا سبابه الأسماع . . هلل له رجاله وزاجر الآخرون . أهو محض
سباب ما تفتح به المعارك ؟ أم هو تاريخ يعلمه الجميع ويجهله هو بحكم
حدثة سنه ؟

وخلال إلى شعلان الأعور وسأله عما يعنيه الرجل ، فقال له شعلان
بحدة :

- نباح كلب جريح !
وقال له أيضاً :

- إن امرأة يختارها عاشور الناجى زوجة له ووعاء لذريته لا يمكن أن
ترتفق إليها شبهة من الشبهات ..

واطمأن قلبه، ولكن لفترة قصيرة. لم يسترد الصفاء. وهامت في صدره الهواجس مثل السحائب في اليوم المطير. وفي وقت راحته جعل يسترق النظرات إلى فلة. إنها في الأربعين أو دون ذلك. مليحة ملاحة فائقة. صغيرة الجسم، رشيقه، فاتنة. عيناه تنفتحان سحرا خالصاً. تقية محترمة وذات شخصية مؤثرة. لا يمكن أن يتصور ذلك، والويل من تسول له نفسه اقتحام محرابها! كم تعلق بها للدرجة الهوس حتى قال له عاشور الناجي يوماً :

- الرجل الحق لا يتعلق بأمه مثلكما تفعل ..

واستصحبه معه وهو صغير، فكان يأكل وينام فوق الكارو، ودار في ذلك أبيه منتزعًا من الأحضان الدافئة.

ترى ماذا شهدت خمارة درويش؟ هل يوجد رجال يعرفون من خفايا أمه ما لا يمكن أن يعرف؟!

وغمغم بغضب:

- الويل من تسول له نفسه اقتحام محرابها!

٢١

وذات يوم رأى وجهها أرجعه سنوات إلى عهد الطفولة.

كان يمضي بالكارو نحو الميدان فاعتبرضته معركة عجيبة ناشبة بين فتاة وفتى: كانت الفتاة تشب كالنمر فتلطم الفتى، تبصق على وجهه، قاذفة إيهاب بسيل من الشتايم، وهو يتفادى من هجماتها، يرد الشتايم بأقبح منها، والناس من حولهما يتفرجون ويتصاحكون.

ولما رأى الناس شمس الدين حيوه، وتوقفت المعركة، فهرب الفتى،

١١٣

وراحت الفتاة تلتقط ملائتها من الأرض وتتلف بها وهي ترافقه في حياء.

أعجب شمس الدين بحيويتها، ونضارتها وجهها، ومرونة جسدها.
ورأته يرنو إليها فقالت معتذرة:

- قل أدبه يا معلمتنا فأدبته..

فتمتم باسما:

- أحسنت ، ما اسمك؟

- عجمية ..

ثم بزيـد من الحياء:

- ألا تذكرني يا معلم؟

وتذكرها فجأة فقال بدهشة:

- بلـى .. كـنا نـلـعـبـ مـعاـ ..

- ولـكـنـكـ لمـ تـذـكـرـنـيـ ..

- تغيرـتـ كـثـيرـاـ ، أـنـتـ اـبـنـةـ دـهـشـانـ؟

فـحـنـتـ رـأـسـهـ وـذـهـبـتـ .

ابـنـةـ مـعـاـونـهـ دـهـشـانـ ، وـلـكـنـ لـشـدـ مـاـ تـغـيـرـتـ .

وـأـشـعـلـتـ حـوـاسـهـ فـتـدـفـقـ شـبـابـهـ مـثـلـ أـشـعـةـ الـظـهـيرـةـ .

٢٢

وعند مشارف الغورية رأى عيوشة الدلاله وهي تشير إليه فتوقف.
تبين له أنها بصحبة سيدة أخرى . سيدة ذات بهاء يلفت الأنظار إليها
ملائتها الكريشة وعروض برقعها الذهبية ، وعينيها المكحولتين

الجميلتين، وجسمها المدمج الريان . وسرعان ما اتخذت المرأة
مجلسهما فوق العربة وعيوشة تقول بنبرتها العجوز :
- الدرب الأحمر يا معلم ..

وتب إلى مقدمة الكارو، وهو يتمنى لو يخطف من المرأة نظرة
أخرى .

وجعلت عيوشة تقول :
- ما أجمل أن تسوق الكارو يا فتوتنا ، وأنت إن شئت أن تعيش حياة
الوجهاء ما منعك مانع !

فسعد بقولها ولكن لم ينبس . إنه يسعد بدفع الحب ، ويمتلئ بأرجح
العظمة الحقيقة ، ويتحقق بذلك خطرات الضعف والغواية . وتتوقع أن
تقول الجميلة شيئاً ولكنها لاذت بالصمت ، حتى غادرت العربية في
الдорب الأحمر . هناك ملأ منها عينيه ، وأتبعها ناظريه وهي تمضى نحو
رواق المشايخ .

ولبست عيوشة بمحلها فنظر نحوها متسائلاً فتمت :
- القلعة ..

مضت العربية وهو صامت . صمت رغم أنه رغب في التكلم . وإذا
بالعجز تساءل :
- ألم تر من قبل ست قمر؟

فشكراً للمرأة فتحها الحديث وأجاب :

- نعم ، لم أرها ..

- هذا شأن السيدات المصنونات !

- من حارتني؟ ..

- نعم ، أرملاة غاية في الجمال والغنى ..

فتساءل :

- ولم لا تستقل الحانطور؟

- رغبت في عربة فتوتنا!

فالتفت نحوها فقرأ في عينيها الكليلتين نظرة باسمة ماكرة . اشتعلت حواسه مرة أخرى . استحضر صورة عجمية فترقصت الصورتان في وجданه وثمل .

وقالت عيوشة :

- أعجبتك ولاشك؟

فسألها بخشونة مصطنعة :

- عم تسائلين يا ولية؟

فقالت ضاحكة :

- مهمتى بيع الملابس والسعادة للناس ..

فانقطع عنها في حذر .

و عند ميدان القلعة غادرت العربية وهي تقول له :

- للكلام بقية ، فلا تنس عيوشة ..

٢٣

وتلاقت به أكثر من مرة فوق الكارو ، عيوشة الدلاله . الغزو يطرق بابه بعنف ولكن ضعفه الحقيقي يكمن في قلب الفتى ، في شبابه المتقد . قمر تناوشة بأبهتها ، و عجمية تناوشة أيضاً بشبابها . ولعله يتجاوز عمره اليافع في إدراك ما يعنيه زواجه من سيدة في مركز قمر ، وما يعنيه زواجه من فتاة مثل عجمية . ثمة عاصفة تتوثب في الأفق . من المستحسن أن

تتصف بوادرها وأن يخوض ضرباتها ليحظى في النهاية بالهدوء والاستقرار .

وفي جلسة المساء عقب العشاء رأى أمه في حال غير عادية . عيناهما الجميلتان تبرقان بالمكر ، وتنفذان إلى دوامة هواجسه . وهما هي ذي تassel فـ عتاب :

- ماذا يجري وراء ظهرى؟

حسن . إنه يرحب بالمكاشفة . ويرغب في هتك أسرار قلبها التمرد .
- عم تسألين؟

فرفعت رأسها في كبراء من يتعالى على الانخداع ، وتساءلت :
- أى لعنة تلعبها عيوشة الدلاله؟

وقال لنفسه إنه لا سريان في فم عيوشة المثرم ، وابتسم مستسلماً
وهو يتمتم :

- إنها تمارس مهنتها .

فقالت بحدة :

- قمر في مثل سن أمك وهي عقيم !

فقال رغبة في الإثارة ليس إلا :

- ولكنها جميلة وغنية !

- لم يبق من عمر جمالها إلا أيام ، وإذا كنت ترغب حقاً في الشراء ،
فماذا يصدقك عنه؟

فتساءل منكراً :

- أترضين لى خيانة عهد عاشر الناجى؟

- ولكن الإنراء عن طريق امرأة لا يقل عن ذلك عاراً!
فقال لا عن إيمان ولكن تمامياً في إثارتها :

- لا أظن ذلك ..

- حقاً؟ إذن دعني أخترك عروساً مناسبة من بنات الوجهاء!

- هو أيضاً إثراء عن طريق امرأة!

- ولكنه طبيعي لا شذوذ فيه، وأصارحك بأن هذا ما يتمناه قلبي!

فربنا إليها بقلق وقال:

- إنك لا تسلمين بحياتنا المجيدة إلا مضطراً، أصدقت حقاً أنى

أستهين بحب الناس وبالعظمة الحقيقة؟

- أكنت تذكر بأمرك؟

- كنت أداعبها!

فقالت باستياء:

- لست أناية كما تصوّر، أمس فقط رفضت يد سيد وجهاء الحرارة!

فقطب متزعجاً وقد تخضب وجهه بالدم، فقالت:

- وعيوشة كانت الواسطة أيضاً!

- عليها اللعنة!

- قلت لها إن أرملة عاشر الناجي لا تقبل أن يحل محله رجل آخر.

فقال بجهف:

- أقل ما يمكن أن يقال ..

فقالت بتحمّد:

- قلت له إكراماً لأبيك لا خوفاً منك ..

- ومن الوغد؟

- ليس وغداً، وما طلبه مشروع ..

- من هو؟

- عتر الخشاب صاحب الوكالة!

فقال بازدراء :

ـ إنه متزوج ويماثلني في السن !

فهزت منكبيها استهانة وقالت :

ـ هذا ما كان ! أما حالنا فنحن نجري العدل بين الناس وننظم أنفسنا !

فقال بحزم :

ـ لقد قال أبي كلمته وما على إلا الطاعة .

وقال لنفسه إن قلبها لطموح ، إنها متمردة ، ترى ما حقيقة تاريخك

أيتها السيدة التي أحبها أكثر من أي شيء في الوجود ؟

٢٤

اعترف شمس الدين بأن أمه قوية وعنيدة . اعترف أيضاً بأنه يحبها ويحترمها لا بصفتها أمه فحسب ولكن بصفتها أرملة عاشور الناجي أيضاً . أجل . إن عاشور الناجي أبوه ولكنه يمثل في الوقت ذاته حقيقة أكبر من الأبوة . وهو يهيم بهذه الحقيقة أكثر من الأبوة نفسها ، هي محور حياته . ومعقد أمله ، وسر افتتانه بالعظمة الحقيقية .

لذا قرر أن يصيّب هدفه دون مشاورة عقيمة .

مضى بصديقه دهشان إلى الساحة أمام التكية في أول الليل . كانت ليلة من ليالي الصيف الرائقة . والخناجر تتدو بالحانها والنجوم فوقها توامض في سلام .

وقال شمس الدين لدهشان :

ـ في هذا المكان النطيب كان عاشور يخلو إلى نفسه ويواصل أسمى أفكار الحياة .

فدعى دهشان لعلمه القديم بالرحمة في السماوات . فقال شمس الدين :

- وقد اخترته لتحل بركته بما سأطلب به منك ..

فتمت دهشان :

- إنني رهن أمرك ولتحل به البركة ..

فقال شمس الدين بهدوء :

- أريد ابتك عجمية على سنة الله ورسوله !

وأخذ دهشان بما لم يتوقع ، فانعقد لسانه ، فسأل شمس الدين

بلطف :

- ما قولك يا دهشان ؟

- ياله من شرف لم أحلم به يا معلمى !

فمد له يده قائلا :

- إذن فلنقرأ الفاتحة .

٢٥

ولدى رجوعه إلى بيته من الساحة مارس شعوراً أليما ، شعور التحدى لسيطرة أمه ، السطوة القوية الناعمة . قال وهو يجالسها في هدوء غامض :

- أمي ، قرأت الآن فاتحة عجمية بنت دهشان .

وللحظة لم تفهم فلة شيئا . ثم رنت إليه في ذهول :

- لماذا قلت ؟

فقال ياباء داخلى :

١٢٠

- قرأت فاتحة عجمية بنت دهشان.

- مزاح من جديد؟

- هي الحقيقة يا أمي ..

فتساءلت محتاجة :

- أما كان يجب أن تشاورني قبل أن تفعل؟

- بنت مناسبة وأبوها رجل مخلص ..

- أبوها رجل مخلص ، ولكن أما كان يجب أن تشاورني؟

فقال بهدوء :

- إنني أعرف رأيك مقدما وهو مستحيل ..

فتمتمت محزونة :

يا للخساراة!

فتساءل باسما :

- ألا أستحق تهنة طيبة؟

وترددت قليلا ، ثم اقتربت منه فلثمت جبينه وتمت :

- فليبارك المولى خطواتك ..

٢٦

واستأذن شيخ الحرارة محمود قطائف في مقابلة شمس الدين .
وتذكرت فلة خطوة مثل هذه في العهد القديم فغمغمت «عليه اللعنة»
فاستقبله شمس الدين فأجلسه إلى جانبه على الكتبة الوحيدة في
الحجرة . ورغم تجاوزه الستين بدا متمنعا بالصحة والحيوية ، وأقدر على

الصمود لضالة جسمه وخفته . وقد مرت فلة القهوة وقد لفت رأسها بخمار أسود ، وجاملته قائلة :

- كيف حالك يا معلم محمود؟

فدعى لها الرجل بالصحة والبركة ، وقال :

- ليتك تشرفين مجلسنا بحضورك لنتتفع برأيك !

فتبادلت فلة نظرة مع شمس الدين ثم جلست على حافة الفراش .
وتوبث شمس الدين للاستماع وهو لا يتوقع خيرا . كان يعد محمود قطائف بين كارهيه المكظومين ، مثل الأعيان ، ومن فقدوا بفتونته الجاه والسيطرة . وقالشيخ الحارة :

- الحلم سيد الأخلاق ، والكمال من شيم القادرين ..

فهزَّ شمس الدين رأسه دون أن ينبع فواصل الرجل :

- بكل أمانة يا معلم شمس الدين إنني مفوض من الأعيان للحديث معك ..

- ماذا يريدون؟

- لهم رغبة شريفة صادقة في الاحتفال بزفافك ..

قال شمس الدين ببساطة :

- سيجري زفافي في نطاق قدرتىكسواق كارو ..

- ولكنك فتوة الحارة أيضا ..

- لن يغير ذلك من وضعى كما تعلم .

- إنك فتوة الجميع ، فتوة الأعيان كما أنك فتوة الحرافيش ، ومن حق كل فريق أن يحتفل بك بطريقته وفي نطاق قدرته ..

والتقتشيخ الحارة نحو فلة وسألتها :

- ما رأيك يا سرت أم شمس الدين؟

فأجاب فلة بدھاء :

- الكريم يقبل التكريم، ولكن الرأى رأيه ..

فقال محمود قطائف بارتياح :

- بالحق دائماً تنتظرين ..

وتجهم وجه شمس الدين ، فقال :

- كيف أقبل تكريم أناس أعلم أنهم يكرهوننى؟

- كلا لا أحد يكره العدل، ولكنهم يرغبون في تصفية الجرو.

- إنه لن يصفو بالأاعيب، وإنى أخمن أن عندك الكثير فهات ما عندك ..

فتخرج محمود قطائف مليا ثم قال :

- إنهم يقولون إن جميع الناس يتمتعون بالعدل والكرامة عدا الأعيان وأصحاب النشاط الحقيقى ، فهل هذا من العدل؟!

ها هي ذى جيوش الظلم تتحرك . ت يريد أن تطمس قبسات النور في زوايا الحرارة وأزقتها . يتوهمن أن شمس الدين صبي يافع تخيل له الزينة كما تخيل لب أمه الجميلة . فارفع عصا عشور العجراء واهو بها على نبضات الفتنة والغرور والإغراء .

وتتساءل بخشونة :

- ألا يعيشون في أمان وراحة بال؟

- حلمك يا معلم ، لم لا تؤخذ الإتاوات إلا منهم؟

- هم وحدهم القادرون ..

- ولكن الناس تفسر ذلك على هوائهم ويستهينون بهم !

فقال بغضب :

- إنهم يأبون إلا الرفعة لأنفسهم والدونية للآخرين .

فصمت محمود قطائف مليا ثم قال :

- من حقهم أن يطالبوا باحترام يكافئ أعمالهم .
- ماذا تعنى ؟

- ماذا كانت تكون حارتنا لولاهم ؟ دورهم زينة ، أسماؤهم نجوم فى
الخرى ، من حواناتهم يتدفق الغذاء والكساء لحارتنا ، ومن أموالهم
شيدت الزاوية والخوض والسبيل والكتاب الجديد ، ألا يكفى ذلك
كله ؟ !

فاحتد شمس الدين غاضبا وقال :

- لو لا أبي ما انتفع بأموالهم أحد ، انظر إلى نظرائهم فى الحارات
الأخرى ماذا يفعلون !

فلاذ شيخ الحرارة بالصمت مرة أخرى ، بدا متربدا ، فقالت فلة :

- تكلم ، ما على الرسول إلا البلاغ .

فتتشجع محمود قطائف قائلا :

- إنهم يرون أنهم مظلومون ، كما يرون أنك ورجالك مظلومون
أيضا ، يقولون إن منزلة الفتوة الحقيقة بين الأعيان ، وإن الأعيان
فضلهم الله درجات على الناس ، ولن ينتقص ذلك من حق الفقير
في العدل !

فصاح شمس الدين :

- وضع الأمر يا شيخ الحرارة ، إنهم يغروننى بنبذ العهد والارتماء فى
 أحضان البطلجة ..
- معاذ الله !

- هي الحقيقة وإنك لتؤمن بما أقول ..

- معاذ الله يا معلم .

- إليك رأى النهائى ..

فقطاعه واقفا وهو يقول بتسلل :

- بل فكر في الأمر قليلاً، لا أطالبك إلا بتأجيل الحكم حتى تفكـر ..
ومرق من الحجرة كالهارب ..

٢٧

اختفى محمود قطائف تاركاً خلفه رائحة تبغ وعرق. وترك صمنا
تلاقى فيه النظرات وتبتعد. وثمة تناحر بين الفتى وأمه. بين الفتى
وغرائزه. وزينة الدنيا ذات رائحة نفاذة ينجدب إليها حل الأهواء
المكبوة. في هذه الحجرة الحقيرة تضطرم أحلام باللآلئ والنعيم
والضجعة الطيبة. همسات النفس يحمر لها الوجه خجلاً - أمه الجميلة
المتمردة ذات الالتفاتة الساحرة. جمالها مجهول النسب يتجسد ضعفه
البغيس المستر.

وقال لها متحدياً :

- الفتوة كما تعلمت هو حامي الحرارة وراعيها وكابح قوى الشر
فيها ..

فقالت ساخرة :

- وهو لا يتميز عن أي متسلول فيها!

فقال بحرارة :

- أمي، كوني معى لا علىَّ ..

- إنى معك دوماً والله شهيد ..

فهتف منقضاً علىِّ أمه ونفسه معاً :

- أريد أن أكون جديراً باسم الناجى وعهده ..

فقالت أمه بظفر :

- عاشور لم يتردد عن وضع يده علىِّ دار البنان الخالية!

١٢٥

فقال غاضباً :

- العبرة بالخاتمة !

. - بل أعطانا في كل حال مثلاً يحتذى ..

فقال بازدراء :

- سيجيء زمن نلصق فيه بعاشور العظيم كل خلجة ضعف تضرب

في نفوسنا ..

٢٨

مشى شمس الدين بحذاء الحمار مطمئناً ومشينا بالجراح .. طالما رأى
الشاعر يسيل مبتهجاً عقب الغيوم الممطرة. لا خجل من الضعف إذا
الماء عليه انتصر. وما معنى القوة إذا لم تستو فوق خلجمات الخور.
فانهله من رحيق الحياة السامي النابع من علو الهمم.
وأمام دكان محمود قطائف شد اللجام فتوقفت العربة.

وهرع إليه الرجل متلهفاً :

فتخطأه بنظرة باردة وقال بحزن :

- عاشور الناجي لم يمت !

٢٩

وكان شمس الدين ماضياً نحو مسكنه ليلاً عندما اعترضه شبح
امرأة.

١٢٦

همست :

- مساء الخير ..

- عيوشة؟ ماذا جاء بك؟

- هلا تبعتنى إلى حجرتى؟

خفق قلبه. خاف الدعوة. ثار فضوله.. اشتعل شبابه.. مضى
وراءها صاغرا.

٣٠

همست العجوز وهي تقدمه في الدهليز :

- أمرك عجيب!

- ماذا؟

- ألا يحق لنا أن نسأل لم يرفض البدر في تمامه؟

فتحت باب الحجرة فارتدى ضوء المصباح على الأرض. تحت من
أمامه وهي تدفعه بيدها. رأى ست قمر جالسة على حافة الفراش وهو
الموضع الوحيد الصالح للجلوس. مبرقة ملفوقة في ملائتها غاضبة
البصر من الحياة ..

وقف يرثى إليها في غاية من الانفعال.

وتساءلت عيوشة من موقفها فوق العتبة :

- هل بلغك عنا ما يسوء؟

فأجاب بارتباك : ..

- أبدا.

- هل فى جمالنا نقص أو عيب؟
فقال والخذر يسرى فى حواسه:
- معاذ الله ..

- هل هون من شأننا البوح بسرنا؟
فغمغم بأصوات مغضومة وجف ريقه.
وأغلقت العجوز الباب فدفعت به إلى الحافة.
وتمتمت قمر بصوت لا يكاد يسمع :
- إنى خجلى ، لا أدرى ماذا صنعت بنفسى ..

فقال بيلاهة :
- كل خير ..

- لا تسىء بي الظن ..

وتهاوى تحت دفعة طوفان فالتهمت الغريزة الكون كله . وأذعن
لشيئه القوة الملكية المزهوة بالاستهتار والخيلاء والعمى .
وهمست قمر وهى تقاوم مقاومة لا معنى لها :
- لا تسىء بي الظن ..

٣١

وجد شمس الدين نفسه فى الدهلiz مرة أخرى . عقب إغلاق الباب
وراءه . سبع الظلام فى المكان وتسرب إلى حنایا نفسه . أخلفت النار
رماداً خانقاً وزفرت الدنيا فتوراً وأسى .
وعند نهاية الدهليز رأى شبح عيوشة على ضوء النجوم الباهت .
همست له وهو يمضى :

١٢٨

- الأمل في شهامة الرجال لا يخيب ..
فتتجهم حانقاً ومضى مثلاً بالأسى ..

٣٢

لقد أخطأ ولكن خطأ الآخرين أفح . وهو مبلل البال ولكنها امرأة
داهية . لن يقع في الشرك كأبله ، لن يقامر بمعنه الفليس ، ولو تحمل الملا
وكدرا . إن قوى الظلام تتأمر عليه ، كما تتأمر عليه أمه ونزعات ضعفه ،
ولكنه جدير بخوض المعارك .

٣٣

وزفت عجمية دهشان إلى شمس الدين الناجي .
وتصدى له شعلان الأعور وهو يقول :
ـ هذه ليلة يطيب فيها الخروج على الأصول ..

ومضى به إلى غرزة خليل سكر . ومن الغرزة مضى به إلى بوظة
عليوة أبو راسين .

وسارت الزفة التقليدية تجوب أطراف الحى يتقدمها الطبل والزمر ،
وتخدق بها النبایت . لم يعترضها معترض ، وبها رسخت مهابة الفتورة
الأخير .

ورأى شمس الدين أنه يطير بلا توقف . وعند كل محطة تهزه نشوة
سرور وإلهام . وباركه عاشور الناجي وهو يمتنى مهراء أخضر .

١٢٩

وهزجت له الملائكة فوق قطع السحاب .. وانفتح باب التكية وتدفق منه
اللحن الملكي وثمار التوت .

أما عجمية فقد حملت على هودج مكبل بالستائر المزركشة .
واستقبلتها فلة بوجه مشرق وقلب كثيب .

٣٤

فى الصباحية جلس على أريكته المختارة بعد دخول القهوة .
لح عيوشة تتسلل نحوه ثم تقرفص تحت يمينه . حجبت سحابة ضوء
الشمس . همس الصوت المثرم :
- ألف نهار أبيض !
فشكراً فاستدركت :
- ولو أنى لمأشهد الفرح !
فقال بخمول :
- دعوتك مباحة فى جميع الأفراح .
- على أى حال نتوقع أن يشملنا عدل فتوتنا كالآخرين !
- أى ظلم تشکين ؟
- إنى أدافع عن ضعف سيدة جليلة ..
فقال بامتعاض :
- أنت الغاوية !
- هل تصح الغواية على القوى الأمين ؟!
فتمت متقدراً :

- عليك اللعنة ..

فنهضت لتذهب وهي تقول :

- لن غل انتظار العدل ..

٣٥

وتمر الأيام.

تزمجر زوابع أمشير ثم تعقبها رياح الخمسين . تراكم السحب ثم يسفر بحر الصفاء الأزرق .

من أول شهر ينشب صراع حام بين فلة وعجمية ، يستحر ويستفحـل بلا أمل في سلام ، وتنجب العروس ولداً بعد ولد . ويتجاهـل شمس الدين الصراع ، يشفـق من مساندة المظلوم كما يشفـق من زجر الظالم . ثبت له أن دخـول معركة آمن من الدخـول بين امرأتين متعـاديـن . وتبـدت فلة عـنـيدة شـرـسة لا تـرـحـم كما تـبـدت عـجمـية قـوـية سـلـيـطة اللسان متـوحـشـة عند الغـضـب رغم مـزاـيـاـها النـافـعـة في النـشـاط والتـفـانـى في العمل والإـلـاـص لـلـزـوج والـوـلـد .

وسمـع ذات يوم فـلة تـعـير زـوجـته بـجـدـلـصـ، وما يـدرـى إـلا وعـجمـية تصـيـحـ بها «يا ربـيـة الـبـوـظـة». عند ذـاك فـقد صـوـابـه وصـفـعـ زـوجـه صـفـعة كـادـت تـفـقـدـها الحـيـاة .

ومـضـى إـلـى سـاحـة التـكـيـة منـفـرـاـ بـنـفـسـهـ فـي الـظـلـامـ. لمـيـسـعـ الأـلـحانـ ولا رـناـ إـلـى نـحـمـ. انـصـهـرـ فـي نـارـ باـطـنـهـ المـوـقـدـةـ. هـىـ الحـقـيقـةـ بلاـ مـرأـءـ. يـعـرـفـهاـ الأـعـدـاءـ وـالـأـصـدـقـاءـ. لـوـلاـ سـطـوـتـهـ لـتـغـنـىـ بـهـاـ الكـارـهـونـ. هـىـ حـكـاـيـتـهـمـ المـفـضـلـةـ وـرـاءـ الـأـبـوـابـ المـغـلـقـةـ. إـنـهـ يـعـانـقـ الجـنـونـ

١٣١

ويرفض أن يحتقر أمه. لو لم تكن بريئة وفاضلة ما تزوج منها عاشر الناجي. اقتراها بعاشر شهادة أبدية بفضلها وخلق جديد لها. الويل من تسول له نفسه المساس بها. ولكن تبقى بعد ذلك الحقيقة قرحة دامية. وقد جاء الوباء ليهلك أى رجل من العابثين بها. ولكن تبقى الحقيقة قرحة دامية. قدح الحياة حتى فى أسعد أحوالها لا يخلو من كدر وسم. الويل الويل للحزن والكدر.

ومن شدةأساه حمل السور العتيق المترامي فوق عاته..

٣٦

رغم كل شيء اعتبرته أمه متهاونا في حقها. واستسلمت للغضب فرمته بطعنة مفاجئة. انتهت فرصة غياب عجمية في الخارج وقالت له بجرأة سافرة:

- قررت أن أتزوج!

فذهل شمس الدين، ورماها بنظرة متأججة وهو يتساءل:

- ماذا؟

- قررت أن أتزوج!

- إنك تمزجين..

- بل هو الجد.

فصاح:

- هو الجنون.

- لا جنون فيما الله به أذن.

فصرخ بغضب:

-لن يقع ذلك وأنا حى !

وصار عنتر الخشاب غريمه فأهانه وهدده حتى اضطر الرجل إلى لزوم داره ، وراح يقول لأصحابه :

-انظروا ماذا يفعل الفتوة العادل ..

وقال أيضا :

-إنه يتحدى شريعة الله ذى الجلال ..

ويتضاعف غصب شمس الدين ، ويتضاعف حزنه ، ويشعر بأن الأرض الطيبة تميد به وأنه ينحرف عن الجادة ..

وتصاب فلة بحمى . تتدور صحتها ولا تنفع معها وصفات العطار . وترنو إليه صامتة ، وتعجز حتى عن البكاء ، وتسلم الروح في جوف الليل .

٣٧

شعر بأنه يقتلع من جذوره وأن الشمس لم تعد تشرق .

وتطايرت شائعات في الحالات المعادية بأن شمس الدين دس السم لأمه ليمنعها من الزواج . وتمادوا فقالوا إنه اكتشف علاقة غير مشروعة بينها وبين عتنر الخشاب . وهاج شمس الدين فخاض معارك حامية دون أن يتحداه أحد ، وتمثل في الحى جبارا لا يعرف الرحمة .

وغشته كآبة دائمة مثل المرض المزمن . وتهولت في خياله انحرافاته ، واجتر موافقه المؤسفة مع قمر وفلة وعتر الخشاب وعنفه الجنوبي في المعارك .

وراح يقول محزونا :

- إنى أحمل اسم الناجى لا صفاته .
وذات ليلة اضطربت أعصابه تحت ضربات قدره فمضى كالنائم إلى
مسكن عيوشة الدلاله . جلس على الفراش دون أن ينظر إليها وهى
تحملق فيه بذهول .

وقال بلا أى انفعال :
ـ إلى بقمر . . . !

٣٨

وتقضى الأيام .
يكبر الأبناء ويتأهلون بشتى الحرف .

يموت شيخ الحرارة محمود قطائف فيحل محله سعيد الفقى . يموت
شعلان الأعور ويتقاعد دهشان . ويموت شيخ الزاوية حسين قفة فيحل
 محله الشيخ طلبة القاضى . ويموت عليوة أبو راسين فيشتري الخماره
 عثمان الدرزى .

وولدت عجمية آخر العنقود «سليمان» . وجاء غوه خارقا للملأوف
 حتى ذكر أباء بعملقة عاشور . لذلك قرر أن يؤهله للفتونة ، وأن يربيه
 التربية المثالىة الخلقة بعهد الناجى وتقاليده .

ورغم ما عانى شمس الدين من انحرافات شخصية فإنه حافظ
 على نقاء فتونته للحرارة . ظل يعمل سواق كارو رغم سطوطه وتقدمه
 فى العمر . ورعى المرافيش بالرحمة والعدل والحب . وعرف
 بالتقوى والعبادة وصدق الإيمان . وتناسي الناس أخطاءه ، وعبدوا
 طيب خصاله ، وأصبح اسم الناجى مرادفا عندهم للخير والولاية

١٣٤

تنساب عربة مكللة بالزهور والحياء . صلصلة عجلاتها المدوية لا يسمعها أحد . الأذن لا تسمع إلا ما ترغب في سماعه . يتوهם الفحل أنه افترن بالدنيا قران دوام . ولكن العربية لا تتوقف والدنيا زوج خثون .

دأبت عجمية على صبغ شعرها بالحناء ، غزاماً الشيب منذ بلغت الخمسين فلما شارت الستين لم يبق برأسها شعرة سوداء واحدة . الحناء تروى الشعر بباء الغست وتضفي عليه حرارة وشموخاً . وهي ما زالت قوية ، تفيس بالحيوية ، متحركة لا تهدى ، تواصل العمل مع الشمس وأحياناً مع الشمس والقمر ولم تزايلها النضارة ، واكتسبت مع الأيام بدانة فاخرة . لم يتسلل إلى هيكلها المتين ما يثير هوا جس الخدر .

ويداعبها شمس الدين فيقول لها وهو يلحظ عجينة الحناء :

- ما جدو الكذب يا ولية؟

فتسائله ساخرة :

- إذا كان الشيب علامه صادقة فلم يبقى رأسك أسود؟
فاحم الشعر ، قوى البناء ، مستمسك بالقوة والرشاقة والبهاء . إنها تضمر نحوه حباً وإعجاباً بلا حدود ، ومساً من الغيرة والخوف ، لم

يتزوج بأخرى، لم يرتكب إلا هفوة عابرة لم تتكرر مع عجوز في سن
أمه. ولكن منذا يضمن المستقبل؟!

٤١

وذات صباح وهو يمشط ذئابته حملقت عجمية في رأسه، وبفرحة
لم تفلح في مداراتها هتفت:
ـ شعرة بيضاء!

التفت نحوها باهتمام كما يلتفت إلى صوت النذير في المعركة.
حدجها باستياء فقالت:

ـ شعرة بيضاء وحق النعمة..

فنظر إلى المرأة الصغيرة بيده، وتمتن:
ـ كاذبة..

فاقتربت منه مرکزة بصرها على هدفها كالقطة عندما تنقض على
الفأر، استخلصت من الذئابة شعرة وقالت:
ـ ها هي ذى يا معلم..

تفحصها في المرأة. لا مفر ولا مكابرة. كأنما في سوء ضبط. كما
ضبط منذ أعوام وأعوام وهو يتسلل إلى بدرؤم عيوشة. امتلاً قلبه
بالاستياء والخنق، والخجل. وتجنب النظر إليها متممًا باستهانة:
ـ وماذا يعني هذا؟!

ومضى وهو يقول:
ـ يا لك من حقد!

لم يمر الاكتشاف بسلام كما توقعت . كان يتفحص رأسه كل صباح
بتدقق واهتمام . ندمت على ما بدر منها . وقالت مداهنة :
ـ لا علاقة ألبته بين الشيب والعافية ..

ولكنه كان يتساءل عما بلغ من عمر . متى بلغه ؟ كيف قطع ذلك
الشوط الطويل ؟ ألم يهزم غسان أمس ؟ وكيف هرم دهشان وبات يمشي
مثل طفل ؟ وأى قيمة لفتوة بغير قوة دائمة ؟
وعادت عجمية تقول :

ـ الصحة هي ما الله نسأل ..
فأسألها بغيط :

ـ لماذا تكثرين من الحكم الفارغة ؟
فضحكت لتهون من حدته وقالت :
ـ الصبغة لا تعيب الرجال .

فهتف :

ـ لست من الحمقى ..

لأول مرة يتساءل عما فات وعما هو آت . ويتذكر الأموات . ويذكر
الأولياء الذين عمروا ألف عام . والخراب الذي يبعث بالأقوباء . وأن
الغدر ليس وقفًا على ضعف النفس والرجال . وأن هدم زفة مسلحة
يسير ألف مرة من صد ثانية بما لا يقال . وأن البيت يجدد والخرابة تعمّر
لا الإنسان . وأن الطرب طلاء قصير الأجل فوق موال الفراق .

وطوق رأسه بالثلاثة وسائلها :

– أتدرىن ما هو الدعاء؟

ولما لم تجبه قال:

– أن يسبق الأجل خور الرجال!

٤٣

وقالت عجمية عقب ذهابه إن ما يبقى للإنسان هو الإيمان.

وجاءها نعى أبيها دهشان فصرخت صرخة ارتجت لها قضبان
الشباك ..

٤٤

بك عجمية أباها دهشان طويلاً. جعلت تقول إن الإنسان يصبح
بطول العمر عادة محبوبة يتعدّر تصور الدنيا بغيرها. وحزن شمس
الدين لوفاة صديقه وصديق أبيه من قبل. ولكن لم يزعجه موت كما
أزعجه موت عتير الخشاب صاحب الوكالة. فهذا رجل يماثله في
السن، يقف معه في صف واحد، وتدهورت صحته بغتة عقب شلل
مفاجئ. ولكن الموت لا يهمه، لا يزعجه بقدر ما تزعجه الشيخوخة
والضعف. إنه يأبى أن يتصر على الفتوات وينهزم أمام الأسى المجهول
بلا دفاع. وتساءل في دهشة:

– ألم يكرم عاشور الناجي بالاختفاء وهو في عز القوة والكرامة؟!

١٣٨

وأجرت أمام عينيه بمجلسه بالقهوة مصارعة ودية بين ابنه سليمان وبين شاب آخر من رجاله يدعى عتريس . تعادلا في القوة والمهارة دقائق حتى تمكن سليمان من هزيمة صديقه .

اشتعل باطن شمس الدين بالغضب ، وكبر عليه أن يصمد عتريس أمام سليمان أكثر من دقيقة . لم يسر بانتصاره . لم يتصور أن القوة تعوزه وهو الشبيه بعاشور في عملقته ولكن تنقصه ولا شك المهارة الكافية .

ومضى سليمان إلى سطح البيت الذي يقيم في شقة منه . خلع ثيابه إلا ما يستر العورة مغموماً في أشعة الغروب الذهبية ، وقال لسليمان :

- افعل مثلى ..

فتساءل الشاب متراجعاً :

- لم يا أبي ؟

- إنه أمر .

وتراءياً وجهاً لوجه ، شمس الدين بجسمه القوى الرشيق وسليمان بهيكله العملاق كأنه عاشور .

قال شمس الدين :

- بكل ما أوتيت من قوة صارع.

فقال سليمان:

- أعنني من العار.

- صارع وتعلم فليست القوة بكل شيء.

وأطبق عليه بالقوة والإصرار.

تلاماً فانتفخت منهما العضلات وهو يقول:

- بكل قوتك.

فقال سليمان:

- إنى أمهلت عتريس موعدة لا عن عجز.

فزمجر شمس الدين:

- بكل قوتك يا سليمان..

وشعر شمس الدين بأنه يغالب السور العتيق وأن أحجاره المترعة
برحيق التاريخ تصكه مثل ضربات الزمن. وحمى الصراع حتى خال
شمس الدين أنه يصد الجبل. منذ دهر لم يخض معركة. قوته راكرة في
ظل سمعته الشامخة. تناهى أنه يدرب فلذة الكبد. الموت أهون من
التراجع. ركب عناد ذو عين واحدة. شد على عضلاته بالإصرار
والكيراء. رفع البنيان بين ذراعيه ثم طرحة أرضا.

وقف يلهث ويتالم ويبتسم.

ونهض سليمان وهو يضحك قائلاً:

- أنت الناجي الأصيل المقدار.

راح شمس الدين يرتدي ثيابه. تنازعته انفعالات متضاربة. لا حزين
هو ولا سعيد. غابت الشمس واستكمن الهدوء الشامل بين يدي المساء.

جلس شمس الدين على الكتبة فلم يفارقه سليمان . لم لم يفارقه ؟
 هل يشى وجهه بالآمه ؟
 - لم لا تنصرف بسلامة الله ؟
 فتم سليمان :
 - إنى خجلان بما جرى .
 - اذهب مصحوبا بالسلامة .
 أراد أن يكرر الأمر ، ولكنه صمت . لم يتحرك لسانه ونسى . أقبل
 الليل قبل موعده .

أغمى على شمس الدين الناجي .
 فتح عينيه فرأى تللا حمرا فوقها سماء تقطر غبارا . غازلتة ذكرى
 وسرعان ما تلاشت . إنه يتنفس في كهف تسكنه اللامبالاة . ينحسر
 الضباب فيتراءى وجه عجمية ووجه سليمان . يدهمه الوعى بغلظة
 وضحكه صفراء . شم رائحة ماء الورد المتطايرة من عنقه ورأسه .
 همست عجمية بوجه شاحب :
 - هربت دمنا . . .
 وسأله سليمان بصوت متهدج :

- بخير يا أبي؟

غمغم:

- الحمد لله ..

ثم بنبرة المعذر:

- حتى شمس الدين لا ينجو من المرض ..

فقالت عجمية بحيرة:

- ولكنك لم تشك ..

- ما أبغض الشكوى إلى.

وبقلق تساءل:

- تسرب الخبر إلى الخارج؟

- كلا، غبت دقيقتين ..

- عظيم، لا يجوز أن يعرف الخبر، حتى الأبناء لا يجوز أن
يعرفوا ..

ونظر إلى سليمان وقال:

- ستتسنى كل شيء عقب خروجك ..

فحنى رأسه امثala ، ولكن عجمية سأله:

- أنت بخير؟

- كل خير.

- عند العطار وصفة ولا شك تفيينا.

فقال بامتعاض:

- إنه من أعدائنا.

- الحلاق مفید أيضاً وهو من محبيك ..

- قلت إنه لا يجوز أن يعرف الخبر، وأنا بخير ..

فتساءل سليمان بجزع:

- ولكن لم حصل ما حصل؟

فقال متظاهرا بالثقة:

- إنه الجهد عقب الإفراط في الطعام!

- استرد الوعى تماما فاسترد الثقة. نهض وقشى في الحجرة الصغيرة. ألا يحسن به أن يسهر بعض الليل في الساحة كما كان يفعل عاشور؟

ثم ناداه النوم بإغراء لا يقاوم.

٤٩

مضى نحو الساحة عند الأصيل. كانت الشمس تسحب أذيالها من الأرض والمئذنة. مر بعتريس وهو يسوق حماره من الحوض فحياه الشاب تحية الصبي لعلمه المهيب. وعند زاوية السبيل التقى بسعيد الفقى شيخ الحرارة فوقف يتبادل معه حديثا عابرا. من مكمنه وراء جناح السبيل ترافق إليه صوت عتريس وهو يخاطب آخر قائلاً:

- معلمونا شمس الدين ليس كعادته..

فقال الآخر بأسف:

- لعله مريض ..

فقال عترис مشاركا في الأسف:

- أو لعله العمر !

اجتاحته شعلة غضب. غادر مكمنه فرجع إلى عترис وهو يهتف:

- أيها الجمام!

ورفعه بين يديه عالياً ورمى به في الحوض . تفرق الواقفون تاركين
الحمير وقد جفلت من رجرجة الماء عقب سقوط الجسم .

ولم يعد يصلح لزيارة الساحة فعدل عنها . وباندفاعة عميماء بادر إلى
الخمار فمرق من بابها مثل عاصفة . . سكت الأصوات المخمرة
وحدقت به الأ بصار في توقع ودهشة . جعل ينظر إليهم في تحد غير
مفهوم حتى وقفوا مترنحين وخاشعين . .

دارت برأسه أفكار شيطانية وسرعان ما هرع إليه عثمان الدرزي .
أفاق من جنونه فتلاذت نوایاها المستهترة . استسخف سلوكه . كلا . لن
يتحدى الهواء . لن يتمادي في ارتكاب الحماقات . ستستحب فرصة
فيتهزها . ستعرض تجربة فيخوضها .

وغادر المكان دون أن ينبس بكلمة أو يفعل شيئاً تاركاً وراءه ذهولاً
شاملاً .

٥٠

الأيام تتلاحق . ثمة مصير يتخيّل عن بعد ، ولكنه راسخ ويقترب .
لا شيء يؤخر خطوه . إنه يشد عضلاته ويسهل إرادته ويتظاهر . لماذا
تمسك بالقوة ولست عابدها الأوحد . الشيب يتشرّ . أيضاً التجاعيد
حول الفم وتحت العينين . البصر يفقد حدته وكذلك الذكرة .

ويزحف التغيير على عجمية بسرعة أشد ودون تدرج . تفتر شهوتها
للطعام ويسوء الهضم . وتصاب بالام مجهولة في الظهر والساقيين .
وتهزل وتتنبض ثم تستسلم للرقاد . ماذا دهى هذه المرأة القوية ؟ وتجرب
الوصفة بعد الوصفة ولكن ثمة شيئاً جوهرياً فقد .

ويكثـر من الجلوس فـى القهـوة تارـكا الكـارو لـسليمـان . يجـتمع بـرجـالـه ، يـسمـع الأخـبارـ، يـزـن كلـ يوم سـطـوـتهـ، يـمـتـحـن فى النـفـوسـ أـثـرـهـ وهـيـتـهـ . ويـقـول أحدـ أـتـبـاعـهـ ذاتـ يومـ :
- ظـهـرـ فـى العـطـوفـ فـتوـةـ جـديـدـ ..

فيـقولـ باـسـتهاـنـةـ :

- لـعلـ الـقـدـرـ يـعـمـيـهـ عـنـ وزـنـهـ الحـقـيقـيـ لـنـؤـدـبـهـ !
وـفـىـ المـسـاءـ يـخـلـوـ إـلـىـ نـفـسـهـ سـاعـةـ فـىـ السـاحـةـ يـسـمـعـ إـلـىـ الـأـنـاشـيدـ ثـمـ يـسـرـعـ إـلـىـ الـبـيـتـ ليـجـلـسـ إـلـىـ جـانـبـ عـجمـيـةـ . وـيـلـاحـظـ بلاـ جـهـدـ أـنـهـ تـضـىـ منـ سـيـئـ إـلـىـ أـسـوـأـ . هـلـ تـقـدـرـ عـلـيـهـ الـوـحـدـةـ فـىـ آـخـرـ أـيـامـهـ؟ كـلـ وـصـفـةـ جـربـتـ وـلـكـنـهاـ تـضـىـ منـ سـيـئـ إـلـىـ أـسـوـأـ .

٥١

وـكـانـ رـاجـعاـ إـلـىـ الـبـيـتـ ظـهـرـاـ عـنـدـمـاـ اـرـتـطـمـتـ قـدـمـهـ بـنـحـلـةـ يـلـعـبـ بـهـاـ طـفـلـ . وـجـاءـ صـوـتـ الطـفـلـ وـهـوـ يـصـبـغـ مـغـيـظـاـ :
- ياـ عـجـوزـ ياـ أـعـمـىـ !

التـفتـ نـحـوـ فـرـآـهـ فـىـ طـولـ عـنـزـةـ وـهـوـ يـحـدـجـهـ بـنـظـرـةـ جـرـيـةـ مـتـحدـيـةـ .
وـدـلـلـوـ يـهـرـسـهـ بـقـدـمـهـ . كـظـمـ غـيـظـهـ وـمـضـىـ . هـذـاـ جـيـلـ يـجـهـلـهـ . إـنـهـ يـعـيـشـ بـفـضـلـهـ وـيـجـهـلـهـ ، وـيـصـرـحـ بـعـفـوـيـةـ بـمـاـ يـكـتـمـهـ الرـاـشـدـوـنـ . أـلـيـسـ مـنـ الـأـفـضـلـ
أـنـ نـمـوتـ مـرـةـ وـاحـدـةـ؟

عند الفجر من تلك الليلة استيقظ على حركة مبعثها عجمية. أشعل المصابح فوجدها جالسة في الفراش متألقة بحيوية طارئة بعثت في نفسه الأمل.

قال لها:

- لقد شفيت يا عجمية.

ولكنها لم تجبه. نظرت إلى الجدار وهمست:

- أبي ..

فامتلاً كآبة وتمتم برجاء:

- عجمية!

رأها تعيب في المجهول وتتلاذى فهتف:

- لا تتركيني وحدى.

أسندها إلى صدره.

رفيقة العمر تختصر.

ودهمه البكاء مجردا ولكن لم تسل من عينيه دمعة واحدة.

تناولت زوجات أبنائه خدمته. لم يخل البيت من أصوات وأنفاس، ولكنها كان ينادي نفسه:

- ما أفطع وحدتني !

لم يحزن الموت عجمية كما توقع . شعر بأنه على بعد خطوات قلائل منها . الحزن في مثل سن لا يعني شيئاً . إنه لا يخشى الموت ولكن الضعف يخشاه . أصبح طاعناً في السن ، وسيجيء يوم لا تبقى له فيه من الفتنة إلا الاسم والذكرى .

وقال له بكريه سماحة ، وكان قد جاوز الخمسين :

- من حملك أن تخلد إلى الراحة ..

وأكثر من واحد قال :

- ستجدنا جميعاً في خدمتك ..

فتساءل محظياً :

- لماذا تريدون ؟

فلم ينبع أحد فقال :

- لو لاذت بقوتي لاعتزلت !

فقال سماحة :

- دع سليمان يحمل العبء .

ولكن سليمان بادره :

- ما زال أبي هو الأقوى ..

فرمق ابنه بامتنان وتساءل :

- لماذا تعرفون عن لعنة العمر ؟

فقال سماحة :

- إنه ينقلب نعمة بين أحضان الراحة ..

- ويطمع الآخرون فيما ، ما أبغض قفا الحياة !

وساد الصمت حتى قال بضيق :

- انصرفوا مشكورين ..

صلاح کار کجا و من خراب کجا
بین تفاوت ره از کجاست تابکجا.

کان یذوب فی السماع تحت ضوء البدر الذى حول بكميائه بلاط
الساحة إلى فضة.

و قبيل متصف الليل غادر مجلسه . مر بدكان سعيد الفقى شيخ
الحارقة وهو به ، فلما رأاه الرجل مضى إليه وهو يتساءل :
ـ أما علمت يا معلم ؟

فلمما استوضحه ما يعني ، قال سعيد الفقى :
ـ رجالك يتربصون لزفة فتوة العطوف الجديد !

انتقض غاضبا وهتف :
ـ كذب .

ـ هى الحقيقة وسينتصرون بإذن الله ..
ـ أين ؟

ـ عند بوابة المtowerى ، يريدون أن يشکموا الفتوة الجديد ..
فتساءل شمس الدين محتمدا :
ـ من وراء ظهرى ؟ !

و ضرب الأرض بعصاه العجراء واندفع في الظلام .
أتبعه سعيد الفقى عينيه حتى اختفى ثم تعم ساخرا :
ـ أيها العجوز المخرف الذى يبول على نفسه !

بدأت المعركة قبل وصوله بدقائق. رأه بعض رجاله فصاحوا:
- شمس الدين الناجي ..

الزفة تفور بضربات النبایت .. سليمان يفعل الأعجیب . فتوة العطوف يحمل حملات صادقة تزلزل الرجال .

اندفع شمس الدين بلهفة إلى قلب المعركة . وشب برشاشة أمام ابنه سليمان فصار وجهها لوجه مع فتوة العطوف . تفادى من ضربة شديدة ثم وجه ضرباته السريعة في خفة وحذر . امتلاً بقوة عجيبة لا يدرى من أين جاءته فقاتل كخير ما قاتل من قبل . تحلى مندفعاً فياضاً ملهمًا شديد البأس . تضاعف حماس رجاله وتصاعدت جمعجة النبایت . وتمل بنشوة القتال فخلق المعجزات . أصابته ضربات لم تعجزه ولم توقفه . ونال من خصمه ضربة أخرجته من النضال . وسرعان ما تفشي الخور في رجال العطوف وأخذوا يتقهرون .

وما هي إلا ساعة حتى انقلبت الزفة مائماً . تحطم الكلوبات ودست الورود وتحطم المزامير والدفوف ولاذ الرجال بالهرب .. وقف شمس الدين وهو يلهث والدم يخضب جبهته . التف حوله رجاله . وجاء سليمان فلثم يده ولكنّه قال له :

- لى معك حساب .

فقال سليمان معتذراً :

- إنه الوفاء لا الغدر .

وصاح الرجال:

- صلاة النبي ترضى النبي.

٥٦

رجع الرجال، على رأسهم شمس الدين الناجي، يخوضون الظلام
على ضوء الشموع. وأنشدوا بأصوات أيقظت النيام:

- اسم الله عليه.. اسم الله عليه..

ثم غنى ذو صوت حسن:

يا عود قرنفل في الجنية منعن

ولكن شمس الدين لم ينعم طويلاً بفوزه المبين. سرعان ما انفصل عن الجمع فوجد نفسه وحيداً. وحيداً في وحدة متعلالية وموحشة. ووردت الكلمة تقول إن كل شيء هباء حتى الفوز. وتقول أيضاً إن الهاتف كثير ولكن ما أكثر الأذان التي تتعاقب على سماعه! وأقبل نحوه عاشر الناجي حاملاً على ذراعيه أمّه الجميلة في كفنه الكموني، وفرح لظهور عاشر بعد اختفائه الطويل. وقال إنه كان على يقين من ظهوره ذات يوم، ولكن ألم تدفن أمّه بعد؟ وفي لحظات الرضا تهبط سحابة فيمتطيها ذو الحظ السعيد فترتفع به في جوف القبة. عند ذلك لا يبالي باللحظات المثبطة التي يتلقاها من المجهول. يستوى لديه أن تحمله ساقاه أو تخذلانه. ولكنه وحيد. وحيد يتآلم. ما معنى هذا الضعف الزائف. الأنوار الخافتة تنطفئ. إنه يقترب من الحرارة وفي الحقيقة هو يبتعد. يبتعد إلى ما لا نهاية. لم يعد له من مطعم أكثر من أن يبلغ فراشه.

١٥٠

وتحلجل الأصوات :

- اسم الله عليه .. اسم الله عليه ..

ويصارع شمس الدين المجهول في وحدته . إنه يصده عن السير ،
يرفع أديم الأرض حيال قدميه ، يسرق فوزه العظيم بسمة ساخرة ..
ويكدر قبضته ، ويسلد إليه ضربة في الصدر لم يعرف لعنفها مثيلا من
قبل .

وتأنوه شمس الدين الناجي ثم تهاوى فتلقته أيدي الرجال .

Twitter: @ketab_n

الحب والقضبان

الحكاية الثالثة من الحرافيش

١

خفت الأفئدة لموت شمس الدين الناجي . أسرمت الحرارة في تشيد
قبر له يليق بمقامه . وشيعته إليه في جنازة مهيبة لم يتخلَّ عنها رجل أو
امرأة . وعدت صلابته البطولية أسطورة وكرامة من كرامات الأولياء
حتى سمي بقاهر الشيخوخة والمرض . وبقيت ذكرى فتونته الندية العادلة
خالدة مثل فتونة أبيه العظيم ، وتنوسيت هناته الانفعالية ، ولم ينس أحد
أنه عاش ومات كادحا ، كما عاش ومات فقيرا .
ويفضله وفضله وأبيه عاش في وجдан الحرارة مثلاً أعلى ترنو إليه
الأعين والقلوب على تعاقب الأزمان .

٢

تولى الفتونة سليمان شمس الدين الناجي . عملاق مثل جده
عاشر ، دون أبيه في الجمال والرشاقة ، ولكنه مكتس بروعة الصورة
الشعبية الأصيلة . لم يتقدم لمنافسته أحد ، وانضم إليه عريس بحماس
وحب . ولم يتغير مذاق الحياة في شيء . لعب الأمل بقلوب السادة
والوجهاء أيامًا ثم خمد . لم يكن عمره يتجاوز العشرين ولكنه اتبع
خطى أبيه بلا تردد . ظل حامي الحرفافيش وشاكِم الأغنياء ، وعدو
البلطجة ، ومارس مهنة أبيه بربما واقتئاع .

وكالمتوقع واجه تحديات من فتوats الحارات المجاورة فلم ينكص عن خوض المعركة بعد المعركة، وأحرز في كل معركة انتصاراً. أجل لم تكن انتصاراته بقوة انتصارات أبيه أو جده، ولكنها كانت كافية لتأمين الحارة وبسط قدر لا يستهان به من هييتها. وترك العراق آثاراً مستديمة في الجبين والعنق، ولكنها عدت شهادة طيبة لبطولته الرائعة.

ومن الحق أن يقال إن قلبه كان ينazuءه أحياناً إلى الحياة الطيبة الرغيدة، وإنه كان يقرأ مثل ذلك في وجوه أعونه وإخواته، ولكنه تجهم الضعف ولم يشجعه وفتح قلبه الغض لسحر العظمة الحقيقة.

٣

وكانت فتحية - شقيقة صديقه عتريس - زميلته في الكتاب. وغابت عنه دهراً حتى رأها مرة أخرى في جنازة أبيه. ورغم حزنه مال قلبه إليها. كانت تقاربه في السن، في أنفها فطس. عميقـة السمرة، جميلة العينين، ذات حيوـية فائقة، وشعر بأن الزواج جدير بأن يصون فتونته من مبادـل لا تليق بالفتونة النقيـة. هكذا طلب يدها من عتريس، وسرعان ما زفت إليه، واستبشرت الحارة بالزواج خيراً، وعدته نصراً للحرافيش والفتونة النقيـة.

ومضت عشرة أعوام هادئة. كان سليمان يعمل شاعراً بأن الفتونة عبء ثقيل وبهجة عابرة. وكانت فتحية تعلم كما عملت عجمية وفلة من قبل وتلذ بنتاً بعد بنت.

وفي العام الأخير من أعوام الهادئة رأى سنية السمرى.

من مجلسه في القهوة في أوقات الراحة يراها والدوکار يمضى بها. كريمة السمرى كبير تجارت الدقيق، براقة المنظر في طزيتها، تطل من فوق برقعها الأبيض عينان سوداوان ساجيتان ساحرتان، يبعث مرورها السريع الدفء والإلهام.

تعلق بالدوکار اهتمامه. امتد بصره إلى دار السمرى السامة. حلم على إيقاع جرس الدوکار برقص الفتوات في أعقاب الظفر. تاه بعملقة الفتوة على تواضع الكارو. وتساءل من يجلس إذا سليمان وقف. وعدا بوابة التكية فأى باب يغلق في وجهه. والضعف قبيح، ولكن ألم يعشق عاشر فلة جدته؟ أليست دار السمرى أنقى من خمارة درويش؟ هل كان عاشر ينكص إذا كانت فلة كريمة للبنان؟ هل غير استيلاؤه على دار البنان من عدله وطبيته. وهو قادر على قهر الفتوات ومحق الإغراء، ولكن الحب قدر. وحتى شمس الدين في هوئ قمر وقع. سيجزع الحرافيش ويفرح السادة ولكن سليمان لن يتغير. ثم ما الحيلة إذا كان الحب حكم. أجل ما زالت فتحية الزوجة المخلصة والأم الولود. وهي أيضاً شقيقة عتريس الوفى. الحب الجديد غطاها كالملوحة الصاخبة ولكن جذورها هناك راسخة. ما أعدب الألم في محن الأهواء الجامحة!

عقب صلاة الجمعة سار سعيد الفقى شيخ الحرارة إلى جانبه . قبيل
القهوة قال له :

-رأيت يا معلم حلماً عجياً . . .

فحدجه سليمان بنظره متسائلة فقال :

- حلمت بأن أناساً طيبين يتمنون لقاءك . . .

فخفق قلب سليمان وشعر بأنه تجرد فجأة من ملابسه وتمت ساخرًا
ليداري أضطرابه :

- حلم شيطاني . . .

فواصل شيخ الحرارة بجدية :

- ولكنهم يتظرون أن تجيء الخطوة الأولى منك . . .

وتساءل سليمان متذمثاً :

- ماذا يريدون من سواق كارو؟

فأجاب سعيد الفقى بإجلال :

- أن يوصلهم إلى سيد الحرارة دون منازع . . .

ارتفاعت موجة الإغراء كالجبل ، فاستدعى سليمان عتريس إلى
مجلسه بالقهوة وقال له :

- عندى سر أريد أن أفضى به إليك .
- فطلع إليه عريس في امثال ، فتساءل سليمان :
- أنت صديقى فكيف تراني لو تزوجت مرة أخرى ؟
- فأسأله عريس ببساطة :
- تنوى التخلص من فتحية ؟
- بل ستبقى في أعز مكان . . .
- فضحك عريس وقال :
- أنت تعلم يا معلمي أنى شارع في الزواج من الثالثة !
- الرجال لا يتناذرون بسبب النساء ولكن توجد مشكلة في الأمر . . .
- فابتسم عريس وقال :
- إن الجديدة من دور السادة ؟ !
- فتمتم سليمان بارتياح :
- ذاع السر لهذا الحد ؟
- الحب ذو رائحة نفاذة !
- ماذا يقول الناس ؟
- وماذا يهمنا من الناس ؟
- ماذا يقول الحرافيش ؟
- فقال عريس باندفاع :
- اللعنة على الحرافيش ، أما أعوانك المخلصون فسيرقصون طربا . .
- فبادره سليمان عابسا :
- أخطأت التصور يا عريس ، سليمان الناجي لن يتغير . .
- فانطفأ تألق الآخر وقال :
- هل تشرك الهاشم في بدرؤم فتحية ؟

- أيا كان الحال فسليمان لن يتغير .. ، الحق أنكم تضيقون بالعدل
ضيق الوجهاء !

- معلمى ، منِّ من الفتوات يرضى بما نرضى به من العيش ؟
فقال سليمان بإصرار :

- سليمان لن يتغير يا عتريس !

٧

حمل سعيد الفقى رغبة سليمان إلى السمرى وسرعان ما قوبلت بالرضا . كان السمرى فى أعماقه يحتقر سواق الكارو وأصله ولكنه كان يتطلع إلى مصاورة الفتوة الجبار سيد الحارة وشاكם الأغنياء . ورجاء واحداً أن يخصص لكريمه جناح فى داره حتى يشيد لها داراً مناسبة فلم يعارض سليمان فى ذلك . وصعقت فتحية وبكت ولكنها سلمت بالمقدار . وفرح السادة وتوجس الحرافيش ولكن سليمان أعلن أنه لن يتغير .

وشهدت الحارة زفافاً لم تشهد له مثيلاً من قبل .

٨

هكذا ربطت المصاورة بين الفتوة سليمان وبين الوجيه السمرى .
وقال عنها شيخ الحارة سعيد الفقى :
- مصاورة مباركة بين الفتونة والواجهة .

١٥٩

وقد امتلاً جيئه جزاء سعيه المشكور، بالرغم من أن سليمان أعلن أنه لن يتغير. ولكن الحياة جادت بعذاقات جديدة، وحملت السحب ماء سلسبيلا. وقال سليمان لنفسه إن من النساء من هن جبن قريش ومنهن من هن زبدة وقشدة. أسكرته الرائحة الزكية، ودهنته البشرة الملساء، وأطربته النبرة العذبة. وحلت دنياه الرشاشة اللعوب. وبإقامته في دار السمرى أيامًا معدودات كل أسبوع عرف نعومة المجلس، ودفء المرقد، وسلامة الملبس، وأبهة الماء الساخن في الحمام الفسيح، والستائر والوسائل والنمارق، والتحف والتهاويل، والسجاجيد والأبسطة، والخليل والجواهر، والأهم من ذلك كله الأطعمة الفاخرة واللحوم المتنوعة والحلوى الساحرة.. . وذهل الفتوة، وعجب كيف تسكن هذه الجنة الخلابة في طوابيا الحارة المتقدفة. أجل حافظ على مظهره في الخارج. وأصر على ممارسة عمله المتواضع. ولم يتلفع أمام الأعين إلا بعظمته الحقيقة. غير أنه آنس رياحًا جديدة تهب على جوه المستقر، وشررا يتطاير يوشك أن يشعل حرائق الأركان. ثمة نظرات نافذة تهتك ما يستقر في معدته من أطابق الأطعمة والأشربة. وهمسات تدور حول الجنة الخفية، بخاصة من رجاله وأتباعه. واضطر - ولأول مرة - أن يوزع عليهم في المواسم والأعياد، وفي سرية بالغة، نقودا من الإتاوات، دون غبن يذكر للفقراء والحرافيش. شعر وهو يفعل ذلك بأنه يخطو الخطوة الأولى في طريق كريه شديد الانحدار، وأنه يحيى نوعا ما عن سبيل الناجي. ثم هاله أن ينعم بما ينعم به في دار السمرى على حين تعانى فتحية وبناتها حياثن الجافة الشاحبة، فامتدت يده مرة أخرى إلى الإتاوات وخصهن بنفحات محدودة، منحدراً درجة جديدة في الطريق الكريه. ومضى يقول متغريا:

- لن يمس ذلك حقوق الفقراء والحرافيش إلا قليلا.. .

ولم يسكت حواره مع نفسه، ولم تصف الحياة من شوائب الكدر.

وها هي ذى سنية تلح عليه فى أن يكف عن ممارسة مهنته، أن يؤجر آخر ليسوق الكارو، وها هو ذا يرفض بإباء، ويحاول أن يسيطر سيطرة الفحل القوى . وهى تحب وتتظاهر بالطاعة تاركة الفعل والتأثير لحبها المتسلل المقتحم وكلما شعر سليمان بأنه يتغير قال لنفسه بحزم :
- ما تغيرت ، ولن أتغير ..

٩

وجمعت مائدة العشاء بدار السمرى بينه وبين وجهاء الحى . كانوا يتجلبونه خوفا أو إيهارا للسلامة ، الآن يحدقون به آمنين كما يحدق المشاهدون بالأسد في حديقة الحيوان .

وبودلت الأنخاب ، وجرت الدماء بالشجاعة ، وهلت تباشير الآمال ، حتى قال صاحب الوكالة :

- لعلك ظنت يوماً أننا لا نذعن لك إلا بالقهـر ، ألا تدرى يا معلم أن العدل قيمة يحبها فى النهاية من ينتفع بها ومن يخسر؟!

فتمت متسائلا :

- ومن يخسر؟

- حسبك أنك جنحتنا الحقد والحسد واللصوص .

وهنا قال البنان :

- ولكننا وجدنا فى عدلك الشامل شيئاً من الظلم !

فتساءل مقطبا :

- الظلم؟

- ظلمك نفسك وأتباعك ..

وتساءل العطار:

- أى ظلم فى أن تناول نصيبك كاملاً وأن ينالوا نصيبيهم؟

وتساءل حموه السمرى:

- ألا تسفك دماءكم دفاعاً عن كرامتنا؟

وقال تاجر الغلال:

- الفتوة ورجاله من الوجهاء، أو هذا ما ينبغي أن يكون ..

فقال معترباً:

- كلاً، ما فعل ذلك أبي ولا جدي ..

فقال صاحب الوكالة:

- لو لا إقامة جدك العظيم فى دار البناء ما عرفت الحرارة معنى
الفلاح ..

فقال بإصرار:

- كان فتوة أعظم منه وجيهها ..

فقال صاحب الوكالة:

- خلق الفتوة ليكون وجيهها وليلعنى الله إن كنت كاذباً أو مغرضًا فيما
أقول!

وضحك ساخراً ودفع الخمر يغزوه ..

١٠

وأنجحت سنية له «بكر» ثم «حضر» فنعم بما يعده أبوة حقيقة. وفي
أثناء ذلك تم تشبييد دار جديدة لسنية. وبات سليمان يسعد بأيامه في

الدار بقدر ما يشقى بعودته الإجبارية إلى بدرؤم فتحية. استولت سنية على قلبه تماماً كما استحوذت دارها على رغباته. ويتعقب الأيام زحف على وجدهانه مخدر فعال. كف عن عمله وأحل فيه أحد رجاله. وزاد من الهبات لنفسه ولأعوانه فمضت العصبة ترتفع نحو منازل الوجاهات حتى هجروا في النهاية حرفهم البسيطة أو أهملوها. وتناقصت أنصبة الفقراء والحرافيش وإن لم يحرموا من الهبات.

تغير وجه الحارة المشرق، وأخذ الناس يتساءلون: أين عهد عاشر؟ أين إخلاص شمس الدين؟ وتحفز الأتباع للمرتسلين وأرهبوا الساخطين.

وأنشأت سنية بکرا وخضراء نشأة مرفهة ناعمة، ثم أدخلتهما الكتاب، وأعدتهما للتجارة، فلم يبشر أحدهما بأنه سيخلف أبياه ذات يوم. ولما بلغا سن المراهقة فتحت لهما محلًا لبيع الغلال وبذلك صارا تاجرين وجيهين ..

وتجنب سليمان المعارك ما وجد إلى ذلك سبيلاً، وأثر في النهاية أن يحالف فتوة الحسينية ليتفادى من مواجهة التحديات وحده، فقدت الحارة مركز السيادة الذي تبوأته منذ عهد عاشر الناجي.

وتغيرت صورة العملاق ومنظره، ارتدى العباءة والعمامة، واستعمل الكارتة في مشاورته، نسى نفسه تماماً، ثمل حتى أصابه خمار الانحراف، ومضى يمتليء بالدهن حتى صار وجهه مثل قبة المسذنة وتدلّى منه لغد مثل جراب الحاوي.

وكان سعيد الفقي عندما يهنته بأحد الأعياد يقول له:
- أيامك كلها أعياد يا معلم سليمان ..

كان الشقيقان بكر وخضر مختلفي المظاهر . بكر يشابه أمه سنية هام في جمالها ورقتها ، يبدو دائمًا هاشا متربعا . أما خضر فرغم جماله ورث عن أبيه وجنتيه البارزتين وطوله دون عملقته وإلى الرقة كان أقرب . ولعله لم يكن في ترفع شقيقه ولكنه لم يعد على أى حال متواضعا . واكتسبا معا من دار السمرى أسلوب راقيا في الحياة وعادات عالية وتهذيباً أنيقا ، فلم يعرفا حارتھما إلا من الشرفات العالية ، ولم تطا أقدامهما أرضها المبلطة ، وأدارا محلهما من حجرة فاخرة لا يتلاقيان فيها إلا بكم التجار تاركين المعاملات اليومية مع الجمھور لوكيل المحل . ولم يفهما والدهما . رغم أنهما لم يربا إلا في أفحى صورة ، فإنهما لم يقتنعا بالفتونة ولا أضمرالها الاحترام الكافى . لم يفطنوا إلى أنه لو لا سطوة أبيهما لما نجحت تجارتهما ، ولعبت العملاء والتجار بسذاجتهما التجارية ، فحصلوا الخبرة والمهارة في أسعد الظروف المواتية وهما لا يعلمان .

وذات مساء جلست الأسرة حول المدفأة المطلية بالفضة في بهو المعيشة . كان شهر طوبة يستوى على عرشه الثلجي والرذاذ لم ينقطع منذ الصباح الباكر . ونظر سليمان إلى ابنيه الرقيقين المتلتفعين بالعبارة المخملية المترزلية ثم قال باسما :

- لو رأكما عاشر الناجي لأنكر كما وتبرأ منكما ..

فقالت سنية وهي ترمقهما بحب وإعجاب :

- حتى الملوك يتمنونهما !

فقال سليمان بوجوم :

- إنهم أبناءك وحدك وما منهم أحد يخلفني ..

فبادرت متسائلة :

- ومن أعلمك أننى أود لهما الفتونة؟

فسألها بجهاء :

- ألا تخترمين الفتونة؟

فتراجعut بلياقة قائلة :

- أحترمها كما أحترم رجالها، ولكننى أكره أن يتعرض ابني

لمخاطرها ..

وتساءل : ما جدوى الخصم؟ وماذا بقى من العهد؟ لقد تزوجت بناته الكبريات من حرافيش . أما الصغيرة المعاصرة للواجهة فقد تزوجت من «محترم» وسوف تنجذب ذرية غريبة مثل أبيها . وقد استنام الضمير إلى الدعة ، واستسلم الجسد الشره إلى تيار الإغراء والاستهانة . والمعارضة في هذه الحال حركة ساخرة .

قال ابنه بكر :

- ولكن جدنا عاشر الناجي كان يحب الحياة الفاخرة !

فسألته بغضب :

- من أنت لكي تفهم المعلم عاشر؟

- هكذا قيل يا أبي ..

- لا يفهم عاشر إلا من اشتعل قلبه بالشرارة المقدسة ..

- ألم يحتل دار البناء؟

فقال سليمان محتدا:

- معجزته فى الحلم والوعيد.

فقال بكر بجرأة غير محمودة:

- كان يستطيع أن يهرب من الشوطة بلا حلم.

احتقن وجه سليمان بالدم وهتف:

- هكذا تتكلم عن الناجى؟

تمغض الوجيه عن وحش فى لحظة من الزمان، وكان عاشورا

الأسطوري قد بعث من جديد، فجفلت سنية وقالت مخاطبة ابنها

بحدة:

- جدك رجل مقدس يا بكر ..

وصاح به أبوه:

- إنك لا تصلح لشئ نبيل ..

وغادر الرجل مجلسه إلى مخدعه ، فقالت سنية لبكر:

- لا تنس أنك بكر سليمان شمس الدين عاشور الناجى!

وتقىم خضر:

- أجل.

فقال بكر وما زال متاثرا من غضبة أبيه:

- ولكنى تاجر ومن آل السمرى أيضا.

١٣

وقررت سنية هانم أن تفرح بيكريتها . وكانت معجبة برضوانة رضوان
كريمة الحاج رضوان الشوبكشى العطار فخطبتهما له . لم يرها بكر من
قبل ولكنه كان يقى بشهادة أمه .
وكان الحاج رضوان الشوبكشى واسع الثراء وفير الذرية وعاشقًا للهوى
والطرب . وزفت رضوانة إلى بكر ، وخصص لها جناح في الدار .

١٤

بزواج بكر وفد إلى الدار جمال جديد . فرح بها بكر وعشيقها من
أول ليلة . كانت ذات عينين زرقاويتين وشعر ذهبي . ذات قامة فرعاء
رشيقه . شيء واحد ضايق بكرًا مضائقه عابرة ، أنها كانت تماثله في
الطول ، وتبدو أطول منه بحدائقها ذي الكعب العالي . وقالت له أمه
تطمئنها من ناحية أخرى :
- ستجدها ذات قابلية للامتناع ، وستصير مع الأيام في وزن أمها
ياذن الله ..

وكانت العروس تتغنى في الحياة ولا تكاد تنظر في وجه أحد . ولكنها
مع الأيام بدأت تكتشف ما حولها ، وتحدث بنظرات نافذة في وجه الأب
العملاق ، وخضر شقيق زوجها ، وسائل الأشياء المحيطة بها .
وقال خضر لأمه مرة :

١٦٧

- العروس لا تستقر .

فقالت باسمة :

- ستستقر عندما تنجب ، إنى أعرف هذا النوع النفيس . ألا تود أن
أخطب لك فتاة مثلها ؟

فقال خضر :

- ليس قبل أن أبلغ العشرين ..

وتردد وهو يرنو إلى عينين فارسيتين ترنوان إليه من سجادة معلقة
فوق الجدار ، ثم قال :

- وأفضل الشعر الذهبي والعينين الزرقاءين ..

فبسطت سنية ضفيرتها الفحماء أمام عينيها وتساءلت باسمة :
- هل ولى زمان الشعر الأسود ؟ !

١٥

وانعقدت بين رضوانة وخضر صداقه وأخوه . وكان يقوم بخدمتها
كلما غاب بكر في إحدى رحلاته التجارية . وفي أثناء ذلك عرف
شقيقتها الصغرى وفاء . كانت صغيرة الجسم ، باهرة الجمال ، ولكنها
ذات شعر كستنائي وعينين عسليتين . وقام بخاطره أن رضوانة قد
تقترب منها عليه زوجة بطريقة أو بأخرى ، فأشفق من أن يغضبها رفشه .
وسألته أمه ذات يوم :

- هل تعجبك وفاء ؟

فقال بحزم :

- فتاة ممتازة ، ولكن ليست لي ..

فتمتمت أمه بأسف :
- أراها ممتازة حقاً . . .
وعند ذلك قال لأمه :
- أخشى أن تغضب رضوانة إذا علمت . . .
فقالت سنية :
- رضوانة ذات كبراء وهي لا تعرض شقيقتها للبيع، ثم إن الزواج
قسمة ونصيب !

١٦

وقام بكر برحلة تجارية تستغرق بضعة أيام .
وعندما رجع خضر من المحل مساء إلى الدار وجد رضوانة واقفة عند
مدخل جناحها . تصافحا . وعندما هم بالسير قالت له :
- أريد مشورتك في أمر .
تبعها إلى بهو الجلوس . جلس على ديوان . جلست أمامه على أريكة
وراحت تتطلع إليه في صمت كأنما لا تدري كيف تبدأ حديثها . تنسم في
الجو أريح بخور مخدر وراح ينصل لھيس الصمت . ولكن يشجعها
على الكلام قال :

- إنني رهن إشارتك . . .

فلم تنبس ، ولما لاحظت شدة انتظاره قالت :

- لا أدرى ماذا أقول ، هل ضفت بسرعة من وجودك معى ؟
- أبدا ، المسألة أنى أود خدمتك .

١٦٩

فقالت بغموض:

- لا أريد أكثر من ذلك ..

انتظر وهو يقلق تحت شعاع العينين . تضاربت في رأسه التخمينات .

حدث شيء لم يقع له في بال؟ هل سيفاجأ باقتراح محرج؟ قال:

- تحت أمرك ..

فقالت بنبرة غريبة:

- أنت تجهل حالي ، ولذلك فإنني أغفر لك تسرعك ..

- دعني أطمئن عليك ..

- أهذا ممكن؟

- لم لا؟ يجب أن يكون ممكنا ..

فتساءلت وهي تهرب من عينيه:

- هل ذقت الهزيمة في حياتك؟

- لا أظن ، ولكن أى هزيمة؟ من عدوك؟

- لا عدو لي ، إنها هزيمة من الداخل ..

فهزّ رأسه متخيلاً ف وقالت متشجعة بصورة أوضح:

- هزيمة الإنسان أمام نفسه ، رضاوه بالدمار إذا شئت ..

فقال متوجهما:

- أعود بالله! صار حبني كأخ ..

فقالت بنبرة قاطعة:

- كلا ، إخوتي هناك في الدار الأخرى ..

- ولكنني أخوك أيضا ..

- كلا ، ولكن لم لا تسمع القصة من أولها؟

فقال بتلهف:

-إنى مصغٍ.

فقالت بقلق واضح:

-حدث وأنا بنت فى دار أبي أنى رأيتك مرة ومرة على تباعد فى
الزمن وسمعت من يقول إنك ابن الفتوة سليمان الناجى.

هزَّ رأسه صامتاً، وتلقى فى الوقت نفسه رسالة مقلقة من المجهول.
أما رضوانة فواصلت حديثها:

-لم أربك أبداً، هكذا حددت، لم أعرف حتى إن لك شقيقاً، فلا
لوم على أحد..

ازدادت نذر المجهول، نفتت المخاوف فى الجو الذى يعقب البخور
به، استحضر صورة بكر وأمه وأبيه.. جاءت الأسرة لتسمع القصة
العجيبة.

-لماذا لا تتكلم؟

-إنى أصغرى..

فقالت ضاحكة فى ارتباك:

-ولكن القصة انتهت.

-ولكنى لم أفهم شيئاً..

-إنك لا تريد أن تفهم..

فقال بيأس خفى:

-كلا..

فقالت وهى تحدجه بنظره ماكرة وجريئة:

-سأجاريك ليس إلا، ذات يوم أخبرتني أمى أن سنية هانم السمرى
خطبتنى لابنها..

رفعت عينيها إلى السقف حتى ترافق جيدها كالشمعدان الفضى. شيء

هتف به أن الجمال الآسر قد خلق للقتل . وأن الأسى أثقل من الأرض
وأشمل من الهواء . وأن الإنسان لا يتنفس بحرية إلا في منفى الهرج .

واعترفت قائلة في استسلام ناعم عذب :

- بصعوبة شديدة واريت فرحتي !

ثم فيما يشبه الغناء :

- ولم يدخلنـى شـك فـي أـنـه أـنـتـ !

خرس وجفل ، فقالت وهي تخدجه بجرأة :

- هذه هي القصة ، فهل فهمـتـ ؟

فقال بصوت متهدج :

- ساقـ الحـظـ إـلـيـكـ خـيـرـ الشـقـيقـيـنـ ..

فقالـتـ بـرـقةـ وـعـتابـ :

- لا تـسـمـعـنـي صـوتـ الخـوفـ !

- إنه صـوتـ النـجاـةـ ..

- طـالـماـ أـشـعـرـتـنـى بـوـدـكـ .

- طـبعـاـ ، فـإـنـكـ زـوـجـ أـخـىـ المـحـبـوبـ !

فنهضـتـ نحوـهـ بـحـرـكةـ رـشـيقـةـ وـمـالـتـ قـلـيلـاـ حـتـىـ غـزـتـهـ بـشـذاـهاـ الطـيـبـ

وقـالـتـ :

- بلـ حـدـثـنـىـ عـنـ مـكـنـونـ قـلـبـكـ ..

فـوقـفـ مـذـعـورـاـ ، وـتـبـاعـدـ قـائـلـاـ :

- صـارـحـتـكـ بـكـلـ شـئـ ..

- أـنـتـ خـائـفـ !

- كـلاـ .

- تخـافـ أـخـاكـ ، تخـافـ أـبـاكـ ، تخـافـ نـفـسـكـ ..

- كفى عذابا ..

- ليس للحيطان آذان ولا عيون ..

فانفلت نحو الباب وهو يتمتم :

- وداعا ..

وغادر البهوج أعمى العين والقلب والبصرة .

١٧

تجنب خضر رؤيتها . حتى الغداء كان يتناوله في المحل ، والعشاء في أي سهرة مفتعلة . لم تلاحظ سنية شيئا ، ومرت الساعات في هدوء ودعة في دار سنية السمرى .

وعصفت الأحزان والقلق بقلب خضر . ماذا عليه أن يفعل ؟ إنه مهجور مع مشكلة لا يجوز فيها المشاوراة . نازعته نفسه إلى هجر الحارة كلها ، ولكن أين يذهب ، وبأى عذر يتعلل ؟ إنه صاحب مبادئ . طالما قال عنه سليمان إنه تشرب بعض روح الناجي وإن حرم من قوته وسيطرته ، بخلاف شقيقه بكر الذي عشق التجارة والمغامرة والربح . إنه يتعدب ولا يفعل شيئا ، وسلم للمقادير بلا ثقة ولا اطمئنان .

١٨

رجع بكر من رحلته فقصد المحل قبل الدار . استقبله خضر بحرارة . أقبل بكر متھلا بالفوز وهو يقول :

١٧٣

- صفة رابحة والحمد لله ..

فابتسم خضر مرحبا فتساءل بكر :

- كيف حال العمل؟

- عال ..

وإذا به يسأله :

- لست كعادتك ، مالك؟

فارتعد ، وتعلل بوعكة عابرة . كيف يمكن أن تطيب العاشرة بعد ذلك؟

سجل تفاصيل الصفة في الدفتر والأفكار تتلاطم في رأسه . الإفشاء إليه

بالسر جريمة ، وإخفاؤه عنه جريمة أخرى . كيف يمكن أن يختفي؟ !

وقام بكر وهو يقول :

- إنى مرهق ويسعدنى أن أذهب إلى الدار ..

١٩

في هذه اللحظة يلتقي بكر ببرضوانة . في هذه اللحظة أيضا يدرك
خضر مدى خطئه بيقائه في الحارة . كيف تلقاء الجميلة الجريئة؟ هل
تستطيع تمثيل دور الزوجة المشتاقة المنتظرة؟ هل تقبل عليه كما أقبلت
نحوه بنظرتها المشتعلة وأشواقها المحمومة؟ هل يسدل الستار على نزوة
الماضي ويمضي تيار الحياة في مجراه المألف؟ أو يغلبها الفتور
والعواطف الدفينة فتتعجل بالمرض؟ هل يدب الفساد في الحياة الزوجية
الجديدة فتتعقد الأمور ويتجهم وجه الحياة؟

وارتعدت مفاصله وغمغم :

- بوسعها أيضا أن تنتقم !

ها هو ذا بكر يسألها عما بها فتقول باكية :

١٧٤

- أخوك غدر!

أى أكذوبة؟! أى شر يبتدر؟!

ولكن مهلا.. لم تخبر حماها أو على الأقل حماتها؟ على أى حال ستجد من يصدقها ولن يجد هو من يصدقه.

كلا.. إنها ماكرة وجريئة.. ستظاهر بالحزن، وتقول في غموض:

- أود أن نعيش بعيداً عن هذه الدار.

سيسألها بكر عما يضايقها فتقطب ولا تحيب.. تشاجرت مع أمي؟ مع أبي؟ كلا.. كلا.. لا يبقى إلا خضر.. ألم يحسن خضر خدمتك؟ إنها لا تحيب، ولكن يبدو أنها لا تطبق سمعاً اسم خضر.. أى خطأ ارتكب؟ ثم تتضح الحقيقة مثل سواد الليل تحت سماء ملبدة بالغيوم.. في هذه الحال تلوذ الجميلة الماكرة بانطباع شخصي قد يصدق وقد لا يصدق ولكنه يترك أثراً المحظوم.. لن تصرح بأكثر من أن نظراته لم تعجبها، لم ترتع لها، وأنها لذلك تفضل العيش بعيداً عن دار السمرى!

كيف يدافع عن نفسه؟ هل يهدم سعادة أخيه وسمعة أسرته؟ هل يهرب حاملاً الإثم وحده؟

ولكن أليس من الجائز أن أوهامه محض هوا جس لا أساس لها، وأنهما الآن ينعمان بالحب بعد الغياب؟!

عند ذاك سمع وقع أقدام متواترة.. ثم رأى بكر يسد الباب مرتجفاً من شدة الغضب.

٢٠

صرخ بكر:

- يا لك من وحدة خسيس!

انقضى عليه كالوحش وراح يكيل له الضربات والآخر يسكت لا يرد. دميت شفاته وأنفه ولكنه لم يرد، فصاح بكر:

- شلّك العار ..

فتراجع متسائلًا:

- ماذا جرى لك؟

- ألا تعرف حقًا؟!

- لا أفهم شيئاً ..

فصرخ:

- تطمع في زوجة شقيقك؟!

فهتف خضر:

- أى جنون!

واستأنف الحملة عليه حتى هرع عمال إلى مدخل الحجرة، وتجمّهر نفر في الحارة أمام محل.

وتراءى من بعيد صوت سليمان الناجي وهو يزور . . .

٢١

تفرق الناس ورجع العمال إلى أماكنهم. صاح سليمان:

- إذا رفعت يد فإني قاطعها ..

تراجع بكر ومضى خضر يجفف دمه بمنديله. قال بكر:

- إنه غادر يستحق التأديب ..

- لا أريد أن أسمع كلمة هنا ..

١٧٦

وردد بصره بينهما فى غضب وأمر قائلا:

- اتبعانى ..

ومضى نحو الدار مثل أسد جريح.

٢٢

وقفوا أمامه جميرا، بكر وخضر ورضوانة وسنية. صاح بفظاظة:

- الحقيقة!

لم ينبع أحد فصاح:

- الويل لمن يخفى همسة ..

ورمى رضوانة بنظرة حادة أمرا:

- تكلمي يا رضوانة ..

فأجهشت فى البكاء فهتف متبرما:

- لا أحب الدموع ..

فتمتمت وهى تشهق:

- لم أقل إلا إننى أريد أن أعيش بعيدا ..

- هذا وحده لا يعني شيئا ذا بال!

فقال بكر:

- فهمت من حديثها أنها تكره أن تعيش فى دار واحدة مع خضر!

- لماذا؟ أريد حقيقة ملموسة ..

فقال بكر:

- جسدت لى الحقيقة دون تصريح ..

فصاحب سليمان:

- الحقيقة الحقيقة حتى أقوم بواجبى ..
ثم نظر نحو رضوانة وأمر :
- تكلمى بالصراحة الكاملة ..

فأجهشت فى البكاء مرة أخرى ، فلوح بيده ساخطا ثم التفت نحو
حضر وسأله بحنق :
- ماذا فعلت ؟
فتمتم خضر :
- لا شيء ، والله مطلع ..

- أريد أن أعرف كل شيء فلا ثور زوبعة بلا سبب ..

هنا قالت سنية :
- يوجد سوء تفاهم ليس إلا ..
فقال لها سليمان بحدة :
- اسكنى ..

فقالت بيأس :
- إنه الشيطان يندس بيننا ..

فقال سليمان بحنق :
- الشيطان لا يندس إلا بإذن منا ..

فقالت سنية مولولة :
- حللت بنا اللعنة !

فقال سليمان :
- فلتتحل اللعنة من يستحقها ..

ويغتة غادر حضر اليهو ، فصاح به سليمان :
- ارجع يا ولد ..

ولكنه اختفى ، فصاح بكر :

- ألا ترى أنه يهرب يا أبي؟
فصرخ سليمان وهو ينهض:
- ها أنت ذا تعترف يا مجرم.
ولكنه لم يرجع ولم يلحق به أحد.

٢٣

جرت فضيحة آل سليمان الناجي على كل لسان. وترجم الحرافيش على عهد الناجي القديم، واعتبروا ما نزل بسليمان وابنيه جزاء عادلا على انحرافه وخيانته. قالوا إن عاشورا كان ولها، أيده الله بالحلم والنجاة، وأكرمه حياً وميتاً. أما الكارهون فقالوا إنها ذرية داعرة متسلسلة من أصل داعر لم يكن إلا لصا فاسقاً.

واجه سليمان ذلك بوحشية غيرت من شخصيته للمرة الثانية، فكان يشق الحرارة بجسمه العملاق وبدانته الآخذة في التمادي، متربصاً لأى هفوة حتى خافه أقرب المقربين إليه. ولم يعد منظره ينسجم مع الفتونة، فهو يترهل ويعلوه الخمول ويغرق في الإدمان والترف. وانتفخت كرشه وتدللت عجيزته، ومن إفراطه في الطعام كان يغلبه النوم وهو متربع على أريكته في القهوة.

٢٤

وذات صباح وقف سليمان الناجي يحادث سعيد الفقى شيخ الحرارة وسط وحل تكدس فى جنبات الحرارة من أثر مطر انهل شطراً من الليل. وكان سعيد الفقى يقول له :

١٧٩

– إن الله يمتحن من عباده المؤمنين ..
وأراد سليمان أن يعلق ولكنه حملق بعثة في وجه عدو ينقض عليه
من الغيب وتهاوى على الأرض كمئذنة . حاول النهوض مرات ولكنه
عجز . ثم استسلم لما يشبه النوم . وهرع إليه سعيد الفقي وأخرون ولكنه
أصدر أصواتاً مبهمة ولم يستطع النطق .
وحمل سليمان الناجي إلى دار سنية هانم السمرى كطفل عاجز .

٢٥

دهمه شلل نصفى فقد فوق فراشه عاجزا .. وكل من رأه أدرك أن
سليمان الناجي قد تحول إلى لا شيء . وعادته فتحية وبناته مثل الغرباء .
وقامت سنية برعايته وتتربيصه في صبر وحزن وهي تغمغم دائمًا :
– حللت بنا اللعنة !

وانقضت بسبعينة أعوام قبل أن يستطيع أن يتحرك . غدا في قدرته أن
يسير على نصف جاراً نصفه الآخر وهو يتوكأ على عكازين . وكان ينشد
الفرجة بالجلوس أمام الدار أو في القهوة ، ينطق بالكلمة أو الكلمتين
ويلقى على ما حوله نظرة غائبة وقد هجرته معانى الأشياء .

٢٦

وناب عتريس عن سليمان في الفتونة . ظل على ولائه له بادئ
الأمر ، يزوره . ويعطيه نصيبيه كاملاً من الإتاوات ، ويمارس السلطة
الفعالية في العصابة ، ويقول له :

١٨٠

- أنت سيدنا و تاج رأسنا ..

ثم شغلته واجبات الفتونة - هكذا قال - عن واجب الزيارة فكف عن
ورود دار السمرى إلا يوم حمل الإتاوة .

ثم أعلن فتونته واستولى على نصيب سليمان من الإتاوات فلم يصادف من أحد الأعوان ما يقدر ، بل لعلهم أملوا أن يتحرروا على يديه من الالتزامات المحدودة التي ظل سليمان ملتزماً بها حيال الحرافيش .

وسرعان ما عادت الفتونة إلى سابق عهدها قبل عاشور الناجي .
فتونة على الحارة لا لها ، ولا خدمة تؤديها إلا خدمة الدفاع ضد الفتوت
الآخرين . وحتى في هذه الناحية اضطر عتريس إلى مهادنة أعداء
ومحالفة آخرين ، بل حتى الإتاوة دفعها إلى فتوة الحسينية ليتجنب
معركة خاسرة . وكلما هان خارج الحارة زاد طغياناً وصلفاً داخلها .
وأهمل أخته فتحية وأكثر من الزواج والطلاق . واستأثر بالإتاوات هو
وعصابته على حين أغدق على الحرافيش الزجر والتأديب ، وأنزل
الوجهاء - على حد قول سعيد الفقى شيخ الحارة - حيث أنزلهم الله
سبحانه وتعالى ..

٢٧

لم يفقد سليمان الناجي الفتونة فحسب ، ولكنه فقد نفسه أيضاً . لم يعد شيئاً وتلاشت الدوافع والمعانى . واستمسك بأمل شارد في الشفاء
حتى سأله رضوان الشوبكشى العطار حما ابنه بكر :

- أليس حالى دواء عندك؟

١٨١

فأجابه الرجل وهو يدارى ازدراءه:

- لقد بذلت العطارة جميع ما فى وسعها..

وقال رضوان الشوبكشى لنفسه: «يطمع فى استرداد قوته وفتونته، عليه اللعنة وعلى أصله».

وطاف سليمان بالأولياء، الأحياء منهم والأموات. وناجي الأمل كل مناجاة. وظل يزحف على عكازين، ويحمد فوق الأريكة مثل قدر المدمس. وانتابته حكمة لم يعرفها فى حياته، فقال إن الإنسان لعبة هزلية والحياة حلم. وتجاهله عتريس تماماً، كما تجاهله الأعون، وتجاهله الحرافيش بلا رحمة وعدوه المسئول الأول عما حاقد بهم.

ثم تغلغلت التعasse في جوف داره. بدا أن سنية هانم برمءة بالحياة في جواره. تركت مهمتها رعايته إلى جارية. وتجهمت الحياة بقدر ما تجهمتها الحياة. ولم تنس قط ابنها الهارب خضر، وفترت لذلك العلاقة بينها وبين رضوانة. ومضت تتغيب عن الدار كثيراً ناشدة التسلية في دور الجيران. وتآلم سليمان لذلك غاية الألم، وقال إن أثر الشمس يمحى وراء الغيوم. وإنه لا كرامة لعاجز.

وقال لها مرة:

- غيابك عن الدار يطول أكثر مما يليق.

قالت له بحدة:

- لم يبق بها شيء.

وخطر له كثيراً أن يطلقها ولكنه أشفق من ألا يجد في مسكن فتحية الراحة الضرورية. وتجبر العذل والمهانة متصبراً.

وجالسه سعيد الفقى ذات يوم فى القهوة . طالعه بوجه ودود ، وقلب
ذى حقد دفين قديم . وقال له بنبرة الصديق :

- يا معلم سليمان يعز علينا حalk ..

فرمقه بنظرة لا معنى لها ، فواصل الرجل :

- ولكن لك علينا حق الصدق والإخلاص ..

ماذا يريد الرجل ؟

- الرأى عندى يا معلم أن تطلق سنية هام !

فاختلجم جفناه وارتعشت يده ، فقال سعيد :

- هذه نصيحتى كصديق قديم ..

غمغم سليمان :

- لم ؟

فأجاب الرجل :

- لن أزيد حرفا ..

لم يعد رد الفعل عنده ذا شأن . غداً ألمه مجردا . لا السرور يضحكه
ولا الحزن يبكيه . ولكن لا بد من الطلاق . سيسير في الطريق حتى
نهايته المسوددة .

ورجع من القهوة إلى مسكن فتحية الذي استأجره لها عقب انقلابه الخطير. استدعى المأذون وطلق سنية هانم. وقد جزع لذلك بكر وقال له :

- ما كان ينبغي أن يقع ذلك ..

فقال له :

- بل عليك أن تصون أمك يا بكر !

فصرخ بكر :

- قطعاً لألسنة الوشاة !

وافتراقاً شبه متخاصمين . وجعل سليمان ينفق من مدخله ويقول :

- أسأل الله أن يجيء موته قبل أن أمد يدي إلى بكر ..

٣٠

في أثناء ذلك تحسنت أحوال بكر التجارية والمالية . وأنجب من رضوانة رضوان وصفية وسمحة . وقد زلزله طلاق أمه ، وترامت إليه شائعات أليمة ، حتى اضطر إلى أن يصرها بسلوكها وما يشيره حولها . وغضبت سنية ولعنت الحارة ووصمتها بكل خسيس ، ولم تغير من تحررها وانطلاقها .

إلى ذلك كان بكر قلقاً مضطرباً في حياته الزوجية . لم يشعر أبداً بأنه ملك رضوانة ، ولم يكف عن التفاني في حبها . ليست هي بالطبع ولا بالتفاهمة ولا بالمستحبة ، وبها حدة مجهلة الأسباب تستفحـل مع الأيام . إنها تناـل ما تـريـد بلا امـتنـان ولا سـعادـة ، وهو لا يـطـيقـ الدـنيـاـ إذا جـفـتهـ أو خـاصـمـتهـ . ويـجـنـ جـنـونـاـ إـذـاـ خـطـرـ لـهـ أـنـ حـبـهاـ لـهـ لـيـسـ بـالـقـوـةـ

اللائقة . ماذا ينقصها ؟ ماذا ت يريد ؟ أليس هو بالزوج المثالى ؟ إنه يتتجنب ما يشيرها من قريب أو بعيد ولكن ما يشيرها يدهمه من حيث لا يحتسب . وبدت العاشرة بلا أثر ، وبدت الذرية بلا أثر كذلك . وانطوى على قرحة أفسدت عليه مذاق حياته الخاصة .

- رضوانة ، بوسعك أن تجعلى من دارنا عشا للسعادة ..

فتساءلت بغموض :

- أليست هي كذلك ؟

- ولكنك تهملين حبى يا رضوانة ؟

فقالت متأففة :

- إنك لا تفكري إلا فى مسراتك ، وتنسى أننى أم لثلاثة ..

فقال بأسف :

- إنى أفقد حرارة تكافئ حبى العظيم !

فضحكت بفتور وتمتمت :

- أنت طماع ، أما أنا فأبذل خير ما عندي ..

وضاعف من تعاسته تمزق العلاقات الطيبة بين أمه وزوجته . منذ اختفاء خضر تغيرت سنية ، وسرعان ما قابلت رضوانة التغير بمثله أو بأسوأ منه . وتنافرتا مرة بعنف حتى قالت سنية لها بحدة واتهام :

- قلبي يحدثنى ببراءة خضر !

فأجابتها بحدة أشد :

- الأصوب أن تصونى سمعتك !

فهاجت سنية ورمتها بشمعدان صغير لم يصبها . ولما راجع بكر وجد رضوانة شعلة من الكراهة والغضب . وخلال إلى أمه يعاتبها ولكنها قالت له :

- نصيحتى لك كأم أن تطلقها ..

فذهل بكر ، فقالت ساخرة :

- كانت قدم الشر الذى قضى على أخيك وأبيك وأمك ..

ثم بصوت حاد متهدج :

- إبليس نفسه يعجز عن فعل ذلك كله ، حتى أنت حفيد الناجى الكبير تؤدى الإتاوة لصعلوك من خدم أبيك وجدك ..

وقال بكر لنفسه :

- إنها اللعنة قد حللت بنا حقاً !

ودارت عجلة الأيام بلا توقف كعادتها . ومات السمرى الكبير أبو سنينة فورثت عنه مالا لا يأس به . واستو Hibahها بكر بعض المال ليزيد من رأس ماله فلم تمنعه ، ومضى فى طريق الشراء بلا حدود . أخذ يتسلى عن همومه بالإغراء فى العمل ، وخوض المغامرات الناجحة والمضاربات الخطيرة ، حتى كادت أن تستثير به شهوة المال لدرجة الجنون . كان يكتنز المال كأنما يتحصن به حيال الموت والأحزان والفردوس المفقود . وكان ينطلق نحو الكفاح من مركز منغرس فى أرض الأحزان والهموم متحدياً الألم والجهول . ولم يكن بكر كريماً ولكنه أيضاً لم يكن بخيلاً . لم يكن ينفق فى الخارج مليماً لغير ما فائدة تعود عليه ، أما فى داره فكان بحراً ، أهدى إلى رضوانة جواهر تساويها وزناً ، وجدد أثاث الدار ورياشها وتحفها حتى صارت متحفـاً . وقال والحسرة تفرض قلبـه :

- ليـت السـعادـة بـالـمال تـشتـرىـ.

وذات يوم أشهر رضوان الشوبكشى - أبو رضوانة - إفلاسه . كان الرجل مسرفاً ، مولعاً باللهو والطرب واللبابى الملاح فأفلت منه توازنه

التجارى وهوى . ورحب بكر بالفرصة ليثبت لزوجته المتمردة حبه وكرمه ، فلما عرضت دار الشوبكشى للبيع فى المزاد اشتراها بشمن فاحش ليisser لحميء تسدید دیونه . وألحق ب محله إبراهيم الشوبكشى شقيق رضوانة الأصغر وجعله وكيله وأمين سره . غير أن رضوان الشوبكشى لم يتحمل الصدمة فمات بالسكتة ، وشييعه بكر بما يليق بمقامه وأقام له مأتما استمر ثلاثة أيام ، وتوقع بعد ذلك أن تغير رضوانة من سلوکها أو تهذب من طبعها ولكنها كانت مثل الصلب لا تلين ، وزادتها الأحزان فتورا ونفورا حتى قال بكر لنفسه :

- إن قيام القيامة نفسها لن يغيرها . .

٣٢

وأطبق الظلام عندما اختفت سنية أمه من الدار والحاره ! كارثة لم يستطع لها دفعا . وسرعان ما عرف أنها أخذت مالها وهربت مع شاب سقاء وتزوجت به . كارثة حقيقة نكست رأسه ، فتفض منها يديه ، ولم يهتم حتى بمعرفة مقامها الجديد ، وتوارى وراء سجلاته ورحلاته .

وعسى إليه عتريس الفتوة وقال له :

- إنى فى خدمتك إن أردت خدمة . .

ففكره منظره ، وداراه بابتسمة ممتنة ، وقال له :

- الشكر لك يا معلم ، وليفعل الله بها ما يشاء . .

وتبدت له الدنيا رمادية ضاربة للحمرة . وتساءل : لماذا نحب هذه الحياة ونحرص عليها هذا الحرص كله ؟ لماذا نذعن لشیئتها الحادة القاسية ؟ ألا يحق لها بعد ذلك أن تسلط علينا دود أرضها ؟ اللعنة على

١٨٧

عاشر الناجي الأسطورة الكاذبة ، اللعنة على الدراويش المجانين الذين لا يكفون عن الغناء . وتساءل أيضاً :

- يوجد خطأ جسيم ولكن أين هو ؟

٣٣

وذات مساء أرسل سليمان الناجي في طلبه . تذكر أنه لم يزره منذ أشهر فخجل . كان قد مر على شلله عشرة أعوام ، وكان قد لزم الفراش منذ عام في رعاية مخلصة من فتحية . ذهب إليه ، قبّل يده ، جلس إلى جانب فراشه وهو يعتذر عن إهماله بشواغله وهمومه .

وقال سليمان الناجي :

- نهايتي اقتربت يا بكر .

فدعاه بطول العمر والعافية ، فقال الرجل :

- حلمت بجدى شمس الدين ثلاثة مرات في ثلاثة ليال متلازمة ..

- هذا لا يعني شيئاً ضاراً يا أبي .

- هذا يعني كل شيء ، وقد قال لي إن الدنيا لا تساوى شيئاً حتى يهبهها الإنسان روحه ...

- رحمة الله يا أبي ..

فقال بأسى :

- ما مضى قد مضى ، ولكنني أسألك من من أبنائك يصلح لها ؟
فادرك أنه يعني الفتونة فدارى ابتسامة وقال :

- ما زالوا صغاراً ولن يصلحوا لها ..

- ولا أحد من أبناء أخواتك لأبيك؟

فقال بعد تردد:

- لا أدرى يا أبي..

- لأنك لا تدرى عنهم شيئاً..

وتأنوه ثم قال:

- إنى أودع الدنيا مثل سجين.. أستودعك الحى الذى لا يموت!

٣٤

في جوف ذلك الليل فاضت روح سليمان شمس الدين عاشر الناجي. وعلى الرغم من عزلته الطويلة مشى في جنازته جميع أهل الحرارة، حتى عتريس ورجاله، ودفن إلى جانب شمس الدين. وثارت مكامن الأحزان في قلوب آل الناجي والحرافيش، وانسابت عليهم الذكريات مترعة بالأسى.

٣٥

وطرأ ت حركة جديدة غير مألوفة. ندت عن تيار الأحداث الربيبة وال ساعات التوائم مثل شهاب يمرق في سماء باهته. وتساءلت رضوانة في حيرة: «ماذا يفعل الرجل؟». على غير عادة أخذها بكر من يدها وراح يتفقد جنبات داره الكبرى طابقاً بعد طابق. إنه جاد أكثر مما تتصور، عظيم الاهتمام، كأنما يستعد لرحلة أو لمضمارية خطيرة..

١٨٩

- ماذا تفعل بالله؟

فلم يجب، لم يبتسِم، مضى بها من حجرة إلى حجرة، من بهو إلى بهو، من قاعة إلى قاعة، طائفًا بقطع الأثاث النادر، بالتحف، بالطنافس والستائر والسجاد، بالقناديل والشمعدانات والتحف، بمخدع نوم رضوان وصفية وسماحة.

وتمتت بصيق:

.. تعبت ..

فأشار إلى مرآة تحتل جداراً كاملاً مؤطرة بالذهب الخالص وقال:

ـ لا نظير لها في البلد كله ..

وأشار إلى نجفة شامخة متراصة الأبعاد، مرصعة بالكواكب وقال:

ـ إحدى ثلاث في مديتها الكبرى ..

ثم أشار إلى القبة الزجاجية التي تعلو المنور بألوانها الشتى وقال:

ـ صنعت وزخرفت في عام كامل وكلفت ثمن مثونه جيش!

ثم بسط راحتيه نحو سجادة عملاقة تغطي أرض البهو الكبير وقال:

ـ حملت إلى خاصة من أرض العجم!

لم يترك صواناً إلا أشاد به، لم يغفل جوهرة حتى قدم لها فروض الطاعة والثناء.

عند ذاك توثبت رضوانة للتحدي فجذبت معصمها من قبضته وتساءلت:

ـ ما الحكاية؟

فشبك ذراعيه على صدره وهو يحدقها بنظرة غريبة غامضة ثم قال:

ـ الحكاية أنني محظوظ الأقدر!

ـ ماذا تعنى؟

- الأقدار تعشقنى فهى لا تغفل عنى لحظة ولا تناهى !
- إنك تبدو لعينى غاية فى الغرابة؟
- انظرى إلىَّ جيداً، تأملى طويلاً ما استطعت، أنا الدنيا بلا زيادة ولا نقصان.. .
- لم تعد أعصابى تتحمل أكثر.. .
- فابتسم لأول مرة وقال:
- الحكاية يا رضوانة العزيزة المحبوبة المدللة التمردة أن بكر سليمان شمس الدين عاشور الناجى قد أفلس.. . !

٣٦

لم تفهم شيئاً. لم تصدق المستحيل. نطح رأسها سقف الصوان. تخاللت لها الدنيا في صورة امرأة تغمز بعينها البىرى. تهيات لتسقى العربة الماضية إلى جبال الواق. تبدي لها وجه بكر أجمل من الواقع وأتعس من الممكن. مرقت من فيها شهقة سرعان ما تجسست في صورة عقرب.

تم بكر:

ـ هي الحقيقة يا رضوانة.

رأها تتخض عن تمثال للذهول، فقال بقهر ويأس وحدق:

ـ لا فتونة ولا مال ولا سعادة!

تساءلت بريق جاف:

ـ ولكن.. لكن كيف وقع ذلك؟

- كما يقع الشلل والفضيحة والموت، لم تتعجبين؟ ما هي إلا مغامرة
أخطأت الهدف!

فقالت بعذاب:

- طالما حذروك من المغامرات..

فقال بازدراء:

- الذين لا يعلمون يتقدون ويعظمون ويحسدون، عليهم اللعنة..
وساد الصمت دققة فرقصت أشباح المخاوف، وارتطمـت الأحلام
المستحيلة بجدران الواقع الصلـد المـكـهـر. ثم تسـاءـلتـ:

- وماذا بعد؟

- سوف تصفى التجارة وتعرض جميع الأملكـ فيـ المـزادـ. أماـ بـعـدـ
ذلك..

وتوقفـ فـتسـاءـلتـ:

- أماـ بـعـدـ ذلكـ؟

- بعد ذلكـ نـنـضمـ إـلـىـ قـافـلـةـ المـسـؤـلـينـ..

- لـاشـكـ فـيـ أـنـكـ تـحـاـوـلـ إـرـعـابـيـ..

- أحـاـوـلـ إـيـقـاظـكـ لـيـسـ إـلـاـ..

فصـاحـتـ:

- إـنـهـ جـزـاءـ الجـنـونـ..

فـقـالـ سـاخـراـ:

- إنـهاـ التـجـارـةـ فـحـسـبـ،ـ فـيـهاـ شـرـيكـ خـفـىـ هوـ الـقـدـرـ..

- أـنـتـ الـذـىـ غـامـرـتـ لـاـ الـقـدـرـ..

- وـأـنـتـ طـالـماـ جـحدـتـ وـتـنـكـرـتـ،ـ وـلـكـنـ لـاـ شـأنـ لـذـلـكـ بـالـسـوقـ..

فـانـهـمـرـتـ دـمـوعـهـاـ وـقـالـتـ:

- الآن أعرف كيف مات أبي ..

فقال بمرارة :

- كان سعيد الحظ !

- والأولاد ما مصيرهم .. ؟

فقال بامتعاض :

- فلنذهب لهم ينعمون بنوم سعيد .

٣٧

توقفت الحرارة عن نشاطها المأثور لتشهد المزيد الخاص بالرجل الذي
كان أغنى أغنيائها من قبل أن يتزلق في هاوية الإفلاس .

ثمة سحائب كانت ترکض فوق سطح الشمس في اليوم الأخير من
أشيير . ووقف بكر سليمان الناجي وسط الشركاء الذين انقلبوا دائنين .
جفت فوق شفاههم بسمات التودد ، انداخ فوق خدوthem شحوب
القلق ، وارتباك التحفز ، ولكن الأشداق انتفخت بحتمية التصميم .
ومال سعيد الفقي شيخ الحرارة على أذن عثمان الدرزي الخمار وسأله
متهكمًا :

- لم ير حلم النجاة مثل جده الأول ؟

فهمس الخمار :

- أحلام المتخدمين كوابيس !

وقبيل المناداة بدقة ترمي رنين جرس مؤثر .

اتجهت أصوات نحو مدخل الحرارة فرأوا كارنة قادمة يتوسطها رجل .

١٩٣

ترى أهو مزاييد طارئ من الخارج؟ وقفـت الكـارتة عندـ المـحلقةـ . غـادرـهاـ شـابـ فـي عـباءـة سـودـاءـ ، وـعـامـة مـقلـوـظـةـ ، طـوـيلـ رـشـيقـ ، ذـو سـحـنةـ غـيرـ غـرـيبةـ .

وـأـكـثـرـ مـنـ صـوتـ هـتـفـ :

ـ يـاـ أـلـطـافـ اللـهـ ، هـذـاـ خـضـرـ سـلـيمـانـ النـاجـىـ !

٣٨

تطـاـيـرـتـ التـوقـعـاتـ مـنـ رـأـسـ إـلـىـ رـأـسـ . سـرـتـ الـهـمـهـمـةـ مـثـلـ الطـنـينـ . دـارـىـ سـعـيدـ الـفـقـىـ اـبـتـسـامـةـ . اـصـفـرـ وـجـهـ بـكـرـ وـارـتـعـشـتـ أـطـرافـهـ . أـمـاـ خـضـرـ فـقـدـ رـفـعـ يـدـهـ بـالـسـلـامـ ، وـتـلـقـىـ الرـدـ بـتـرحـيبـ وـرـجـاءـ ، وـقـالـ سـعـيدـ الـفـقـىـ :

ـ جـئـتـ فـيـ وـقـتـكـ !

وـتـسـاءـلـ عـشـانـ الدـرـزـىـ :

ـ أـجـئـتـ مـزـايـدـاـ؟

فـقـالـ خـضـرـ بـأـسـىـ :

ـ بـلـ جـئـتـ لـإـنـقـاذـ مـاـ يـمـكـنـ إـنـقـاذـهـ .

أـدـرـكـ الـجـمـيعـ أـنـهـ يـتـكـلـمـ مـنـ مـوـقـعـ الـقـوـةـ وـالـثـقـةـ . وـأـنـ الـفـتـىـ نـجـحـ فـيـ مـهـجـرـهـ وـأـثـرـىـ ، فـأـنـتـعـشـتـ أـنـفـسـ الـدـائـنـىـنـ وـقـالـ صـوتـ :

ـ فـلـيـبـارـكـ اللـهـ خـطاـكـ ..

فـقـالـ خـضـرـ :

ـ إـذـنـ فـلـيـؤـجـلـ الـمـزـادـ لـعـلـنـاـ نـصـلـ إـلـىـ اـتـفـاقـ .

١٩٤

عند ذاك صرخ بكر:
ـ كلا!

تركتت عليه الأ بصار فى ذهول فصاح مخاطبا أخيه:
ـ لن يطهرك الزمن من جريمتك فاخسأ ملعونا غير مشكور!
وتأثرت الاعتراضات مثل الرذاذ وقد تلاحت السحائب الراقصة
فانعقدت خيمة دكناه.

وقال خضر برجاء:
ـ دعنى أقم بواجبى ..

صرخ بكر في هياج:
ـ الخراب أحب إلى من النجاة على يدك ..
فقال الشيخ طلبة القاضى شيخ الزاوية:
ـ لا يجوز تبديد رحمة من السماء.

اصح بكر:
ـ ما جاء إلا للشماتة والانتقام ..

وأحاط الدائتون بيكر يهدئونه ويقنعونه، وقال الشيخ طلبة القاضى:
ـ فليؤجل المزاد حتى تستقر على رأى لا يعقبه ندم ..

٣٩

ختم بكر حديثه، ثم نظر نحو رضوانة وقال:
ـ هذه هي الحكاية.

انتظر التعليق بشغف محموم ولكنها ارتبت وقهرت ولم تجد ما
تقوله. انحصرت فى قفص من نظراته الحادة المستطلعة. وتساءل بكر:

- مالك لا تتكلمين؟

غاصت أكثر في الصمت، وغلبت على أمرها، فعلت السخرية في
نبره وهو يقول:
- خبريني برأيك؟

فهربت ببصرها نحو البسملة المؤطرة بالذهب المشبّة فوق الجدار
وقالت مدفوعة بارادة يائسة:

- ماذا أقول والأولاد مهددون بالتسول؟!

- أسمعني رأيك صريحاً مثل النار.

فقالت وقد استردت بعض عنادها:

- أرى أنه يرغب في إنقاذ سمعة الناجي ..

فقال بحنق:

- كلا، لو كان يقيم وزنا للسمعة ما طمع في زوجة شقيقه ..
فتمتّمت في حرج:

- لعله ينشد التكfir.

- لا تكfir لمن لا ضمير له ..

- لم يضحي بمالي إذن؟

فاجتازه الغضب وقال:

- لعله يرغب في إنقاذه أنت!

فلوحت محتاجة وقالت بحدة:

- كلا ..

- كلا هذه لا تعنى شيئاً.

- أعتقد أنه يسعى لإنقاذ سمعة أسرته ..

فاستهل غضبه وقال:

- إنك تكذبين!

فقالت محتدة:

- لا تزد الأمور سوءا.

- دعيني أشك فى كل شيء، حتى أنت!

فصاحت به:

- إنك فى حال لا يمكن أن تحاسب معها على قول ..

- إنى فى تمام قواى العقلية، الإنسان قد تجنبه النعمة، ولكنه يلعن
الحكمة على يد الإفلات والمحن، ما أنت إلا امرأة قذرة تتطلع إلى
عاشقها القديم ..

فصرخت:

- لقد فقدت عقلك.

- المعجزة أننى لم أفقد طيلة معاشرتى لك، هل وجدت منك إلا
الجحود والتمرد والنفور؟ هل وجدت منك إلا الغدر والخيانة
المكبوتة؟ أعطيتك كل شيء ولم آخذ إلا الهواء، وكنت اللعنة وراء
جنونى وإفلاسى، فلتحل بك اللعنة والخزى ..

وتلوت قائمة مثل لسان من لهب وصرخت فى وجهه:

- اقطع لسانك القدر.

فجن جنونه .

انهال عليها ضربا وصفعا وركلا حتى تهافت مغمى عليها. ومن
خلال النار المشتعلة فى عينيه حملق فيها ذاهلا. اعتقاد أنها تختضر أو أنها
ماتت. وبسرعة تملص من هموم حياته ومن عذابات الحيرة. وثبت من
فوق أسوار الواقع. فغادر المكان مكتظا بتصميم مذمر ..

كان خضر سليمان الناجي مجتمعا بالدائنين في دكان شيخ الحرارة
عندما اقتحمها بكر. قبض بيده على سكين، وثمل برحيق الجنون
الأحمر. صاح:

- لقد قتلتها وسأقتلك يا تيس.

ووجه نحو أخيه ضربة. انحرفت الضربة بسبب تدخل البعض
فاخترقت العمامة دون الرأس. تکالبوا عليه، انتزعوا السكين من يده،
طروحه أرضا.

- جنّ الرجل.

- بل هو مجرم.

رفع بكر رأسه عن الأرض قليلاً وصاح:

- أنتم وراء المال ولو في بؤرة فسق.

وقال شيخ الحرارة:

- نسلمه إلى القسم.

هتف خضر بجزع:

- لقد قتل زوجته ..

- يسلم للقسم.

وعاد بكر يصبح:

- جميعكم أوغاد وكلاب ..

سرعان ما تكشفت الحقائق. لم تمت رضوانة كما توهם بكر. أطلقوا سراح بكر. توأى بكر عن الأنظار واختفى من الحرارة.

أدى خضر ماتم الاتفاق على أدائه من أنصبة الدائنين. صفيت التجارة، أما دارا السمرى والشوبكشى فبقيتا في حيازة رضوانة.

وعدت ست فتحية «خضر» للإقامة في مسكنها الصغير - مسكن أبيه - حتى ينظم حياته. ووضح أن خضر ينوى الإقامة في حارته. وبلا تردد اتخذ الإجراءات لشراء محل الغلال ومواصلة نشاطه التجارى السابق. وفكرة أيضا في شراء دار السمرى أو الشوبكشى، ليجد نفسه مقاماً مناسباً من ناحية، ولتنفيذ رضوانة من ثمن الدار ما تعيش به عيشة كريمة هي وأبناء أخيه رضوان وصفية وسماحة.

وقالت له فتحية زوجة أبيه :

- جميع ما ينبع من قلبك نيل ..

فأجابها بفتور :

- لم أنس أسرتي، ظلت تعيش معى في الخارج ..

وحارته أيضاً. وتعلم في مهجره أن الناجي معنى حى، أما السمرى فلا وزن له يذكر. تعلم أن البطولة الحقة مثل المسك تطيب بها النفوس وتهفو إليها الأرواح ولو لم تؤت القدرة على استعمالها. ولكن لهذا هو ملاك الأمر كله وراء رجوعه إلى الحرارة؟!

وسأله فتحية :

- لم تكمل نصف دينك؟

فأجابها مبادراً:

- كرهت الزواج في الغربة!

٤٢

وبيوحي من تفكيره طلب مقابلة عتريس. تم اللقاء في دار عترис الفخيمة. واستقبله الفتوة بترحاب واحتفاء وقال له:

- شرفت الدار يا سليل البطولة ..

فقال خضر بتواضع :

- إنه واجب من يروم الإقامة نحو فتوتنا . . .

فقال عتريس بارتياح :

- أنتم أصل الخير والبركة ..

بذلك خمدت تساؤلات مريمة في مهدها.

٤٣

حتماً يتنتظر؟ إنه يمارس عمله في محل الغلال، ويعانى شتى الانفعالات المتضاربة. وهو هى ذى الخماسين تسفع الجدران، تثير الغبار، ترفع الحرارة، تلون الجو بالكدر. وعما قليل يتهدى الصيف بجلاله الشعبي وصراحته الحامية، وأنفاسه اللزجة. حتماً يتنتظر؟ لقد أرسلت رضوانة إليه من يشكّره فرد الرد الجميل. وعن لسانه قالت فتحية لرضوانة إنه يتذكر دائماً أنه تبودلت الرسل بينهم كالأغرباب،

حتى أرسل إليها ست فتحية طالبا مقابلتها . وذهب إليها ليلا ، متوجهاً
الأنوار ، حتى لا تصبح ذكريات الماضي حكاية مرة أخرى على
الألسنة . ذهب يحمل بين جنبيه دوامة ، ويضمّر أيضاً تصميماً .

استقبلته رضوانة في بهو الاستقبال . طالعته محتشمة الملابس ،
مطوقة الرأس بخمار أسود كأنها في حداد . وتصافحا ، وتلاقت عيناهما
مقدار ثانية ولكنها مشتعلة مثل شرارة متطايرة عن احتكاك حجرين . ثم
جلسا صامتين متحرجين يودان الخلاص .

قالت رضوانة :

- إنها لفرصة كي أشكرك بنفسى ..

فقال متحررا من حرجه بعض الشيء :

- وفرصة لي لأضع نفسى في خدمتك .

- ماذا عن بكر؟

- لم أهمل واجبى في ذلك الشأن ولكن لم يعثر له على أثر .

- متى يرجع في تصورك؟

- إنه ذو كبراء فيما أعلم وأخشى أن تطول غيبته .. كيف حال
الأولاد؟

- على خير ما تحب ..

فتردد خضر قليلا ثم قال :

- أود أن أشتري دار الشوبكشى إذا أذنت!

فقطبت قليلا وهي تقول :

- ت يريد أن تقدم مالا لامرأة مفلسة!

فقال متلعاً :

- إنى بحاجة إلى دار بصفة عاجلة ..

ثم بتسليم:

- وأولادك أولادنا على أى حال.

فقالت وهى تتفحصه:

- تشكر على نوایاك الطيبة ..

وصمتت لحظة ثم تسأله:

- ترى هل نسيت الإساءة القديمة؟

فبادر يقول:

- من يحمل الماضي تتعثر خطاه.

- ولكن هل ينسى الماضي حقاً؟

- أجل. إن يكن من الخير أن ننساه ..

- لا أدري.

- لولا ذلك ما رجعت، وما تم بیننا لقاء ..

فلاحت نظرة حذرة في عينيهما الجميلتين وتسأله:

- هل جئت حقاً من أجل شراء الدار؟

فدارى ارتباكا تهدده لحظة وقال:

- أجل ..

- ولكنك تعلم أنها ما زالت ملك بكر الغائب .. !

فتورد وجهه وهو يقول:

- قد نجد لذلك حلا ..

فهزت رأسها في ريبة فقال:

- على الأقل لأكون في خدمتك ..

فقالت بكبرياء:

- في الدارين من التحف ما يكفل لنا حياة رغيدة!

- ولكنني مسئول أيضاً.

فقالت وهي ترمقه بنظرة غامضة :

- لست في حاجة إلى مساعدة والشكر لك ..

فحنى رأسه امثلاً ، وتحرك حركة توحى بوجوب إنتهاء المقابلة ،

فتساءلت بقلق :

- أم جئت لغرض آخر؟

فقطلע إليها بنظرة دهشة ، فقالت بجرأة :

- من أجل الزجر والتأديب؟

فهتف بصدق :

- أعوذ بالله من خاطر لم يدر لى في بال!

فلاذت بالصمت فعاد يقول بحرارة :

- ما نطقت إلا بالصدق ..

فانقضى التوتر من شفتيها وحل مكانه سلام . وعند ذاك قلبت الصفحة قائمة :

- لقد نجحت في مهجرك والحمد لله .

- أجل . انتفعت بمدخرى الذى حملته معى ..

- تسعذنا ولا شك سعادتك ..

فتوقف قليلاً ثم قال :

- النجاح لا يوفر دائمًا السعادة ..

تلك حقيقة عرفتها بنفسى ، ولكن ماذا حرم عليك السعادة أنت؟

فلاذ بصمت ذى مغزى فارتبت وقامت :

- نحن أيضاً خسرنا السعادة ..

فتمتم :

- يا لها من لعنة!

- كانت سنية هاتم تردد دائماً أن اللعنة قد حلّت بنا..

أدركت من تجنبه السؤال عن أمّه أنه علم بمصيرها فندمت على ذكرها
ولكنه قال:

- لعلها صدقت.

فقالت بأسى:

- كانت تعدني اللعنة...

فقال بصوت منخفض:

- نحن نبالغ في أحزاننا..

فقالت بجرأة:

- أعترف بأنّي كنت شريرة، وأنّي ظلمتك ظلم الحسن والحسين..

فغمغم:

- لا عودة إلى الماضي..

فقالت متّمادية في جرأتها:

- لا أحد يعترف للعواطف بحق..

فلم يجد ما يقوله، فقالت:

- ولو كانت صادقة!

ها هي ذى لحظة طالما يشّس من العثور عليها. لعله من أجلها جاء.

لعله من أجلها رجع إلى الحرارة. لعله بسببها لم يذق للسعادة طعماً.

وقال منحدراً في عذوبة:

- حتى أصحاب العواطف قد يتنكرون لها..

فتألقت عيناها، وجرى في لونهما المشرق التماع التفكير والنهم

للمعرفة، تسائلت:

- ماذا تعنى؟

فصمت معانيا الإثم، فعادت تتساءل:

- ماذا تعنى؟

فتساءل فى حيرة:

- ماذا قلت؟

- أصحاب العواطف قد ينكرون لها، لا تهرب ..

فهرب فى الصمت فقالت وهى تحمل بنشوة طارئة:

- من ناحيتى لم أتنكر ..

ظل صامتا فواصلت بانفعال شديد:

- لا تصمت ، لماذا جئت؟

فقال متهاكا:

- لقد قلت ..

- أعني قولك الأخير ..

فقال بنبرة اعتراف:

- تكلمت أكثر مما يجوز.

فهتفت وهى تفقد الوعى:

- ما الذى يجوز؟ ما الذى لا يجوز؟ لماذا جئت؟ إنك ما جئت إلا
لتقول ذلك ..

فقال وهو يتدهور أكثر فأكثر:

- فى البدء كانت اللعنة ، والآن الجنون ..

فبعث جمالها جارفا الأسى وقالت:

- أسمعني بصراحة ووضوح.

- إنك تدرجين كل شيء ..

- لا أهمية لذلك ، أسمعني صوتك ..
فرنا إليها بنظرة هشة تسيل اعتراضا . بعثت النظرة في أوتارها عزف
النغم فتوهج جمالها كالشاعر ، واكتسى بحلة الظفر المبهргة .
- إذن لم يكن أنت الذي قال لا ..
فقال بأسى :
- شخص في قالها ..
- ثمة شخص آخر ، ماذا يقول ؟
قال بجدية بالغة :
- كنت أحبك ، مازلت أحبك ، ولكن علينا أن نفك طويلا ..
واستقر الصمت بإرادة الطرفين في وقار الليل ، وفي الصمت عزفت
في الآذان دقات القلوب ..

٤٤

لو أن شيئاً يمكن أن يدوم على حال ، فلم تتعاقب الفصول ؟

٤٥

الانتظار محنة ، في الانتظار تتمزق أعضاء الأنفس . في الانتظار
يموت الزمن وهو يعي موته . والمستقبل يرتكز على مقدمات واضحة
ولكنه يحمل نهايات متناقضة . فليعب كل ملهوف من قドح القلق ما
شاء .

متزوجة ، غير متزوجة ، أيضاً عاشقة . تكشف الأولياء ، تستشير المحامي ، تخجل من التفكير في الخطوة التالية .
في محل الغلال تمارس التجارة بمهارة ، تحاور العواطف بشغف ،
تداري الأسواق بعذاب ، تصارع الغرائز بعنف ، ترفع إلى السماء أمانى
وابتهالات .

الناس ترافق وتتذكرة ، تحصى اللفتات والنوايا ، تؤوغ الأوهام
بأوهام ، تتعجل تحقيق الظنون ، تستتر بالقوى والبراءة .

ويقول سعيد الفقي شيخ الحرارة :

- الشهامة قناع . والفالسق أربع من الشيطان .

ويسأل عثمان الدرزي السكارى في البوظة :

- لم لم يتزوج حتى الآن ؟

٤٦

زحف مد الأسى حتى غطى إبراهيم الشوبكشى شقيق رضوانة
ووكيلاً خضر . الأقاويل تدهمه مثل الشر . خسر الجاه وها هو ذا على
وشك أن يخسر الشرف . الحياة تدبر رويداً رويداً منذرة بأساة .

وسائل خضر ذات يوم :

- أليس من حرقك أن تطالب بداري الشوبكشى والسمري نظير ما
سددت من دين ؟

فأجابه خضر بدھشة :

- ما خطرك لي ذلك ببال .

فقال إبراهيم بمكر :

- جميل أن تحفظ عهد بكر رغم أنه ضيّعه ..
قال خضر براءة :
- أبناء بكر أبنائي ..
ما أجمل الكلام ! ولكن ماذا عن التواب؟

٤٧

ولقى إبراهيم الشوبكشى نفسه فى الجحيم . بين يديه سهل منبسط ، وحياة واحدة لا بأس بها ، ولكن ثمة قوى نابعة من المجهول تدفعه إلى طريق وعر . وهو لا يسير مغمض العينين ، ولكنه يمتلىء بواعى حاد كالنصل ، ويدرك أنه يطرق باب الرعب .
ذهب فى المساء لزيارة شقيقته رضوانة . طالما تبادلا الحب صافيا والرعاية . ولكنه لم يجد بدا من مصارحتها بما يتربّد على ألسنة الخلق . واستاءت رضوانة استياء جليا ، وقالت بحدة :
- هكذا الناس دائمًا وأبدًا ..

قال إبراهيم :

- من واجبنا أن نقطع الألسنة .
- أود أن أقطعها بلا رحمة ..

قال إبراهيم بعكر :

- نالنا ما نالنا من اختفاء زوجك ، إنه لوغد !
فانزلقت قائلة :

- هو كذلك ، ومن حقى ألا أسكطت على ذلك ..

فاشتعلت هواجسه وتساءل :

- ماذَا تعنِّين؟

- من حقى أن أطالب بالطلاق!

فصرخ إبراهيم بغضب :

- الطلاق؟!

- أجل ، ماذَا أغضبَك؟

- النساء المحترمات لا يفعلن ذلك ..

- لا يفعل ذلك إلا النساء المحترمات!

- وكيف تبررِينه؟

- بأنه تركني بلا مورداً!

فتساءل بتربيص :

- وهل يجيئك الطلاق بمورداً؟

أدركت أنها جاوزت الحد بتصرِّحاتها ، فارتبتقت قليلاً ثم تمنت :

- على الأقل أن أقطع صلة لم يق لها معنى ..

فقال برجاء :

- أجلـى ذلك من فضلك ، ثم إنه طريق معقد لاندرى شيئاً عن مسالكه .

- كلا ، المحامى له رأى آخر!

فتساءل فى ذهول :

- استشرت محامياً أيضاً؟

فلاذت بصمت متخرج فهتف :

- يا للعار! ومن وراء ظهرى؟!

- محض استشارة لا ضرر منها ..

- يحق لناس عند ذاك أن يقولوا إنك تسعين إلى الطلاق تمهيدا
للزواج من خضر!

- عليهم اللعنة ..

- ولكنه أمر خطير بالنسبة لسمتنا!

فقالت بحده:

- سلوكي ظاهر لا شائبة تشوبه.

فقال وهو يحملق في وجهها بوحشية:

- سيرجح لديهم - ولهم العذر - أنك كنت شريكة في جريمته ..

- سيجدون دائما ما يقولونه ..

- ولكنه خطير جداً وسينسف سمعتنا نسفا ..

فقالت بغضب:

- لست قاصرة يا إبراهيم ..

- المرأة قاصرة حتى تدخل القبر ..

وأوضحت من غضبه فقالت:

- فلنؤجل الحديث إلى وقت آخر.

فقالت بعناد:

- إنه غير قابل للتأجيل ..

فهتفت بعصبية:

- دعني وشأنى ..

فصرخ:

- الآن أدرك أنك شريكة له!

- أنسى ما حدث؟

- ولكنني أعرف قصة امرأة العزيز ..

فصاحت غاضبة :

- حسبي أني واثقة من نفسي .

فوقف شاحبا وسأل :

- بصراحة أجيبينى ، هل تنوين الزواج من خضر؟

- أرفض الاتهام ، كما أرفض التحقيق ..

- يا للكوارث التى لا تزيد أن تقف عند حد!

- فوقفت بدورها وهى تتساءل :

- أليس الزواج علاقة مشروعة؟

- أحيانا يكون هو والزنا سواء.

- لم أسمع عن ذلك من قبل ..

فقال بهدوء طارئ :

- إذن فأنت تنوين الزواج من خضر؟

فلاذت بالصمت وأطراها ترتعش .

- إنك تنوين الزواج من خضر ! حقا إن للناس غريزة لا تخيب ..

فقالت بأسى :

- تبرأ مني إذا شئت ، لنفصل يا إبراهيم !

فقال بهدوء :

- سوف ننفصل يا رضوانة ..

وانقضى عليها بغتة . بكل وحشية وجنون طوق عنقها بيديه . شد بقوة

حتى ثمل بالعنف وتمادى فى القتل . ودافعت رضوانة عن حياتها بيدين

عاجزتين ، بانتفاضات عشوائية ، بصرخات لم تخرج ، باستغاثات لم

تسمع ، بأمانى لم تذعن ، بيسأس بدد النور والأشياء ..

مضت تسترخى ، تستسلم ، تهن ، تهمد ، معلنة الندم ..

Twitter: @ketab_n

المطارد

الحكاية الرابعة من ملحمة الحرافيش

الشمس تشرق ، الشمس تغرب ، النور يسفر ، الظلام يخيم ،
الأناشيد تشدو في جوف الليل . غابت رضوانة في بطن الأرض ، غاب
إبراهيم في السجن ، غاب بكر في المجهول .

لم يرث أحد للقتيلة ، فاز إبراهيم بالعطف والتقدير ، انطوى خضر
على أحزانه لا يشاركه فيها أحد . كثر تداول الحكم عن فساد طبيعة
المرأة ، الأمثال تضرب على خيانة الإخوة ، تردد المواعظ اللعنة النازلة
بآل الناجي .

تنكرت لهم الفتونة ، رفل في ثوبها الزاهي عتريس حتى انتقل إلى
الآخرة ، حل محله الفلل أقوى أتباعه ، انددرج عاشر وشمس الدين
وحتى سليمان ضمن ركب الأساطير .

ها هو ذا كبيرهم خضر سليمان الناجي يتربع فوق كرسيه بمحل
الغالل ، يشري يوماً بعد يوم ، يؤدى الإتاوة للفلل فى حينها . مبتور
الصلة ببطولة الأبطال .

شيد داراً جديدة ، عكف على تربية رضوان وصفية وسمامة ، لبث
أعزب حتى قارب الأربعين ، دفن فتحية زوجة أبيه ، شهد موت الشيخ
طلبة القاضى إمام الزاوية ، وسعيد الفقى شيخ الحرارة ، وعثمان الدرزى
الخماد .

وأخيراً تزوج خضر من ضياء الشوبكشى صغرى أخوات رضوانة ،

وهي بنت بها من رضوانة مشابه وفيها جمال أليف، وسرعان ما تبين له طبيتها غير العادية، طيبة النقاء والبساطة التي تقف على حافة السذاجة والبله. لم تؤدّ في الدار دوراً ذا شأن ولم تنجب أطفالاً، وتركت جمالها للفطرة بلا تأنيق ولا تزويق. ورضى خضر بحظه ولم يخطر له ببال أن يتزوج من أخرى.. ومال إلى الورع والتقوى، وأكثر من السهر في الساحة أمام التكية كما فعل جده عاشور من قبل.

وتزوجت صافية من بكرى صاحب وكالة الخشب، وعمل رضوان في محل الغلال وكيلًا لعمه في المكان الذي خلا بسجن إبراهيم الشوبكشى. ومن خلال العمل تجلت رزانة وأمانة ومواهبه التجارية فبشر بمستقبل رائع.

أما سماحة، فقد بدا أنه مشكلة.

٢

كان سماحة متوسط الطول، فائض الحيوية، قوى العضلات، في وجهه ملامح شعبية من وجه جده سليمان، تنبسط تحت رأس نبيل وبشرة صافية تذكران بأمه رضوانة..

أتم تعليمه في الكتاب، واكتسب من عالم الفضيلة شهامة وكرما وبعض الورع، ولكنه ولع ب GAMER الشباب، والجسارة، ، وعبادة البطولة. أما العمل في المحل فلم يشرح له صدره، ولا تجلت له فيه مواهب. واتخذ من بعض أفراد عصابة الفلللى أصدقاء، فشاركهم سهراتهم فى الغرز، وحتى البوطة طاف بها مرات.

وقلق لذلك خضر، وكثيراً ما كان يقول له:

- يلزمك قدر كبير من الإرادة والتركيز..

فينظر سماحة إلى شقيقه رضوان بفضول ويقول:

- لم أخلق للتجارة يا عمى ..

فيسأله قلقاً:

- لم خلقت إذن يا سماحة؟

ويشير ببصره في حرج، فيقول خضر:

- إن مصاحبة الفتوات والله معهم ليس هدفا لأمثالك ..

فيتساءل سماحة:

- ماذا كان أجدادنا يا عمى؟

فيقول خضر بجدية:

- كانوا فتوات حقاً لا بلطجية، ولم يعد لنا من أمل إلا في التجارة

والجاه!

رغب في إرشاده وتوجيهه مدفوعاً بقوة حبه لأمه، وقد ترکزت فيه

وفي رضوان وصفية عواطف أبوته المغتالة. حقاً لم تعد رضوانة إلا ذكرى، ولكنها ذكرى، لا تريد أن تموت ..

٣

وما يدرى خضر سليمان الناجي إلا وسماحة ينضم إلى عصابة الفللى رجلاً من رجاله. احتفل الفتوة بانضمام حفيد الناجي إلى أعوانه، وعده أكبر نصر له في حارته. أما الحرافيش فاعتبروا ذلك طوراً جديداً من أطوار المأساة التي تطحنتهم. وقيل - فيما قيل - إن الله قادر على أن يخلق أحياناً من صلب الأبطال أو غادراً لا وزن لهم، وإن عاشر صاحب الحلم والنجاة والعدل الشامل ظاهرة خارقة لا تتكرر.

وحزن خضر حزنا عميقا، وعاني مرارة الخيبة والمهانة. وقال لابن أخيه :

ـ إنك تمرغ ذكرى الناجي والسمري والشوبكشى فى التراب ..
فقال له سماحة :

ـ رأسى مليء بالأمال يا عمى ..
ـ ماذا تعنى يا سماحة؟

ـ سوف يرجع عهد الناجي ذات يوم إلى أصله!
فتسائل خضر جزعا :

ـ هل تراودك فكرة الفتونة؟
فقال بثقة :

ـ لم لا؟
ـ ولكنك لا تملك القوة الكافية ..

ـ هكذا ظن بشمس الدين!
ـ ولكنك لست شمس الدين ..
فقال :

ـ عندما يحين وقت المعركة ...
فقطاطعه خضر :

ـ احذر الفلللى ، إنه شيطان ماكر ، احذر أن تجربنا مغامرتك فتلقى بنا
في الهوان والضياع ..
وقال له شقيقه رضوان :

ـ أقلع عن طموحك ، للفللى مائة عين ، لقد طواك تحت جناحيه
حتى لا تغيب عنه حرقة من حر كاتك ..
فابتسم سماحة ، وتجلت الأحلام فى عينيه مثل حمرة الغسق .

في تلك الليلة سهر خضر في الساحة أمام التكية . دفن قلقه ومخاوفه في الظلمة المباركة . رفع عينيه إلى النجوم الساهرة طويلا . رنا بإجلال إلى شبح السور العتيق . ابتهل إلى بوابة التكية الشامخة . تأمل عمر الفنان بأسى . حيا أشباح أشجار التوت . تذكر بوجد الشاوين في القبور والضائعين في المجهول ، والعواطف المشبوهة التي لم تنهل من رحيم الحياة . الآمال التي تلاشت في الأبدية . الأحلام المنطلقة من وهذه السكون مثل الشهب . العرش الهائم فوق احتمالات الخير والشر كافة . وتساءل :

– ماذا يخبئ الغد؟ لم اختص عاشور بالرؤيا الهدافية؟
وانتبه إلى الأنعام وهي تصعد مثل الهداد هاتفة :
آن نكة خاك را بنظر كيميا كنتد
آيا بودكه كوشة جشمی بما كنتد

وفكر خضر في تزويع سماحة من بنت الحلال . اعتقاد أنه يعيش طور مغامرة هو جاء ، وأنه ينقصه العقل . والارتباط بأسرة كريمة مدعوة إلى إعادة التفكير . والتزول بدار فاخرة وإنجاح ذرية كريمة ومصاهرة الأكابر ، من شأنه خلق دنيا جديدة تقتضي أن يغير الإنسان جلده

وعينيه . ورأى فى أنسية كريمة محمد البسيونى العطار أمله المنشود .
وجس النبض فلقي ترحاها كما قدر وأكثر ..

عند ذاك قال لسماحة :

- وجدت لك ابنة الحلال ..

فتساءل سماحة :

- أليس من الواجب أن نبدأ بأخى الأكبر رضوان؟

- أو نبدأ بالجوارد الجامح !

فقال سماحة بعذوبة وجرأة :

- الحق أنى سبقتك يا عمى ..

- حقاً؟!

فحنى رأسه بهدوء فسألة بلهفة :

- من السعيدة المحظوظة؟

فقال وعلى شفتيه ابتسامة تخد :

- مهلبية !

ضحكـت ضيـاء ضـحـكة عـالـية دون أن توضـح نـظرـتها البرـيـئة سـعادـتها
باـخـبر أو أـساـها .. أما رـضـوان فـتـمـتـ بـذـهـولـ

- مهلـبيـة !

فقال سماحة بهدوء :

- كـريـمة كـوـديـة الـزارـ صـبـاحـ !

عبـسـ خـضرـ وـاحـتـقـنـ وجـهـهـ . ضـربـتـ ضـيـاءـ بـيـديـهاـ دـفـاـ مجـهـولاـ وهـىـ
تـغـرقـ فـيـ الضـحـكـ . تسـاءـلـ خـضرـ :

- ماـذاـ وـرـاءـ تنـكـيلـكـ بـناـ؟!

فقال سماحة بهذـوـئـهـ :

- عـمـىـ إـنـىـ أـحـبـكـ وـأـحـبـ مـهـلـبـيـةـ!

رأها لأول مرة في موسم القرافة بصحبة أمها فوق كارو. من موقفه أمام حوش شمس الدين رأها وهي تسبب من العرفة. سمراء غامقة السمرة. ضاربة للسواد، مشوقة القد، واضحة القسمات. مفصلة الأعضاء، باسمة الوجه، فائضة الحيوية والأنوثة مثل نافورة، فاضطرم بالرغبة والاندماج. تلاقت الأعين في حب استطلاع متبدل، واستجابة عامة مثل أرض خصبة. انصراف بأسرارهما الهواء المطهو بأشعة الشمس والأفاسس الحارة والأحزان وشذا الخوص والريحان والفتائر. مال نحو منعطفها مثل عباد الشمس. واستحثه الموت المحيط بأن يسرع وألا يتتردد.

لم يكن في الأمر مفاجأة. كان يعلم من نوازع نفسه أنها ميالة بنهم إلى السود. ومحاصراته البدائية كافة وقعت في أحضانهن، في ظلام القبو أو الخراة وراء البوطة.

اعتمد على نفسه وحدها. اختار للتحرى أسوأ الناس طراً أول ما اختار.

سأل «صديق أبو طaque» عن مهليبة وأمها. وقال الرجل :
- إنني لا أربح البوطة، ولكن الأخبار تجيئني متقطعة ساعة بعد ساعة.

وجعل الرجل يتذكر ثم قال :

- للبنت معجبون ، ولكنى لم أسمع عنها كلمة سوء ..

ارتاح سماحة وعد شهادة أسواء الناس خير شهادة . ولم يقنع بذلك
فسأل الشيخ إسماعيل القليوبىشيخ الزاوية ، فقال له :

- حرفة أمها ملعونة ..

- إنى أسأل عن البنت .

فتساءل الشيخ باستياء :

- لم تختار زوجتك من مسكن تستقر بأركانه العفاريت ؟

أما محمد توكلشيخ الحارة فكان واضحًا وهو يقول :

- سمعة البنت لا غبار عليها ..

وقال سماحة لنفسه :

- إنها أنقى سمعة من جدتي سنية هانم السمرى ..

٨

مضى سماحة إلى مسكن صباح كودية الزار المطل على حوض
الدواب . اعتقدت بادئ الأمر أنه يقصدها كزبون وجرى خاطرها إلى
ضياء هانم الشوبكشى . قالت له :

- أهلاً بسليل المجد ..

وجعل ينظر إليها بهدوء ، وشذا البخور السودانى يفعم أنفه
ويخرره ، وعيناه تتبعان دفوفا مختلفة الأحجام ، وسيطا وسيوفا
ودرادعات من الخرز الملؤن مبعثرات بين الكتبة والرفوف ، ثم تعودان إلى
الجسد البدين مثل زكيبة الفحم . قالت صباح :

٠٠- في الخدمة يا سيد الكل ..

فتیم:

لپس كما توقعين . .

-في الخدمة على أي حال..

فقال وهو يغزو عينيه في الحصيرة المزركشة:

- طالب القراء في بيتك مهلاً ..

دهشت المرأة أول الأمر . تغير جوها بعثة . أشرق الوجه باتسامة

كاشفا عن أسنان نضيدة بيضاء، وتمت:

- زین!

فرفع رأسه باسمه وقال:

الله أَسْأَلُ التَّوْفِيقَ . .

فقالت بنيرة ذات معنى:

- لا أحد من الأسرة معك؟

فقال بغموض:

- قلت أبدأ بنفسي . . .

- حقاً؟ ما أسعدني، بالرجل، الحمر !

فایتسیم متشجعاً فتمتّمت:

-٣-

و تلاقت بدهما فقم آالفاتحة . .

ولم يفرط خضر في أنسية كريمة محمد البسيوني العطار فتزوج منها رضوان، وأقام بنيانه على أساس متين ..

وسائل سماحة عمه :

- هل تشهدون زفافى؟

فأجابه خضر بلا تردد:

- نحن أهل الظفر لا يقتلع من لحمه ..

فارتاح سماحة وطرح السؤال نفسه على رضوان فقال بحماس:

- ستجدنى دائماً إلى جوارك ..

أما الحزن الدفين فلم يكن ثمة سبيل إلى محققه.

- أهلاً بالناجي سيد الكل !

هكذا رحب به الفلاحى وهو متربع وسط أقوى أعوانه فى غرزة ترباسة .. وهكذا يرحب به دائماً . وهو ليس غرّاً . قلبه يهمس له دائماً بالخذر . يشعر بأنه ثمة من يحصى عليه الحركات ويستقرئ النظرات واللفتات . يشعر بأنه يتحرك وسط دائرة من التوجس والترصد . ولكنه كان يمثل دوره كما ينبعى . هرع نحو المعلم الأكبر ولثم كتفه فى خشوع ، واتخذ مكانه المتواضع بين الأعوان فوق الحصيرة .

قال سماحة في بشاشة:

- جئت أدعوا المعلم والإخوان إلى حفل زفافى ..

ففقهه الفللى فى انشراح وقال مخاطبها حمودة قواده الخاص :

- زغرد يا بن الفنجيرية !

فرزغرد حمودة زغرودة لا تأتى لامرأة قارحة ، وقال الفللى :

- مبارك عليك . متى ؟

- الخميس القادم بمشيئة الله ..

- من السعيدة المولودة فى ليلة القدر ؟

- كريمة صباح كودية الزار .

وجم الرجال . تطلعوا فى ذهول نحو الفتوة . لاحوا فى ضوء المصباح الوانى أشباحا شائهة الوجوه . وقال الفللى :

- ليس لصباح إلا بنت وحيدة !

- هي المقصودة يا معلم ..

فى الصمت لم تسمع إلا القرقرة ، وسعلات متناشرة ، وتلؤت أسرار مبهمة فى الدخان المنتشر .

وهتف الفللى :

- يا حسين يا سيد الشهداء !

ونظر إلى رجاله متسائلا :

- ما رأيكم فى لعب هذه الدنيا العجيبة يا جدعان !

مصمصت الشفاه من وطأة العبرة ، وتتابعت الأصوات :

- يا لها من دنيا !

- يا للعجب !

- يا هوه !

ووصف الفلللى حمودة صفة ودية وقال له :

- عليك أن تبلغ السر سليل المجد والشرف ..

فقال حمودة مخاطبا سماحة :

- منذ ساعة واحدة تصور، منذ ساعة قرر المعلم الأكبر اختيارك

لتكون رسوله إلى صباح لطلب يد كريمتها له !

ذهل سماحة. مادت به الأرض، رأى الجب فاغرا فاه يتظر جثته.

لم يستطع أن ينبس بكلمة .

قال الفلللى :

- إنه القدر. لم يستقر اختيارى إلا أمس فقط. منذ ساعة قررت

اختيارك رسولى ..

ها هي ذى الحقيقة تنجلی. لقد قبله عضوا بلا امتحان. كان يتربص

به. وينتظر الفرصة المواتية.وها هي ذى قد جاءت بأبعادها القاسية.

وها هو ذا في مفرق الطرق بين الحياة والموت. إما الهلاك وإما الضياع.

ونظر الفلللى إلى رجاله وتساءل:

- ما العمل؟

فتتابعت الأصوات :

- من ينكر الشمس في السماء؟

- هل تعلو العين على الحاجب؟

- يا بخت من اختاره المعلم رسولًا .

وسأله حمودة :

- متى تتكلم يا سماحة؟

عليه أن يتكلم. الشر يملأ الغرزة، عليه أن يغوص في الأرض.

ويرحب بالعدم. عليه أن يتجرع السم الزعاف.

قال سماحة سليمان الناجي :
- السمع والطاعة يا معلم ..

١١

انضم إلى مجلس الأسرة قبيل منتصف الليل بساعة . قال له عمه
حضر :

- كانت ضياء تقص علينا حلما رأته عنك ..

لم يسمع . قالت له أنسية زوجة رضوان :

-رأيتكم تتطي بغلا ، تلهبها بسوط ولكنه يتثبت بالأرض .

وقال له رضوان :

- أحلام امرأة عمنا تستحق التأويل كما تعلم ..

فقالت ضياء :

- إنه عريس ، لا تزعجوا العريس ..

وزفر سماحة بصوت مسموع فتفحصه رضوان باهتمام وعمق
بقلق :

- أنت شخص آخر يا سماحة ..

فقال حضر :

- ذلك ما لاحظته وتجاهلته إلى حين ..

فقصصاً عليهم القصة بحدافيرها . سقطت على السامعين كتل من
الرمال . حتى ضياء ارتسم الذعر في وجهها الجميل . وتم خضر :
- طالما حذرتك ..

٢٢٦

وقال رضوان :

- وجود مثلك فى العصابة مثار للمخاوف ، وحتى إذا لم تمس المخاوف الفلللى نفسه فإنها خليقة بأن تجتاز الأتباع الطموحين المتربيين بالمستقبل ، ولا شك فى أن دأبهم كان الإيقاع بينك وبين الفتوة ..

صدق خضر على قوله وقال :

- ها هو ذا يدفع بك إلى مأزق لا مخرج منه إلا بضياع الكرامة أو فقدان الحياة نفسها ..

وقال رضوان :

- ضاعف من حذرك ، فإن عينه ترى حتى ما يكمن فى شقوف الجدران !

وقالت ضياء بحزن :

- البغل متثبت بالأرض !

فسألته أنسية :

- علام نويت ؟

ولكن سماحة لاذ بالصمت ، وبدا تعيسا ..

وقال خضر بحزن ووضوح :

- احذر أن تفكر في أي نوع من المقاومة !

١٢

ذهب سماحة إلى مسكن الكودية في الصباح الباكر . شعر في طريقه بوع الأعين مثل لسعات الجمر . ثمنت صباح جبينه وهي تقول :

٢٢٧

- لم يبق إلا يومان ثم يجيء الخميس السعيد ..

فابتسم ابتسامة فاترة وغتم :

- وقعت أمور !

فحذجته بنظره متوجسة فقال باقتضاب وصراحة حادة :

- ما أنا إلا رسول الفلللى لأطلب يد كريمتك مهليبة !

انزلقت الكلمات فوق وعيها دون أن تترك أثرا . كرر القول . طالب بحضور مهليبة فحضرت . راح يقص عليهما القصة وهما تتابعانه فى وجوم ، ثم هبط الصمت بكل ثقله .

وكان سماحة أول من خرج من الصمت ، فقال :

- إنها محنتى أولا ..

استنزلت صباح اللعنات وقنعت بذلك ، فقال سماحة :

- علينا أن نتدبر الأمر ..

قالت صباح :

- إنه الرعب !

وسأله مهليبة :

- ماذا نويت ؟

رغم كآبة الموقف انبعث منها إليه إثارة حادة . قال :

- يهمنى أن أعرف رأيكما ..

وإذا بصباح تقول :

- يا بنى منذا يفكر فى معاندة الفلللى ؟

- نستسلم !

- هو عين العقل ولا رأى غيره ..

ومال ببصره نحو مهليبة فقالت :

-رأيك أولاً؟

فقال بوضوح:

- لا يمكن أن أتخلى عنك!

فهتفت صباح بذعر:

- هو الهالاك وخراب بيتي.

فقالت مهلبية:

- إنني معك..

فخفق قلبه واستعلت في حواسه لذة عنيفة. أما صباح فقالت:

- هو الجنون..

فقالت مهلبية:

- نهرب.

فهز رأسه موافقا، فتساءلت صباح:

- وأنا؟

- لا شأن لك في الأمر..

- هل للانتقام عقل؟

- اهربى معنا!

- رزقى هنا..

- الرزق في كل مكان.

فقالت مهلبية:

- سيكون لدينا نقود.

فهتفت صباح:

- آه من الجنون إذا استحکم!

ومضى سماحة يخطط لتدبير محكم..

ومن فوره ذهب إلى الفلللى بجلسه فى القهوة. لثم كتفه وقال:
بسرور:

- مبارك عليك يا معلم ..
- فرنا إليه مليا ثم قال:
- عفارم يا بن الأصول.

ها هو ذا يلبد في ظلمة الممر بين السور العتيق وسور التكية . هنا ،
منذ أجيال ، ألقى بعاشور ، بلا اسم ولا شكل ، في لفافة . هنا انهمرت
فوقه الأناشيد بلاوعى منه . هنا امتدت إليه يد الرحمة تتشسله من
الضياع . ها هي ذى الأناشيد تتسلق أمواج الظلام :

درین زمانه رفیقی که خالی از خللست

صراحی می ناب وسفينة عزلست

ستجیء مهلبية متلفعة بالظلام ، يضيء قلبها في الظلمة بما ينبعض به
من ابتهال للحب والحياة . سوف يتلامسان في الممر ، مر الأبدية المترعة
بالآمال الملتهبة ، والأمال المتتجدة .

حق إنه مضطرب . أكثر من مرة طوى جلبابه وبال . تنصت يحمل
بالنجاة ويقارع التحديات والظنون . نذر لآل البيت خروفا . استحضر

مثال عمه خضر الذى فرَّ ضائعاً ثم رجع وجيها. لعله يرجع ذات يوم
ليعيد عهد الناجى إلى عرشه ..

الفللى الآن يغط فى نومه. يحلم بالزفاف غدا. خدرته الزغاريد
والعهود والسمات. الآن أيضاً تزحف مهليبة لصق الجدار نحو القبو.
لعلها فى هذه اللحظة تشق الساحة والأناشيد. جسمها الحار يسوقها
وقلبها الخافق يرشدتها. الأناشيد تنتظم دقات قلبها، تباركها، تبدد
وحشة الظلمة ..

١٥

من مكان ما فى مملكة الظلمة انطلقت صرخة. صرخة ممزقة بالفرع
واليأس. سرعان ما تجسدت فى صورة فريسة موعدة الفرحة. تتطلع
بعينين متحججتين نحو النجم اللامع - متلاطممة مع توجات الأنعام.
مسلمة فى النهاية إلى قبضة الصمت القاسي الساخر.

١٦

وتب سماحة من مكمنه كالمحترق. مهليبة ولا أحد سواها. اندفع
نحو الساحة بلا حذر. ترامى إليه وقع أقدام من ناحية الساحة. قادمة
منذرة بنوایاها الدموية. افتضح السر بطريقة ما. بينه وبين الضحية
عشرات النبایت والخناجر. لا جدوى من الإقدام. توقف. تقهر
والأقدام تتقدم. عند متتصف المر ترامى إليه وقع أقدام من ناحية

القرافة. إنه محاصر. إنه الموت. السور العتيق مرتفع جداً. سور التكية مدجج سطحه بقطع الزجاج المدب المغروس. وثبت بكل قوته متعلقاً بطرف السور. انبعط فوق سطحه متلقياً ناراً تسرى في البطن والصدر والأطراف. فوق ما يتحمل البشر..

تلاقي الجمعان وتجاويب الأصوات:

- أين الشعبان؟

- مؤكّد أنه تسلل إلى الساحة.

- لا أثر له في الساحة.

- ولا في المر.

الألم يمزق الجسد وينداح في الروح. يخمد الأمل ويستعدّب الموت.

١٧

السحب تهبط. تتهاوى في المكان مثل الضباب. تومن في ثناياها نجوم. الأرواح ترقص مثل الأطياف.. السقاء يوزع قربة مليئة بالدموع. عاشور الناجي يتفقد الحارة الحالية. يقطع الحزن قلبه على الشهداء. يعنف الشوطة ويأخذ بتلابيبها. ثم يرقص رقصة النصر. يتلاقي مع سيدنا الخضر في الساحة. إنّي قادم لأقودك إلى السدرة. يسيراً مشتبكي الذراعين فوق شعاع كوكب مضيء.

وسمس الدين يرفض استقبال الشيخوخة. يتركها متسلولة عند الباب. يحمل السبيل فوق عاتقه ويمضي به نحو القبو. المتسلول لا يربح موقفه. سمس الدين يرقص رقصة النصر! ولكن أين سيدنا الخضر؟

المتسول لا يربح موقفه . ياله من متسول عنيد! لا يرق لشلل سليمان ، ولا لدموعه . يتركه يهوى درجة بعد درجة . أين العجزات؟ أين الأحلام؟ ثمة دم يملأ حوض الدواب . ويملاً صهاريج السبيل . ويجف في العروق . غير أن المتسول تحرك حركة عفوية . ولأول مرة يتكلم فيقول . عاشر لم يمت . عاشر سيرجع قبل بزوغ الهلال .

١٨

يشعر أول ما يشعر بحركة في الجفون . بوجود مجرد . بنفحة من وعي .

يرى شابورة . تنجلى عن نقوش لا نهاية في سقف المخدع . يا ألطاف الله . أين تسمع هذه الهمسات . هذه الألوان . أما زالت الدنيا على قيد الحياة؟ هذا الكائن امرأة . ضياء زوجة عمه خضر . تميل فوقه في براءة وتتمت :
- ما أكثر الأحلام !

دار خضر . ها هو ذا صوت عمه الطيب يردد :
- نحمد الله ..

ها هي ذى الذكريات تدهمه في طوفان . كيف تسلل إلى داره سائل الدم . وسور التكية المسلح . ما أقصى قلوب الحناجر الذهبية ! وصرخة مهليبة في جوف الليل . طارت بكل الآمال الحية فألقتها وراء السور العتيق . بقى القلب المعذب الدامي وحده . تأوه من الأعماق . همس عمه في أذنه :

- إنك هنا سر من الأسرار الخفية ..
وقال رضوان :

- لا ضمان لحياة أحدنا لو ذاع السر !
ها هي ذى الحقيقة مخضبة الوجه بالخجل والعار . ولكن كيف هتك
سر هربه ؟

١٩

تعضى صحته فى التحسن يوما بعد يوم . وتستعاد الحكاية بتفاصيلها الوحشية . مهلبية قتلت . شهد عشرات بأنه - سماحة - استدرجها بحيلة إلى الساحة ثم قتلها انتقاما منها لإثثارها الفلللى عليه .. شهدت بذلك أمها أيضا . آثرت المرأة الحياة على الموت فشهدت لصالح القتلة . وإذا ن فقد قتل ثم لاذ بالفرار . وقال سماحة :

- صباح المسكينة هي التي اضطرت إلى البوح بسرنا !
وما العمل الآن ؟

لا مفر من الهرب . كما هرب أبوه بكر وجدته سنينة ، كما اختفى عاشور . فليودع التكية والقبوة والزاوية والسبيل والخوض والوجوه الحميمة كما ودع السعادة .
وسائل عمه :

- كيف تعاملون ؟
فقال خضر بأسى :
- بالازدراء والغلظة ..
فتاؤه . غير أن عمه قال له :
- يجب أن يكون هربك هذه المرة سرا لا يفشى !

وجاءت أخبار مؤكدة بأنه قد صدر عليه حكم غيابي بالإعدام . وقال له خضر :

- بات الهرب واجبا لأكثر من سبب ..

إنه يختنق تحت ضغط الظلم والاختنق . عاد خضر يقول :

- يجب أن تمر خمسة عشر عاما قبل أن يعثر عليك أحد .

وقال له رضوان :

- الحكومة تجد في أثرك ، وأعداؤك يجدون ، احذر بصفة خاصة حمودة ودجلة وعتر وفريد فقد كانوا على رأس الشهود ..

آه ! متى يقف على قدميه ؟ متى تخف آلامه ؟ متى ينسى أنه نكص عن نجدة مهليية ؟ متى يتزل انتقامه بأعدائه ؟ متى وكيف يفلت من حبل المشنقة ؟

وعانى آل الناجي شر معاملة . حتى الفقراء والحرافيش منهم لم يسلموا من الأذى . ثمة غلمان قذفوا خضر بالطين . نهبت عربة له محمولة بالغلال . كانوا يأowون إلى بيوتهم مع المساء . غير أن خضر لم يغال في التشاؤم ، وقال :

- سوف يذعنون في آخر الأمر لسحر النقود ..

بتماثله إلى الشفاء الكامل نبض قلبه بدم جديد . جعل يفكر في المستقبل ويرسم الخطط . لا مسيرة في الطريق حقا ولكنه لم ينهزم . ودب

من جديد في أعماقه حب الحياة. اجتاحته رغبة ملهمة. تحفز للعناد والإصرار والبقاء.

٢٢

عندما عَدَى النيل آمن بأنه انتقل إلى وطن جديد. كاد وجهه أن يختفي وراء لحية مسترسلة ولا ثقة تطوق الرأس فوق الحاجبين. أصبح اسمه «بدر الصعيدي»، وحرفته بيع التمر والخلبة والعدس. أقام في بدر و بولاق وعرف بسلوك عذب.

ونصب أمام مخيّلته حبل المشنقة كأنه الميزان الذي لا يفارقها. أدرك أن الموت يرصده. أن الشياطين تقتنى أثره، وراح يسجل في دفتر خاص الأيام في مرورها كما يسجل في الدفتر الآخر معاملاته التجارية. وغاب العالم القديم. كما غاب أهله وأهل حarte، طموحه في الفتونة، حبه، الآمال الحارة. لم يبق معه إلا المنفى والعمل والتقوى.

ووُجد بادي الأمر وحشة في بولاق. أجل إن المعالم متشابهة، فشمة السبيل والخوض والدواب والكتاب والزاوية وشيخ الحرارة، طموحه في الفتونة، حبه، الآمال الحارة، لم يبق معه إلا المنفى الناجي العظيم. ولم يثر في الناس فضولاً ذا خطر، في بولاق ميناء نهرى يلتقي عندها كثير من المراكب الشراعية كل يوم، ويؤمها الأغراب عبرواً وإقامة، لذلك لا يلوذ بها الفارون من وجہ القانون، ولا تضيق بالغرير. وهي متدة ومترفرفة بخلاف حارتة المكتونة، فتكافئ في أعماقه الغربية والضياع، ولكنها غربة مسريلة بالأمان على أي حال. ثمة وقت غير محدود لتأمل حياته، ودراسة مشروعاته، واحتضان نوازعه الثابتة للانتقام وفرض

٢٣٦

سيادة العدل . هكذا قبع الحال الكبير فى دكانه الصغير ، يتعامل باللطف ، ويدرع بالأمانة ، ويقنع بالرزق الحلال ، ويتحدى المجهول .

وقال له شيخ الحرارة :

- الطيبون أمثالك نادرون .

فقال بأدب :

- من بعض ما عندكم ..

- ترى ما سبب هجرتك من الصعيد؟

فأجاب بدهاء وقلبه يخفق :

- كيف يسأل صعيدي عن ذلك؟!

فضحك الرجل ، وواصل بدر الصعيدي قائلاً :

- وأجدادى الأوائل من بولاق!

فقال الرجل وهو يتناول منه لفافة بدينة حافلة بالمتنوعات :

- جميل أن يحن الإنسان إلى أصله ..

٢٣

ثمة فتاة في الجانب الآخر من العطفة . ملمح من ملامح الحرارة الثابتة . تدعى محاسن بياعة الكبدة . دكانها متحرك يمكن حمله بجهد قليل . طبلية موضوعة فوق قائم أسطوانى من الجريد ، منسوج الفراغات بالخصوص المجدول ، ترصن على سطحها كبد العجول والضأن ، يتوسطهما ميزان وساططور . والفتاة طويلة القامة ، ثرية الأعضاء ، ذات نظره عسلية ، فيها من الجاذبية يقدر ما فيها من حدة الطبع وطول اللسان .

٢٣٧

يتوق الغريب إلى ما يؤنس وحدته ويبدد وحشة قلبه القلق . يتابع نشاطها باهتمام . يلاحظ عنفها بشغف . إنها مطعم كل شاب ، وسرعان ما تشهر أسلحة الدفاع من لسان سام وأظافر حادة . إنه خير من الاستسلام ، ولكن لمْ يطلبها ابن الحلال ؟

انفتحت شهيته للكبد : أدرك أنه ينساق في طريق مجاهول العواقب . وأنه يمضى مدفوعاً بقوة في داخله قبل أن تكون في الجانب الآخر من الحرارة . وزنت محاسن له رطلاً ولفته في ورقه ، ثم قالت ببساطة :

ـ خذ يا سنى !

سرّ بدعاتها واعتبرها تحية . إنها تذكره برشاقتها وثراء أعضائها وغمقة سمرتها بفقيدته التعيسة مهليبة . وتذكره بالتالي بنكوصه المزري عن نجدها وبآلام الماضي الحزين . ولكنه ما زال يكابد الحياة ، وربما كابدها طويلاً تحت المطرقة . وكما طرح الموت ظله عليه تشبت أكثر بأهداب الحياة .

ومن ناحيتها كانت محاسن تتبع منه العدس والفول والحلبة . خذ يا سنى . هات يا سنى . خذى يا سست محاسن . خذى يا سست الكل . لم يجاوز الاحتشام في تعامله معها . لعلها فرأت في عينيه أكثر مما يقول أو يفعل . لعلها عجبت أيضاً لما ينفرد به من سلوك طيب .. . وعلى جانبي الحرارة ، وبعيداً عن أي شبهة ، نضجت عاطفة قوية .. .

عقب صلاة العصر تعمد أن يشير إلى سيرتها في حديث له مع إمام الزاوية .

- أهى وحيدة يا مولانا؟
- كلا، إنها تعيش مع أم عجوز ضريرة..
- ولا أهل لها سوى ذلك؟
- قُتل أبوها في خناقة، ولها أخي في الليمان..
- أظنها في العشرين فلم لم تتزوج؟
فاستغفر الإمام وقال:
- كانت أمها سيئة السمعة!
- ولكن هل البنت...؟
فقطاعه الشيخ بصدق:
- لا غبار عليها، والله أعلم!
زكاها عنده زهد الآخرين فيها، ليس الغريب المطارد بالصالح
للمنافسة، الزوج يوصله في المكان ويجلب له الثقة. وهي خير من
آخر ذات أهل يهمهم أن يعرفوا الأصل والفصل. وأهم من ذلك كله
لم لا يعترف بأنه يرغب فيها بكل شبابه؟

٢٥

انتهز فرصة وجودها بدكانه لشراء حوائجها، مشجعا بدلاتها
ومرحها، فسألها:
- ماذا ترين يا محاسن إذا طلبك رجل على سنة الله ورسوله؟
فرمقته باهتمام، اهتمام غطته بنظرة ساخرة وضناءة، وتساءلت:
- أيوجد مثل هذا المجنون؟

٢٣٩

- أجل، إنسان من لحم ودم ومستور برعایة الله ..
وتبادل النظر مليا في رضا وسلام، ثم غلبها المرح فتساءلت:
- أله لحية مثل فروة الخروف؟
- هو ذلك ..
- وماذا أفعل بلحيته؟
فقال ضاحكا:
- لحية مستأنسة ولا ضرر منها على الإطلاق ..
نم وجهها على الرضا ولكنها ذهبت دون أن تنبس ..
ومضى يتذكر مهليبة بأسى عميق ..

٢٦

أعلنت الخطبة. وبعد أشهر تم الزفاف.
رغم أن العروسين كانوا بلا أهل فقد اكتظ الفرح بالمدعويين من الجيران
والزبائن. أنفق بدر الصعيدي عن سعة. جالت زفته بالحى فى حمى
الفتوة فمرت بسلام .
وجهزت شقة مكونة من حجرة وصالة، حجرة للنوم وصالات
للجلوس والمائدة، وأسهمت محسن وأمها فى الجهاز بما يرفع الرأس .
وسعى سماحة بعروسه ولكن تنقص صفوه بعض الشيء بإقامة
حماته معهما، واحتلالها الصالة ليلاً نهاراً. كانت عجوزا ضريرة، تشهد
سماتها العتيقة بجمال دابر ، وكانت وقحة سليطة اللسان، قدت
كلماتها من رصاص ، فلم تعرف المجاملة حتى فى شهر العسل
والجاملات . ولكن الحب اكتسح كل شيء فى فصله الوردى .

٢٤٠

تفرغت محسن للبيت. أحببت زوجها. اكتشفت أنه ميسور الحال أكثر مما يعلن، وأنه في الداخل أجمل منه في الطريق.
قالت له مرة:

- لو حلقت لحيتك لكنت من أحسن الناس صورة..

فقال متهرباً:

- إنها سر نجاحي في الحياة.

وإذا بمحماته تبعته قائلة وهي تقهقه بصوت داعر:

- استعملها بدل المقصة!

ولم يكن يستخف لها ظلا ولا يغفر لها ماضيا فحقن عليها وقال بحده:

- أوفق بشرط أن نكتس بك بها..

فاشتعلت العجوز بالغضب وهتفت:

- احترسي من هذا الرجل، فإن قلبه أسود..

رمאה بنظرة حاقدة وعدها ضمن سوءات الحظ التي تطارده.

حتى محسن لم تنج من سهام العجوز. كانت فاسدة الطبع مشاكسة سيئة الظن بكل شيء. كثيراً ما تقول لابتها:

- تضنون على بآطاب الطعام وترمون إلى بأسوئه ..

فتقول لها محسن :

- تأكلين مما نأكل ..

فتقول يا صرار :

- كذابة لا تخفي على حقيقة رائحة، كذابة مثل زوجك !

فيغضب سماحة ويقول :

- ما دخلني أنا؟

- أنت رأس البلوى ..

- الصبر.. الصبر.. حتى يجيء الفرج !

فتصرخ العجوز :

- الفرج ! ستبقنى إلى القبر !

- طريقنا مختلف على أي حال ..

فتقهقه قائلة :

- أراهن على أنك قتلت أباك في الصعيد وجئتنا هربا من حبل

المشنة! ارتعد حنقا وحقدا وتنى لو يحطم رأسها ..

لكنه سعد بمحاسن حقاً، ولا ذي حضنها من همومه الراسخة. هي أيضا تستجيب له وتسعد به. أجمل آمن منذ الشهر الأول بأنها ليست الزوجة الطيبة المطيعة. إنها جريئة، حادة، واثقة من نفسها، مدعاياتها تخشن أحيانا لحد القسوة. وهي تبالغ في عنایتها بنفسها. تكثر من

الاستحمام والتعطر بالقرنفل ولكنها تزين لحد البهرج . وعد ذلك من مزاياها ولكنها كره أن يطلع عليه غريب . ومن جراء ذلك نشب بينهما أول خلاف جدى .

قال لها مرة :

- لا تطلى من النافذة وأنت على هذه الصورة .

فقالت باستياء :

- طالما عملت في الطريق ..

- كنت تظهررين كما خلقك الله ..

فقالت بحده :

- وكنت ترى كيف أؤدب السفلة !

وتدخلت العجوز وقالت :

- ألم أقل لك إن قلبه أسود؟ !

فنهرها قائلاً :

- اقطعني لسانك القذر ..

فولولت العجوز :

- فليحmk الله من قاتل أبيه !

فأعرض عنها وهو يتنفس غضباً وقال لمحاسن :

- تشجعك على الفساد ..

فاشتد بها الاستياء وقالت :

- لست عرضة للفساد ..

- في هذا الأمر أطالبك بالطاعة التامة ..

- لست طفلاً ولا خادمة ..

فانهارت فرامله وصاح :

- سأقذف بك من النافذة!
فجنت محاسن وهفت:
- سأقذف بك في المرحاض ..
فصاحت العجوز:
- عفارم!
فصرخ سماحة:
- أتحدى أن تتجاهلني أمري ..
وقف الخصم عند ذاك الحد. وسرعان ما تصافيا في اليوم التالي.
وفي مساء ذلك اليوم بشرته بأنها في طريقها إلى الأمومة ..

٣٠

ماتت حماته العجوز الضريرة ميتة غريبة ..
سقطت من نافذة الصالة المطلة على المنور فتهشم رأسها. لعله من حسن حظ بدر الصعيدي أنه كان وقت ذاك في دكانه. وجرت الإجراءات سرعاً وبلا عرقلة حتى شيعت القتيلة إلى قبرها. احتفل بدر بالجنازة والمؤتم إكراماً لمحاسن ولمركتزه في الحارة. ووُجد رغم ذلك حرجاً لسابقة العداء المستحکم بينه وبين الراحلة.
وبكت محاسن بكاء مرا حتى قال لها:
- لا تبكي فأنت حبلی ..
فسألته بتعاب قاس:
- ألا تهمك المرحومة؟

ولما لاذ بالصمت اتهمته قائلة :

- لا تدار فرحتك !

فقال محتجًا :

- الموت يفرض احترامه .

وعددت محسن مزايا أمها التي لا يجوز أن تنسى . كانت تحبها رغم مشاكلها السطحية ، ومن قبل أحبت أبيها لدرجة العبادة . وشد ما تحطم عند مصرعه في عز شبابه . وشد ما تحطم عندما قضى على أخيها بالتأييدة . وأدمنت الأفيون فاضطراب سلوكها واتهمت بكل سوء . هكذا فقد بصرها فزادت تعاستها . وتكلبت عليها الأحزان وهي مهملة في بيت رجل لم يرحب بوجودها فقط !

وقالت أيضا إنها كانت في شبابها من أجمل بنات بولاق ، وإنها أثرت الزواج من أبيها على الاقتران بقصاب غنى ؟ فلم تكن تافهة أبدا .
تابع سماحة سيرة العجوز وهو يتذكر جدته سنينة هانم السمرى التي هربت مع سقاء في سن ابنها ، وتساءل بحزن : ترى أين تقيل ؟ وماذا فعل الزمان بها ؟ وماذا فعل بأبيه بكر ؟ وكم ينطوى الماضي على مخاز وأحزان ؟ !

٣١

وجاء الصيف زافرا أنفاسه الحارة . إنه يحب ضياءه ، لا يضيق بلفحاته ، ويستعدب أماسيه الرقيقة ، ويعشق الملوخية والبامية والبطيخ والشمام ، ويستبشر بالاستحمام كل شروق .
 وأنجبت محسن ذكرا . وسرّ الرجل به سرورا فخورا . ولد لو يسميه

شمس الدين، ولكنه خاف الاسم كأنما سيزبح عنه الأمان، فوافق على الاسم الذى اختاره محاسن، رمانة، اسم أبيها.

وتضاعف نجاحه وثراؤه، وحول ساعدى محاسن تكاثرت الأسوار الذهبية، وبدا وجه الحياة بساماً. ويوماً بعد يوم سجل فى دفتره السرى جريان الزمان البطىء. وعند كل مرة يتذكر حبل المشنقة، ويتساءل: هل تكتب له النجاة حقاً؟ ويتذكر أهله، وأهل حارته، ترى ماذا فعل الزمان بهم؟ ويتذكر أعداءه، الفللى ودجلة وعتر وحمودة القواد، هل يقف فوق رءوسهم يوماً وقفه المتصر؟! هل يعيد إلى حارته عهد الناجى؟ هل يرجع إلى سماع الأناشيد؟

٣٢

وبعد رمانة أنجبت محاسن قرة ووحيد. استوى بدر وجيهما من وجهاء الحارة ومحسننا من رجالها الطيبين. أصبحت له منزلة خاصة عند المساكين.

ولم تتخلى محاسن عن عنايتها التقليدية بجمالها ونظافتها. لم تشغلا الأمومة عن الأنوثة وحب الحب. وإلى ذلك ولعت بالخشيش حتى صار مزاجاً ملازمـاً. جربته أول الأمر على سبيل المشاركة العابثة مع زوجها الذى يدخله فى بيته كل ليلة. خرت بعد ذلك بين أنامله الناعمة الشرهة وهامت به.

ومرت الأيام وتعاقبت الأعوام حتى أمن الرجل إلى مصيره وانجلت عنه المخاوف أو كادت.

٢٤٦

وسرى إلى بولاق خبر عجيب .
 ثمة صدقة تتوطد أركانها بين فتوة بولاق والفللى !
 صعقه الخبر . انفتحت بفترة تحت قدميه فوهه جب . زلزلت أركان
 دنياه الأربعه .

وسأل شيخ الحرارة عما يقال فقال الرجل :
 - أبشر ، إنه يعني مضاعفة لقوة الفتوىين !
 تظاهر بدر بالسرور ، فقال شيخ الحرارة :
 - ستكثر الأفراح والليالي الملاح ..
 - هذا هو المأمول .
 - ثق من ذلك ، سوف تتبادل الزيارات ، وهذا يعني الغناء والرقص
 والسكر .

فتمتم بدر بريق جاف :
 - ما أطيب ذلك وأجمله !

تسلل ثعبان إلى المسكن المطمئن . لم يخطر له ذلك على بال . طالما
 ظن أن النيل حاجز لا يعبر . هكذا سيجيء الفلللى وعصابته . سيمرحون
 في الحى . سيدعى إلى الأفراح . لم يزل نصف المدة قائما ، قابضا على
 حبل المشقة . لن تخفي حقيقته عن الأعين الثاقبة . ورسم خطة .
 ادعى المرض قبيل الزيارة بأيام . حتى محاسن صدقته وحلت في
 الدكان محله .

في الليلة الموعودة قبع وراء خصاص النافذة.

غيرت الدنيا ساحتها. كل شيء ينطق بالغرابة. السخرية متجلسة حول الكلوبات مثل وجه ساحرة. نفایات الأمان مكومة في المزابل. أما الحارة فتموج برقض الراقصات والراقصين. ورائحة السمك المقلى تملأ الهواء. إنه الشتاء فلم لا تنظر السماء؟ أين الرعد والبرق؟ أين قسوة الرياح؟ وعلا الطبل والزمر. وضج المكان بالهتاف والزغاريد. ها هو ذا موكب الأصدقاء يقترب. تقدمه جياد راقصة مجلجلة بأهلتها الفضية. ها هو ذا أبغض خلق الله، الفلللي القبيح اللثيم الطاغية، شابكا ذراعه بذراع فوتنا. يبتسم عن أسنان ذهبية. ها هو ذا دجلة. عتر. فريد. أين حمودة؟ قتل. سجن. مات. الأوغاد مجتمعون. أين القضاء والقدر؟ ما جدواك أيها الحقد؟ إنهم يتبعدون ولكن الضوضاء تتفشى. ليلة صاحبة. معربدة. مضمورة للعذابات المبهمة. متوعدة بكل شر. عزرائيل بياركها. حبل المشنقة يطوقها. الأحلام تخنق فيها. الأحبة - محاسن ورمانة وقرة ووحيد. يتحولون إلى أطياف. قد تتلاشى في أي لحظة. ويحل ظلام دامس. ويحل يأس قاتل. ويحل فراغ شامل..

رجع إلى دكانه مستقبلا التهاني. القبوع في البيت مفسدة للروح، مثير للمخاوف، مهول للأحزان. أما الحركة فبركة. المعاملة تجديد

للدماء ويعث للشجاعة . اخْتَفِي الأَعْدَاء . توارى عزْرائِيل .. رحِيق
الحياة يجري في ريقه . التوكل على الله ينعش روحه . الأمل يخطر من
جديد . الإلهام يفعّم وجданه . اطمئن يا بدر ولا تخف . تحصن وراء
لحينك واعتمد على رب العدل .

واشتدت ارتباطاته الوجданية بمحاسن ورمانة وقرة ووحيد . بالطعام
والشراب والعبادة والحياة . حتى الشتاء وجد في سحبه شغفا . طرب
لكل شيء حتى أصوات الشتائم المتبادلة . أسف على أنه لا يستطيع أن
يلقن الآباء حكايات عاشور وشمس الدين . أن ينشئوا جاهلين
لأصلهم المبارك ، لبركة الحلم ، وصداقة سيدنا الخضر . متى يعرف رمانة
أنه رمانة سماحة الناجي ؟
وقال لنفسه :

- افرح عند كل شروق شمس ولا تحزن عند غروبها !

٣٦

كان يسجل مرور يوم جديد بذفته السري عندما أمره شعور داخلي
بأن يرفع عينيه . رفع عينيه فرأى محمد توكل شيخ حارته الأصلية على
بعد متر من دكانه . رآه يمر وهو يلقى نظرة عابرة .
انخلع قلبه . اخترقه الفزع مثل بلطة . تلاشى كل شيء .
هل رآه الرجل ؟ هل تذكره ؟

ولمحه عن بعد جالسا في دكان شيخ الحرارة . يتحدىان ويتصاحكان .
وتنظر عيناه كييفما اتفق . إنه الموت . شد ما يسعده أن يقدم خدمة
للداخلية . شد ما يسعده أن يهنيء الفللى بالقبض عليه . لو عمى الرجل
ما عرف - هو - الأمان بعد الساعة . أصبحت بولاق مباحة للأعداء .

وها هو ذا خبر يتشر أن محمد توكل يسعى إلى مصاورة تاجر الخردة. لعله جاء في صحبة الفللي فقادته عيناه إلى زوجة جديدة. سوف يمسى من أهل بولاق بقدر ما هو من أهل الحسين. لم تعد بولاق بالماوى الآمن..

أجل لم تعد بولاق بالماوى الآمن..

٣٧

قالت له محسن وهي تتفرس في وجهه:

- في قلبك شيء.

كان الأبناء قد ناموا. وكانت تحوم حوله في زيتها الحلوة فأنست منه ما خيب حلمها. قال:

- في قلبي أشياء..

سلمت للخيبة وتساءلت:

- التجارة؟

فتمتم بحزن:

- التجارة رابحة، ولكن أمامي رحلة طويلة..

- الصعيد؟

- ربما..

- ولكن ما السبب؟

فتحاهم سؤالها قائلاً:

- سوف تطول أعواما..

٢٥٠

- أعواام؟! خذنا معك ..
- أتمنى ذلك ، ولكنه مستحيل ..
فقطببت فى ريبة فقال :
- رحلة مطارد لا رحلة تاجر !
- مطارد؟!
فتنهى قائلا بأسى :
- إليك قصة المطارد المظلوم يا محاسن!

٣٨

ودع الرجل زوجته وأولاده وغادر داره متسللا قبيل الفجر .
مع الصباح الباكر وقفت محاسن فى الدكان تمارس حياتها الجديدة .
كانت كثيبة حزينة ضائقة بسرها . وكانت تقف بين الشك واليقين مما
حكاه زوجها . لقد خدعها أعواما . وربما له عذرها ، ولكنه خدعها ، فهل
صدقها أخيرا أم تمادى فى خداعه؟
ومربها شيخ الحرارة ، فسألها عن زوجها ، ماذا أقعده فى البيت؟
فقالت بوجوم :
- سافر إلى الصعيد ..
فدهش الرجل وقال :
- أمس قابلته فلم يخبرنى بشئ ..
فقالت باستسلام :
- سافر !

٢٥١

- صاحب همة عالية ، ولكنك لست كعادتك يا سرت محاسن ..

- بخير يا رئيس .

- متى يرجع ؟

فلاذت بصمت واجم ، فتساءل الرجل بحذر :

- امرأة أخرى ؟

فقالت بحدة :

- كلام .

- هل تطول غيابه ؟

- ستطول أعواما يا رئيس !

- يا للخبر !

- قسمتى ..

- ولكنك تخفين أشياء ..

فقالت بفتور :

- كلام .

فمضى الرجل وهو يقول :

- لا أمان للصعايدة !

٣٩

ونشر شيخ الحرارة الخبر حتى علم به محمد توكل وكان ينزل ضيفا عليه . وبخلاف ما توقع اهتم الضيف بالخبر وتساءل :

- أهو الصعيدي ذو اللحية ؟

٢٥٢

فأجاب شيخ حارة بولاق بالإيجاب .
عند ذاك أغمض محمد توكل عينيه متفكرا ..

٤٠

عقب ساعة اهتزت الحارة على كبسة عسكرية .
اقتحمت قوة منها مسكن بدر الصعيدي بقيادة ضابط ، وقد اقتحمت
دكانه بقيادة المخبر حلمي عبد الباسط .
زحف الأهالى نحو الواقع كالنمل .
سأل حلمي عبد الباسط محاسن بخشونة :
- أين سماحة سليمان الناجي ؟
فأجابت بثبات :
- لا أعرف أحداً بهذا الاسم ..
- حقاً ! أين بدر الصعيدي ؟
- لا أدرى .
- كذابة ..
- لا تسب يا مخبر ، ماذا تريدون من رجل شريف ؟
- شريف ؟ ! أنت تعلمين أنه هارب من حبل المشنقة ..
- أعود بالله .. الحارة كلها تعرفه ..
فصاح :
- أمامى إلى القسم ..
فهتفت :
- لى أبناء ثلاثة لا أحد يرعاهم . ماذا تريدون مني ؟

فتشر الدكان كما فتش البيت . جرى تحقيق دقيق مع محاسن . أفرج عنها . وطار الخبر في الحرارة مثل النار . ذهل الناس ذهولا .

- بدر الصعيدى !

- صاحب اللحية ..

- المحسن !

- قاتل هارب من المشنقة !

- لم يكشفه إلا حماته وإن تكن امرأة سوء مثله !

مضت العادة تستل من العجائب روحها وجدها . أدخلت محاسن أبناءها الكتاب ، وكانت تحىء بهم عقب الكتاب إلى الدكان أو تركهم يلعبون أمام عينيها ، شد ما حزنت على زوجها ، وشد ما حزنت لحظها الأسود . ورغم نوبات الحقن لم تنس أنه تركها مستورا ، بل غنية بتجارة رابحة .

ومنذ يوم الكبسة لم يتخلَّف المخبر حلمى عبد الباسط عن المرور بالحرارة أو الجلوس أحياناً بـ دكان شيخ الحرارة . ترى أما زال يراقبها؟ إنها تشعر بنظراته وتضيق بحركاته ولكنها تتجاهله . رجل فظ غليظ . طويل القامة ، كبير الوجه . ذو عينين صغيرتين وأنف غليظ ، وشارب مثل

محرطة الملوخية . ياله من منظر شؤم ، شؤم ما اقتن به من ذكريات ! إنه يراقبها بلا أدنى شك . فماذا يظن ؟ يمر بالدكان فيرمى بنظرة غريبة مثيرة للتساؤل ، أو يجلس بدكان شيخ الحرارة فيسدد بصره بلا هوادة مادا يريده ؟ تسأله عقلها وتساءلت غريزتها . تثبت للنضال كما تثبت للاستطلاع .

ومرة توقف أمام الدكان . اقترب خطوة فانحسر في أفكارها . تبسم متسائلا :

- أتؤمنين حقاً ببراءة زوجك ؟
فأجابت دون أن ترفع عينيها إليه :
- إنني أصدقه .

فقال بنبرة الوعظ وهو يمضي :
- حتى يلتف الحبل بعنق القاتل يظل مصراً على براءته !

٤٣

ورأت يوماً محمد توكل شيخ الحرارة فدعنته إلى دكانها . أكرمه وقالت له :

- لعلك تدرك ما أعيانيه من متاعب .
فقال الرجل مجاملًا :
- كان الله في عونك ..
- ولكنك وحدك من يعرف الحقيقة ..
- الحقيقة ؟ !

- حقيقة التهمة ..

فقال توكل ببلادة

- لا أعرف إلا ما أسف عنه التحقيق.

- ولكنه أقسم لي بأنه بريء ..

- ثبت أنه قتل البنت ثم هرب ..

تنهدت محاسن يائسة، ثم قالت:

- حدثني عن أهل زوجي وأبنائي ..

فقال محمد توكل باسمها:

- إنهم من صلب فتوات قدامي يروون عن سيرهم ما يشبه
المعجزات، ولكنني لا أصدق خيال أهل حارتنا، فهم يؤمنون بأن
الخيربدأ وانتهى في ماض غامض، ولا يفرقون بين الحقيقة
والحلم، يفكرون بعواطفهم، ويحكمون على الأشياء بتعاستهم،
ويصدقو أن الملائكة هجرت سماواتها ذات يوم لتحمي هذا أو
ذاك من أجدادهم ..

- هل الفللي منهم؟

- كلا، انتهى زمان فتونتهم، لم يعد أحد منهم يفكر فيها، أكثرهم
اليوم فقراء أو من أهل الحرف، ولكن زوجك يتتمى إلى الأسرة
الغنية الوحيدة فيهم، فعمه المعلم خضر من كبار التجار، وكذلك
شقيقه رضوان، هل تنوين تسليمهم الأبناء؟

فبادرت تقول:

- كلا، لن أتخلى عن أبنائي، ولست في حاجة إلى أحد، وما
سألتك إلا لأعرف ما ينبغي معرفته ..

- قد يطالبون بهم ذات يوم؟

فقالت محسن بحرارة:

- سأحتفظ بهم ما وجدت إلى ذلك سبيلاً ..

فقام شيخ الحرارة وهو يقول:

- كان الله في عونك ..

٤٤

مع الأيام أصبح حلمى عبد الباسط من زبائن الدكان. أكان ذلك ضمن خطته فى المراقبة؟ ولكن كفى خداعاً للنفس. هذه النظرات الجائعة لا تصدر عن تجسس. وليس فى حياتها ما يستحق المراقبة. إنه يحوم حولها بنظرات مشغوفة، وابتسامة متوددة، وارتباك ينم عن نواياه الدفينة. إنها تعرف ذلك بغيريتها ولكنها تتجاهله. وهى تشعر بنفور ولكنها تتجنب الخزم. وقلقها من المستقبل يتزايد يوماً بعد يوم.

ومرة قال لها:

-سامحه الله ..

فنظرت إليه مستطلعة رغم أنها عرفت من يقصد فقال:

- يترکك وحيدة مع ثلاثة أبناء ..

فلم تنبس، فقال:

- وحتى إذا كتبت له النجاة فعليك أن تتضرى ثمانية أعوام ..

فقطببت فقال بيقين:

- ولن تكتب له النجاة!

فقالت بحزن:

- الله مع المظلومين !

فقال يا صرار :

- طيلة حياتى لم أسمع أن قاتلاً أفلت حقاً من حبل المشنقة !

٤٥

ومرت الأيام ثقيلة متشابهة . أرهقها الجهد المتواصل والضجر . وأرهقها الحرمان من الذى كان يملأ حياتها . ووجدت مشقة فى تموين دكانها بالسلع فهبط الدخل رغم أنه ما زال فوق الكفاية . وراحت تحاكم سماحة وتدبره لما نزل بها ، وتشتد فى محاسبته كلما أنقلها الضجر أو عذبتها الوحدة . وأكثر الوقت ضاع رمانة وقرة ووحيد فى الطريق بلا رعاية ، حتى قال لها شيخ الزاوية :

- الأولاد معرضون للشر يا سيد محسان ..

فقالت بأسى :

- ما العمل ؟ لم يبلغوا بعد السن التى يعودون فيها للعمل فى الدكان ..

- أليس الأفضل أن يلقنوا حرفة ولو على سبيل حفظهم من الطريق ؟

فقالت مقطبة :

- لن أتركهم تحت رحمة أناس لا ثقة لى فيهم ..
وتضاعف سخطها وقلقها ..

ولم يكف حلمى عبد الباسط عن الحومان حولها. ومرة قال لها
بحنان:

-إنى أرثى لك يا ستر محسنن ..

فقالت بإصرار:

-إنى قوية وناجحة ..

-ولكنك لست حرة.

-ماذا تعنى؟

-ما زلت مرتبطة بحبك المشنة ..

فقطبت قائلة:

-إنى راضية ..

-بل عليك أن تتحرى لخيرك وخير الأولاد ..

ماذا يريد أن يقول؟

-في مثل ظروفك تطالب المرأة بالطلاق!

فضحكت ساخرة فقال:

-سيطلبك ابن الحلال فإنك في الحق جوهرة ..

وغادر الدكان متجنباً سمعاً جواب لا يرضيه ..

٤٧

عقب اختفائه بدقائق سمعت صرخة عصفت بجذور قلبها. اندفعت من الدكان مجونة فرأته وحيداً يتمرغ في التراب مخضب الوجه بالدماء. وعن بعد ثمة غلمان يجرون فزعين، تجاهلت مضطرة الجناة ورفعت ابنها بين يديها وهي تصوت، ولما تفحصت وجهه صرخت بأعلى صوتها:

- ضاعت عين الولد!

٤٨

سحب الهموم تراكمت. أمطرت قلقاً وكآبة. وحلت بالأركان الضجر. تحجلت همسات الإغراء مثل قوس قزح.

٤٩

أمام الدكان وقف دوكار. نهضت محاسن مستطلعة. غادر الدوكار كهل ثم شاب، يرفلان في عباءتين من وبر الجمل. أقبلًا عليها والكهل يقول متسائلاً:

- سنت محاسن؟

٢٦٠

أجبت بالإيجاب ، فقال الكهل :

- أنا خضر سليمان الناجي عم زوجك سماحة وهذا شقيقه
رضوان ..

خفق قلبها بعنف . قدمت لهما مقعدين وقلبها يخفق . وتمت :
- أهلا بكما ، وشرفتما .

قال خضر :

- كان ينبغي أن نتعارف من قبل ، ولكن الأخبار لم تتسلل إلينا إلا
أمس !

- أفهم ذلك جيدا ..

همت أن تقول إنها عرفت عنهم الكثير ، ولكنها سرعان ما ادلت
عن ذلك . وقال خضر :

- شرفنا أن نعرفك نحن أهل زوجك ، وأهل أبنائه ، ويسرنا أن نكون
في خدمتك !

- تستحق الشكر يا معلم خضر ..

قال رضوان :

- ثقنا في الله كبيرة . وسوف ينكشف الظلم عن المظلوم ..

- حدثني سماحة بكل شيء ، ولكن لا تستطيعون إثبات براءته ؟

قال خضر بأسف :

- نخاطر بأرواحنا في سبيل قضية خاسرة ..

وتساءل رضوان :

- أين الأولاد ؟

- في الكتاب ..

وانخطف لونها وهي تقول :

- فقد أصغرهم عينه في مشاجرة مع الأولاد .
 تجلى التأثر في وجهي خضر ورضوان ، وقال خضر :
 - حملك ثقيل يا سرت محاسن .
 فقالت بحذر :
 - لست ضعيفة ، ولكنه سوء الحظ ..
 فقرأ خضر أفكارها ولكنه تسأله :
 - كيف تصوريين المستقبل ؟
 - أن يعملوا في الدكان ..
 أجال خضر عينيه في الدكان ، فقالت :
 - الرزق موافر والحمد لله ..
 فقال برقه :
 - لعله توجد فرصة أطيب عندنا !
 فقالت بلهفة :
 - لا أحب أن أتخلى عنهم ..
 فقال بوضوح :
 - ولن نحملك ما تكرهين ، ولكن أليس من الظلم أن يحرموا من
 حياة أفضل ؟
 فراح تقسم أظافرها وهي لا تدرى ، فعاد الرجل يقول :
 - لن نحملك على ما تكرهين ..
 وقال رضوان :
 - اعتبرى زيارتنا للتعرف وال媿ة ..
 وقال خضر :
 - وأعلمى أنك لست وحيدة ، نحن أهلك أيضا . فكرى على مهل

فيما أعرضه عليك ، تعالى معهم إذا شئت ، زورיהם في أى وقت ،
أو أبقيهم في كنفك ، الأمر بيده على أى حال ..

٥٠

ما إن غاب رنين جرس الدوكار حتى كان حلمي عبد الباسط في
الدكان . سألها باهتمام :
- ماذا يريد السادة ؟

لم يعد غريباً أن ت巴斯طه في الحديث . كفت من زمن عن صدّه
وتحديه . أصبح عادة يومية في حياتها . حتى قبحه لم يعد منفراً أو
مزعجاً . هكذا وافته بما لديها . وبادرها قائلاً :

- عين الصواب ..

- أهجر أبنائي ؟

- بل ترسلهم إلى حظهم السعيد .

- ماذا تعرف عن قلب الأم ؟

- الأئمة الحقة تضحيّة !

فقالت بذكر :

- ربما كان الأصوب أن أذهب معهم ..

فهتف :

- معاذ الله !

- إنهم أهلى أيضاً ..

- ولكن غريبة ! أنت من بولاق وهم من الحسين ، هنا عزتك
وكرامتك ..

وحدق في وجهها بعينيه الصغيرتين النهمتين وتم:
ـ وهنا من يحبك أكثر من نور عينيه ..

٥١

لا دائم إلا الحركة. هي الألم والسرور. عندما تخضر من جديد الورقة، عندما تنبت الزهرة، عندما تنضج الشمرة، تمحى من الذاكرة سفعة البرد وجملجة الشتاء.

٥٢

كل ما يحدث مألف لا ينكره عرف ولا دين. والقشرة الصلبة تنطوى على سائل الرحمة العذب مثل جوزة الهند. هكذا انتقل رمانة وقرة ووحيد من بولاق إلى دار خضر الناجي. لم يدرك الغلمنان ما يراد بهم. أجهشوا في البكاء فبكى محسن بحرارة. ببرت قرارها بزعم أن آل الناجي هددوها بالالتجاء إلى القضاء. اعتذررت عن سلوكيها ولكنها حزنت بصدق ومن الأعماق. نبض قلبها بالعواطف المتناقضة مثل مشمسة حلوة النسيج مرة النواة. ثمة إيشار الأبناء بالنعمة والتضحية بهم في آن. ثمة صراع بين الوفاء لسماحة ومحاسبته الدائمة على خداعها ثم تركها وحيدة. وثمة صراع أعنف بين الصبر والحرمان من ناحية وبين الاستسلام لتيار الحياة المتتدفق من ناحية أخرى. بين الزلل والفتنة وبين الحق الشرعي لغريزة نهمة. أقمعت نفسها بأنها امرأة ضعيفة وأن عليها

٢٦٤

أن تتصرف من منطلق الضعف والمحافظة على السلوك السوى . وأيدتها في تفكيرها شيخ الزاوية وشيخ الحارة وكثير من الجيران .

- لا خير في الوفاء لقاتل ..

- ولا خير في بقاء شابة جميلة بلا زوج ..

وهل يمكن أن تنسى ما التصق بالمرحومة أنها من سوء السمعة؟ إلى ذلك كله فإن زواج امرأة من مخبر أمر مرغوب فيه من غالبية أهل الحارة .

هكذا سلمت محاسن أبناءها إلى أهل سماحة ، وهكذا حصلت على الطلاق من سماحة القاتل الهارب .

٥٣

وتم زواجها من المخبر حلمي عبد الباسط في جو من الترحيب والمرح . جددت جهازها ولكنها لبشت في شقتها ، وظلت تعمل في دكانها لتحافظ على استقلالها وكرامتها كثالث زوجة في حياة الرجل . ووجدت عناء في الانتقال منعاشرة سماحة إلى معاشرة عبد الباسط ، ولكن الجديد يطمس القديم عادة ويغطى على ذكرياته وبخاصة إذا تمع بجدارة ذات شأن . لذلك ألفته مع الأيام ، وأحبته ، وأنجحت له . ودأبت على زيارة رمانة وقرة ووحيد في دار خضر . تستقبل بالترحاب والاحترام من أهل الدار ، وبالحب الشديد من الأولاد . ووجدت أنهم يتلقّلّون بسرعة ، ويتبدلون في صورة مختلفة ، ولكنهم لا ينسون أمهم ولا ملاعبهم ولا أقرانهم ولا حتى أباهم الذي طال غيابه . ولكن بمرور الأيام وكثرة الإنحصار تباعدت الفترة بين الزيارة والزيارة ، وطالت أكثر

٢٦٥

ما يتوقع حتى ندرت ، وذهب الأولاد لزيارة أمهم في الدوکار ولكن عبد الباسط استقبلهم استقبالاً جافاً جعلهم لا يفكرون مرة أخرى في تكرير الزيارة . وأخذت العلاقات تفتر حتى أندرت بالقطيعة . حتى حصون القلوب يغزوها الزمن بانسيابه بين النعومة والصرامة .

٥٤

لم ينفق عبد الباسط من نقوده إلا في أيام شهر العسل . ثم قال لها بصراحة حادة :

- أنت غنية وأنا فقير والتعاون مشروع بين الزوجين ..

واحتاجت على موقفه ، واعتبرته استهانة بحبها ، ولكن لم يجد الاحتجاج شيئاً ، كلاهما يتسم بالعنف والعناد ، وهي لا تفكر في التضحية بحياتها الزوجية الجديدة بعد أن عانت في سبيلها ما عانت .

ولم يقنع عبد الباسط بذلك فكان يفترض منها عند الضرورة . وتراءكت القرفوس دون أن يلوح أمل في السداد . ونشبت بسبب ذلك خصومات وتبدلت لعنت . الضرب أيضاً تبودل ، والعنف احتمم أياً احتمام . ولكن تيار الحياة لم ينقطع . وحملت أمواجه المتتابعة الملاطفات والتنهدات والرغبات مع السباب واللطميات . وجاء الوليد في أعقاب الوليد حتى اكتمل لها ستة .

الشيء الوحيد الذي لم يمسه التغيير كان حرصها الأبدى على أنوثتها وجمالها .

وتمر الأيام، وتنمو الحياة وتتفرع، وتتجمع المصائر في الأفق.

وكان سماحة بكر الناجي يعاني الحياة وهو يسمع صلصلة عجلة الزمن تجده وراءه. إن الإنسان يشقي بساعة انتظار فكيف إذا صارت الحياة كلها مفرغة إلا من انتظار متواصل؟ ومن أول الأمر صمم على إلا يقيم في مكان واحد. عمل بائعاً سريحاً يجول بين القرى، مرسلًا لحيته وشاربه، مخفياً عينيه يسرى بزعم العور. وظل يسجل مرور الأيام في دفتره السرى، ويسجل أيضاً أعمار أولاده رمانة وقرة ووحيد. وتركزت أوقات فراغه في تذكر أسرته، محاسن وأولادها. وفي أعقاب الجهد والعناء، قبيل النوم، يتعزي بالأحلام. الحلم باليوم الموعود. يوم النجاة من المنشقة والعودة إلى الأهل، يوم يرجع إلى حarte مشهراً عصا التأديب، باعثاً من ظلمات الحاضر عهد الناجي بعدله المرموق. وتحده نفسه أحياناً، إذا استد خفقات قلبه بالحنين، أن يزور أهله متخفياً في ثياب امرأة، ولكنه يكظم أشواقه. ويثنى عن عزمه، متقدّهاً أمام العواقب الوخيمة الجديرة بإهدار صبر الأعوام.

وعاش وحيداً: بل عاش في ظل أطیاف متجسدة لا تبرحه. أطیاف الظلم والحنان والحرمان والخوف المستمر من انكشاف أمره. واعتاد

محاورة نفسه وأطيافه. يحاورها من خلال الصمت أو بصوت يسمعه الخلاء والشجر والنيل. وجن مرة إذ خُيّل إليه أنه يرى محاسن. وحلم مرة بأنه التقى بمحمد توكل في سوق الدومة. وخير أحلامه ما رأى فيه سيدنا الخضر، ومن عجب أنه لم يبق من الحلم شيئاً، سوى ثقل في القلب وحزن في الوجودان، وأمل غامض. وقال لنفسه:

- إنه لا يجيء إلا خير ..

وقال أيضاً:

- لا يوجد ألم بلا معنى، وسوف يجيء الضياء ذات يوم .. الحق أنه كان قد فقد كل شيء، فإن شجاعته لم تنصب وقوته لم تهن. لعله يزداد بالإصرار شجاعة وقوة. ويزداد بالشجاعة والقوة إصراراً، ولكن ماذا صنعت الدنيا بمحاسن ورمانة وقرة ووحيد؟ سيرجع ذات يوم فيجددهم رجالاً في الدكان. سينظرون إليه بذهول أول الأمر، ولكنه لا يمكن أن يتحقق من ذاكرتهم.

وكلما مر عام تنهد قائلًا:

- ها هو ذا الجبل يتزحزح !

٥٧

وكان العام الأخير أشد الأعوام عذاباً. وكلما مر منه يوم اشتد العذاب. إنه يستمسك بالصبر ويلاطفه ويتوسل إليه أن يثبت حتى الدقيقة الأخيرة. إنه يصارع الألم بعنف لا هوادة فيه. يغرق أفكاره في هموم الحياة اليومية، ولكنها تأبى إلا أن تغرق في مجرى الزمن، وأن تتبعه لحظة بعد أخرى، أن تندس في اللحظة حتى تتضخم فتصير دهراً، حتى تنفرز في أساس التجمد وتendum الحركة تماماً.

٢٦٨

ولم يبق إلا يوم واحد. صباح الغد وينتهي كل شيء. سينطلق إلى العمل لكنه ينسى. ولكنه عجز عن العمل. عجز عن أي شيء إلا معانقة الزمن. عزيمته تتبدد وتتبخر. ويقول بصوت مرتفع كأنما يستمد من ارتفاع الصوت قوة و يجعل منه تعهداً أمام الكون:

- سأبكيت ليلى هنا ثم أذهب مع الصباح إلى البيت ..

ولكن أعصابه تمردت على حيلته. هزئت بتعهده. أرسلت أوامرها إلى أعضائه فكفت عن العمل، فلا طعام ولا شراب ولا حلم. راقب قرص الشمس المدقوق في السماء. جفت آخر قطرة للصبر.

سيبيت الليلة في حضن أسرته. وقدف بنفسه صوب الأمل ..

سمعت محسن طرقاً خفيفاً على الباب.
كان الأولاد قد ناموا على الشلت في الصالة، وكانت قد تزييت وتأهبت للنوم.

من الطارق والليل يكاد أن يتتصف؟

فتحت الباب عن زيق فرأة شبهاً فسألته:

ـ من؟

دفع الباب فانقض عليها. هكذا خُلِّيَ إليها. قبل أن تصرخ أطبق

على فيها . صارا كائنا واحدا تحت ضوء المصباح المشتعل في الكوة . رفع
فاه مطبقا براحته على فيها وهو يقول :
ـ أنا سماحة يا محاسن ، سماحة رجع ..

عند ذاك سحب راحتة فراحت تحملق في وجهه المغطى بالشعر
بذهول .

ـ ليطمئن قلبك ، سماحة رجع ، انتهى العذاب !

لم تخرج من ذهولها فقال :

ـ انقضت المدة ، لم يبق إلا ساعات ، خانني الصبر ..

هنا ظهر حلمي عبد الباسط في باب الحجرة وبيده جندرة وهو
يقول :

ـ جئت لقضائك ، سلم نفسك ..

تلقي سماحة ظهوره كضربة فوق يافوخه .. تتم :

ـ من هذا؟ رجل في حجرتك .. ما معنى هذا يا محاسن؟
لاذت محاسن بزوجها . ازدردت ريقها ، وقالت :

ـ إنه زوجي ..

وأشارت إلى الأولاد الذين رآهم لأول مرة وقالت :

ـ أبو هؤلاء ..

ارتفتحت يسراه ثم انحطت فوق رأسه والأرض تميد به ، وراح يقول :

ـ حقاً؟ زوجك ! ما تصورت شيئاً كهذا !

ولوح عبد الباسط بالجندرة قائلاً :

ـ سلم نفسك ، أنا مخبر النقطة !

ـ حقاً؟

وتشنج بنوبة من الضحك فصاح عبد الباسط :

- إذا قاومت حطمت رأسك ..

فهمست محاسن :

- دعه يذهب ..

قال لها بلهجة آمرة :

- صوتي في النافذة ..

وبسرعة انقض سماحة على طفل فرفعه بيده وأطبق بالأخرى حول
عنقه وقال والطفل يصرخ :

- حذار ، لا حركة ولا صوت وإلا هلك الطفل ..

صرخت محاسن :

- دع ابني يا مجرم !

- لا حركة ولا صوت ، لا تهاجم ثعبانا جريحا ..

- اترك الولد ..

- هو بخير ما دمت بخير ..

قالت محاسن :

- رمانة وقرة ووحيد في كفالة عمك ..

فهزَّ رأسه وهو يقول :

- طيب ، ولكن الويل لمن تحدثه نفسه بتسليمى إلى المشنقة ..

فتولست محاسن إلى زوجها قائلة :

- دعه يذهب ..

قال عبد الباسط بنبرة تسليم :

- فليذهب إلى الجحيم ..

- ارم الجندرة أولا ..

رمى عبد الباسط الجندرة . هرعت محاسن إلى سماحة فأخذت
الطفل . وبسرعة التقط عبد الباسط الجندرة ورمى سماحة بها فلمست

قمة رأسه . لم يكن التسديد محكما ، وقد أصاب الثلاثة ، فاللتقط سماحة بدوره الجندرة وانقض على الرجل وضربه ضربة صادقة على عنقه فتهاوى على الأرض فاقد الوعي .

غادر البيت وثبا وصوات محسن يلاحمه . عندما بلغ الطريق كان بعض الساهرين يتوجهون نحو مصدر الاستغاثة . اندفع بكل قوته نحو الطريق الموصل إلى النيل .. وسرعان ما بدأت مطاردة من نوع جديد ، ولكنه وثب إلى قارب وراح يجذف مبتعدا عن الشاطئ ..

وعند متصف النهر جاءه صوت غير غريب ، صوت شيخ الحارة

وهو يصيح به :

- سلم نفسك يا سماحة ، قتلت حلمى عبد الباسط مخبر الحكومة ..

٦٠

صاحب خضر سليمان الناجى وهو يرنو إلى سماحة :

- سماحة أخيرا !

تعانقا عناقًا حارا ثم هتف خضر :

- طالما حلمت بيوم النجاة فالحمد لله رب العالمين ، دعنى أوقف رضوان ..

ولكن سماحة أمسك بيده وتم :

- الأولاد ؟

- انتظر حتى الصباح . عليك أن تخلق لحيتك أولا ..

فهمس سماحة بإصرار :

- الأولاد ..

اقترب من الأسرة المتجاوزة وهو يرنو إلى الوجوه الهائمة في وادي النوم المجهول. ثغور مفترأ، وأقنعة متحركة من حركة الزمن، وملامح صباً واشية بحرارة المراهقة، وبدور ناضجة يكمن في نواتها مستقبل غني بالمناقضات.

أطل الحنان من عينيه مبللاً بالدموع، وتدفق الشوق في حنایاه ينبوعا ساخناً، واهتزت جوارحه حتى شهدق.

ضغط على شاربه ولحيته ليحرر شفتيه، فهمس خضر في أذنه:
ـ أخاف عليهم الفزع.

ولكنه لشم الخدوود بخفة ورشاقة، وهو يراقب حركات صغيرة سريعة غامضة، ثم تراجع بهدوء وحذر وأسى.

وقال له خضر:

ـ عليك أن تنام ..

فقال وهو يهز رأسه:

ـ لا وقت للنوم ..

ـ ولكنك متعب جداً يا سماحة ..

ـ وأمامي تعب بلا نهاية .

فراح يحده عن موت الفللى منذ عامين وحلول الفسخانى محله ،
عن موت دجلة أيضا وحمودة ، وسجن عتير وفريد ، وسماحة يتابعه بلا
اكتراش .

ووضع يده على منكبه وقال :

- ما زلت مطاردا يا عمى ..

فتساءل خضر باززعاج :

- ألم تنقض المدة؟

فقال وهو يتنهد :

- اضطررت إلى قتل وغد منذ ساعة!

٦٣

في طريقه إلى الاختفاء وقف في الساحة أمام التكية . ها هو ذا يمتلىء
برائحة الحرارة وأنفاسها ، ولكن أين النشوء؟ كم حلم بهذه الوقفة
كم نطلق لدفقة جديدة من الحياة . تؤدب الأوغاد وتبعث روح العهد . ما
هذه الليلة إلا بدء رحلة طويلة جديدة في دنيا العذاب والمطاردة .

سirجع إذا رجع شيخا بلا حول ..

ومضى نحو الممر والأصوات تترنح في جلال الليل :

درد مارا نيسـت درمان الغيـاث

هـجر مارا نـيسـت بـابـانـ الغـيـاث

٢٧٤

قرة عينى

الحكاية الخامسة من ملحمة الحرافيش

١

كان لعودة سماحة بكر الناجي المباغة واحتفائه الخاطف زلزلة عنيفة في نفوس آل الناجي والحرافيش. ولعل أبناءه كانوا أقل الناس تأثيراً إذ إنه جاء وذهب وهو نائم، فضلاً عن أنه لم يعد بالقياس إليهم إلا ذكرى باهتة مثل ذكرى أمهم محاسن البولاقية. ورويت مأساته بالطول والعرض فأصبحت أسطورة وموعظة.

٢

وانتظم رمانة وقرة ووحيد في العمل بمحل الغلال مع عمهم رضوان وعم أبيهم خضر. وترامي إلى الحارة خبر عجيب يقول إن الخبر حلم عبد الباسط لم يمت كما توهם المتوجهون. وإنه شفى من ضربة الجندرة، وواصل حياته في خدمة الحكومة والبلطجة على محاسن. عند ذاك تجلى العبث في هرب سماحة، واشتد الحزن عليه، فهب خضر للبحث عنه. من أجل ذلك سعى سعيه لدى مأمور قسم الجمالية، ومن أجل ذلك فاوض فتوة الحارة «الفسخاني» مضاعفاً له الإتاوة وواعداً إياه بمكافأة مغربية، ومن أجل ذلك أيضاً رصد مكافأة كبيرة لمن يعثر عليه. وأثار نشاطه ريبة الفسخاني. وذكره رجال من أعوانه بتطلع سماحة إلى الفتونة فقلق الرجل وقلق معه وجهاء الحارة وأعيانها.

وما تدرى الحارة إلا والرجل الطيب خضر عليه مثخنا بالجراح
في عطفة الكبابجي حيث كان في سهرة آخرته لما بعد منتصف الليل .
ولم يجد الإسعاف في إنقاذ الرجل فقضى نحبه عقب يومين من
الحادث . ورغم إجماع القلوب على معرفة المجرمين فقد قيد الحادث
كالعادة ضد مجهول ، وضاع خضر مثل ذرة من رمال .

٣

زلزل آل الناجي لصرع عميدهم ، وعدوا ذلك نهاية من نهايات
الهوان المقدر عليهم . رغم ذلك استسلموا القدرهم وأقرروا بعجزهم ،
غير أن وحيد - ابن سماحة الأصغر - غضب غضبة مجنونة أندرت
بوخيم العوacb . قال بحقن :

- قاتل عمنا يمرح ويدعى الفسخانى !

وتسائل ببرارة :

- أكان عاشور الناجي يتصور هذه النهاية لذريته ؟

ومثله في الانفعال كانت ضياء أرملة خضر ، ولكنها انفعلت
بأسلوبها الموائم . دفعتها الجريمة فتهاوت في أحضان المجهول ، جفلت
من عالم الإنس ، لقنت لغة الجماد والطير ، واحتتمت من نصال الألم
بكهف الأشباح . صارت شيخة ، الحلم رويتها ، والفنجان نافذتها ،
والنبوءة الغامضة ترجمانها . وعشقت الجلباب الأبيض والخمار
الأخضر والمبخرة النحاسية ، تنهادى عند الأصيل بين الساحة والميدان ،
تنفث الدخان العطر ، تلوذ بالصمت ، تتبعها جارية ، تحدق بها الأعين .

ويسخر رجال من رجال الفتوة ، فيقول قائلهم :

- ذلك آمن من الطمع في الفتونة . .
وألم سلوكها الشبان ، كما ألم رضوان وزوجته أنسية وشقيقته صفية
ولكنهم عجزوا عن ترويضها . حتى وحيد الغاضب قال لها :
- دارك يا امرأة عمى ، الزمى دارك إكراماً لذكرى عمنا خضر . .
فنظرت إليه ببلهه وقالت :
-رأيتكم في نومكم ممتطياً جرادة خضراء . .
فيئس وحيد من مناقشتها ، ولكنها سألته :
- ألا تدرى معنى ذلك ؟
فلم يكتثر ، ولكنها قالت تحيب نفسها :
- إنك خلقت للهواء !

٤

وبقوة الغضب اخترق وحيد جدار الخذر . ما أضجره ب محل الغلال !
ما أبعده عن رمانة وقرة ! تقول الشيخة إنه خلق للهواء . ترى هل يصلح
للتحدى ؟
كان متوسط القامة وسيماً ، رغم عوره ، قوياً ولكنه بالقياس إلى
الفسخانى مثل هرة بالقياس إلى حروف . لم يندفع في مغامرة ، ولكنه
يضطرب كثيراً بحركة غامضة وقلق معدب . طالما قال له عمه رضوان :
- احذر الخيال ، وأقبل على العمل . .
وطالما قالت له عمتة صفية :
- لا تؤول أحلام ست ضياء على هواك . .

وانحرف عن خط الأسرة فصادق شيخ الحرارة محمد توكل رغم فارق السن ، وسهر معه كثيرا فى غرزة الصناديقى . وأنشأ علاقة طيبة مع صديق أبو طاقية الخمار من خلال ترددہ بين حين وآخر على البوطة . له صبوتات فى العريدة ، ولكن لم تفته أبدا صلاة الجمعة ، حتى قال له مرة الشيخ إسماعيل القليوبى :

- هل يجمع الله فى قلب واحد بين الخمارة والزاوية؟

فتساءل وحيد بمرارة :

- ألا ترى قاتلا يمرح وبرائنا يتذنب فى الغربة؟

٥

وفي أعقاب ليلة معريدة رأى حلما طويلا . رأى نفسه في الساحة أمام التكية ، ولم يكن من المولعين بالساحة . وجاءه درويش فقال له :

- الشیخ الأکبر یخبرک بأن العالم قد خلق فجر الأمس .

فصدقه وحيد ثملاً بسعادة تفوق التصور . وحمل على هودج فراح يشق الحرارة بين صفين من الرجال والنساء . ورأى أممه محاسن البولاقية وهي تشير إليه وتقول :

- اصعد .

فارتفع به الهودج ، فحملته الربيع إلى خلاء يحدق به جبل أحمر .
ووجد نفسه يتساءل :

- أين الرجل ؟

فانحدر عملاق من سفح الجبل وقال له :

- اثبت في مركز النجاة ..

فقال له بيقين :

- إنك أنت عاشر.

فتناول ساعده ودلكه بدهان قائلًا :

- هذا هو السحر !

٦

عندما استيقظ وحيد وجد نفسه مفعماً بالهم. أذعنـت له القوة والتفاؤل والنصر. لم يشك في أنه قادر على المعجزة. وأنه يستطيع أن يقفز من سطح الدار إلى الأرض دون خوف من الكسر.

أطاع الريح الهوجاء فارتدى ملابسه ومضى من توه إلى مجلس الفسخانى بالقهوة. رماه بنظره قاسية وقال له :

- إنـي أتحـدـاكـ أيـهاـ المـجـرمـ ..

رفع الفتـوةـ جـفـنـيهـ الثـقـيلـينـ. تصـورـهـ مـجـنـونـاـ. رـحـبـ عـلـىـ أـىـ حـالـ

بالـبـطـشـ بـأـحـدـ أـشـبـالـ النـاجـىـ. سـأـلـهـ :

- مـسـطـولـ يـاـ بـنـ الـقـديـمـةـ؟

فـبـصـقـ عـلـىـ وـجـهـهـ.

وـوـثـبـ الفـسـخـانـىـ قـائـمـاـ. تـجـمـعـ خـلـقـ لـلـمـشـاهـدـةـ.

لم يتردد وحيد. انقض على الفتـوةـ، وـبـكـلـ قـوـتهـ ضـرـبـهـ بـيـدـهـ المـسـحـوـرـةـ

فـيـ عـنـقـهـ فـتـقـهـقـرـ الرـجـلـ حتـىـ وـقـعـ عـلـىـ ظـهـرـهـ وـهـوـ يـشـهـقـ. خـطـفـ وـحـيدـ

نـبـوـتـهـ وـضـرـبـهـ عـلـىـ رـكـبـيـهـ فـشـلـهـ. وـالـتـحـمـ معـ نـفـرـ مـنـ أـتـبـاعـهـ فـجـنـدـلـهـمـ بـقـوـةـ

وـسـرـعـةـ مـذـهـلـتـينـ.

لم ينـقـضـ النـهـارـ حتـىـ كـانـ وـحـيدـ سـمـاـحةـ النـاجـىـ فـتوـةـ لـلـحـارـةـ!

عصفت الدهشة بالحارقة .

خفقت قلوب الحرافيش بالأمل . اضطربت خواطر الوجهاء بالخوف . حلمت أسرة الناجي بالعرش المضيء . ومضى وحيد بنوه بالحلم الذي رأه ، والمعجزة التي أحدثتها يده المسحورة ، والثقة الخارقة في النصر التي هونت عليه مواجهة الموت . وسرعان ما أحس حرارة الأمل المتطلعة إليه ، وبرودة الخوف المتوجسة منه ، ولكن آثر التمهل والتدبر ، فترك الأمور تسير في طريقها المعهود عدانفحات جاد بها على المعسرين من الحرافيش .

وسائله عمّه رضوان :

- متى تحقق حلم أبيك الغائب؟

فأجابه بحذر :

- خطوة خطوة وإن أفلت زمام العصابة من يدي ..

- هذه سياسة لا بطولة يا بن أخي ..

فقال بغموض :

- رحم الله امرأ عرف قدر نفسه .

ولم يفقد رضوان الأمل ، على حين طال بوحيد التأمل . وكلما مضى يوم تذوق جلال الفتونة ، ونعممة الثروة ، ومداهنة الوجهاء ، وأخذ يستسلم لتيار الإغراء ، فتقوى في نفسه نوازع الأنانية ، وتضعف أحلام البطولة والوعهد . فإذا به يشرع في إنشاء دار خاصة به ، ويتمتع بكل جميل وطيب في الحياة ، ويولع أكثر بالبؤرة والمخدرات ، ويتمادي في

مارسة شذوذ حتى خرج به من السر إلى العلانية، حتى قال رضوان لزوجته أنسية:

ـ أليس الأفضل أن يكون الوغد من غيرنا!

وتذكر الحرافيش تدهور سليمان الناجي فقالوا إن الشر وحده هو ما يورث في آل الناجي. وتألم لذلك قرة ك Mataلم عمه رضوان، أما رمانة فقال:

ـ حسبنا العزة التي عادت إلى الناجي ..

وكان رمانة يشبه أخيه وحيدا في تكالب على المسرات واستهانته بعهد الناجي القديم. وأطلق وحيد على نفسه «صاحب الرؤيا»، ولكن الحرافيش دعوه سرا بالأعور. وعرف بشذوذه فلم يتزوج، وأحاط نفسه بفتية مثل المماليك ..

هكذا استقرت فتونة وحيد الأعور ..

٨

تعب قلب رضوان. غدا العمل يرهقه رغم أنه كان دون الأربعين. ما أسرع أن يتصرف عرقا باردا وتظلم الدنيا في عينيه. وتراءكت فوقه الأحزان بسبب مأساة أخيه سماحة وسلوكه وحيد. لذلك عزف نفسه عن التجارة والحياة ومال إلى العزلة والعبادة. هكذا هجر المحل تاركا إدارته لرمانة وقرة.

٩

احتل رمانة وقرة حجرة الإدارة، يشتراكان في عمل واحد وقلبهما مفترقان. كان قرة وسيما، تشع من عينيه جاذبية، ورث من أمها محاسن

دقة قسماتها ورشاقتها ، فضلا عما عرف به من تهذيب واستقامة ، كأنه شمس الدين في جماله وعدوبته دون قوته . أما رمانة فكان قصيرا بدنيا مثل برميل ، غامق اللون غليظ القسمات ، به استهتار وخشونة . وكان قرة أقدر منه في الإدارة والتجارة ، وأنقى منه في المعاملة ، وقد أحبه العمال لسماته وجوهه . وكان رمانة يخالط أخاه وحيدا في الغرفة ، ويتورط في المغامرات بينهم ، وينتقد - إذا سكر - شقيقه قرة حاسدا ساخرا .

قال مرة لقرة :

- إنك تبد مالك لتشترى به حب العمال ، أى حكمة في هذا؟!

فقال له قرة :

- العطف ليس تجارة ..

- ماذا هو إذن؟

- جربه يا رمانة !

فضحك ساخرا وهو يقول :

- ما أنت إلا ماكر ..

ورغم أن قرة كان يصغر رمانة بعام إلا أنه كان يشعر بأنه مسئول عنه ، حتى عن وحيد كان يشعر بمسئوليته أيضا . وضاق رمانة ووحيد بمحالاته . وغضب وحيد مرة فقال له :

- صرتم سادة الحارة بعد أن كتم أذلاءها ، ألا تقرلى بهذا الجميل؟

فقال له قرة بحدة :

- وما فقدنا سمعتنا القديمة إلا بك ..

فقال بحقن أفقده ضبط النفس :

- لا أصدق الخرافات !

فتساءل قرة ساخراً :

- ألسنت «صاحب الرؤيا»؟

فغادره ساخطاً محتدماً .

كذلك ساءته مغامرات رمانة ، فقال له يوماً :

- تزوج ، أكرمنا بزواجك ..

قال له رمانة بحقن :

- أنت أخي ، أصغر مني بعام ، لا تسع للتلسلط على حريري ..

وقلق رضوان ما لاحظ بين الشقيقين من منافرة ، فقال لقرة :

- يهمني أن يستقر الوئام بينك وبين أخيك ..

وقالت له عمتة صفية :

- بنا من الجروح ما يكفى ، ولن تغير الكون ..

هذا وما زالت الشيخة ضياء تهادى بمحترتها في الحرارة كل أصيل ،

تاجي المجهول ، دامعة العينين ..

١٠

وكان قرة عائداً إلى الدار ليلاً عندما اعترضته في الظلمة عجوز وهي تقول :

- مساء الخير يا معلم قرة .

فرد تحيتها متعجبًا ، فقالت له :

- ثمة من يتذكر الآن في ساحة التكية ..

فثار في نفسه حب الاستطلاع وتساءل :

- من؟

- ستي عزيزة كريمة المعلم إسماعيل البنان!

١١

تبع العجوز يشقان الظلمة الكثيفة تحت القبو حتى خرجا إلى ظلمة الساحة المشععة بأضواء النجوم. كان الزمان صيفاً والنسمة لطيفة وانية، وعذوبة الأناشيد غالباً الجو. قادته العجوز إلى شبح واقف تحت السور العتيق. لم يتبيّن منها شيئاً، ولم يكن رآها أو سمع عنها من قبل. ولما طال السكوت همس مشجعاً:

- إنى في خدمة الهاشم.

فجاءه صوت ناعم مضطرب النبرة يقول:

- أشكرك ..

ثم مستدركة في توسل:

- لا تسىء بي الظن!

- معاذ الله ..

وحجز السكوت بينهما كالأول، فأدرك أنها تنادي شجاعة مفتقدة وذهبت به الظنوں كل مذهب، حتى اضطر إلى أن يقول:

- إنى مصفع إليك ..

فقالت وهي تزداد اضطراباً:

- سمعتك كالورد، وما هي إلا كلمة واحدة، فليعنى الله على قولها ..

- إنى أصغرى إليك بكل اهتمام ..

- أخوك رمانة ..

وانقطع الصوت كأنه اختنق ، فخنق قلبه ، تبددت ظنون ، حل محلها

الظلم ، تتم :

- أخي رمانة؟!

بدت عاجزة عن موافصلة الحديث ، وتخايلت الحقيقة مثل حشرة

ترحف في الظلام . عند ذاك همست العجوز :

- كان قد وعدها بالزواجه ..

- هكذا!

فقالت العجوز :

- إن لم يف بوعده في الحال حق علينا الهلاك !

. وابتعد الشبحان . وصوت نحيب مكتوم يتخلس حول طبلة أذنه ..

١٢

وتناول عشاءه مع عمه رضوان وزوجه أنسية . ضياء لا تبارح
جناحها ، ورمانة دائمًا في سهرة خارج الدار . وقال له عمه :

- لست كعادتك ..

فتمتم :

- إنى بخير ..

فقالت أنسية :

- لست كعادتك ورأس الحسين ..

كيف يبدأ الكلام؟ رأى أن يفتخهم بالأمر. هكذا تصور وهو عائد من الساحة. إنه الآن يتراجع، قوة تمنعه وتحذرها. لقد أودعته الفتاة سراً وعليه أن يصونه. يجب أن يبدأ برمانة رغم كراهيته لذلك.

١٣

نامت الدار ولكنه لم ينم. رجع رمانة قبل الفجر بساعة واحدة. رأى عينيه محمرتين ثقيلتين بالخمار. أدرك في الحال صعوبة مهمته. ولكن كيف يتصرف وهو يعلم أنه يستيقظ في الضحى، وأنه -قرة- يفتح المحل في الصباح الباكر، وأن حجرة الإداره لا تتسع لمثل هذا الحديث؟

- ماذا أيقظك؟

فمضى به إلى حجرته. ارتمى على ديوان وهو يقول في حذر:

- موعدة الفجر؟

فتتجاهل سخريته وقال برقة:

- عندي حديث مهم أرجو أن يتسع له صدرك يا رمانة..

- حقاً؟!

- هذا مؤكد!

فقال بتربص:

- تحت شرط ألا يكون له علاقة بالأخلاق!

- لا شيء مقطوع الصلة بالأخلاق..

فقال بعناد:

- أرفض الاستماع ..

- صبرك، ليس كما تتصور، إنه أمر يهمك أكثر مما يهمنى، ولا يمكن إهماله ..

- أثرت فضولى ...

فوضع راحته على منكبها برقه وهمس:

- إنه يتعلق بعزيزه !

تراجع رأس رمانة كأنما ضرب بحجر وتم:

- عزيزة؟!

- كريمة إسماعيل البنا ..

- لا أفهم شيئاً، ماذا تريد أن تقول؟

فقال بهدوء ناعم وقوى في آن:

- عليك أن تتزوج منها، وفي الحال!

أزاح اللاثة عن رأسه، تخلص من راحة أخيه بهزة من منكبها وقال بحدة:

- لا حياء، أين الحياة؟ كيف اتصلت بك؟

- لا يهم، المهم أن نمنع وقوع مأساة ..

فقال بسخرية:

- لا مأساة إلا في خيالك!

- أعتقد أنها مأساة حقيقة ..

فقال رمانة وهو ينفخ:

- كلا، لا رغبة لي في ذلك ..

- لم لا؟ لا شك في أنها أعجبتك مرة، ثم إن أباها وجيه حسن السمعة!

فقال ببرود :

- لا ثقة لي فيمن تستسلم !

- أيا ما كان الرأي فشمة أحكام للشهامة أيضا ..

- أى شهامة ؟! .. إنى أحقر ذلك ..

فقال برجاء :

- المطلوب الستر ، ثم افعل بعد ذلك ما بدا لك ..

فهز رأسه في حيرة ، وقال :

- شمة عقبة في الطريق ..

- ما هي ؟

- حب بيني وبين شقيقتها رئيفة !

فقال قرة بجزع :

- لا يمكن أن تذبح واحدة ثم تتزوج من الأخرى ..

فغمغم بكلام غامض ، فقال قرة :

- وربما علمت رئيفة بالمسألة ذات يوم ..

- إنها تعلم بالفعل !

- وتوافقك على ما تريده ؟

فهز رأسه بالإيجاب ، فقال قرة :

- إنها لشيرية يا أخي ..

- بل هي مثلى تحقر من تستسلم !

- ولكنها شقيقتها !

فقال بحنق :

- لا توجد الكراهة الحقة إلا بين الإخوة والأخوات !

فحفل قرة ، ثم غضب ، وهتف :

- عليك أن تتزوجها في الحال..

فصاح به:

- لا أسمح لك!

ونهض متهدياً. مضى وهو يقول:

- إن تكون رحيمًا حقًا فتزوجها أنت!

١٤

تسقط الأمطار فوق الأرض ولا تلاشى في الفضاء. وتومض الشهب ثانية ثم تتهاوى. والأشجار تستقر في منابتها ولا تطير في الجو. والطيور تدوم كيف شاءت ثم تأوى إلى أعشاشها بين الغصون. ثمة قوة تغري الجميع بالرقص في منظومة واحدة.. لا يدرى أحد ما تعانبه الأشياء في سبيل ذلك من أشواق وعنة، مثلما تلاطم السحب فتفجر السماء بالبرعود.

وقد فكر قرة في همه طويلاً. وقال لنفسه إنه ما عليه من بأس إن هو مضى في سبيله وقد بذل ما في وسعه من جهد. ماذا في وسعه أن يفعل أكثر مما فعل؟ ولكنه لم يستطع أن يمضي على هواه. استغاثة عزيزة تتردد مع الأنashid. راسخة مثل السور العتيق. نحيبها متخلّس حول طبلة أذنه. إنه مسئول. وأآل الناجي أيضاً. حتى عاشور المعجزة. لا يستطيع أن يهز منكبيه ويمضي. تشهد القوة الجاذبة. لن يكون أكثر حرية من الطير والشهاب والمطر. إلى مركز العذاب والمعاناة. إلى جحيم القوى المتخالفة المتعادلة.

- إن تكون رحيمًا حقًا فتزوجها أنت!

٢٩٠

الوغد يتحداه . الوغد يمتحنه . الوغد يتقمّ منه . وهذا هو حظه من الزواج؟ كلا وألف مرة كلا . ولكن أين المفر؟ إنه يحتقر الاستسلام ولكنه أيضاً يقدس العذاب . كأنه قدر لا يتزحزح . ولكن ألم يقل للوغد:

- المطلوب الستر ، ثم افعل ما بدا لك ..
أجل إنه الستر أولاً ثم يفعل ما بدا له .

١٥

قال لعمه رضوان :

- قررت أن أكمل نصف ديني !

فضحك الرجل وقال :

- رمانة سبفك في ذلك بساعة واحدة !

فخفق قلبه مؤملاً أن يكون الله قد هداه ، فسأل عمه :

- من يا عمي؟

- رئفة كريمة إسماعيل البنان .

فخاب أمله وصمت فسأله رضوان :

- وأنت؟

فرسم ابتسامة على شفتيه متظاهراً بالدهشة وقال :

- يا للمصادفة العجيبة! .. تصور يا عمي أنني أريد شقيقتها عزيزة!

فضحك رضوان ضحكة عالية وقال :

- فليبارك الله لكم . إنني سعيد ، وإسماعيل البنان جار نبيل وتاجر أمين .

لم يظهر بالقرار من هواجسه . الغبطة مازجها قلق وجفاء . كما يغرق المطر النقى فى الوحل . وضاعف من أساه اطلاع رمانة ورئيسة على سره . وإلى ذلك فقد خاف أن تأبى عزيزة يده المجللة بالإحسان وتدهمهم بكارثة ، ولكن جاء البشير بالرضا . وانفرز النصل الظاهر الحامى فى اللحم حتى النخاع . . وتعجل الأمر بصورة أذهلت الجميع وأثارت الدعاية .

زفت عزيزة ورئيسة إلى قرة ورمانة فى عرس واحد . عرس ابتهجت له الحارة كلها . وفي حفل الزفاف رأى قرة الشقيقتين لأول مرة فى حياته . هاله مثالهما كأنهما توءمتان . توسيط فى الطول والامتلاء ، لون خمرى نقى البشرة ، سواد عميق فى العينين ، تناسق بديع فى القسمات . وفتش عن فروق بين الاثنين حتى ظفر به فى ثغرة فى ذقن عزيزة وهى الكبرى ، وامتلاء أشد فى الشفتين . هذا كله لا وزن له ، ولكنه عشر على فارق ملموس فى نظره العينين المتماثلتين . نظرة عزيزة ثابتة وهادئة موحية بالطمأنينة ، أما نظرة رئيسة فقلقة خاطفة البريق كأنما تستقرىء أعين الآخرين بلا توقف ويلوح فيها ذكاء أسود . فسرعان ما توکد فى قلبه التفور منها . ولم تحاول إخفاء فوزها ، ولعله الوحيد الذى

أدرك ذلك . أما عزيزة فكانت تنظر طول الوقت إلى حذائها الأبيض المزين بالأطلس والترتر . وقال لنفسه : إنها عروس غير سعيدة ، وهو أيضاً عريض غير سعيد ، وسوف يهون ذلك عليهما اتخاذ القرار المتوقع . ومضى بها إلى الجناح المخصص لهما على دق الدفوف وغناء العالمة وهو يتساءل : ترى ماذا فعل بنفسه ؟ !

١٨

ولما خلا إليها وجدها متعرثة في الارتباك حتى قمة رأسها . لا تجرب على النظر إليه ولا على إتيان أي حركة . بلا حول ولا كرامة ، فريسة إحسانه . رق لها بقوه . وضاعف من رقته تأثره بجماليتها الفتان الحزين . ولكنه لم ينس أن قلبها مغلق ، وأنها غريبة تماماً ، وأن فستان الزفاف بمثابة بدلة السجين . ما هي إلا فترة عبور لا دوام لها . وفي هذه اللحظة تستكن رئفة في حضن رمانة مفعمة بالرغبة والفوز . ترى ماذا عليه أن يقول ؟ وأعفته من ذلك فجأة الصوت الناعم قائلاً :

- الشكر لك ..

فرق أكثر وقال :

- إنني آسف وحزين ..

- إننيأشعر بفداحة الظلم الذي تحمله ..

فقال مجاملًا :

- ولكنك تحملين ما هو أفدح ..

- إنه خطئي على أي حال !

- يا له من حديث في ليلة الدخلة !

لم تندعن عن أحدهما حركة. حتى طرحة الزفاف بقيت في موضعها فوق الرأس. غير أنه تفرس في وجهها بحرية في غيبة من عينيها المنكستين وتأثير أكثر بجمالها وجاذبيتها حتى اعترف فيما بينه وبين نفسه بأنه لو لا شذوذ الظرف لالتهمها. وقال بهدوء:

- لن ترغمي تحت سقفى على شيء ترفضينه ..

فقالت بحرارة:

- إنني واثقة من شهامتك ولكنني ..

وأمستكت لحظة ثم قالت:

- ولكنني أؤكد لك أنه لم يبق من الماضي إلا ذكراه المؤلمة.

ترى ماذا تعنى؟ فيم تفكر؟ ألم تدرك أبعاد إقدامه على ما فعل؟ متى يصارحها بكل شيء؟ ومتى يتحرر من تأثير أنوثتها الطاغية؟ وتجاهل قولها، وقال متهرّبا ربما:

- إنني أعجب لشقيقتك، فهي لا تقل عن أخي سوءاً!

فقالت بازدراء:

- ما أليقهما بعضهما البعض!

- ماذا بينكم؟

- شر ولا شيء إلا الشر.

- ولكن ما سببه؟

- ت يريد أن تستأثر بكل شيء، بالتفوق والحب، ولكنني تفوقت، وتوهمت أن والدى يحبانى أكثر فأضمرت لى الحقد والكراهة .. إنها فظيعة.

- أخي أيضاً فظيع ..

ثم مستطرداً:

- ولكنك ..

وصمت فقالت بحرارة:

- انتهى ، أبصرت بعد عمي !

رباه . واضح أنها تعيش في حلم . وهي صادقة . حقاً؟ أجل صادقة .
ما قيمة ذلك؟ المهمة شاقة . وأى خوف من تأثير جمالها وجاذبيتها !
الضعف في أعماقه أقوى من القوة في أنوثتها . ها هي ذي ترفع عينيها
لأول مرة فتلتفي العينان . ويوصل الشمع ذوبانه في الشمعدان الفضي .

سألته باستسلام :

- أود أن أعرف ما يجول بخاطرك !

يا لها من ليلة صيف دافئة ! ولم ينس . قالت :

- تراني غير لائقة بك؟ !

قال باندفاع :

- إنك صادقة وأصيلة ومحترمة !

-أشكرك وأقدر عطفك ، ولكن العطف لا يصلح أساسا للحياة !

إنه يناقش ، يتذمّر ، ويقاوم الإغراء . سأله :

- ماذَا يجول في خاطرك أنت ؟

فقالت بحرارة وشجاعة استمدتها من الحديث :

-إنى حرّة ، حرّة تماماً ، ولكن كل شيء يتوقف عليك ..

بصراحة قال :

- لا أنسى أنك طالبت بالزواج منه !

فبادرته :

- كان الخوف ورأي لا الرغبة ، صدقني ..

قال مخدرا :

-إنى أصدقك !

فقالت بتسلّيم :

- ولكن لك الحق كل الحق في التصرف بما تراه لائقاً ..
أى هاوية . أى إغراء . أى جنون يعربد في قلبه . أى قلق . أى رغبة
في دفن القلق . عند الأرق المعدب ، يسف المؤرق المخشاش ، فينحسر
الجبين عن ثغرة تسلل منها أنامل النوم الناعمة ..

١٩

ومضت الأيام المتأججة بالصيف . استسلم قرة عاماً وعشقاً عزيزة .
آمن بأن الحب إذا شاء قهر التراث . ومثلت عزيزة ورئيسة دورهما بإتقان
كشقيقتين ، فلم تلاحظ أنسية شيئاً يكدر البال . وفي حجرة الإداره بمحل
الغالل واصل قرة ورمانة عملهما ، ولم يتبدل بينهما حديث إلا في
شئون العمل . هكذا تجاور الحب والمقت .

وسرعان ما حبت عزيزة . وشمل الفرح آل البنان وأآل الناجي . قرة
وحده تمنى لو تأخر الحبل . وتساءل متى بدأ؟ تسللت حشرة إلى قلب
الزهرة النابض بالنضارة . أظلمت المعبد المنير بروح شريرة . إبر الشك
المحمّة المسمومة . ولكنها لا تقرأ أفكاره . إنها تمرح في البراءة والحب
الصادق . ولم يعد للتراجع موضع . إنه رجل حر وصادق وعاشق .
وهو مؤمن أيضاً وثقة بالله عظيمة . وأصبح رفيقاً للسرور والألم ..

٢٠

لم تحبل رئيسة؟
تردد السؤال بقلق في دار آل البنان وأآل الناجي . وانطحنت به رئيسة

وعينها تطفحان بالحنق . لا يؤخر الحبل إلا علة ، فالطبيعة لا تعرف التأجيل . وحامت الشبهة كالعادة حول رئيفة . ولم يهدأ لأمها بال . واستفتت الداية فأففت المشورة تلو المشورة . وبعضاً الأيام رسخ الخوف وتوكد الجزع فتجمعت سحب الأحزان .

وقال رمانة وهو ثمل في مخدعه :

- يا لها من ضجة !

فقالت رئيفة بحده :

- لا يرحمون . إنه الجحيم ..

قال رمانة متعضاً :

- إنكم ما تماثلتن ، فما النقص بك ؟

فتملكها غضب شديد وتساءلت :

- أللهمك الله أن النقص بي وليس بك ؟ !

فقال غاضباً :

- إنى رجل كامل ..

- ما من رجل إلا ويتصور ذلك !

فجن جنون غضبه المخمور وصاح :

- أجرب نفسي مع زوجة أخرى ؟

ارتفع رأسها والتوى عنقها إلى الوراء مثل حية وغنت بازدراء :

- سكران !

فتمادى في غضبه قائلاً :

- لعل لي جنينا ينمو في بطنه أخرى .

فصاحت :

- مجنون !

- احفظى لسانك القدر ..
- أنت أنت القدر .
فنهض مهددا فترا جعت متوجة للدفاع فلم يتحرك ولكنه قال بحقد :
- شيطانة وعقيم !
كانت أول مشاجرة زوجية وقد دهش لعنفها .
ولكن رغبتهما المتلاحمتين كانتا أقوى من الأعاصير الطارئة .

٢١

كان محمد توكل شيخ الحرارة يجالس صديق أبو طاقية الخمار عندما
مرت الشيحة ضياء ببخارتها . فضحك الخمار وهمس :
- رجعت الفتونة إلى آل الناجي ، فلم تواصل المرأة المجنونة البكاء ؟

٢٢

في أوائل الربيع ونداءات الباعة تتردد بالملانة والعجز .. وضفت
«عزيزة» طفلاً أسموه عزيز . وطوقت الشواغل قرة حتى هدأ كل شيء ،
فرقدت عزيزة في فراشها وراح هو يحنو على الوليد متأملاً . تأمله بقلب
مضطرب بشتي الانفعالات المتضاربة . ورنت عزيزة إليه برقة وإعياء
وفخار وتمتنع :
- ما أشبهه بك !

٢٩٨

لم توكل ذلك؟ إنه لا يجد له شكلاً ولكنها تتكلم ببراءة. لقد نسيت الماضي تماماً وهي غريرة البراءة والحب. عاد الرفيقان -السرور والألم- يتजاذبانه. ولكنه كان مصمماً على الحياة والسعادة.

٢٣

ومحافظة على المظاهر زار جناحه رمانة ورئيفة. أهدياً الوليد مصحفاً مذهب الغلاف. وقال له رمانة:

- يتربى في عزك ..

ورنت رئيفة إلى الوليد طويلاً وهي تقول:
- ما أجمله!

وتقلص قلب عزيزة وهي ترى نظرة رئيفة فوق وجه عزيز. وتصرف قرة التصرف الطبيعي المرح. وطيلة الوقت سأله ربه أن يلهمه الصواب. أن يضيئه بالحقيقة. ألا يعرض حبه لمحنة مضلة. أن يعبر به الوساوس والظلمات. أن يرفعه إلى براءة عزيزة وصدقها. ألا يتردى في الجحيم بإرادته.

٢٤

وحمل الطفل في لفافته ومضى به ليلاً إلى ساحة التكية. استقبل فيض الأناشيد في أوله. دعا الله أن يجعل من الصغير غصناً في دوحة البطولة والخير. أن تتجسد فيه الأحلام المقدسة لا الأهواء الجامحة

٢٩٩

الشريرة . وسرح فكره إلى الممر الضيق حيث ترك عاشور في مثل سن ابنه . وكما تعبّر سحابة وجه القمر فتحجب نوره اقتحمه خاطر مظلم . تذكر ما يتقول به الأعداء عن عاشور وأصله . غشيتها كآبة عفنة . لاذ بالأناشيد ليغتسل من عرقها الحامض وغمغم : « اللهم هبّنِي القوة ». انغمس في الأنغام تماماً وهي تردد :

نقدّها را بود آیاکه عیاری کیرند
تاهمه صوّمعه داران بی کاری کیرند

٢٥

لما خرج من القبو عائداً سمع صوتاً غليظاً يتساءل :
ـ من القادم ؟
عرف صوت أخيه وحيد الفتوة فأجاب باسماً :
ـ قرة سماحة الناجي .
فقهقه الفتوة . وقفَا شبحين في الظلام . تسأّل وحيد :
ـ كنت في الساحة مثل الأجداد الطيبين ؟
ـ بل ذهبت بالوليد ، ها هو ذا بين يدي ..
ـ مبارك عليك . نويت أن أزورك غداً في المحل مهنتا ..
ـ لم لا تزورني في البيت ؟
ـ أنت تعلم أنى أتجنبه !
فقال قرة برقة :
ـ إنه بيتك والله الهاudi ..
فقال وحيد مغيراً نبرته :

- وكان في نبتي أن أفالحك بأمر آخر؟

- خير؟

- أخونا رمانة..

تنهد قرة ولاذ بالصمت، فقال وحيد:

- إنه يبعث بهاله بسفاهة، لست واعظاً، ولكنني أعلم أنه لا يقدر على

السفاهة إلا فتوة!

- أنا عارف، النصيحة غير مجدية، ولا ينجم عنها إلا الغضب!

فقال وحيد بحقن:

- إنه يتتحر.

٢٦

كأن ما يربط رمانة برئيفة شيء أقوى من الخير والشر والنزاع. لا يفرط أحدهما في الآخر مهما نشب بينهما من خلاف. النقار متواصل والحب متواصل. يختلط العنف بالدلال، الزجر بالتنهدات، سوء الظن بالقبل. هي في اعتقاده عقيم وهو في حدسه عقيم، هو رجلها الوحيد، وهو أيضاً لا يخطر له أن يتزوج عليها. ويقول وهو ثمل:

إنها قدر!

٢٧

وتوفي رضوان بكر الناجي عقب مرض قصير. كان قد اعتزل الحارة حتى نسى تماماً فتذكرة الناس بالموت بضعة أيام. وزعت تركته بالاتفاق

٣٠١

حتى يخلص المحل لرمانة وقرة، وزع بقية التركة بين أنسية زوجته
وصفية اخته.

٢٨

ولم يعد رمانة يقنع بالبوظة والمخدرات فانزلق إلى القمار يدفن فيه
ضجره. وتصبر قرة ما تصبر حتى فاض به الكأس فقال له يوماً وهما في
حجرة الإدارة :

- إنك تبعثر مالك بلا حساب ..

فقال بجفاء :

- إنه مالي !

- تضطر أحياناً إلى الاقتراض مني !

- هل أكلت عليك قرضاً؟

فقال قرة باستياء :

- ولكن ذلك ضار بعملنا المشترك، ثم إنك لا تقاد بذل فيه أى
جهد !

فقال رمانة بامتعاض :

- إنك لا توليني ثقتك .

فصمت قرة ملياً ثم قال :

- من الخير لكلينا أن نفصل ، فليستقل كل بتجارته قبل أن نفرق
معاً ..

٣٠٢

عرف الخصام ، فاضطربت له أفتدة الأسرة .
أما وحيد فقد زار قرة وقال له بكل صراحة :
- افعل ما تراه في صالحك .

وقال له أيضا :

- ابنك يكبر يوما عن يوم .
ثم قال عن رمانة بازدراء :
- إنه خنزير مثل زوج أمه !

واجتمعت صفيحة بقرة ورمانة وقدمت اقتراحها قائلة :
- ليستقل قرة بالإدارة ولیأخذ رمانة نصيبه من الربح وهو حر فيه ..
فقال رمانة :

- لست طفلا يا عبتي ..
فدمعت عيناهما وقالت :
- سمعة الناجي أمانة بين يديكما ..
فقال قرة بحزن :

- سمعة الناجي ؟ ! لنا الفتونة وما هي بالفتونة . أبونا ضائع بلا ذنب .
أخرى إما في البوطة وإما في الغرزة ثم يمضي إلى القمار !
فتوسلت إليه قائلة :
- أنت أنت الأمل يا قرة .
فقال بشدة : ..

- لذلك أريد أن استقل بتجاري ..

انذعرت رئفة لفكرة الانفصال وأعلنت عن مخاوفها حتى قال لها
رمانة :

- أنت أيضا لا تثقين في !

فقالت بلين ومداهنة :

- إنك أهل للثقة إذا أقلعت عن عاداتك السيئة .

- سأقلع عنها حتما إذا اضطررت لتحمل مسئوليتي !

- وهل تعرف العمل حقا؟

فقطب متسائلا ، فقالت :

- يلزمك وقت للتدريب يا رمانة ، احذر العناد والغرور . كان الرأى

دائما رأى أخيك ، هو عاقد الصفقات ، هو الرحالة ، هو كل

شيء ، وأنت متربع وراء مكتبك لا شيء !

فتلظى بالحقد مليا ثم قال :

- وما العمل إذا صمم على تحقيق فكرته ؟

فقالت والشر يترافق في عينيها :

- يجب منعه بأى ثمن ..

- بالقوة ؟

- بأى ثمن ، أتدرى ما معنى أن تستقل الآن؟ أن تفلس في أيام أو

أسابيع ، أخ وجيه وأخ فتوة وأخ شحاذ !

- والعمل ؟

- بادر بالملائنة، في الوقت نفسه غير حياتك، اشتراك في العمل، ثم
نفكير في كل شيء ..

صمت متوجهما فرجعت تقول:

- خسائرك فادحة، ماذا يبقى لك لو وقع الانفصال الآن، تذكر
ذلك، وتذكر أيضاً ..

وسكبت قليلاً ثم واصلت:

- وتذكر أيضاً أنه لا يوجد مستحيل ..

٣١

مضى قرة يستعد لسفر عاجل. اقترح رمانة عليه أن يؤجل فكرة
الانفصال لحين عودته، وقال له برقة غير معهودة:
- ربما وجدتني لدى عودتك شخصاً آخر ..

٣٢

وفي الليل تطرق الحديث بين قرة وعزيزة إلى الموضوع. ولم تخف
عزيزة مشاعرها فقالت:
- إنه لا يستحق الثقة ..
فقال قرة: ..

- بلـى، ولكن الوقت لا يتسع الآن لإجراءات الانفصال ..

٣٠٥

- ليكن ولكن لا تتردد. إنه لا يحبك، هو وزوجته يتمنيان لنا
الهلاك!

وتابعت عزيز وهو يلاعب قطة بيضاء فرقت عينها وهي تقول:
- تلقيت من السماء هدية جديدة لك ..

فرمـق بـطـنـهـاـ بـحـنـانـ وـبـهـجـةـ . وأـشـارـتـ عـزـيـزـةـ إـلـىـ عـزـيـزـ وـتـمـتـ:
- أـهـلـكـ يـحـلـمـونـ لـهـ بـالـفـتوـنـةـ ..

فـابـتـسـمـ قـائـلـاـ:
- هـكـذـاـ آـلـ النـاجـيـ !

فـقالـتـ عـزـيـزـةـ:
- أـمـاـ أـنـاـ فـأـوـمـنـ بـأـنـ أـبـوـابـ الـخـيـرـ كـثـيرـةـ ..
- وـعـاـشـورـ؟

- دـائـمـاـ عـاـشـورـ! .. أـتـحـنـ إـلـىـ أـحـلـامـهـمـ؟

- سـأـشـئـهـ كـمـاـ أـنـشـائـىـ المـرـحـومـ خـضـرـ،ـ وـلـيـفـعـلـ بـنـفـسـهـ بـعـدـ ذـلـكـ ماـ
يـشـاءـ ..

- كـمـ تـرـيـحـونـ أـنـفـسـكـمـ لـوـ تـتـنـاسـونـ أـنـكـمـ ذـرـيـةـ عـاـشـورـ النـاجـيـ !
- سـنـظـلـ ذـرـيـتـهـ عـلـىـ أـىـ حـالـ ..

وـرـنـاـ إـلـىـ عـزـيـزـ طـوـيـلـاـ ثـمـ تـسـاءـلـ:
- مـتـىـ أـجـلـسـهـ أـمـامـيـ فـيـ حـجـرـةـ الإـدـارـةـ؟ـ !

شيخ الحارة وأخرين . وأمسك محمد توكل بيد رمانة وتساءل بلهجة ذات معنى :

- من يحل محلك يا معلم عند السفر إذا استقل كل منكما بتجارته؟
فتتجاهل قرة الملاحظة مواصلا حديثا جانبيا مع الشيخ إسماعيل .
وفي تلك اللحظة مررت الشيحة ضياء ببخرتها وعينيها الدامعتين . لم
يعد منظرها يثير استياء أحد من آل الناجي ، وقال وحيد :
- الشيحة تبارك سفرك !

وصافحهم واحدا بعد واحد واستقل الدوكار ورمانة يقول :
- بالسلامة في الذهاب وفي الإياب ..
ورن الجرس وتهادى الدوكار نحو الميدان ..

٣٤

كانت الرحلة عادة تستغرق أسبوعا . مضى الأسبوع ولكن قرة لم
يرجع .

تبودلت الأفكار في الدار مساء فقال رمانة :

- عذر الغائب معه .

وتمتنع أنسية :

- لا يحسب الوقت في رحلته بالساعة والدقيقة .

وقالت رئيفة :

- مرة تأخر يومين عن ميعاد عودته ..

ولاذت عزيزة بالصمت .

٣٠٧

مراليوم التالي كما مر الأول . ترددت الكلمات الملتمسة للطمأنينة .
 قالت عزيزة لنفسها :
 - ما أبغض قلقا لا مبرره !

يذهب الدوکار مع الصباح إلى ميناء بولاق ثم يرجع مع الليل خاليا .
 ويعذب السهاد عزيزة حتى الفجر ..

باتت الحارة تسأله عن غياب فرة . دعت عزيزة وحيدا وسألته :
 - ماذا ترى يا معلم وحيد ؟
 فقال الفتوة :
 - اعتزرت السفر بنفسي ..

غاب وحيد أيامًا ثلاثة ثم رجع في مساء الرابع . رأت عزيزة وجهه
ف العاص قلبها في صدرها وهتفت :
 - ليس وراءك خير !
 فقال وحيد بوجوم :
 - قرر عمالؤه أنه لم يصل إليهم ..
 فتساءلت عزيزة بوجه شاحب :
 - ما معنى ذلك ؟
 فقالت أنسية وهي تداري اضطرابها :
 - قلبي يحدثني بالسلامة ..
 فقالت عزيزة :
 - قلبي لا يحدثني بذلك ..
 فقال رمانة :
 - لا تستسلموا للتشاؤم ..
 فهتفت عزيزة :
 - الغائبون في أسرتكم أكثر من الحاضرين ..
 فقالت أنسية :
 - فليخيب الله الظنون السيئة ..
 فتممت رئيفة :
 - آمين ..

عند ذاك ولولت عزيزة:

- ما العمل وأنا امرأة لا حول لي؟!

فقال وحيد:

- لقد قمت بالخطوة الأولى وتوجد بعد ذلك خطوات ..

وقالت أنسية:

- إنه لا أعداء له ..

فقال رمانة:

- هذا حق ولكن للطريق أخطاره ..

فتأنوهت عزيزة، وقال وحيد:

- سأفعل المستحيل ..

٣٩

مضى أسبوع فى إثر أسبوع. تتابعت الأيام بلا مبالاة. شغل الناس بالشمس والليل والنهار والطعام. أيقنوا أن المعلم قرة لن يرجع إلى حارته.

٤٠

أصرت عزيزة على مصارعة النسيان واللامبالاة. غياب قرة كارثة يتجدد وقوعها في قلبها كل صباح. وهي تمزق بالحزن والغضب. تأبى أن تصدق أن سن الكون يمكن أن تتبدل بفترة في لحظة من الزمان. ومن

٣١٠

شدة الانفعال أجهضت فرقدت مريضة أسبوعاً . واستدعت وحيداً
وقالت له :

- لن أسكك ، لن أهتم ، ولو مضى العمر كله على ذلك ..
فقال وحيد :

- إنك لا تدركين حزني يا سيدة عزيزة ، إنه لعار أن يقع ذلك لشقيق
فتوة ..

- لن أسكك ولن أهتم ..

- لم يعد لأحد من رجالى من مهمة مقدمة على البحث والتحرى ،
استعنت أيضاً بأصدقاء من الفتوات ..

وتمهل قليلاً ثم قال :

- ذهبت إلى أمي في بولاق ، إنها اليوم ضريرة ، وذهبت معى إلى
فتوة بولاق ، الدنيا كلها تبحث عن قرة ..

٤١

من ناحية أخرى زار أبوها إسماعيل البنان مأمور القسم ، فوعده
الرجل بتقديم كل مساعدة ممكنة . وجعل أبوها يشجعها ويواسيها
ولكنها قالت له :

- كأن قلبي يعرف السر ..

وقرأ أبوها خواطرها فقلق وقال :

- إليك وسوء الظن بالأبراء ..

- الأبراء؟!

- أصغى إلى، اضبطي لسانك..
- لا أعداء لنا سواهما..
- قطاع الطريق أعداء كل إنسان..
- لا أعداء لنا سواهما.
- لا دليل لديك إلا سوء ظنك القديم..
فقالت بإصرار:
- لن أهتم ولو مضى العمر كله على ذلك..

٤٢

اقتحمت جناح الشيخة ضياء وهو ما لا يجرؤ عليه أحد.. وجدتها مترقبة على شلطة مستغرقة في تهاويل السجادة. ركعت إلى جانبها. لم تلتفت المرأة إليها، لم تشعر بها. همست:
- ياشيخة ضياء، ما رأيك؟
فلم يطرق الصوت بباب دنياه الممحورة، فهمست بحرارة:
- قولى شيئاً ياشيخة ضياء!
ولكن ضياء لم تسمع، لم تحس، لم تولد.
شعرت عزيزة بأنها تصارع مجھولاً لا سبیل إليه، وإنها تحدى المستحيل..

وعاشت شبه معتزلة في جناحها منفردة بعزيز . حتى الطعام كان يحمل إليها . وزارها في الجناح رمانة ورئيفة . وكان حزنها على الغائب جلياً مشهوداً . وقالت لها رئيفة :

- عزلتك تضاعف من أحزاننا ..

فقالت وهي تتجنب النظر إليهما :

- لم أعد صالحة لعاشرة الآخرين ..

فتمتنم رمانة :

- نحن الأهل الأقربون ..

فقالت بضمير :

- الحزن كاللوباء يوجب العزلة ..

فقال رمانة :

- بل المعاشرة تعالجه ، واعلمي أنني لا أكف عن البحث ..

فقالت بإصرار :

- أجل ، علينا أن نعرف القاتل !

فهتفت رئيفة :

- لا أصدق أنه قتل ..

فقاومت عزيزة دموعها بكبرياء ، ولم تهش لكلمة من الكلمات الطيبة ، فلم يسفر اللقاء عن خير . ولم تقطع عزيزة عن وحيد أو أيها . لم يتسلل اليأس إلى إرادتها ، وجعلت الأيام تمضي ، والمعلم قرة يذوب في المجهول ..

فسر اختفاء المعلم قرة في الحارة باعتباره نتيجة لعدوان قطاع الطريق .
 هكذا يقال جهرا كلما جاء للحادث ذكر . أما همسات الاتهام في البوطة والغرزة فكانت تحوم حول رمانة . لقد قضى على شقيقه بالقتل قبل أن يقضى عليه بالفصل والإفلاس . وها هو ذا يستقل بإدارة المحل ، متصرفا في ماله وماл ابن أخيه اليتيم ، وقد أفلح عن العربدة والقمار حتى لا يقال بأنه يبدد مال اليتيم ، وعمل ألف حساب لوحيد فتوة الحارة . رغم ذلك فقد تضاءلت عملقة المحل ، واختصرت معاملاته ، واعتذر رمانة عن ذلك بقلة درايته ومهاراته التجارية .

وقال لشقيقه وحيد :

- ليس في وسعى أفضل من ذلك ، وإنى أربح بأن تعمل معى إذا
 شئت ..

ولكن وحيدا قال له ببرود :

- أنت تعلم ألا خبرة لى بهذه الشئون .

ولم تكتثر عزيزة كثيرا لما يطرأ على المحل من تحول أو ضمور .
 كانت تحلم باليوم الذى يحل فيه عزيز فى مكان أبيه ، فيستقل عن عمله ويعيد إلى المحل سيرته الأولى . فى سبيل ذلك وقفت نفسها على تربية

وحيدها. أرسلته إلى الكتاب في سن مبكرة. وزودته بعلم خاص ليزيده علما بالحساب والمعاملة. ولم تأل في تذكيره بسير أجداده من آل البنان، بل دفعها إخلاصها القراءة إلى التنويه له ببطولات الناجي ومثله العليا وأمجاده الأسطورية. وبثت فيه - بلاوعي وبواعي أحياناً - الخدر من عمه وزوجته، والنفور منها، وشحنت قلبه بأنباء العداوة التي اضطربت بين أبيه وعمه، واختفاء أبيه الغريب المريب ..

وكان قرة قد نسي. لم يبق حيا إلا في قلب عزيزة، ولدرجة ما في خيال عزيز. وثمة حلم يقظة كان متعملاً بها، أن تجوب البلدان بحثاً عنه، أن تعثر عليه، أو أن تكتشف بالبيئة قاتليه، أن تنتقم، أن تعيد ميزان العدل إلى استواه الأبدى، أن يستعيد القلب صفاءه ..

٤٦

وما إن جاوز عزيز العاشرة حتى طالبت عزيزة بأن يتدرّب في محل أبيه. وسرعان ما وافق رمانة وهو يقول:

- أهلاً بالعزيز ابن العزيز ..

وعقب ذلك توفى إسماعيل البنان أبو عزيزة فورثت عنه قدراً من المال لا بأس به، فقررت أن تكتنزه ليستثمره عزيز في التجارة عندما يستقل عن عمّه! .. وماتت أنسية عقب وفاة أبيها بعام ونصف العام فخلت الدار من الأحباب. لم يبق إلا رمانة ورئيفة، والشيخة ضياء إنعد وجودها وجوداً. وقد عجزت الشيخة عن مواصلة مسيرتها اليومية في الحارة فاعتزلت تماماً في جناحها، وعند الأصيل من كل يوم كانت تدلّى بالمبخرة من مشربية حجرتها، وحتى الدموع لم تعد تسعفها ..

وينظر رمانة متأملاً كلما وجد الفراغ.

ها هو ذا عزيز يجلس في مكان أبيه بحجرة الإدارة. إنه يتقدم بخطوات ثابتة تنبئ عن رجاحة عقل. يطرق بلا شك باب المراقبة. صبي جميل مفعم حيوية. قامة طويلة رشيقه، عذب الملامح، يلوح القلق في عينيه كما يلوح التفكير. وبينهما مجاملة محسوسة ولكن بلا ألفة حقيقة. وثمة نفور أيضاً يتوارى وراء الكلمة المهدبة والابتسامة الحلوة. حلوى كذبة إبريل المرة. مشحون بنفثات أمه السامة. وقد يستوى يوماً عدواً ذا خطر! يتصور أحياناً أنه ابنه! ولا يتخلّى عن تصوره رغم أن وجه الصبي مزيج متوازن من وجهي عزيزة وقرة، ولكن ما الفائدة؟ العبرة بالروح لا بالدم. إنه ابن أخيه بل إنه عدوه، وهو لا يستطيع أن يحبه مهما تصور. وقد لا يقوم تصوره على أساس. ولعله لو علم بخواطره لزادده كرها.

وقال له :

- إنك منظو على نفسك يا عزيز ، لماذا؟

حدق فيه الصبي بحيرة كأنه لم يفهم فقال :

- أين أصدقاؤك؟ لم لا تخالطهم في الحارة؟

فتمتن :

- أحياناً أستقبلهم في الدار ..

- هذا لا يكفي ..

وضحك رمانة ثم قال :

- لم أسمعك تخاطبني مرة بقولك يا عمى ..

فارتبك عزيز فقال رمانة :

- إنى عمك ، صديقك أيضا ..

فابتسم عزيز وقال :

- طبعا ..

وكف عن مضايقته ببلادة . وقال لنفسه إن عليه أن يحاول مستقبلاً أن يصطحبه إلى مجالس الرجال ، أن يخرجه من قوقة النفور ، أن يسرقه من قبضة أمها ..

ونظر في دفتره ولكن سرعان ما اشتعل خياله بالصور الجامحة . رأى «عزيز» وهو يحضر .. إثر حادث أو مرض ..

٤٨

وكان يكافح رئيفة بهواجسه ، وكانت تقول له :

- طالما حذرتك بما تعدد الأفعى ..

فقال بضيق :

- لم أكن بحاجة إلى تحذير !

- ولا أنت في حاجة إلى من يرشدك إلى ما ينبغي عمله ..

ما أكثر ما تردد ذلك بينهما ! ها هو ذا الشيطان يطل من عينيهما الجميلتين .

قال بحنق :

- ما كل مرة تسلم الجرة ..

فقالت ساخرة:

- فلتنظر المصير.

- أصبح الآن يتعامل معى فشمة أمل!

- تتصور أن تخطفه من حضن أمه المغلى بالحقد!

- إنه لم يعرف بعد أن فى الدنيا طربا وسرورا!

- الأفعى مغروسة فى أعماقه ..

ففتح متوجهما . وساد الصمت إلا من هسيس الخواطر الدامية ..

وترامى من الحرارة صباح غلمان ، وتتابع نقر فوق خصاخص المشربية
فتمتمت رئيسة :

- رجع المطر ..

سلى بفحص الجمرات فى المدفأة بعدود من الحديد ، قال :

- ياله من برد !

فقالت مارقة من أفكاره :

- إنه حلم ..

- ما هو؟

- ليس مستحيلاً أن يغرس مثله بأمجاد الناجي !

- عزيز؟!

- أجل ، إنه سن الأحلام ، مثل أبيك المطارد!

رنا إليها بذهول . خافها بقدر ما أعجب بها . ولكنها قال بخمول :

- لا ثقة له فىـ!

- ولكنها يشحن إذا لم ير اليد التى تشحنه ..

وتنهدت بعمق وهى تقول :

- ثم يحذر «وحيد» فى الوقت المناسب !

ما جدوى ذلك كله؟ إنه يشعر أحياناً بالضجر. ولكن طاب له أن يتسلى بحلم يقظته الدامي ..

٤٩

اصطحبه معه إلى مجالس الرجال بحجة تقديمها إلى العملاء، فلم تستطع عزيزة أن تمانع. ودارت الجوزة ولكنه لم يدعه إليها فقط. وقال له :

- إنها ضرورة في مجالس الرجال ولكن تجنبها فهي لا تليق بك ..
وتعرف عزيز بكثرين. أسعده أنهم يحفظون لأبيه خالص الود وجميل الذكرى. وتتلاحم الأقوال :
- لم نعرف له نظيراً في أمانته ودقته ..
- الأخلاق في المرتبة الأولى ثم تحيى التجارة ..
- كان في التجارة كما كان جده في الفتونة !
- واحسرتاه على عهد الناجي وأمجاده ..
- سيجيء يوماً من يعيد العهد إلى عرشه ..
دائماً تتردد تلك الأقوال في كل لقاء. وفي طريق العودة إلى الدار يقول له رمانة :

- هؤلاء الناس لا يكفون عن الأحلام ..
ويقول له أيضاً :
- لولا عملك وحيك ما كان لنا قيمة في هذه الحارة ..
ومرة قال عزيز :

٣١٩

- ولكن وحيد ليس مثل عاشر .
- لا أحد مثل عاشر ، لقد انتهى عصر المعجزات ، حسبنا أن رجعت
الفتوة إلى آل الناجي ..
معنى أن ينفذ إلى أعماقه . وكان - في المجتمعات - يسترق النظر إليه
فينشرح صدره بضوء الحماس المشع من عينيه .

٥٠

وذات مساء قالت عزيزة لعزيز :
- جاء اليوم الموعود .
أدرك ما ترمى إليه ولكنه انتظر فقالت :
- تستطيع الآن أن تصطليع بشئونك ، لم تعد صبيا ، استقل
بتجارتك ، عندي من المال ما يضمن لك نجاحا مثل نجاح أبيك ..
فهز رأسه موافقا ولكنها لم تلمس الحماس الذي توقعته فقالت :
- ابعد عنك عدو أبيك ، وحسبه ما نهب من مالك ..
- هذا متفق عليه !
ولتكن لا تبدى الحماس الواجب ..
- الحماس متوافر ، طالما انتظرت هذا اليوم ..
- ستنهذه فورا؟
- أجل ..
ولتكن مشغول البال ، أكثر من مرة لاحظت ذلك فعلته بمتاعب
العمل ..

- هو ذلك!

فقالت بارتياب:

- كلا يا عزيز ، عيناك تحدثانى بأن هناك شيئا آخر ..

فضحك قائلًا :

- لا تجعلى من الحبة قبة ..

سره حقيقة بأن يخفيه عنها بقدر ما هو حقيق بأن يخفيه عن وحيد نفسه . إنه يعرف تماما موقفها ومشاعرها . غير أنها قالت بقلق :

- لا تخف عنى شيئا يا عزيز ، نحن محاطان بالأعداء ، عليك أن تطلعني على كل شيء ..

فقال متظاهرا بالمرح :

- سأنفذ ما اتفقنا عليه ، ما عدا ذلك فهو وهم ..

فقالت بمزيد من القلق :

- أى وهم؟! ما أكثر الأوهام القاتلة!

ارتعد لنفاد بصيرتها المستلهمة من غريزة الأم وحبها وخوفها معا.

غمغم متهربا :

- لا شيء!

فهفت بحرارة :

- لا تسلمني للجنون ، أملك حزينة أبدية ، تحملت مالم تتحمله زوجة مخلصة ، أنت أملها الوحيد ، عزاء صبرها وتصبرها ، استيقاظها من كابوس طويل ، وقد قضى علينا أن نعيش في غشاء من المكر السيئ ، ولن يقدم لنا السم إلا في قطعة من الحلوى ، لا خوف عليك من العداء السافر ، ولكن الخوف واجب من البسمة الحلوة والكلمة العذبة والدواء الشافي وأقنعة الإخلاص التي لا حصر لها .

فتمتم وهو يتلوى في الحصار:

- لست غرّاً يا أماه ..

- ولكنك بريء، والبراءة فريسة الأوغاد ..

وانزلق إلى أن يقول وهو لا يدرى:

- إنه خارج الموضوع!

- رمانة؟!

- أجل ..

- حدثني عن الموضوع، واحزناه، هل أصبحت غريبة عن قلبي
وروحي فلا أعلم شيئاً عن أخطر الأمور إلا ما تلقى إلى المصادفة
العمياء؟!

- لم أضمر إخفاء شيء عنك ولكنني أعلم بهوا جسك؟

- صارحنى فإن قلبي يوشك أن يتوقف ..

فنهض، راح يتمشى في الحجرة، ثم وقف أمامها، وتساءل:

- ألا يحق لي أن أفكر بنبيل؟

فدهمتها أفكار مفزعة وقالت:

- ما العاقب يا عزيز؟ هذا ما يهم، سبق أن فكر جدك سماحة بنبل
وها هو ذا طريد كالمتسول لا يدرى أحد عنه شيئاً.. حدثني عن
أفكارك النبيلة يا عزيز ..

مضى بنبرة اعترافية يحدها عما دار في اللقاءات مع العلماء. تابعته
بووجه شاحب حتى خضبته في النهاية صفرة الموت ..

وقالت بصوت متهدج:

- إنه تحريض واضح على عملك وحيد!

- لست غرّاً ..

- إنى أرى رمانة فى نسيج المؤامرة ..

فبادرها :

- لم ينبع بكلمة ، وهو دائماً فى صف وحيد ، ودائماً يحذرنى ..

- لا تصدقه ، إنهم يرددون ما يشحّنهم به ، هل صارحتهم بأفكاكك
النبيلة؟

فقال بصدق :

- كلا ، لست غرّاً ، قلت لهم إنّي لا أخون عمى وحيد ..

- هذا حسن ، هل قلت لعمك قول آخر؟

- كلا .. ظهرت بالليل لقوله ..

تنهدت بعمق ، اغزو رقت عيناهما ، غمغمت :

- حمد الله ..

ثم بحدة :

- لقد أعطيني الحبل ، ما عليك إلا أن تتوفر على عملك ، استقل عن
عدو أبيك ، بل عن قاتله ، توفر لعملك ، لقد أعطيني الحبل ..

٥١

ثمة صمت ينذر بهبوب عاصفة . نظرات عزيز لا تبشر بخير . منذ
شارف بلوغ الرشد وهو يتوقع منه ضربة قاسية . لم يفلح فى كسب
ثقته ، بادله ملائنة ملائنة ، لم تزل قدمه رغم دهن الأرض تحت قدميه
بالزriet ، وها هو ذا يتحفظ للانتقام .

وخطابه ذات صباح بقوله :

٣٢٣

- عماء!

لأول مرة ينطق بها فأيقن أنها مقدمة لشر .

- لماذا يا بن أخي؟

فقال بهدوء كريه ذكره ببعض أحوال أبيه قرة:

- أرى أن أستقل بتجارتي !

رغم أنه توقع ذلك ، توقعه منذ وقت طويل ، إلا أن قلبه غاصل في

صدره ، وتمتن :

- حقًا؟! طبعاً أنت حر ، ولكن لماذا؟ لماذا نفتت قوتنا؟

- أمري ترغب في مشاركتى !

- هذا ع يكن مع المحافظة على الوضع الراهن ..

- كان أبي يرغب في ذلك كما تعلم !

- قال ذلك يوماً ما ولكنه لم يصمم عليه وإنما منعه مانع ..

فقال عزيز ببرود :

- منعه اختفاؤه الغريب ..

فانتقض قلب رمانة ، ولكنه تجاهل الطعنة وقال :

- كان بوسعه أن يؤجل السفر حتى يفعل ما يشاء ..

ثم باستياء واضح :

- لا تصدق كل ما يقال ..

فقال بجرأة لم يدتها من قبل :

- إنني أصدق ما يستحق التصديق ..

فقال رمانة بيأس :

- أكرر أنك حر ، ولكنه ضار بكلينا ..

- ليس هو كذلك بالنسبة إلى ..

تلقي طعنة ثانية وهو يتلظى بالحقد الدفين . وقال لنفسه إن يكن ابني حقاً فكيف أفتته إلى الدور الساخر الأليم الذي يلعبه ! كيف أكبح الشيطان الذي يتمطى في قلبه الأسود ليتقم مني ؟ قال :

- تعبير لا يجدر بك ، ألا تفكر في الأمر ملياً؟

فقال برقة ما استطاع :

- إنه أمر متفق عليه .

فقال بياس :

- حتى إذا رجوتك أن تعدل عنه ؟

- يؤسفني أنني لا أستطيع تحقيق الرجاء ..

- لعلها أملك ؟

- تريد أن تشاركنى كما قلت ..

- إنه سوء الظن الذى يخلق الكراهية على أساس من الأوهام .

فتردد قليلاً ثم قال :

- ليست أوهاماً ، الحسابات غير مقنعة ، والشركة لم تكن فى صالحى ..

- من الآن ستؤدى دورك كاملاً ..

فتمتم عزيز بضيق :

- لا فائدة يا سيدى .

فاجتاحه الغضب وهتف :

- إنها الكراهية ، إنه الحقد الأسود ، إنها اللعنة التى تطارد آل الناجى ..

رجع رمانة إلى رئفة محظماً. وسرعان ما أخبرها بكل شيء، ثم قال:

- بذرة الكراهة تلفظ ثمرتها السامة.

فقالت رئفة بوجه مخطوف من الحقد:

- الأمل معقود بوحيد..

- ولكن الماكر الصغير لم يقع بعد في الشرك..

- لا تنتظر حتى يقع..

- ليس الأمر باليسير الذي تحلمين به..

ثم بهدوء:

- الأمل معقود بميراثك!

- ميراثي؟!

- عزيزة ستمده بميراثها..

- لأنها كانت تعدد لساعة الانتقام..

- بميراثك أستطيع أن أبدأ من جديد!

فتساءلت بذهول:

- ومالك أنت؟

فقال بقنوط:

- لم يبق منه ما يصلح لإقامة محل كريم..

فهافت:

- التهمه القمار؟!

- ماذا؟ أهذا وقت الزجر؟

- لم أكنز ميراثى مثلما فعلت الأفعى ، وترى أن تبدد ما بقى منه
لتسول معا؟!

فقال محظيا:

- سأبدأ بسلوك جديد!

فضحكت ساخرة فاشتعل غضبه وقال:

- لم يبق إلا أن أكاشفه بأنه ابنى!

فانتقل اللهب إليها وصاحت:

- أفق ، ألم تقتنع بعد بأنك عقيم؟!

فصاح بحق:

- بل أنت العقيم!

- ما وجدت الداية بي من عيب!

هم بأن يلطمها ولكنها تحفزت للرد مثل لبؤة غاضبة . لم تقتنع
بتراجعه فتمادت في الحق ، وهي تقول:

- أشمت بنا الأعداء ، لعل وهم الآباء الفارغ هو ما صدك عن
التخلص منه طيلة الأعوام الماضية!

فتمتم وهو يهز رأسه دهشة:

- تحسين القتل لهوا!

عند ذاك أقبلت جارية ل تستأذن في حضور محمد توكل شيخ
الحارة ..

استقبله في بهو الاستقبال بالدور الأول . جاء الرجل في حالة من العجلة والاهتمام والقلق حتى انقبض قلب رمانة . وجلس وهو يتساءل بلا أي تمهيد :

- هل أغضبت أخاك وحيدا؟

فذهل رمانة وقال :

- ما بيني وبينه إلا كل خير !

-رأيته الساعة في البوظة هائجاً ثملاً، يلعن ويسب، متهمًا إياك بأنك تحرض عزيزاً عليه!

فانترب منفزاً وهو يصيح :

- افتراء وكذب ..

فبادره محمد توكل :

- لا تتوان عن إقناعه .. عجل ..

فتتساءل رمانة محتداً :

- ماذا تعنى؟

- إن لم تسع فسيصييك أذى لا تتصوره ..

- ولكنه أخى !

فقال توكل وهو لا يفطن إلى أبعاد قوله :

- ليس نادراً أن يقتل الأخ أخاه في حارتنا!

فاز در در رمانة ريقه بامتعاض وغمغم :

- هكذا؟!

فقال شيخ الحارة:

- لقد أعتذر من أنذر فتحرك وحق الحسين..

٥٤

لم يجرؤ رمانة على مقابلة وحيد وهو سكران، فقرر أن يتظاهر حتى الصباح. غير أن الشيخ إسماعيل القليوبى شيخ الزاوية اقتحم عليه داره عند منتصف الليل حاملاً إنذاراً من وحيد بأنه إذا غادر داره فقد عرض نفسه للهلاك.

وأدرك رمانة أن عزيزاً هو الذي أوقع بينه وبين وحيد فتهجم على جناحه وانهال عليه سباً حتى أوشك أن يلتحم الآنان في عراك عنيف. عند ذاك اعترفت عزيزة بأنها هي التي فطنت إلى المؤامرة التي دبرها لابنها وأنها أفضت بظنونها إلى وحيد. وصب رمانة عليها غضبه حتى صرخت في وجهه:

- أبعد عن وجهي يا قاتل قرة.

هكذا اشتعلت الدار بالغضب والكراهية على مشهد من الخدم. وفي الحال انتقلت عزيزة وعزيز إلى دار البنان، ولم يبق في الدار إلا رمانة ورئيسة والشيخة ضياء.

واستقل عزيز بمحل الغلال، فجده، وأعاده إلى أيام ازدهاره كما كان أيام قرة ولم يساور وحيد ارتياه فيه، ووجد في تنبية عزيزة له ما طمأنه من ناحية عزيز فزاره مهتماً ومصفيماً عليه أمام الحارة رضاه وحمايته. وأقلع عزيز عن أحلامه. أقلع عنها

٣٢٩

وهو حزين ، غير مبرأ من ازدراء نفسه . وقنع بممارسة الخير في محله ، مع عماله وعملائه وزبائنه ومن يتيسر له مساعدتهم من الحرافيش .

٥٥

قبع رمانة في داره . قضى على نفسه بالسجن بلا حكم . يحيط به الخوف ويستكن في قلبه الخزي . ينفق من ماله غير المستثمر ومن مال رئيسة . يقتلها الضجر . يهرب من الضجر في الخمر والمخدرات . يمارس غضبيه على الخدم والجلدان والأئاث والمجهول .

ومضت العلاقة توتر بينه وبين رئيسة ، وتسوء يوماً بعد يوم . اشمت زوجته وبطالتها وغيوبتها وصراخه . وسرعان ما اشتد الخلاف والنقار وحل النفور محل الوئام . وكلما نشب بينهما مشاجرة طالبته بالطلاق حتى فقد وعيه ذات مرة فطلقتها . كان القرار أهوج إذ كان كل منهما لا يستغني عن حب الآخر ولكن الغضب مجنون والكربلاء عreibدة والتمنادي مرض . وكأنما أراد كل شريك أن يثبت للآخر أنه هو العقيم فسرعان ما تزوجت رئيسة من قريب لها ، على حين تزوج رمانة من جارية في داره . وثبت لهما باليقين تقريراً أنهما عقيمان . وتزوج رمانة من ثانية وثالثة ورابعة حتى تجتمع كأس اليأس لآخر نقطة فيه .

عاش رمانة كما عاشت رئيسة في الجحيم ، في دنيا الضجر بلا حب ..

ذات صباح جاء الحارة رجل غريب . معتم بعمامة سوداء ، متلفع بعباءة أرجوانية ، ضرير يسترشد في مسيرة بطرف عصاه ، ذو لحية بيضاء وجبين نبيل . مرت فوقه الأعين بلا اكترات ، ترك وشأنه ، تسأله البعض عما جاء به .

عندما ابتعد عن مدخل الحارة بأذرع هتف :

- يا أهل الله !

فتسأله الخمار صديق أبو طاقية :

- لماذا تزيد ؟

فقال بنبرة حزينة :

- دلونى على دار خضر سليمان الناجي .

تفرس صديق أبو طاقية في وجهه مليا . سرعان مارأى حلما .

سرعان ما دهمه الماضي . صاح بذهول :

- يا ألطاف الله ! .. المعلم سماحة بكر الناجي ؟ !

فقال الضرير بامتنان :

- نور الله قلبك !

على عجل جاء كثيرون في مقدمتهم وحيد وعزيز ومحمد توكل وإسماعيل القليوبى . وحمى العناق والتبريك والدعاء .

- يوم السعد يا أبي .

- يوم العدل يا جدى .

- يوم النور يا معلم .

وكرر سماحة مراراً ووجهه يضيء بالإشراق:
- بارك الله فيكم ، بارك الله فيكم ..
وكل دعاء إلى بيته ، ولكنه قال بإصرار:
- دارى دار خضر !

وانتشر الخبر ، فدعا الرجال من الدكاين وجمع المرافيش بين
الجحور والخرابات ، وتعالى التهليل والدعاء ثم زغردت النساء في
النواذ والمشريات . وقال صديق أبو طاقية:
- سبحان الله العظيم ، لا غيبة تخلد ولا ظلم يدوم .

٥٧

ترى سماحة فوق ديوان . وجلس أمامه على الشلت وحيد ورمانة
وعزيز . هكذا اجتمع وحيد ورمانة وعزيز في سلام كظيم . كما يتجاور
البلسم والسم في محل العطار . امحت الخصومات في حضرة الأب
المعذب شهيد النقاء .

وقال له وحيد:
- أعدنا لك الحمام والطعام ..
فتمتم في هدوء:
- مهلا ، لقلبي أن يطمئن أولا ..
وحرك رأسه ثم تسأله:
- أين خضر؟
فقال وحيد:
- سبحان من له الدوام .

فوجم قليلا ثم تساءل :
- وزوجه ضياء؟

- في جناحها ، شيخة غائبة في ملکوت الله ..
وتردد سماحة في إشراق ثم تساءل :
- وقرة؟!

فساد الصمت ، فتأوه الرجل وقال :
- قبل الأوان ! .. طالما حلمت بأن ضرسى انخلع ..
وبسط راحته وهو يقول :
- يدك يا عزيز ..

قبض على يده بحنو ، وسألة :
- تذكره ولا شك؟

فقال عزيز :

- اختاره الله وأنا طفل ..

- يارحمة الله ! .. ومن أملك يا بنى؟

- كريمة إسماعيل البنان ..
- أنعم وأكرم ، وأين هي؟

- هي وعمتي صفيحة في الطريق إلينا ..
وسأل الرجل :
- وأنت يا رمانة؟

تبادل وحيد ورمانة نظرة سريعة ، وقال رمانة :
- لى أكثر من زوجة هن من سيقمن بخدمتك ..
- أولادك؟

- لم أرزق بذرية يعد!
فشهق بعمق متمتما :

- إرادة الله وحكمته، وأنت يا وحيد؟

فساد الصمت حتى تحرك رأس الرجل بقلق فعاد يتساءل:

- وأنت يا وحيد؟

فقال وحيد مقطباً:

- لم أتزوج بعد!

- أعجب ما سمعت، لم تكن الكوايس التي أراها بلا سبب!

ورضوان؟

- البقية في حياتك ..

- حقاً؟! .. لم تبق إلا الأسماء ..

وسكت ملياً ليهضم أنباء الزمان، بلا انتباه للتوتر المستحوذ على الحالسين، ثم سأله:

- من الفتوة اليوم؟

فقال وحيد بشجاعة لأول مرة:

- ابنك وحيد!

فانتفض الرجل من التأثر وقال:

- حقاً؟

- ابنك وحيد يا أبي ..

وقصَّ قصة الرؤيا والوثوب إلى الفتونة. فتهلل وجه سماحة وهتف:

- أول نبأ من السماء ..

وشبك ذراعيه فوق صدره ممتنا وقال:

- إذن قدر جع عهد عاشور ..

ركبهم الارتباك والخرج ولكن وحيداً قال بجرأة:

- عهد عاشر رجع !

فهتف الضرير :

- يا بركة السماوات السبع !

وتحلى الرضا فى وجهه وفى حركاته المرحة .. وقال :

- ليهنا عاشر فى غيبته الملائكية .. وليسعد شمس الدين فى جنات
النعيم ..

لم يفكر أحدهم لحظة واحدة فى إيقاظه من الحلم أو الاستهانة
بسعادته . وبدا هو كأنما قد نسى الغربة والمطاردة ونعم بحسن الختام .
وقال بهدوء :

- إلى بالحمام والطعام ولتحل بركة الله بالأرض .

٥٨

نام سماحة بقية النهار كلها . وسهر الليل فى ساحة التكية . عرفها هذه
المرة عن طريق الأذن والأنف واللمس . ودعا بقوة الخيال صورة التكية
والتوت والسور العتيق . وراح يملأ قلبه بالألغام فى ارتياح وغبطة .
وبسط راحته وقال :

- حمدا لله الذى شاءت إرادته أن أدنى إلى جوار شمس الدين .
حمدًا لله الذى أذنت رحمته للعدل أن يظل في حارتنا ، حمدًا لله
الذى أورث ابنى خير إرث للإنسان الخير والقوة .

وجرى شكره في ظل نشيد يترجم :

هو آنکه جانب أهل خدا نکھرد
خداش در همه حال از بلانکه دارد

Twitter: @ketab_n

شهد الملكة

الحكاية السادسة من ملحمة الحرافيش

تدورت صحة سماحة فاض محل سريعا، وما لبث أن أسلم الروح
وهو يتأنب للنوم عقب صلاة الفجر. وكأنه لم يرجع من منفاه إلا
ليدفن في جوار شمس الدين. غير أنه مات سعيدا، مات وهو يتوهم أنه
إنما يهجر فردوسا إلى فردوس. وقال عزيز:

- لقد أنكينا حقيقة حياتنا أمامه فاعترفنا بذلك - بما فينا
وحيد نفسه - إن حياتنا منكر لا يجوز إفشاوه على مسمع من
الطيبين.

ونجح محل الغلال بمحاجا عظيما، وأثرى عزيز ثراء واسعا. وقمع من
البطولة بإيمان القلب، وحب الخير ومارسته في نطاق محدود. أفلع
عن أحلام النبل مؤثرا السلامة، ومعتذرا عن تقصيره أمام ضميره أنه لم
يعد للبطولة ولم يملك وسائلها.

خطبت له عزيزة أفت الدهشورى كريمة عامر الدهشورى صاحب
وكالة الحديد، فرضى باختيار أمه ملهمة حياته وراعية أمنه ومحاجه.
وزفت إليه بعد مرور عام على وفاة جده سماحة. وأقام معها في دار
البناء التي اشتراها وجدها فأصبحت دار عزيز. وكانت العروس

حسناء فارعة بدينة مثقفة في فنون البيت وأدابه فوجد فيها بغية قلبه
وسرعان ما ربطهما الحب برباط متين .
واستقبلا حياة مترفة بالسعادة والذرية .

٣

ولبث رمانة حبيس داره حتى بعد زوال الأسباب الداعية إلى ذلك .
فقد تراجع وحيد عن وعيده بمجرد عودة سماحة ، ولكن رمانة كره
الخارج ، وغاب عن الوعى والكرامة . وكان يعيش فى شبه عزلة عن
زوجاته الأربع ، ولم يسل قط عن رئفة ، ودأب على السكر والمخدرا .
وذات مساء اشتد به السكر فمضى مترنحا إلى جناح الشيخة ضياء ،
فدار حول مجلسها وهو يقهقه ، وراح يقول لها ساخرا :

- إنك أصل البلاهة والبلاء .

وظلت المرأة غائبة ، فقال :

- إنى فى حاجة إلى نقودك فأين تكتزىنها يا معتوه؟ !
وقبض على يدها وأنهضها بعنف ففزعـت المرأة وضرـبـته بالـبـخـرـةـ فى وجهـهـ .
عندـذـاكـ جـنـ غـضـبـهـ قـبـضـ علىـ عـنـقـهـ وـشـدـ بـعـنـفـ فـلـمـ يـتـرـكـهاـ إـلـاـ جـثـةـ هـامـدـةـ .

٤

ارتخت الدار بالفزع . انقض الخبر على الحارة . أبلغ شيخ الحرارة
الجديد جبريل الفص القسم . قبض على رمانة . حُوكِمَ وقضى عليه
بتأبيدة . ودعا عزيز إليه قبيل حمله إلى الليمان وقال له :

- أعترف لك بأننى مدبر قتل أبيك .

فقال عزيز بأسى :

- أعرف ذلك .

فقال بحزن :

- إنه مدفون بملابسه فى قبر وحيد لصق مقام الشيخ يonus ..

٥

واستخرج عزيز جثة أبيه قرة بحضور شيخ الحرارة ومحبى ، فضلا عن
وحيد وعزيزة . هكذا ظهر قرة وهو هيكل عظمى فجدد الأحزان .
وكفن ثم شيع فى جنازة مهيبة ثم أعيد دفنه فى قبر شمس الدين .

وقالت عزيزة :

- ليروح اليوم قلبي ، كان ذلك بعض حلمى ، وقد ضمنت به أن أرقد
إلى جواره إذا حان الأجل .

٦

وناوش الألم من جديد ضمير عزيز . وكلما ساءت سمعة وحيد
اشتد ضغط الألم عليه . لقد غدا الفتوة مضرب الأمثال بشذوذه
وشرابته فى الحى كله لا فى الحرارة وحدها . وقد عاشر بضعة أعوام بعد
وفاة أبيه ، ومات إثر هبوط فى القلب نتيجة الإفراط فى البلبة .

وفي أثناء ذلك كله كان عزيز يتحرى عنمن يصلح للفتونة من آل

٣٤٠

الناجي الكثيرين لعله يبعث عهد عاشر بعد موات ، ولكنه وجد آل الناجى قد ذابوا فى الحرافيش ، فهصرهم الفقر والبؤس ، واستل من أرواحهم خير ما فيها . هكذا فوجئ بموت وحيد دون أن يعد له خليفة لائقا . وسرعان ما واجهته مشكلة غاية فى الحساسية . هل يدفن إلى جوار شمس الدين؟ لقد أبى قلبه ذلك . قالت له ألفت الدهشورى :

- إنه عمك على أى حال ..

ولكنه ظل على إياته ، ودفنه فى قبر من قبور الصدقـة بحوش الناجى . ومن عجب أن ذلك التصرف لم يقابل بارتياح فى الحارة .
وقال سنقر الشمام الخمار الجديد :

- جامله حيا وانتقم منه ميتا ..

٧

ووُثِّب إلى الفتونة نوح الغراب . كان فظاً غليظاً نهما . هادن فتوات الحرارات واستمر قوته في الاستبداد بالحارة حتى صار من كبار الأثرياء في عام واحد . وتحمل الناس وطأته بلا مبالاة ، ولم يعد أحد يتحسر على فتوة الناجي بعد أن تلاشت أحلامها العذبة على يد وحيد . وابتھج الوجهاء ، وانحسر الحرافيش في طور جديد من أطوار الصعلكة والبؤس .

٨

ودارت الشمس دورتها . تطل علينا من سماء صافية ، وحينما توارى وراء الغيم . وقد جدد عزيز الزاوية اختار لها شيخاً جديداً هو الشيخ

خليل الدهشان عقب وفاة إسماعيل القليوبى . وجدد أيضاً السبيل وحوض الدواب والكتاب القديم .

وتزملت رئفة فعاشت وحيدة في دارها مع الخدم . وورثت عن زوجها الجديد ثروة غير قليلة ولكن انقطع ما بينها وبين شقيقتها عزيزة تماماً كأنهما غريبتان بل عدوتان . ومن عجب أنها كانت تفهمها بأنها سبب كل شر حاصل بها ، وأنها نفخت فيها روح التعاشرة منذ كانتا في المهد .

وخرقت مألهوف التقاليد في الحرارة عندما مضت تزور رمانة في سجنها ، فأعلنت بذلك حبهما رغم كل ما حصل .
هكذا مضت السنون بخير لا يذكر وشر لا يمحى .

٩

وذات يوم علم عزيز قرة الناجي أن أحد عماله لقى حتفه وهو ينقل حمولة من الغلال . كان يدعى عاشور وينسب نفسه بصدق إلى آل الناجي لأنحداره من فتحية أم البنات زوجة سليمان الناجي الأولى . امتلاً قلب عزيز الرقيق بالحزن ، فدفن الرجل ورتب لزوجته معاشًا شهرياً . وبالتحرى عن أسرته عرف أن بناته تزوجن ، عدا بنت صغيرة في السادسة تدعى زهيرة ما زالت في حاجة إلى الرعاية . اقترح عزيز على الأم أن يضم الصغيرة إلى داره لتكون في خدمة أمه عزيزة هانم فرحبـت بذلك أيما ترحيب . وانتقلت زهيرة إلى جناح عزيزة وكأنـا انتقلـت إلى الفردوس . تحلىـتـها الحـقـيقـيـ لـأـوـلـ مـرـةـ . نـعـمـتـ بالـغـذـاءـ والـكـسـاءـ . مـارـسـتـ وـاجـبـاتـ الدـارـ . وـاسـتـحقـتـ عـطـفـ عـزـيزـةـ فـخـصـتـهاـ

بمعاملة رقيقة دون الجواري والخدم، بل أرسلتها فترة إلى الكتاب . ولم يهتم عزيز ببرؤية البنت ولكنها أوصى أمها بها وهو يقول في دعابة:

- لا تنسى أنها من آل الناجي ..

١٠

وزارت أم زهيرة المعلم عزيز في حجرة الإدارة وقد نسيها تماماً . ذكرته بنفسها ، وبالعامل عاشر الذي مضت عشرة أعوام على مصرعه ، ودعت له طويلاً ، ثم قالت:

- يدوم عزك ، عبد ربه يرحب في الزواج من زهيرة .

وتذكر المعلم عزيز البنت وكان قد نسيها أيضاً فسأله المرأة :

- هل ترينـه كفنا لها؟

فقالـت باعتزاز :

- شـابـ كـامـلـ ، رـزـقـهـ كـافـ .

فـتـمـتـ عـزيـزـ بلاـ اـكـتـراـثـ :

- عـلـىـ خـيـرـةـ اللـهـ ..

١١

على مائدة العشاء أنهى عزيز إلى عزيزة هانم وألفت هانم قراره . وسرعان ما قالت ألفت ضاحكة :

- عبدـ القرآنـ ! إـنـهـ بـغـلـ .

وقالت عزيزة محتاجة :

- البنت ممتازة و تستحق من هو خير من عبده الفران !

فتساءل عزيز ضاحكا :

- هل تتوقعين أن يتقدم لها تاجر ؟

- جمالها يؤهلها لذلك ..

فقال عزيز بلا مبالاة :

- الولد كفاء لها ، أمها راضية ، لا يصح أن نفرط في واقع ملموس
من أجل خيال قد لا يتحقق أبدا ..

ثم مواصلا بنبرة من قرر أن ينهى الموضوع :

- لقد وعدتها بالموافقة فضلا عن أنها صاحبة الحق الأول في ذلك .

١٢

جهزتها عزيزة هانم بالفراش والثياب والنحاس . دائمًا كانت تردد :

ـ يا للخسارة ..

وكان عزيز يحتسى قهوة الصباح قبيل ذهابه إلى المحل عندما جاءته
عزيزة بزهيرة لتودعه شاكرة ضيافته لها ، قبل مغادرتها الدار . دخلت
الأم وهي تنادي :

ـ تعالى يا زهيرة لتقبلى يد سيدك ..

وهمس عزيز معترضا :

ـ ما ضرورة ذلك يا أمى ؟ !

دخلت الفتاة مسرولة بالحبياء والارتباك ثم وقفت عند الباب . نظر

نحوها مشجعاً. ثبت بصره عليها ثوانى ثم سرعان ما استرده. فر
ببصره. حافظ على وقاره الظاهر تحت عينى أمه وزوجته. كتم الدهشة
في أعماقه. دهشة عنيفة جامحة. كيف دفن هذا الكثر في جناح أمه؟
كيف أخفى سره عنه؟ إنها قوام رشيق لا يتأتى لراقصة. وصفاء بشرة لا
يحظى بها بشر. وفتنة عينين مسكرة مخدرة. إنها روح الجمال الفتاك.
لحظ ألفت هاتم فوجدها منهماكة في إرضاع طفل فتمالك نفسه وقال
متشبشا بالنجاة:

ـ مبارك عليك يا زهيرة.

فقالت عزيزة:

ـ قبلى يد سيدك.

مد يده. اقتربت حتى اجتاحته رائحة القرنفل المتطايرة من شعرها
الفاحم المسترسل، شعر بانطباع شفتيها فوق ظاهريده. خطف منها
نظرة أخرى وهي راجعة. وسرعان ما دهمه إلهام بأنه سيرى ذات يوم
معجزة.

١٣

من عادته صباحاً أن يمضى بالدوکار إلى الحسين فيقرأ الفاتحة ثم
يميل إلى السكة الجديدة فالصاغة فالنحاسين ثم يتنهى إلى محل. فقد
نفسه طيلة الطريق. روحه تهيم في سماوات ويبقى جسده في الدوکار
بلا روح. هل عرف أخيراً المشرق الشمس؟ لم تتألق النجوم في
الليل؟ عم تفصح أناشيد التكية؟ لم يتعدب المجانين بالسعادة؟ لم نحزن
للموت؟ وتمر عشرة أعوام وهذا الجمال يتنفس في كتفه! كيف غاب
السحر عن أمه وزوجته؟ هل تفطن البنت إلى ثرائها؟ أهى مثل الريح

ترزع الأركان بلا تيه؟ هل جنت الأم لترحب بعبيده الفران ذلك
الترحيب الأعمى؟ هل بوسعه أن يحول بين المطر وبين أن ينهر؟ يا
لتعasse القلوب الغافلة!

في عشية الزفاف زارتة أم زهيرة لتشكره. تفرس في وجهها بحب
استطلاع. عجوز تشي مخلفاتها بجمال دابر. رمقدتها بحقن خفى.
قال:

- كل شيء على ما يرام؟

- بفضل الله وفضلك.

- ألم تعجل؟

فقالت بتسليم:

- فاتحتها مقروءة منذ مولدها.

ومضت وهو يلعنها في سره. وتساءل محزونا لم لا نفعل ما نشاء؟!

١٤

زفت زهيرة إلى عبد ربه الفران في حفل متواضع. لم يرها مذ كانت
في السادسة ولكنه اعتاد أن يعتبرها حليلته. ولما رأها ليلة الدخلة صعقه
جمالها ولكنه كان مشحوناً بتعاليم وتقالييد أوجبت عليه التظاهر بالثبات
والسيادة. كان فوق العشرين بعام، طويلاً مفتول العضلات، ذا سخنة
شعبية صميمة بتوءه خديه وفطس أنفه وغلظ شاريه. حليق الرأس مثل
زلطة عدا ذؤابة نافرة في المقدمة. صلى ركعتين، واتخذ من الخشونة
إهاباً يخفى به عذوبة الأعماق.

أعجبت برجولته، استنامت إلى حرارته، سلمت به مثل قدر.

ووجدت نفسها فى بدرورم مكون من حجرة ودهليز يستعمل مطبخاً وحمامًا. وتذكرت الفردوس المفقود، ولكن غريزتها همتت بأنه كان فندقاً للعبور لا للإقامة، وأنها كانت به ضيفة. أما هذا البدروم فهو بيتها ومصيرها، فيه ملكت رجلاً، وحققت حلمها، واطمأن القلب.

١٥

وتمكن الحب من قلبه فكاد يهتك ستره، ولكنه غلاً فى إظهار
الرجولة. وحتى قبل أن يتنهى الشهر الأول سألهَا:
- هل تقبعين فى البيت كما تفعل الهوانم؟
فتساءلت بدورها:
- ماذا تريدى أن أفعل؟
فقال بحزم:
- اليد البطالة نجسّة!

١٦

هكذا سرحت زهرة بالملين وبراغيث الست، ارتدت جلباب العمل الأزرق يغطيها من العنق حتى الكاهل، وخطرت وهي تنادى:
- الملبن يا أولاد!

بانطلاقها إلى الطريق اكتشفت ذاتها. تنبهت إلى سحرها وقوتها.
الأعين تلتهمها، الألسنة تتغنى بالثناء عليها، منظرها يبعث السحر

ويخلق الحركة . إنها قوية مدللة بالطبيعة والناس . وهى تقابل الغزل
بالترفع والكبراء ، وتزداد تيها وثقة بالنفس .

١٧

وتوثقت العلاقة بينها وبين عبد ربه . فى الأعمق هو رجلها وهى
معبودته . يعاملها بتقاليد الرجلة ولكنها يجدها صلبة بقدر ما هى
محبة ، غضوبية أحيانا بقدر ما هى مخلصة . وأنجحت له «جلال» فسرى
رحيق الأمومة فى أعطافها وتلقت سعادة جديدة .

١٨

وكان عبد ربه الفران يحمل الخبز إلى دار رئيفة هانم ، فسألته ذات
يوم :

- لماذا ترك زوجتك تسرح في الطريق؟

فقال الرجل بتسليم :

- الرزق يا ستر هانم .

- الرزق متعدد السبل ، إنى امرأة وحيدة وفي حاجة إلى وصيفة ،
وخدمتى توفر رزقا أكثر وتقى من شر الطريق ..

فأخذ عبد ربه وتساءل فى حيرة :

- وجلال الصغير؟

فقالت بإغراء :

٣٤٨

- لن أفرق بين الأم وابنها ..
فغزا الطموح قلبه وقال :
- الأم والأب والابن في خدمتك يا سيد هانم .

١٩

تمتلت زهيرة بقلق :
- رئيفة هانم !
فقال عبد ربه :
- هانم واسعة الثراء ووحيدة .
- ولكنها عدوة عزيزة هانم اللدود !
- لا شأن لنا بذلك ، وخدمتها أيسر وأغنى من التسول في الحارة
وأنت حاملة القفة بذراع والطفل بذراع ..
- الأفضل أن أعمل في خدمة عزيزة هانم .
فقال عبد ربه باستياء :
- ولكنها لم تطلبك وهذا يعني أنها لا تريده ..
وصمت زهيرة ولكن حلمها بالفردوس نشط من جديد ..

٢٠

استنشاطت عزيزة هانم غضبا عندما علمت بالخبر وهتفت :
- يا لها من بنت متعدلة ..

٣٤٩

فقالت ألفت هانم :

- لم تقصدك بسوء ولكنها تسعى للرزق ..

- نحن أولى بها !

فقالت ألفت هانم معتبرضة :

- إنها ذات وليد لا تستطيع فراقه في هذه السن وصاحبته مدعاة للقدارة ..

تابع عزيز الحوار باهتمام . شعر بأن زوجته لا ترتاح لرجوع زهيرة إلى الدار ، فاشتعل وجده بالتوjis و كان أصبعا يشير نحوه بالاتهام ،

فقال بحزم :

-رأي ألفت عين الصواب .

٢١

كانت زهيرة تمشط شعر رئيفة في قاعة الجلوس عندما دخلت خادمة لتسأذن لقادم قائلة :

- المعلم محمد أنور ..

من تعليق رئيفة عرفت زهيرة أن القادر هو ابن المرحوم زوج رئيفة ، وأنه ظل على ولائه لها حتى من بعد ما ذاع عن زيارتها لرمانة في سجنها . وسرعان ما جاء القادر فسلم وقدم لفافة أنيقة لأرملاة أبيه وهو يقول :

- البطارخ !

فتنهل وجهها وشكرته . كان شاباً متوسط الطول ، مقبول الملائم ، جميل الجبهة والقططان . قالت له :

٣٥٠

- فيك الخير يا محمد.

فقال بانشراح:

- يهمنى أن تذوقى البطارخ قبل أى زبون من زبائن دكانى ..

فسألته بدعاية:

- متى تدعنى أدفع الشمن مثل بقية عشاق البطارخ؟

فقال وهو يتناول قدره ممحشة باللوز والجوز والبندق:

- عندما تشرق الشمس من الغرب!

فضحكت رئيفة وقالت:

- فيك الخير يا محمد.

وهو يحتسى القرفة وقعت عيناه على زهيرة وهى من همكة فى تشيط سيدتها . ذهل . لم يصدق عينيه . رکز عينيه فى القدح وكأنه يهرب . قال فى سره «الغياث بالله من صنع الله» .

وسألته رئيفة:

- كيف حال تجارتكم؟

فاسترد نفسه من عالم الافتتان وقال:

- عال ولله الحمد.

ولاحظت زهيرة نظرة منه إليها متسولة تبرق بالانبهار ، فافتر باطنها عن بسمة .

يحاذر من إثارة أدنى شبهة عند رئيفة، ويهب دارها ما تستحقه من الولاء والاحترام. ما من رجل رأها إلا وجن بها. أصبحت تؤمن تماماً بأنها أجمل من جميع هؤالء الحارة. وهي أيضاً من آل الناجي مثل المعلم العظيم عزيز. ولكن كم أنها عجيبة الحظوظ في هذه الدنيا! توفر لامرأة داراً ولآخرى بدرولاً. تعطى واحدة تاجر اثرياً وتعطى أخرى فراناً. لقد تقرر مصيرها وهي عمياً. حتى ميلها الفطري لزوجها لا يقنعها بالرضا. ليست الحياة شهوة وأمومة. ليست فقراً وكدحاً ونعيماً كاذباً مستعاراً من خدمة هام غنية. ليست أن تملك قوة مذهلة ثم تبدها في المخنو. باطنها يتغير ببطء ولكن بثبات وإصرار. يتمضض كل يوم عن حركة، كل أسبوع عن وثبة، كل شهر عن طفرة. إنها تكتشف ذاتها طيبة وراء طيبة. تنبثق من جوفها أنواع شتى من المخلوقات المتحفزة الصارمة. وتحاكم في الخيال أمها وزوجها ومسكناها وحظها. تحقد على كل ما يطالها بالرضا، على حكمة الأمثال وعطف الهام وفحولة زوجها. وتلتقي من المجهول شرابة ملتهباً به يستفحـل الخيال ويشمل القلب ويطلع الفجر الأحمر.

وقال محمد أنور لرئيفة هام ذات يوم:

ـ أما سمعت بالخبر؟ لقد وثبت إلى الفتونة في بيرجوان امرأة!

فضحكت رئيفة هام وقالت:

ـ أود أن أرى امرأة وهي تصرع الرجال..

ودارت زهيرة ابتسامة إعجاب واشتعلت في قلبها نيران غامضة. ورماها محمد أنور بنظرة متلهفة متسللة، فتساءلت ترى أيكون حلمها رجلاً مثل محمد أنور؟ لم تجد من قلبها أى خفقة تنبئ عن حواب. وتأمله عقلها بلا حماس وبلا فتور. ودهمتها فكرة متحدية تقول إن قلب المرأة هو ضعفها، وإن علاقتها بالرجل يجب أن تتحدد بعيداً عن

الغريرة والقلب . الحياة غالبة متراوحة الأبعاد لاحد لآفاقها ، وما الحب إلا متسول ضرير يزحف في أركان الأذقة . وتنهدت وقالت لنفسها :
- ليس أتعس من الحظ السيء إلا الرضا به .

٢٣

وكانت زهيرة ترضع جلالا في قاعة الجلوس عندما رأت فجأة محمد أنور يقتتحم المكان . بسرعة دست ثديها في ثوبها وحبت الخمار حول رأسها مرتبكة بالحياة . رنا إليها مضطرب النظرة ثم تسأله :
- أين رئيسة هانم ؟

أيقنت بكذبه ، لم تشک في أنه رأى الهانم في الدوكار وهو ماض بها إلى الميدان . ولكنها أجبت بأدب :

- خرجت في مشوار .

فتردد مليا ثم قال :

- أنتظر ؟ كلا ، يجب أن أرجع الآن إلى الدكان ، أليس كذلك ؟

فقالت بحسم ودون مبالاة بالمجاملة :

- مع السلامة يا سيدي !

ولكنه لم يكن ينوي الذهاب . تسمّر تحت وطأة قوة طاغية . واقترب ببصر زائف يشـى برغبة جنونية جامحة . تراجعت مقطبة . اقترب أكثر فقالت بحدة :

- لا ..

فتمتم في هلوسة :

٣٥٣

- زهيرة!

فهافت:

- سأذهب إن لم تذهب أنت!

- حلمك، .. إنى .. إنى أحبك ..

قالت بحزن:

- لست ساقطة!

- معاذ الله .. إنى أحبك ..

واضطر إلى التراجع خوفا من شبح رئيفة ، فقال وهو يمضى:

- كيف أتزوج من امرأة متزوجة !

٢٤

عاشت في دوامة من التمرد والتحفز . على الحياة أن تغير وجهها .
القوة كفيلة بأن تغير أبعاد الكون . كل دقيقة تمر بلا تغيير انتصار للذل
والتعasse .

ولكن كيف تخوض المعركة؟ وانهزمت فرصة صداع ألم برئيفة هام
فتطوعت قائلة :

- سأبكي معك يا ستر هام ..

فتساءلت رئيفة :

- وزوجك؟

- لن يقتله الرعب إذا بات وحده !

وعندما مضت ساعتان على موعد رجوعها جاء عبد ربه مستطلا
فقابلته وقالت له :

٣٥٤

- الهم مريضة ..

فسكت الرجل لا يدرى ماذا يقول، ثم تساءل بمرارة:

- أما كان يجب أن تخبريني؟

فقالت بعجلة وضيق:

- الهم مريضة، ألا تريد أن تفهم؟!

٢٥

لدى رجوعها إلى البدروم في مساء اليوم التالي أدرك عبد ربه أن الهم كانت متوعكة توعكا خفيفا لا يقتضي البيات خارج المسكن.
وأجتاحت الغضب فقال:

- الهم ليست في حاجة إليك، فالدار ملأى بالجواري ..

فغضبت أيضا إذ كانت تمني الغضب بأى سبيل وتساءلت:

- وهذا جزاء الإحسان؟!

قال بحزم:

- أخلاقك تسوء يوما بعد يوم وقد قررت ألا تعودى إلى الدار ..

- يا للعار!

فصاح:

- ملعونة الدار وصاحبتها!

فصاحت بدورها:

- أنا لا أنكر الجميل ..

فلطمتها على وجهها وغادر البدروم.

٣٥٥

جنت زهيرة بالغضب . انفجر الحنق المكتوم . صكت الحجرة بنظرة رفض نهائية . استغرقتها اللطمة فتضخمت واستفحلت وانداحت في وجدانها حتى قتلت حواسها . وانهالت بقبضتها على الفراش دون مبالغة بصراخ جلال .

وغادرت البدروم قاذفة بالماضي في أحضان الفناء .

٢٦

عجبت رئيفة هائم لعودة زهيرة السريعة عقب ذهابها بساعة واحدة ، ولكن الفتاة سألتها :

- هل تتسع دارك يا سست هائم لإيوائى ؟

- لم كفى الله الشر ؟

فقالت بمسكنا :

- لن تطيب الحياة بعد الآن مع الرجل ..

وهزت الهائم رأسها مستطلعة ، فقالت زهيرة :

- ي يريد أن يمنعنى من خدمتك !

فقالت رئيفة بامتعاض :

- الناكر للجميل ..

- وانهال على ضربا ..

- ياله من وحش لا يدرى أى كنز يحوز !

وتفكرت الهائم قليلا ، ثم قالت :

- ولكنى لا أحب تخريب البيوت ..

فقالت زهيرة بياصرار :

- إنى راضية عما أفعل ..

فقالت رئيفة باسمة :

- الدار دارك يا زهيرة !

٢٧

تلعثم عبد ربه الفران بالخجل تحت نظرات رئيفة هام . غمغم
مستغرا ولكته رکز على هدفه بإصرار ورجلة . قال :

- ماذا تعنى لطمة ؟ ليست بعاهة مستديمة !

فقالت الهام باستياء :

- إنك مخطيء وجهول ..

فتمتم بأدب وتصميم :

- عليها أن ترجع معى الآن ..

فقالت رئيفة بحدة :

- عندما تعرف قيمتها لا قبل ذلك .

وانزع قدميه من موقفه وقد احرمت الدنيا في عينيه .

٢٨

جلس عبد ربه في الخمار يعب من القرعة ويجف شاربه بكم
جلبابه الأزرق ، لا حديث له إلا زهيرة . قال :

٣٥٧

- هربت ومعها الولد.

فقال أحد السكارى:

- أنت خرع ..

فهتف محتاجا:

- رئيفة هانم تشجعها!

فقال له الخمار سنقر الشمام:

- تصرف كرجل.

- ماذا تعنى؟

- طلقها!

فقلص وجهه وقال:

- أحقر شرة فى جسدى تستطيع أن تقتل امرأة.

فقهه نوح الغراب الفتوة وصفعه على قفاه مداعبا وهو يقول:

- يا عترة!

فماخ غضبه وقال بخشوع:

- من معلمى الأكبر تجىء المشورة ..

فقال نوح الغراب وقد احرمَت عيناه بالخمر والسلط:

- دسها بقدمك حتى تصير خرقه باليه ..

أما جبريل الفقى شيخ الحرارة فقال:

- فى الطلاق راحة للبال.

فقال نوح الغراب:

- الطلاق فى مثل هذه الحال عجز.

وراح عبد ربه الفران يتساءل:

- من قال إن الزواج نصف الدين؟ ألا إنه نصف الكفر!

مضى عبد ربه متزحماً في الظلام حتى وقف تحت دار رئفة هامن.
جاش صدره بالخمار والغضب. تصارعت في قلبه المحتقن تقاليد
الرجلة وهمسات الحب المستبدة. وبصوت غليظ متحشرج صاح:

- انزلني يا بنت يا زهرة ..

وجعل يخور وهو يتزحن، ثم يعاود الصياح:

- معنى نار الفرن وشياطين القبو ..

وفتحت نافذة فأطل منها الشيخ خليل الدهشان شيخ الزاوية وتساءل
بغضب:

- من المجنون؟

- أنا عبد ربه الفرن.

- انحر يا سكران يا رجيم.

- أريد زوجتي والشرع معى !

- كفاك عربدة وتهجمما على دار الطيبين !

- من ينصفنى إذن إلا إبليس؟

فصاح به:

- عليك اللعنة ..

انقض على باب الدار وجعل يضر بها بقبضته حتى لحق به جبريل
الucus شيخ الحرارة فشده من ذراعيه وهو يقول:

- اخرس يا مجنون، سر معى، سأكون شفيعك لدى الهاشم!

وَجَدْ جَبْرِيلُ الْفَصْ رَئِيفَةَ هَانِمَ غَاضِبَةَ ثَائِرَةً . أَصْبَحَتْ الْمَعرِكَةُ بَيْنَهَا
وَبَيْنَ عَبْدِهِ الْفَرَانَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ بَيْنَ زَهِيرَةٍ وَبَيْنَهُ . قَالَتْ بَحْدَةُ :

- الْفَرَانُ الْحَقِيرُ !

فَقَالَ شِيخُ الْحَارَةِ :

- مَا هُوَ إِلَّا خَادِمُكَ ..

- أَلَمْ تَشْهُدْ وَقَاتِهِ ؟ أَسْلَمَهَا لَهُ لِيَنْتَقِمَ مِنْهَا ؟

- أَعْتَدْتُ أَنَّهُ يَحْبُبَا يَا سَتَ هَانِمَ !

- الْحَيْوَانُ لَا يَعْرِفُ الْحُبَ ..

فَتَسْأَلُ جَبْرِيلُ الْفَصْ :

- وَإِذَا طَلَبَهَا لَبِيتُ الطَّاعَةِ ؟

فَقَالَتْ بِإِصْرَارٍ :

- لَنْ تَضْيِقَ بِي الْحَيْلَ !

اسْتَدْعَى نَوْحُ الْغَرَابَ عَبْدَ رَبِّهِ الْفَرَانَ إِلَى مَجْلِسِهِ بِالْمَقْهَىِ . نَظَرَ إِلَيْهِ
مَلِيَا ثُمَّ قَالَ بِنَبْرَةِ آمِرَةِ :

- طَلَقِيَ الْمَرْأَةَ !

فذهل عبده الفران. اجتازه اليأس. أدرك أن رئيفة هانم عرفت كيف تنتقم.. واستقل الفتوة صمتها فهتف:

ـ فقدت النطق؟

فقال بخشوع:

ـ ألم تقل يا سيد الناس إن الطلاق في مثل حالي عجز؟

فقال بسخرية:

ـ وإنك لعاجز!

ـ الشرع معى يا سيد الناس!

فقال الفتوة بنبرة قاطعة:

ـ طلق يا عبد ربه.

٣٢

وقع الطلاق. سيق عبد ربه إليه كما يساق المحكوم عليه إلى المشنقة. انتهى الحلم وضاعت الجوهرة.. وثملت زهيرة بنشوة الانتصار وبهجة الحرية. في الوقت نفسه وجدت نبضة أسى في الأعماق أسفًا على حرارة ستفقدتها إلى الأبد. وضمت جلالا إلى صدرها فتبدي لها ثمرة حب لا يستهان به. وسرعان ما طالبها طموحها بالتعويض الكامل. وتجلت لها شخصيتها في صورة واضحة قاسية مجللة بالسمو والألم.

وقالت لها رئيفة هانم بباهاة:

ـ هذه إرادتي إذا صمنت!

أجل. إنها امرأة قوية رفيعة الشأن. غير أنها لم تنفذ مشيئتها إلا

٣٦١

باللجوء إلى الفتوة . الفتونة حلم الخيال الأبدي . حسرة آل الناجي المهلكة ، ذروة الحياة المتلفعة بأضواء النجوم .

٣٣

وابتسمت مشجعة !

ها هو ذا محمد أنور تاجر البطارخ يقول لها :

- مباركة عليك الحرية والكرامة .

ويتهزء فرصة ذهاب رئيفة هام لشأن من شئونها فيهمس :

- إنى وقلبي فى الانتظار .

وتشع عيناه ببريق الرغبة فيواصل ابتهاله :

- على سنة الله ورسوله !

ترى بأى عين ينظر إليها ؟ عين تاجر إلى خادمة ؟ الحق أنه لم يملأ عينيها فقط . طالما رأته هشا وذليلًا . ولكنه قادر على أن يجعل منها هانًا من نوع ما ، هل يمكن أن تطمع في خير منه ؟

وابتسمت له مشجعة .

٣٤

سكر عبد ربه تماما حتى مادت به أرض البوطة الثابتة . . وسأل سنقر الشمام :

- هل يعيّب الرجل أن يبكي ؟

٣٦٢

فضحك الخمار قائلًا :

- إذا كان في حجم البغل مثلك ..

فحمل عبد ربه القرعة بين يديه وجعل يميل بها يمنة ويسرة كأنما
يرقص وراح يقول :

- تلاش يا عبد ربه ، اندفن في الظلام ، حتى تراب الحارة أقوى
منك ، هل جربت قوتك إلا مع العججين وأنت تدفع به داخل
الفرن؟ الله يرحمك يا عبد ربه !

- ماذا جرى لعقلك؟

- طلق ، طلقت ، بكلمة انتهيت ، حتى القملة تقاوم ، يا فرحة العدا
فيك يا عبد ربه ..

فقال له سقرا محدرا :

- إطاعة الفتوة شرف !

فانذعر عبد ربه رغم سكره وقتئم :
- الحمد لله ..

ثم وهو يتنهد :

- وقوة أخرى تطحنتني !

- ما هي؟

- حب الملعونة بنت الملعونة !

فضحك سقرا وقال :

- هذا ما يعيّب الرجل حقاً !

فغنى عبد ربه بصوت مثل النهيف :

عجائب والله عجائب

فقال له سقرا الشمام :

- اشتغل بالغناء فالمغنون فيما ييدو خائبون مثلك في الحب ..

رجع عبد ربه يحمل الأرغفة إلى دار رئيفة هانم بعد أن تشفع له أكثر من رجل طيب . وذات مرة سألها بخشوع :

- لعلك عنى راضية؟

فقالت له بيرود :

- مافات مات !

فتردد قليلا ثم قال بضراعة :

- دعيني أنفرد بها دقيقة .

فرمقته بحذر ثم قالت :

. - كلا .

- أكلمها إذا أذنت في حضرتك .

وتفكرت قليلا ثم نادت زهيرة فجاءت في جلباب كحلى كوردة نضرة . ترامقا مليا فلم ترمش أو تغض بصرها . بدت غريبة بعيدة باردة . صورة متناقضة تماما مع صراع ناشب في الأعمق . قال عبد ربه :

- قلبي أبيض ، لتنس مافات ..

فلم تنبس بكلمة فقال :

- ندمت على ما كان مني ..

فواصلت الصمت حتى قالت رئيفة هانم :

- تكلمي يا زهيرة .

فقال عبد ربه متسلحا :

- رغبتي أن أردىك والعشرة لا تهون . .

فتمتمت زهيرة :

. . لا ..

- العشرة لا تهون ولا تنسى ، وكانت لنا أيامنا الحلوة !

فضضت بصرها لأول مرة وقالت بحزن :

- لا أنت لي ولا أنا لك !

٣٦

تسلل محمد أنور إلى الدار في غيبة الهانم . قابل زهيرة بلهفة وهو يقول :

- ليس من حقى الحضور . ولكنى أجازف من أجلك بكل شيء ،
اتبعينى فى الحال لعقد زواجنا !

فتساءلت فى كبريات :

- من ضمن لك موافقتك ؟

فقال بذل :

- إنى أحبك يا زهيرة .

- ولم تدعونى إلى الهرب كأنى لصة ؟

فتنهى و هو يقول :

- لا فائدة ، لا ت يريد الهانم أن توافق أبدا !

فسألته بدهشة :

- فاختتها في الموضوع ؟ !

٣٦٥

فحنى رأسه فى غم وقال:
- عنيدة ومتكبرة !

تلقت طعنة فى صميماها فقالت بزهو :
- إنى من آل الناجى !

- عنيدة ومتكبرة ، أمرتني أن أنقطع عن زيارتها أنا الذى ولدت فى
هذه الدار ..

واجتاحها الغضب فقالت له :
- سأتبعك فى الحال .

٣٧

زفت زهيرة إلى المعلم محمد أنور تاجر البطارخ . غضبت رئيفة
ورمتها بالخيانة والخبث . دهشت الحارة وجعلت من الزبحة حديثها
فتردد كثيرا ذكر الحظ السعيد وليلة القدر وعجائب الحب . وحملت
معها جلالا فرحب به الرجل ، وعد نفسه أسعد خلق الله .
ووجدت زهيرة نفسها - لأول مرة - ست بيت . ها هي ذى تملك شقة
متعددة الغرف ، ثمينة الأثاث ، فيها الحمام والمطبخ ، وبها خزان يملؤه
السقاء كل يوم . وملكت أيضا الفساتين والملاءات القرشة وعرائس
البراق الذهبية .

وباتت فى عنقها قلادة ، فى أذنها قرط ، فى ساعديها أساور ذهبية ،
فى ساقها خلخال من فضة .

وحفلت سفرتها بالأطعمة اللذيذة ، لا تكاد تقل نفاسة عن أطعمة
دار عزيز أو دار رئيفة ، وهى صاحبته كما هي طاهيته .

٣٦٦

وما إن مضى الشهر الأول حتى قررت أن تحطم القضبان، فهى تخرج لزيارة أمها أو جارة أو زيارة الحسين. ورآها الناس فى زيها الجديد فهتفت أعماقهم سبحانه الله الخلاق العظيم.

٣٨

سعد محمد أنور بزهيرة سعادة تفوق الخيال. لم يقتصر فى إعلان حبه وإعجابه وتعلقه الجنونى بها، وتدليله غير المحدود لها. ومن بادئ الأمر لم يرتع خروجها وعرضها فتنتها الباهرة على الأعين. وأفضى إليها بلاحظاته فى رقة بالغة ، ولكنه كدر صفوها ، فسرعان ما تراجع وهو يبالغ فى ملاطفتها. اكتشف أنه يتحمل أى مكرره إلا أن يغضبها أو يحرم من رضاها ومرحها. وأدرك أنه ضعيف حيالها ، مستهتر بالوصايا التقليدية ، ولكنه استسلم لتيار لا قبل لقلبه بقاومته. عرف نفسه تماماً ، عرف أنه أسير الحب ولعبته.

وثمة شعور عميق وضح له مثل صورة حيوان خرافى ، وهو أنه لم يملك معبدته بعد ، لعله لا يستطيع أن يملكها ، لعلها تستعصى على أن تمتلك ، إنه شعور مهزوم ذو وجه أصفر ، يتخلل بالعلل ، ويستنجد بالأوهام ، ويغطى مراتبه بالعطايا وحلو الكلم. إنه عبد الحب لأنه ولا سيده ، وزنه فى يده لا فى قلبه أو جسده ، تستوى لديه حمرة الشروق وحمرة الشفق . إذن فليتوار وراء الرقة والعدويبة ليحظى بسمة الشجر الوردى ، ونظرة العين الساجية ، ورشاقة الجيد وهو يتمايل فى رضا .

٣٦٧

وزارت يوماً ولية نعمتها عزيزة هانم، فقبلت يدها وقالت:
 - دفعت بي ظروف إلى دار أخرى ولكن قلبي لم يتحول.
 وصفاً قلب عزيزة بالكلمة الطيبة. لثمت خدتها وأجلستها إلى جانبها
 فعاملتها كند لها. امتلأت بمنحة سعادة وخيلاء. شربا القرفة وأكلت
 طبق على لوز بالمكسرات. وسألتها عزيزة عن حالها وزوجها وجلال
 ابنها. وجاءت ألفت هانم فرحت بها. وقالت لها عزيزة:
 - هذا ما يستحقه جمالك والجمال سيد الأكون.
 فقالت زهيرة:
 - بل دعاؤك وعطفك يا سيدة النساء.

وعقب محمد أنور على الزيارة متسائلاً:
 - ورئيفة هانم ألا تزورينها أيضاً؟
 فقالت بغصة:
 - المتكبرة! عليها اللعنة.
 - سيجن جنونها!
 - فليجين جنونها.

فساوره القلق وتمت:

- لا حد لشرها!

فتساءلت وهي تسيل جفنها على نظرة ماكرة:

- ألسست رجال؟

فتقلص قلبه وصممت.

٤١

وذات أصيل شهدت الحارة منظراً لا ينسى.

كانت زهيرة سائرة تخطر في ملاعاتها الفاخرة عندما وقف دوكار
رئيسة هام على كثب منها. وأطل رأس الهام، وسمع صوتها وهي تقول
بنبرة عتاب لا تخلو من مسحة من مودة:

- زهيرة!

فالتفتت زهيرة مرتبكة فقالت الأخرى:

- يا خائنة!

لم تملك إلا أن تقترب مادة يدها على مرأى وسمع من كثيرين بينهم
جبريل الفص وخليل الدهشان وعبد ربه الفران. وقالت رئيسة:
- متى تزوريني؟

فأجبت زهيرة وهي تزداد ارتباكا:

- في أقرب فرصة يا هام، ما معنى إلا..

وغمغمت في حيرة فقالت رئيسة بنبرة عدوانية قاسية متحدية مباغطة:
- يسعدني أن أرحب بخادمتى المخلصة..

٣٦٩

وسرعان ما اشتعل الغضب بقلب زهيرة فهتفت :

- إنى هانم مثلك !

. واندفعت فى طريقها ، وقد أعمها الانفعال ..

٤٢

وكان عبد ربه الفران يسكر فى البوظة ورياح أمشير تز مجر فى
الخارج . وإذا به يقول :

- حلمت أمس حلما عجيا ..

ولما لم يسأله أحد عما رأى واصل حديثه :

- رأيت الخماسين تهرب فى غير أوانها ..

فقال الخمار سنقر الشمام ضاحكا :

- حلم من صنع الشيطان ..

- اقتلت الأبواب ، أمطرت التراب ، طيرت عربات اليد ، أطاحت
بالعمم والثلاث ..

- وماذا صنعت بك أنت ؟

- تركتني أرقص فوق جواد أصيل ..

فقال له سنقر :

- أحكم الغطاء فوق دبرك قبل النوم !

شعر محمد أنور بالخوف يزحف نحوه. أشباح الأخطار تترافق في
أركان دنياه الضيقة. هل يتحقق به مصير مثل الذي حاقد بعد ربه الفران؟
وجعل يختلس النظرات من وجهه زهيرة ويستجمع همته . قال لها :
ـ إنك حبلى يا زهيرة في الشهر الرابع فيحسن بك أن تستقرى في
بيتك ..

فقالت باستهانة :

ـ لم أشعر بالعجز بعد !

فراح يداعب جلالا بحنون ليخفف من وقع كلامه وقال :
ـ لقد تحديت قوة لا يستهان بها ، فمن الحكمة أن ننطوي على
أنفسنا ..

فقالت ببرود :

ـ كأنك خائف !

فقال مداريا استياءه :

ـ بل أرغب في توفير السعادة لبيتنا !
ـ إنى أمارس حرية مشروعة .

فقال بوضوح أكثر :

ـ الحق أنى غير مرتاح لذلك .

فتفكرت قليلا ثم قالت :

ـ الحق أنى لا أطيق ما تدعونى إليه .

فقال بإشفاق :

- ولكنني زوجك .

- أيعنى هذا أن تدوسى بقدمك ؟

- معاذ الله ، ولكنى ذو حق غير منكور .

فعبس وجهها حتى اكفره جماله وقالت بحده :

. لا ..

فتردد بين الصمت والعناد ، ثم آنس منها ازدراء أثاره ، فقال

بغضب :

- إنى ذو حق ..

فقالت باستهانة :

- لا توجع رأسي بحقك ..

فغلبه الغضب أكثر وقال بحده غير معهودة :

- لى حق الطاعة ..

فحذجته بدهشة ضاعفت من غضبه فعاد يقول :

- حق الطاعة الكاملة !

فطفح وجهها بالرفض والصلابة وفسد الجو أيمًا فساد .

٤٤

استمد محمد أنور من يأسه شجاعة . وكان في صميمه مشفقا من فقدها .

لذلك ما كاد يراها - من دكانه - خارجة إلى طريقها حتى فقد رصانته

فاعتراض سيلها وقال لها بحزم :

- ارجعى إلى البيت !

فذهلت وهمست له:

- لا تشر فضيحة ..

فقال بعناد:

. ارجعى إلى البيت.

ولمحت الأعين ترحف نحوها مثل الأفاعى فاضطرت إلى الرجوع
وهي تغلى .

٤٥

في المساء، وعند ذهابه إلى بيته، وجد محمد أنور عاصفة في
انتظاره. كان يتوقعها تماماً. وكان أبغض شيء إلى قلبه أن يتمادي في
الغضب، وأن يفسد الجو، وأن يطمس الجمال المعبد بالسخط. وأبدى
استعداده لأى تنازلات تحت شرط الإذعان لرغبته المشروعة. قال لها:
- لا تتصورى أنى أسعد بإهانتك، ما أريد إلا المحافظة على
سعادنا ..

ولكنها بدت مثل هبة من غبار. أصفرَ الوجه وانقلبت السحنة وتطاير
من العينين شرر.. تجسد الغيظ مقتاً أسود، وطفرت الكبراء حية
متوبة. وقال لنفسه: «أعوذ بالله من هذا الشر، أعوذ بالله من هذا
القلب، ألا يشفع لي ما صنعت منك؟».

ووجدت زهيرة نفسها في سعير. إنها تأبى أن تنهزم. ولا تنسى موقفها الأليم بين يديه في الحرارة. وهي لا تحبه ولم تحبه قط. ولكن كيف تتصرف؟ وأين تذهب؟ في مثل حالها تذهب الزوجة إلى أهلها وهي لا أهل لها. فلما سيدة في ذلة وإما هائمة على وجهها.. تتربيص بها الشماتة في أكثر من دار وفي بدرورم عبد ربه أيضا.

وتذكرت سيدتها الأولى المعلم عزيز سماحة الناجي، وجيه الحرارة، وصديق زوجها. سيلمع الزوج أنها ليست مقطوعة من شجرة على الأقل.

وتسليلت إلى محل الغلال ورذاذ يتتساقط قبل ملاعتها ووجنتيها. اقتحمت عليه حجرة الإدارة. وجده وحده، مجللا بوقاره الجميل وقد وخط الشيب - متراجلا بعض الشيء - شاربه. عرفها من أول نظرة. عرفها رغم البرقع. لم يكن في حاجة إلى تذكر هاتين العينين الساحرتين المطلتين حول العروس الذهبية. خُلِّ إلَيْهِ أَنَّ الْقَدْرَ يَقْتَحِمْ حصنَه.

تهاdat إلى أذنيه نبرتها الناعمة وهي تقول:

- لم أجد سواك ملجاً لحيرتي.

فتساءل وهو يضبط عواطفه المتضاربة:

- ما الحيرة كفى الله الشر؟

- زوجي!

- إنه رجل طيب فيما أعلم.

- ولكن معاملته ساءت جداً في الأيام الأخيرة ..

- بلا سبب؟

- يرحب في إدلالى .

وقصت عليه موقفه في الحارة فتفكر عزيز قليلاً، ثم قال :

- التصرف بعيد عن الحكمة، ولكن حقه المشروع لا جدال فيه.

فقالت بحرارة :

- لا يفرض السجن على امرأة في حارتنا .

فتبرم المعلم عزيز وقال لها :

- سأتحدث عنك باعتبارك من آل الناجي ولكن عليك أن ترضي

المعقول ..

٤٧

شفاعة المعلم عزيز لم تتحقق لها إلا ما هو دون القليل. لم يعد أمامها إلا الإذعان ولو إلى حين. إنها تذعن وتضمر السوء معاً. غير أن لقاء المعلم عزيز أسف عن أشياء لم تجر لها في خاطر من قبل. أشياء مثيرة جنونية رائعة الجمال. أشياء قدفت بها إلى دنيا مغمورة بالأحلام. قالت لنفسها إن المعلم عزيز معجب بها. بل أكثر من ذلك. لقد أدلت عيناه باعترافات فاتنة فمتى بدأ ذلك؟ حقاً ما من رجل رآها إلا وفتن، ولكن هل المعلم عزيز مثل سائر الرجال؟ ثم إنه متزوج وهي متزوجة. وهو كهل أيضاً ومثال للنبيل وحسن السمعة. مثله لا يمد الطرف إلى امرأة متزوجة. متزوجة من صديق. وما أزهدتها هي في علاقة غير مشروعة! ما فائدتها؟ إنها تطمح إلى اكتساب حق. في سبيل ذلك وطئت قلبها بلا

رحمة . في سبيل ذلك تحس أحيانا بجيشان الجنون السامي في قدح من الخمر المقدسة . وتراءى لها عزيز سماحة الناجي في هالة حلم وردي لم تدر كيف يمكن أن يتجسد لها في عالم الحقيقة . هل يمكن ذات يوم سحرى أن تصبح ضرة لألفت هامن ، وشبه ابنة شرعية لعزيزه هامن ؟ هل يمكن أن تسلطن يوما في دار فاخرة وتستقل بالدوکار ذى الجرس الرنان ؟

وتضاءل محمد أنور حتى انقلب ذرة من سخام متطايرة فوق أديم طريق طويل ليس له نهاية .

٤٨

وعندما وفدت الفلاحات يشنن بالفيضان ويبعن البلح كانت زهيرة تعانى ولادة عسيرة أخبثت فى أعقابها راضى الابن الثانى لها .
وسعد به محمد أنور سعادة خفت عنده ويلات الهموم والقلق ، وأمل أن يكون فاتحة عهد جديد من زوجية حكيمه موفقة .
وكانت أم هشام الدایة تعودها يوما بعد يوم حتى اجتازت العنااء بالسلامة . وفي آخر زيارة همست فى أذنها :
- عندى لك رسالة ..

فرمقتها زهيرة بنظرة متسائلة ، فقالت العجوز :
- رسالة من السماء !

فجرى خاطرها إلى عزيز وتساءلت :
- ماذا عندك يا أم هشام ؟
فقالت ووجهها يكتسى بقناع الإثم الشاحب :
- رسالة من نوع الغراب فتوة حارتنا ..

دق قلبها بالمفاجأة. توقعت شهابا من الشرق فمرق شهاب من الغرب. تمالكت أعصابها وقالت:
ـ ألا ترين أنى زوجة وأم؟!
فقالت العجوز:
ـ ما يمر يوم إلا ونرى الشمس وهى تشرق ثم نراها وهى تغرب، وما
على الرسول إلا البلاغ.

٤٩

سرعان ما تقهر محمد أنور. تخلى عن صلابته الطارئة الزائفة فأوى إلى ضعفه الفطري. لشد ما آمن بأن زهيرة جوهرة، بلا قلب، وأنها تفلت من قبضته مثل الهواء. غير أنه لم يتصور الحياة بدونها. هي روح الحياة وعادتها المسيطرة. وهى شديدة الخطورة لا يؤمن لها جانب. وهل ينسى ما حاق بعبد ربه الفران؟ لا ثقة له فيها، وكلما تزعزعت ثقته نزع أكثر إلى الالتصاق بها والاستحواذ عليها بأى ثمن. وفشله في ذلك يعني فشله في الحياة كلها. فى الدنيا والآخرة معا. وسوف يظل الخصم بينها وبين رئيسة مصدر إزعاج له على طول المدى. إنه يعي تماما أنه أتعس الناس، وأن عليه ألا يضن بتضحية.

ها هو ذا مجلس المساء يضمهمَا معا. هي ترضع راضى فوق ديوان، هو يدخن البورى، جلال يلاعب قطة. الحق أنه لم يعد يطبق جلالا. طالما عطف عليه وأحبه فى الماضى، ولكن ما إن جاء راضى حتى مقته وتمنى زواله من الوجود، غير أن معاملته له لم تتغير، ظل يغمره بأبوة باسمة كاذبة، يضيف بها إلى أشجانه عناء جديدا.

وقال لزهيرة وهو يعتقد أنه يفعل المستحيل لاسترضائهما وامتلاكها:

- عندي لك مفاجأة سارة.

فنظرت نحوه بفتور فقال:

- هدية السلامه!

فابتسمت فوascal:

- عقد شراء صوري تصبحين به مالكة لبيتي!

تورد وجهها وقالت بحبور:

- يالك من رجل كريم!

إنه بيت من ثلاثة طوابق وأسفله دكان الفول. وسعد الرجل بفرحتها فاسترد بعض طمأننته. وأسعدها حقاً أن تصبح مالكة. ومن أعماقها شكرته. وشكرته أيضاً لاعترافه الضمني بقوتها وندمه على تحديها. ولم يخل وجدها من ازدراء له. ولم يوقف ذلك اشغالها الدائم بعزيز ونوح الغراب. عزيز الغنى ونوح القوى. وعزيز ذو قوة أيضاً كما أن نوهاً ذو ثروة تتزايد مع الأيام. عزيز له زوجة ونوح له أربع وقطيع من العيال. لا غنى عن القوة، ولا غنى عن المال. المال يخلق القوة والقوة تخلق المال. ترى كيف تسير الأمور؟ إنها تؤمن بأنها لم تكن تبدأ بعد.. وهي تفكير في ذلك كله وهي قريبة من أنفاس محمد المترددة.

٥٠

قرر محمد أنور أن يحصل سعادته بنوح الغراب. زاره في داره وجلس بين يديه في بهو الضيوف كما يجلس الغلام بين يدي شيخ الكتاب. ودون أن ينسى قدم له صرة موحية، تناولها الفتوة، مضى بعد ما فيها، ثم قال:

- لقد أديت الإتاوة، فلم هذا القدر الجسيم؟
قال محمد أنور:
- أريد أن أستظل بحمايتك.
- لك أعداء؟
- وقاية من القدر!
فأعاد إليه الصرة بلا اكترااث وابتسم. خفق قلب محمد باززعاج غير متوقع فاتسعت عيناه في ارتياح وجزع. وغنم نوح الغراب:
- سبق القدر!
يا لللويل !! هل لعبت رئفة لعبتها؟ هكذا تصور لأنّه لم يخطر له ببال أن نوح الغراب يعمل لحسابه الشخصي . وقال نوح الغراب:
- كنت على وشك أن أرسل في طلبك ..
قال محمد أنور بريق جاف:
- ما الخبر يا معلم؟
قال بهدوء مقيد:
- لأنصحك بتطليق زوجتك !
خاص قلبه في صدره وشعر بالموت. تساؤل مذهولاً:
- أطلق؟ لا يوجد في حياتي ما يتطلب ذلك!
قال له بنبرة قاطعة:
- طلق زوجتك !

غادر محمد أنور ذار نوح الغراب وهو فاقد لحواسه الخمس. هل جاء دوره ليعامل كما عامل عبد ربه الفران؟ هل كابد تاجر محترم

معاملة مثل هذه من قبل؟ هل تهون عليه حياته وسعادته وكرامته كأنها لا
شيء؟

واجتاحه غضب يائس عصف بتردد ونشره في الهواء .
جنَّ محمد أنور عاماً :
أقدم على ما لم يقدم عليه أحد من قبل في الحرارة .

٥٢

ذهب جبريل الفص شيخ الحرارة إلى الفتوة نوح الغراب في مجلسه
بالقهوة فحياه وقال :

- حضرة فؤاد عبد التواب مأمور القسم يطلب مقابلتك .
عجب الفتوة وتساءل مقطباً :
- لماذا؟

- لا علم لي يا معلم ، وما على الرسول إلا البلاغ .
تساءل بتحدى :
- وإذا رفضت؟

فقال شيخ الحرارة بملائنة :
- لعله يريده لتقديم خدمة للأمن العام يا معلم ولا موجب للتحدي
بلا ضرورة !
فهز الفتوة منكبيه استهانة وصمت .

استقبل المأمور فؤاد عبد التواب الفتوة نوح الغراب بترحيب . جلس الفتوة أمام مكتب المأمور متخلية بابتسامة لطيفة وروائح الجلد تفعم أنفه .
قال :

- يسعدنى ورب الحسين أن أقابل المأمور .
ابتسم المأمور . كان بدينا ، متوسط القامة ، كث الشارب ، حسن الملامح . قال :

- يسرنى أن أقابلك يا معلم ، الفتوة في الواقع من رجال الأمن !
- تشكر يا حضرة المأمور .

- والفتوة هو فارس الحرارة وحاميها أيضا ، هو المروءة والشهامة ، يد الشرطة وعينها في مجاله ، هكذا تقدركم الداخلية ..

فكرر وقلقه يتکاثف :

- تشكر يا حضرة المأمور .

فقال بحزم يتناقض مع مجاملاته :

- لذلك أتوقع أن يجد المعلم محمد أنور الأمن في كنفك .
فاحمر وجه الرجل وتساءل :

- هل شكانى إليك ؟

- لي وسائلى في معرفة الأخبار ، وهبه لها إلى فهذا من حقه ، ومن واجبى أن أوفر له الأمن ، ولكنني أقنع بمحالتك بذلك !
وفصل بينهما صمت . أدرك أن المأمور يحدره وينذره بأسلوب لطيف . ولما طال الصمت سأله المأمور :

- ما قولك؟

فقال نوح الغراب بهدوء مريض:

- نحن أول من يحترم القانون.

فقال المأمور بحزم:

- أعتبرك مسؤولاً عنه!

٥٤

لم يحدث شيء كهذا من قبل في الحارة. لم يكن يدخلها شرطى إلا عند الضرورة القصوى، وجرائم الفتورة كافة تنسب عادة إلى مجھول. حيال تصميم شهود الزور. فهل يفعل المأمور فؤاد عبد التواب ما لم يفعله غيره إذا عثر على جثة محمد أنور تحت القبو أو في الممر؟ وكيف واتت الجرأة محمد أنور على الاستغاثة بالمأمور؟ وكيف قبل المأمور أن يتحدى نوح الغراب بأسلوبه اللزج؟ ويدا لأول مرة أن مأمورا يضع نفسه في كفة ميزان واحد مع فتوة مخاطرا بهبته المزركشة!

ولكن ثمة جانبا مجھولا خفى على الناس هو شخصية فؤاد عبد التواب. كان رجلا شجاعا وعنيدا. وقد عرف في ريف الصعيد قبل تقله إلى القاهرة بالسفاح! ولو لا تقاليد الداخلية نفسها في سياستها المرسومة مع الفتوات، لأقدم بداع ذاته الجريئة على تصفية الفتونة من الحارات كلها.

لذلك ما كاد يبلغه أن محمد أنور لم يستشعر الأمان المنشود حتى قام بظاهرة حاسمة ألمحت الألسنة وهزت جذور القلوب. ما تدرى الحارة ذات يوم إلا والمأمور يغزوها على رأس قوة مسلحة! ترامت نداءات عسكرية جاذبة للأسماع والأنظار، ثم تراءى جبريل الفص وهو يتقدم بين

ثلة من المخبرين، يتبعه ضابط القسم، فالمأمور في حلته الرسمية، وأخيرا طابور ضخم من الجنود المدججين بالسلاح. سار الموكب في تؤدة وحزم حتى اخترق القبو إلى الساحة، وهناك قام بتكوينات عسكرية مدمدمة ثم رجع على مهل وقد اصطف الناس على الجانبين كأنهم في يوم المحمل. لم يأبه المأمور بالنظر نحو الناس ولكن عينيه كانتا تتسللان أحيانا إلى النوافذ المكتظة بوجوه النساء. وعلى مبعدة يسيرة من السبيل اقترب شيخ الحارة من المأمور ولفت نظره إلى زهيرة في نافذتها باعتبارها محور المعركة الدائرة. ولبث نوح الغراب في مجلسه بالمقهى، أما محمد أنور فقد انقبض صدره في دكانه وتوقع مزيدا من الشر لا الأمان، على حين راح عبد ربه الفران يتبع الموكب بذهول ويقول لمن حوله:

- سنشهد قريبا قيام القيامة!

٥٥

وأكثر من مرة لاحظت زهيرة أن المأمور فؤاد عبد التواب «يصادفها» في السكة الجديدة وهي راجعة من زيارة الحسين. وأكثر من مرة لاحظت أنه يثقبها بنظرة حادة جامحة جائعة. وغمغمت لنفسها «حتى المأمور؟!». وبدأ الميدان ساخرا وحافلا بالفتن. مثل جراب الحاوي الملئ بالفشران والقطط والثعابين. وهزها طرب الخيلاء. وتهيأ لها أنها تنتهي نسرا خرافيا ترف جناحاه بالقوة والإلهام والخلق. عزيز .. نوح الغراب .. فؤاد عبد التواب، السحر والحب وقمة المجد المكللة بالنجوم. وتتابع نبض قلبها، وعند كل نبضة تتشكل صورة براقة تخرق كل مألف.

واستدعي المأمور محمد أنور إلى مقابلة في سرية مطلقة . أجلسه أمامه وقال :

- لقد رفعت راية القانون بقوة لم تعرفها حارة من قبل ، فهل أتاك الأمان ؟

فهزَّ محمد أنور رأسه في حيرة وقال :

- لا أدري .

قال فؤاد عبد التواب بتسليم :

- صدقت ، أنا مثلك ، الحق أنى أخاف عليك ..

قال محمد أنور بقلق :

- لا تساوى الحياة مليما فى حارتنا !

- صدقت قد يقتلك أى وغد حقير ، ماذا يفيدك بعد ذلك لو سحقنا الفتونة واقتلعنا جذورها ؟

- أجل ماذا يفيدنى ؟

فتساءل المأمور :

- هل تسمع نصيحة وإن بدت غريبة ؟

- ما هي ؟

- طلق زوجتك !

ذهل محمد أنور وتم :

- أنت تتصحّن بذلك ؟

- إنه أشقر على كرامتك مما هو على كرامتك، ولكنني أخاف على
حياتك ..

- أكاد أجن يا حضرة المأمور ..

فقال المأمور بدهاء:

- ما هو إلا إجراء مؤقت حتى أسوى الحساب مع الطاغية ..

- إجراء مؤقت؟

- ثم يعود كل شيء إلى أصله!

تفكر محمد أنور مليا ثم قال:

- سأفكر في الأمر بكل جدية.

٥٧

رجع محمد أنور إلى بيته وهو يتخطب في اليأس . ومن جوف اليأس
دهمه إلهام مباغت فقال لزهيرة:

- اجمعى ما خف وغلا ، سنهرب الليلة بعد أن ننام الحرارة.

ذهلت زهيرة وتمتنعت :

- نهرب؟!

- حتى المأمور نصحنى بأن أطلقك!

- المأمور؟!

- اعترف بعجزه عن حمايتي فلم يبق إلا الهرب ..

فطنت إلى ما وراء نصيحة المأمور ، ولكنها لم تدر كيف تتصرف مع
زوجها . تساءلت بارتياع :

٣٨٥

- أين نذهب؟

- بلاد الله واسعة ، معى مال لا يأس به ، ستشىء عملا جديدا ..
يا للشيطان ! يريد أن يبدد أحلامها بصرية واحدة . كى تصبح طريدة
ولكى ترتبط به إلى الأبد ، كى تند القوة والوجود . كى تذوب فى عتمة
الشقاء مثل سماحة . ومن يدرى فقد تضطر إلى العمل بيدها من جديد
مثل المتسولات . ألا فليهرب الجبان وحده . فليختف من حياتها إلى
الأبد .

- لا تضيعي الوقت ..

فقالت بفتور :

- بل فكر فى الأمر مرتين .
- فكرت مائة مرة فلم يبق إلا الهرب ..
- كلا ..
- كلا؟!

- إنه مستحيل ..

- إنه ممكن ، ستعرفين ذلك قبل طلوع الفجر .
فقالت بعناد :

- كلا ..

فرمقوها بذهول ، فقالت :

- إنه التشرد والضياع ..

فقال بارتيا :

- لدى ما يكفينا ..
- كلا .

- ألا ترين أنى ها هنا مهدد بالقتل ؟
- لقد أخطأت وأنت تعرف ذلك !

- ما من حيلة أخرى كانت بوسعي !
- وما ذنبي أنا ؟
فقال بنبرة جنونية :
- على الزوجة أن تتبع زوجها .
فنبدت صلبة نافرة متحفزة للتملص والفت ثم قالت :
- ليس في وسعك أن تحميني !
فضرب صدره بقبضته وهتف :
- أيتها الأفعى !
وبحركة غريزية تراجعت إلى النافذة فهتف :
- تريدين أن تلعبى لعيتك القديمة !
وقرأت الموت في صفرة نظرته اليائسة وتکور قبضته وتصلب عوده
فصرخت بأعلى صوتها مستغيثة من النافذة على حين وثب نحوها
كالنمر .

٥٨

كسر الباب . تدفق إلى الداخل نوح الغراب ، المعلم عزيز ، وجبريل
الفص شيخ الحارة . تراجع محمد أنور . سقطت زهيرة مغمى عليها .
دوى صوتا جلال وراضى .
شغل الرجال بإعادتها إلى الوعى . أفاقـت . اختفى محمد أنور تماما .
نظر نوح الغراب إلى جبريل الفص نظرة ذات معنى ، فقال شيخ الحارة
بنبرة رسمية :
- جريمة شروع في القتل وهرب !

٣٨٧

فتمتم عزيز :

- يكفى أنه هرب ..

فتساءل نوح الغراب :

- والجريمة؟

وقال جبريل الفص :

- الجريمة واضحة مثل الشمس ونحن شهودها!

وقال عزيز مخاطبا زهيرة :

- أدعوك إلى البيات عند أمي هذه الليلة!

٥٩

اختفى محمد أنور دون أن يطلقها. سرعان ما رجعت إلى شقتها. ثملت بادئ الأمر بشعور الحرية ثم آمنت بأنها ما زالت مشدودة إلى زوجها برباط الزوجية. رغبت بشدة في الانطلاق، واجتاحتها نفثات الأحلام الذهبية. صممت على لا تضيع دقيقة من حياتها. وزارت المعلم عزيز سماحة الناجي وقالت له :

- هرب وهو الآن يمارس انتقامه من بعيد ..

أدرك عزيز ما تعنيه. وجد فيه عذوبة وسحرا. ثمل بالغبطة والأمل.
سألها :

- كيف تتيسر لك الحياة؟

- إبراد البيت يوفر لي عيشة الكفاف ..

فقال برقة :

- لست وحيدة فثقي من ذلك ..
فحنت رأسها امتنانا وقالت :
- الشكر لك ، ولكنني أريد أن أؤمن حياة الطفلين .
فتساءل وقلبه يخنق :
- ماذا عندك من رأي ؟
فقالت بجرأة :
- أطالب بالطلاق باعتباره مجرما هاربا .
هكذا انفتح أمامه باب المجهول عن مغامرة مزلزلة ، فقال :
- علينا أن نفكّر في ذلك ..

٦٠

وشغل المعلم عزيز بمتابعة محاكمة محمد أنور غيايا وتوكييل محام
للمطالبة بالطلاق ، وظل قلقا معذبا بين رغبته وبين سمعته ، بين قلبه
وبيّن احترامه لألفت وصديقه محمد أنور ، على حين تتابعت الأحداث
من وراء ستار معلنة عن أهوائها الحارة الجنونية .

٦١

وجاء أول طارق في الليل . فتحت الشراعة فرأى شبها ، وشمت
رائحة مثيرة للحنان والتقرّز . تساءلت ببريبة :

- من في هذه الساعة من الليل؟

فجاءها الصوت القديم قائلاً:

- عبد ربه الفران ..

تحركت أعماقها بالرغبة والغضب معاً. هربت من ضعفها متسائلة

بحدة:

- لماذا تريده؟

فقال بنبرة مخمرة متسللة:

- لنرجع إلى حياتنا.

- مجنون وسكران ..

- أنا زوجك الوحيد.

- اذهب وإلا ناديت الناس.

أغلقت الشراعة وهي تموج بالغضب والمقاومة ..

٦٢

تسلل إلى بابها في نفس الليلة جبريل الفص شيخ الحارة. دخل متلفعاً بالحذر والخوف، وسرعان ما قال عقب جلوسه مباشرةً:

- أعود بالله من الشيطان الرجيم، ولكن لا مفر من إبلاغ الرسالة ..

قالت وهي تخمن ما وراءه كما تخمن مخاوفه:

- هات ما عندك.

- حضرة المأمور يطلب يدك!

صدق التخمين. إنه يخشى في الوقت نفسه أن يفطن نوح الغراب إلى دوره. ولكن ما المأمور؟ ماذا يستطيع أن يعطيها إلا اسمها ومظهراً

فارغين؟ ربما كان عزيز أفضل الثلاثة ولكن نوح الغراب قوة لا يمكن تجاهلها . وهو أيضا القوة الحقيقة والسيطرة غير المحدودة .

- ما قولك يا سرت زهيره؟

- هل يسكت نوح الغراب؟

- المأمور متکفل بأمره!

فقالت بکر :

- لي طفلان ، دخلى محدود ، والمأمور متزوج وأب ..

- هو أدرى بطاقته ..

فترددت قليلا ثم قالت :

- وأنا أدرى بما أريد !

فتساءل جبريل الفص :

- تفضلين أن تكوني خليلة للغراب على أن تكوني حلبلة لحضره المأمور؟

فنهضت بحدة :

- إنی أشرف هانم فی الحارة!

٦٣

قبل أن يذهب جبريل الفص جاءت أم هشام الداية فأخذتها في حجرة أخرى . ولما خلت إليها ، قالت العجوز :

- لا شيء يقف في سبيلنا الآن ..

فقالت زهيره :

- نوح الغراب على العين والرأس ولكنه متزوج من أربع !

- تحلين محل إدھاھن !

فقالت بكرياء حاد:

- زهيرة لا تكون ضرة لامرأة!

فتساءلت العجوز بدھشة:

- يطلق الأربع؟

فقالت بإصرار:

- هو حر فيما يفعل وما يشاء ..

٦٤

وطلق نوح الغراب زوجاته الأربع.

زلزلت الحارة بالخبر، كما زلزلت به أسرات أربع، وتردد اسم زهيرة على الألسنة كأنشودة للجبروت والقسوة. تلقى المأمور الخبر فعض على شفته، وعلم به عزيز فذهل ولكنه انطوى علىأساه في صمت.

ومن المصادفات أن جاء خبر موت رمانة في سجنه في يوم الزفاف، وفي اليوم نفسه اتحررت رئيفة هائم حزنا على رمانة مشعلة النار في نفسها! وسارت زفة نوح الغراب في موكب ضخم، وفي أمان من عهود الصداقة بينه وبين فتوات الحرارات المجاورة. غير أنه حدث مفاجأة في الدراسة لم يتوقعها أحد إذ تحرش فتوة العطوف بالزفة خارقا العهد والذمة.

كيف حدث ذلك؟ ولماذا حدث؟

على أى حال نشببت المعركة دامية. وسرعان ما ظهرت قوات من الشرطة لأنما كانت متربصة للحظة مناسبة.

عملت القوات على فض المعركة بلا هوادة.

وإذا بر صاصحة تصيب العريس فترديه قتيلا ..

٣٩٢

اشتعلت الحارة بالخبر. شيعت فتوتها في جنازة مهيبة. وفزعـت زهـيرة للـخبر أـيضاـ. فـزـعـتـ أكثرـ ماـ حـزـنـتـ. اـغـتـمـتـ لـاقـترـانـ زـفـافـهاـ بـالـفـجـيـعـةـ. أـسـفـتـ لأنـهـ لـمـ تـسـمـتـ بـالـفـتـونـةـ إـلـاـ سـاعـاتـ. تـقـوـلـ الـحـاسـدـونـ -ـ وـماـ أـكـثـرـهـمـ -ـ بـأـنـ زـيـجـتـهـ الـجـدـيـدـةـ صـادـفـتـ مـصـبـيـتـيـنـ وـجـرـتـ سـتـ مـصـائـبـ. صـادـفـتـ مـوـتـ رـمـانـةـ وـانـتـحـارـ رـئـيفـةـ. وـجـرـتـ الـقـضـاءـ عـلـىـ مـحـمـدـ أـنـورـ وـتـطـلـيقـ أـربعـ نـسـاءـ وـمـصـرـعـ نـوـحـ الغـرـابـ. فـأـيـ شـؤـمـ يـسـيرـ بـيـنـ يـدـيـ هـذـهـ المـرـأـةـ الجـمـيلـةـ التـىـ لـاـ يـقـفـ طـمـوحـهاـ عـنـ حدـ!ـ اـكـتـأـبـ لـذـلـكـ وـلـكـنـهاـ صـرـفـهـ عـنـ بـالـهـاـ بـإـرـادـةـ مـنـ حـدـيدـ. وـحـسـبـ الثـرـوـةـ التـىـ سـتـؤـولـ إـلـيـهـاـ بـيـهـجـةـ عـمـيقـةـ اـسـتـقـرـتـ تـحـتـ قـشـرـةـ الـخـدـادـ. سـرـعـانـ مـاـ أـفـاقـتـ مـنـ الصـدـمـةـ فـغـمـرـهـ الـأـرـيـاحـ. هـاـ هـىـ ذـىـ تـمـتـعـ بـيـعـضـ جـاهـ الـفـتـونـةـ دـوـنـ أـنـ تـؤـدـىـ ثـنـهـ الرـجـلـ لـمـ تـشـعـ نـوـحـهـ بـأـيـ عـاطـفـةـ طـيـيـةـ قـطـ. الـأـجـدـرـ أـنـ تـعـرـفـ بـأـنـ قـتـلـ فـيـ اللـحظـةـ الـمـنـاسـبـةـ قـبـلـ أـنـ يـتـهـكـ حـرـمـةـ جـسـدـهـ الـجـمـيلـ. وـأـنـهـ لـقـىـ الـجـزـاءـ الـذـىـ يـسـتـحـقـهـ كـلـ طـاغـيـةـ قـدـرـ. وـأـيـ اـمـتـهـانـ كـانـ يـلـحـقـ بـالـنـاجـيـ الـعـظـيمـ إـذـ اـسـتـسـلـمـتـ حـفـيـدـهـ الرـائـعـ لـمـجـرـمـ فـاسـدـ فـيـ لـبـاسـ فـتـوـةـ. وـقـالـتـ إـنـهـ لـاـ مـلـامـةـ عـلـيـهـاـ إـلـاـ إـذـ لـيـمـتـ رـيـحـ أـبـيـةـ لـاقـتـلـاعـ شـجـرـةـ خـاوـيـةـ نـخـرـهـ السـوـسـ.

وـجـرـىـ هـمـسـ مـتـوـرـ بـأـنـ الـمـأـمـورـ فـؤـادـ عـبـدـ التـوـابـ يـكـمـنـ وـرـاءـ التـدـبـيرـ الـمـحـكـمـ الـذـىـ اـنـتـهـىـ بـهـلـاكـ نـوـحـ الغـرـابـ. وـأـنـهـ أـزـاحـهـ مـنـ طـرـيـقـهـ لـاـ دـفـاعـاـ عـنـ الـأـمـنـ وـلـكـنـ طـمـعـاـ فـيـ الـاستـحـواـذـ عـلـىـ زـوـجـتـهـ الـفـاتـنةـ زـهـيرـةـ.

و ضاعف من سوء الظن به تدخله العجيب لمنع اختيار فتوة جديد للحرارة ، فمضت الحياة في الحرارة بلا فتوة يضبطها لأول مرة في حياتها الطويلة العريقة ، و شعر الناس بذلة لم يشعروا بمثلها من قبل .
و تسأله المتسائلون متى يحسر المأمور القناع و يتقدم للزواج من زهرة؟!

٦٧

واستأذن شيخ الحرارة في مقابلتها . أدركت في الحال ما وراء المقابلة .
بدت فاترة حيال المأمور . إنها اليوم أغنى من المأمور و قسمه جميرا .
عزيز سماحة الناجي لؤلؤة ثمينة صالحة لتتويج أحلامها . عيبه أنه سيد محترم نبيل ورث عن جده نبله دون قوته و جرأته . لقد عشق الجذذات يوم امرأة يتناقض فيها ابناء فأدب الآبدين وتزوج المرأة ! أما عزيز فعاشق يكتم الحب ، ينطوي عليه ، يتتجنب الخطأ ، و يتغول في العمر . ربما كان يسعها أن تسحره و تملكه ولكن ما جدوى ذلك و ثمة رجل عنيد مجرم -
المأمور - لا يروعى عن أن يدبر لعزيز مثلما دبر لنوح الغراب !
آه يا نسمة الأمل المضيء الهائمة فوق السحاب !

٦٨

وقالت جبريل الفص :
ـ ليكن معلوماً أنى لا أرضى بصرة !
ـ فقال شيخ الحرارة :

٣٩٤

- معروف أن زوجة المأمور تكبره مثل أم وهي غنية، فهل تسدين الفراغ؟

- ماذا يوجب على ذلك؟

فقال شيخ الحرارة محدرا:

- إنه مصيبة من مصائب الزمان.

غضبت. كتمت غضبها تماماً. نشط خيالها وتصلبت إرادتها.

تظاهرت بالاستسلام وهي تقول:

- ليتظر العدة وعند الله التوفيق..

فتهلل وجه شيخ الحرارة وتم:

- الحمد لله رب العالمين!

٦٩

لم تفرط في دقيقة بلا عمل. اقتحمت حجرة المعلم عزيز مثل نسمة ثملة بالندى والعطر. أنيقة حزينة المظهر ذات نظرة فاتنة مبهلة. لاحت تورد وجهه واحتلاج عينيه وجيشانه بالانفعال، فقالت بنعومة مستغيرة مؤثرة:

- ما حيلتي وليس لي في الضيق سواك؟

ها هو ذا يعترف بالحب كل شيء فيه إلا لسانه. قال:

- أهلا بك يا زهرة هانم!

فانتشت بالأدب وتساءلت:

- ماذا أفعل؟ هل أستسلم للمأمور السفاح؟

فتساءل عزيز مستنكرا:

- طلب يدك؟

- بلا حياء.

قطب الرجل فقالت :

- أى خاتمة لامرأة سيئة الحظ لم تحظ مرة واحدة بحرية اختيار شريك حياتها ..

فقال بتأثير واضح :

- لا ترضى بما تكرهين ..

- أتعرف لك بأنى أخشاه !

فقال بحدة :

- كلا .

- إنه مجرم كما يعلم الجميع ، هو الذى قتل نوح الغراب ..

- مجرم قتل مجرما !

فقالت بهدوء :

- أجل ، لو استجوبت الداخلية رجال العطوف لوقفت على الحقيقة ..

ونظرت إليه مليا ثم قالت :

- القضية تتطلب رجلا محترما يمكن أن تسمع كلمته فى الداخلية !

وأنجابت سحابة الصيف عن وجه الشمس المنير ..

٧٠

صدر أمر مفاجئ بنقل المأمور فؤاد عبد التواب إلى الصعيد. خلت السماء من نذر العواصف المهلكة. وتربيع صيف مزدهر بالطين والشمام والعنب. سرعان ما وثب إلى الفتونة سمكة العلاج. أما زهيرة فقد أسكرتها الخيلاء، فآمنت بأنها الفتوة الحقيقى وراء الأحداث.

قالت: أنا العقل، أنا الإرادة، أنا الجمال، أنا الفوز، رمقت «جلال»
و«راضي» بحنان وهمست:
ـ ليكن مجدكما فوق كل مجد!

٧١

وبادرت إلى زيارة المعلم عزيز الناجي لتشكره فقالت منشرحة
الصدر:

ـ هكذا يكون الرجال وإلا فلا.....

فابتسم الرجل المفتون وتمتن:

ـ يسعدنى أنك سعيدة..

فقالت بدلال:

ـ نجوت من الوباء مثل جدنا العظيم..

ثم بحزن:

ـ أما السعادة..

فرنا إليها مستطلعاً فقالت:

ـ ما هي السعادة حتى يحق لنا أن ندعها؟

ـ لعلها تعرف بالفطرة!

ـ متى يمكن أن تصف امرأة مثلى بأنها سعيدة؟

قال مخفياً اضطرابه:

ـ لا ينقصك اليوم شيء.

فقمت في رشاقة. نظرت إليه طويلاً حتى ذابت إرادته أو كادت.

قالت وهي تخضى:

- ينقصنى أهنم شيء فى حياة الإنسان!

٧٢

استسلم المعلم عزيز لقدرها. أقر لضعفه بالقوة الخارقة. كأنه السور العتيق، كأنه بوابة التكية. كما وقع جده ذات ليلة في الخمارة. وأغرب الجنون ما يصيب المرأة في كهولته. استرق النظر طويلا إلى أمه عزيزة طويلا وهو منفرد بها في جناحها. تتم:

- أمري ..

قالت وهي تشعر بغرابة الجو:

- هات ما عندك ..

فقال بهدوء :

- تشاء إرادة الله أن أتزوج مرة أخرى ..

ذهلت الهمام. رنت إليه طويلا. تسأله:

- حقا؟

- أجل.

- من؟

قال بعد تردد:

- زهيرة!

هتفت عزيزة محتاجة:

- كلا ..

- هي الحقيقة ..

فهتفت:

٣٩٨

- الأفعى !

فقال بتوسل :

- أمى ، لا تسرعى فى الحكم ..

- الأفعى !

- طالما أحبتها يا أمى ..

- وطالما أحبتها ألفت ، ولكنها أفعى ..

- إنها امرأة سيئة الحظ ..

فابتسمت عزيزة فى حزن وغتمت :

- رئيفة أخرى .

فقال بتوسل :

- لا تأخذى بالظواهر ..

- كيف سحرتك يا سيد العقلاء ؟

- أمى ، إنى أدرى ما أفعل تماما ..

فتأنوشت الأم وتساءلت :

- وألفت الأصيلة ؟

فقال بتصميم :

- ستظل سيدة الدار وأم الأبناء ..

- ترى ألا زلت تحترم أمك ؟

- كل الاحترام يا أمى .

- إذن فاعدل عن رأيك !

فقال بأسى :

- لا أستطيع ..

- سحرتك يا بنتى ..

- من حقى عليك أن تسعدى لسعادتى ..

- أنسىت ما حصل لعبد ربه ومحمد أنور ونوح الغراب؟

فقال باستياء:

- ظلموها جمِيعاً!

- كانت هي الظالمة، وإنك تهب نفسك للشقاء ..

فتمتن بهدوء:

- إنما الأعمال بالنيات ..

فقالت عزيزة بحقن:

- هذه الوضيعة الخسيسة ..

فقال متحجاً:

- أصلنا واحد يا أماه.

- أصلكم الذي تفخرون به هو الخير لا الدم، ألم يكن رمانة قاتل

أبيك من أصلكم؟ ألم يكن وحيد من أصلكم؟

فقال بهدوء:

- ما قدر كان ..

٧٣

زفت زهيرة إلى عزيز قرة الناجي. قاطعت عزيزة هانم الفرح، لم تعرف به، وعاشت في الدار مع ألفت والأبناء في كدر أبدى. وابتاع عزيز دار نوح الغراب من ورثته فأهدتها إلى زهيرة. جدد أثاثها ورياشها وتحفها جاعلا منها عش حبه الحالد. وقد احترم حقوق ألفت هانم كاملة، لم يضن عليها وعلى أولادها بالرعاية المثالية والحب الوقور، غير أنه لم يعرف الحب الحقيقي إلا في مغيب كهولته.

٤٠٠

ونعمت زهيرة بشعور رهيف خيالى مثل الإلهام المشرق ، هو الفوز فى جلاله والحلم فى أبهته وكماله . الدار والثروة والجاه وسيد الوجاه . لم تبتئس بغضب عزيزة ولا حزن ألغت ، وإن كان ثمة كبراء فهى سيدة الكبراء وأحق الناس به بما وهبها الله من جمال وذكاء . آمنت بأنها فتوة فى إهاب امرأة وأن الحياة المقدسة لا تمثل إلا للأقوباء . ولأول مرة تجد بين يديها زوجاً تحترمه وتعجب به ولا تفرط فيه ، أما الحب فطالما قهرته فى سبيل ما هو أعظم وأجل ، وطالما قالت لنفسها «لست امرأة ضعيفة مثل غيرى من النساء» .

واستمتعت بجاهها بكل سبيل . فعند الأصيل تتوسط الدوکار مجلسه جلال وراضى فى المقعدين أمامها ، ويمضى الدوکار على مهل مجلجلًا برنين جرسه الفضى ، وهى متسلطة كملكة ، تومنض عيناهما الساحرتان من وراء الياشمك . والناس يتطلعون إليها فى إعجاب وحقد وذهول . تتذوق جمال اللحظة فى أناة واستيعاب ، متنشية بإلهام سام مجنب يجعل من الدنيا ماسة فى أصعبها تعكس صورتها المليحة الفتنة . وتزور الحسين ، وتسر بتجمهر الشحاذين حولها ، وتهب العطايا والصدقات .

وأنجحت لعزيز ذكر أسماء شمس الدين فازدادت الدنيا جمالا وكرما . وعلى حين مضت هى تتألق جمالا وشبابا مضى المعلم عزيز ينحدر نحو شيخوخة مبكرة . وعاملت أسرتها بكرم فاق كل تصور فعاشت أمها وأخواتها حياة رغدة . وحيرها سؤال لوح ، ماذا عليها أن تفعل كى تخلق لنفسها سيرة فذة لم تحظ بها امرأة من قبل؟ !

وذات مرة غادرت جامع الحسين كالعادة وسط مظاهره من الشحاذين والمجاذيب . أجلست جلال وراضى على مقعديهما وهمت بالصعود عندما سمعت صوتا قريبا يهمس :
- زهيره ..

نظرت نحو الصوت فرأت محمد أنور يطالعها بوجه الموت . انذعرت مندفعة نحو الدوكار ولكن الرجل رفع عصا غليظة وهوى بها بكل قوته على رأسها النبيل الجميل فتهاوت على الأرض صارخة . وظل يضرب الرأس بوحشية حتى هشمته تماما غير مبال بكاء جلال وراضى .

لم يبق من وجه البهاء والجمال إلا عظام محطمة غارقة في بركة من الدم .

جلال صاحب الجلالة

الحكاية السابعة من ملحمة الحرافيش

أصاب مصرع زهيرة المعلم عزيز بطعنة وحشية لا دواء لها. تراءى في الجنازة والمؤلم كشبح فقد التعمة والأمل، ونبذ تماما من جسد الحياة. تضاعف ألمه بقدر ما تماست أمام الناس. تبدت له الدنيا عجوزاً ماكرة قاسية لا حد لذكرها ولا قسوتها، فأضمر نحو وعدها كافة الرفض والمقت.

وزارته أمه عزيزة هانم فاستقبلها بفتور وعتاب صامت ولكنها بكت وضمته إلى صدرها وهمست في أذنه:

لا يجوز أن نتخاصم تحت ضربات القدر..

ولثمت جبينه ثم واصلت متنهدة:

كأنني ما خلقت إلا للحزن والأسى..

وانزلقت فوق قلبه كلمات العزاء فلم ترك أثرا..

وعقب الوفاة بأشهر أصيب المعلم عزيز بالفالج، لم يمهله المرض إلا أسبوع ثم فاضت روحه. وحزنت عزيزة حزناً مهلكاً. لم يجر لها في خاطر أنها ستدفن وحيدها النيل وأنها ستبقى بعده يوماً واحداً تنفس.

عاودها الحزن كأشد مما كان على فقد قرة وકأنها مخلوق مهيب لا يتجلى
جلاله إلا في رحاب الحزن الكبير . عزيزة الجميلة النبيلة التي قطعت
حياة معاندة تذر الصبر وتحصد الألم .

واحتراماً لوصية عزيز ضمت راضى إلى دارها مع شمس الدين ،
ورغم العناية البالغة بشمس الدين فإنه مات في شهره الثامن ، أما جلال
فأخذه أبوه عبد ربه الفران .

٣

اهتزت الحارة لمصرع زهيرة . هزها صراع الحظ مع القدر . التمست
العبرة في ثياب الأحداث وتقلبها . تساءلت لم يضحك الإنسان؟ لم
يرقص بالفوز؟ لم يطمئن سادرا فوق العرش؟ ولم ينسى دوره الحقيقي
في اللعبة؟ ولم ينسى نهايته المحتومة؟ ولم تخل الحنایا من أسى ولكن
سرعان ما غرق الأسى في خضم الحقد والغضب . وانصبـت اللعنـات
وـقـيلـ هذاـ جـزـاءـ الـظـالـمـينـ . وـعـزـيزـ النـبـيلـ لمـ يـحـترـمـ أحدـ حـزـنـهـ ،ـ وـاتـهمـ
بخطف زهيرة من عبد ربه الفران ، ولم يحزن أحد لموته الحزن الذي
يستحقـهـ . وـقـالـ الـحرـافـيـشـ إنـ أـسـرـةـ النـاجـىـ أـصـبـحـتـ مـسـرـحـ الحـزـنـ وـأـمـثـولـةـ
الـعـبـرـ جـزـاءـ خـيـانـتـهاـ لـعـهـدـ جـدـهاـ العـظـيمـ صـاحـبـ الـكـرـامـاتـ وـالـبـرـكـاتـ ..ـ

وفي ذلك الوقت تنكر الجو في برمودة ، فتلبدت السماء بالغيوم على
غير ميعاد ، وانهل مطر غريب ، ثم تساقط واابل من البرد ، فذهل الناس
وعجبوا ، ووجفت قلوبهم ، ولكنهم غمغموا حيارى : «الله خير يا رب
العالمين !» .

لم يكتب على طفل ما كتب على جبين جلال بن زهيره بن عبد ربه الفران من المعاناة والألم. منظر تهشيم رأس أمه الجميلة انغرز في أعماقه . كابوس دائم يعذب يقظته ويذكر أحلامه . كيف تأتى لهذه القسوة أن توجد؟ كيف أمكن أن يلقى جمال نبيل تلك النهاية البشعه؟ لماذا وقع ذلك؟ لماذا صمت أمه؟ لماذا اختفت؟ وماذا جنى حتى يحرم من جمالها وحنانها وأبهة الحياة النابعة منها . لم لا ترجع الأيام إلى الوراء كما تقدم إلى الأمام؟ لم نخسر ما نحب ونعياني ما نكره؟ لماذا تذعن الأشياء لأوامر صارمة؟ لماذا ينقل من الدار الفاخرة إلى مسكن عبد ربه الفران؟ ومن هو عبد ربه الفران؟ ولم يطالب بالاعتراف به أبا له؟ إنه ابن أمه بلا شريك ، هي أمه ومبدعته ومهدده وحبه . إنها روحه ودمه ، صورتها مطبوعة على وجهه ، صوتها يشدو في أذنه ، وأمل استرجاعها ذات يوم لا يخبو في قلبه .

إن العظام المحطمة الغارقة في بركة الدم لا تنسى إلى الأبد .

تغيرت دنيا عبد ربه الفران أيضا . بفضل الثروة التي ورثها جلال انتقل من البدروم إلى شقة محترمة . ابتاع الفرن من صاحبه باسم ابنه وراح يديره إدارة سيئة لإدمانه الخمر . ارتدى الجلباب الأبيض والعباءة

الملونة، توج رأسه باللثة المزركشة، واختفت قدماه الغليظتان لأول مرة في مركوب أحمر. وقال لنفسه بتشنج: «تع يا عبد رب بجاه زهيرة». ولم يجد من يحاسبه على العبث بمال جلال الصغير. ورغم الخمر والأسى تعلق قلبه بجلال. رنا بهميرا إلى جمال زهيرة المطبوع على محياه. إنه يذكره بأسعد أيامه وأشقاها. ولا يألو جهدا في استئناسه وطمأنته وكسب موته. ذلك الصغير الجميل النافر..

٦

واستيقظ جلال ذات ليلة قبيل الفجر وهو يبكي، فأيقظ أباه المخمور. انزعج عبد ربه ومسح على شعره الأسود الناعم متسائلا:

- حلمت يا جلال؟

فسأله وهو يجهش:

- متى ترجع أمي؟

وضاق به من ثقل رأسه فقال له:

- ستدهب إليها بعد عمر طويل فلا تعجل..

٧

وجاءت سيرة زهيرة ذات ليلة في البوطة، فقال سمكة العلاج الفتوة:

. .

- أول امرأة يقتل بسبها فتوة عظيم..

فظاهر عبد ربه بالرجلة وقال :
- نالت جزاءها ..

قال جبريل الفص شيخ الحرارة :
- لا تدع الشفاء من الحب .

قال عبد ربه متحديا :
- أخاف أن يكفر مصرعها عن شرها فتقسم لها الجنة !

قال سنقر الشمام الخمار ضاحكا :
- إنك تمنى لها النار لتضمن لنفسك لقاءها !

فتأوه وقال متخليا عن تظاهره :
- يا للأسف ، هل بات الجمال الفتان حقاً طعاماً للدود !

ثم قال بصوت هادر :
- صدقوني ، أحبتني لدرجة العبادة ، ولكنها كانت مجنونة ..

وراح يعني بصوت كالنهيق :
يا بو الطاقية الشبيكة قل لي مين شغلها لك
شبكت قلبى إلهى ينشغل بالك

٨

ودخل جلال الكتاب . ولد مليح ذكي فائق الحيوة قوى المبنى . ويوم طولب أن يحفظ «كل نفس ذاتة الموت» سأل سيدنا :
- لماذا الموت ؟
فأجابه الشيخ :

- حكمة الله خالق كل شيء ..

فتساءل جلال بعناد:

- ولكن لماذا؟

بغضب الشيخ. مده على الفلقة ثم ألهب ظهره بالجريدة. صرخ باكيا. لم يسكن غضبه طيلة اليوم. ما كان يقع له شيء من ذلك لو أن أمه ما زالت تتألق بالحياة، والحياة تتألق بها..

٩

وتعرض جلال في الكتاب والحارة لحملة صفراء قاسية. كل ولد يعيشه هاتفا «ابن زهيرة». دائما ابن زهيرة. أهى سبة يا أشقياء! ويرجمونه بشظايا من سيرته المجهولة له: الغادر، الخائنة، المزوجة، المتبركة، القاسية، الخادمة، الهاشم المزيفة.

ويهرب إلى أبيه فيسأل:

- لماذا يسبون أمي؟

فيلاطفه مواسيا فيقول:

- كانت أجمل من الملائكة..

فينصحه أبوه قائلا:

- آخر سهم بالصبر..

فيتوارى جماله خلف عبوسة ناقمة ويتساءل محتاجا:

- الصبر؟!

فيرمقه أبوه بانزعاج.

وتسلل إليه سيرة أمه كلمة من هنا وكلمة من هناك. إنه يرفض أن يصدق.

وإذا أرغم على التصديق رفض أن يعتبر الأمر مخزيا. ستظل أمه ملاكاً مهما فعلت. وما العيب في أن يتطلع الإنسان إلى هلال المذنة؟ ولكن هل يجدى منطق مع أولاد شياطين؟!

هكذا اضطر جلال إلى أن يخوض معركة بعد معركة. الحق أنه كان يتمنى غير ذلك. طالما أحب الود، والتمن حسن العلاقة والصدقة. الأولاد يستهينون بذلك ويرومون المشاكسة.. وهو صلب عند التحدى. عنيد حيال المستحيل. ادرع بخشونة ليست من طبعه. رد على الكلمة بصرية. تكاثرت مشاجراته وتوكدت انتصاراته. انقلب غلاماً مخيفاً وعرف بالشيطنة. رفعته القوة وأخرست خصومه فشمل بها وعبدها.

وفي الكتاب التقى من جديد بأخيه راضى. إنه ابن القاتل ولكنه ضحيته أيضاً. وهو غلام رقيق مهذب وضعيف. ومثله يغير بابن زهرة فيجهش في البكاء. وتصدى للدفاع عنه حتى أسكث خصومه. وتعلق به الغلام وقال له:

ـ إنك أخي وإنى بك لفخور!

كان راضى دونه قوة وجمالا ولكنكه كان بالغ التهذيب . وقال له مرة :
ـ أدعوك للغداء معى ..

١٢

وذهب جلال إلى دار المرحوم عزيز الناجي .رأى عزيزة هانم العجوز النبيلة كما رأى ألفت هانم ، قبل يديهما ، فرحا به . ودهشا بجماله وصحته . ورأى أيضا قمر صغرى بنات المعلم عزيز . بنت جميلة خفيفة الروح تصغره بعاميين . بهرء جمالها . نظر إليها طويلا في أثناء الغداء وبعده . ولما انفرد براضى قال له :

ـ ألا ترى أن قمر جميلة مثلما كانت أمنا؟
ـ فهزّ راضى رأسه بلا اكتراث فقال جلال :
ـ يا لك من سعيد بمشاركتها دارا واحدة !
ـ فقال راضى :
ـ لا يعجبني إلا صوتها !

١٣

ناهز جلال المراהقة . أدرك أبعاد حياته خيرها وشرها . آمن بعناد أن أمه كانت أعظم امرأة عرفتها الحارة . وبأنه سليل الناجي العظيم الذى لم يعرف سر اختفائه حتى اليوم . لم يكن فتوة مثل سمكة العلاج ولكنكه كان ولها وصديقا للخضر . وحطم جلال في الخيال رءوسا مليئة بالعناد

٤١١

والشر ، وصادق ملائكة ذوات أجنحة ذهبية . وطرق باب التكية ففتح له على مصراعيه ، وطارده قلق متلعم بظلمة الليل ، وظللت قمر تومئ إليه من نافذة المشربية .

وتساءل بزهو :

- ما عيب أمى؟ كانت تبحث عن رجل مثلى فلم يسعدها به الحظ فى حياتها التعيسة القصيرة !

١٤

وأشركه عبد ربه الفران فى إدارة الفرن . وأثبتت جداره وذكاء وهمة عالية . وأعجب به الأب أيمًا إعجاب ، ومضى يتخللى له عن مسئoliاته ، مسلما بكليته لقرعة البوطة . تدهور عبد ربه وزاده توافر النقود بين يديه تدهورا . وبفخار وإعجاب مضى ينظر إلى ابنه جلال . يراه وهو يسيطر بقوة شخصيته على العمال ويستحق احترام العملاء رغم سمعة أمه السيئة . ويراه وهو يصلب عوده وتشتد أطرافه ويتعلق هيكله وتتدفق الحيوية فى بنائه ويتألق بالجمال الفريد وجهه .

ولم يبق جلال من ثروته إلا الفرن ، ومن الماضى إلا ذكريات أليمة ، حتى بسمات المجاملة فوق الشفاه لا تخدعه ، فهو على يقين من أن وراءها تتلاطم همسات السوء عن أمه الجميلة ، ولكن المستقبل يعد بخير كثير لمن كان فى مثل قوته وجماله ، وصورة قمر بنت عزيز تعد أيضًا بأعذب الآمال ..

كان يجلس في العصاري أمام الفرن يراهن على ديكه في مصارعات الديوك، تلك كانت هوايته المفضلة. ويرنو أحياناً بهيام إلى قمر وهي جالسة إلى جانب ألفت هانم في الدوکار، ويذكر عهد صباح وتردداته على دار عزيزة هانم ولما عابت لراضى وقمر، تلك الأيام السعيدة. ولكنها انقطعت بسرعة عندما آنس من عزيزة وألفت فتوراً في استقباله. لماذا احتضنت راضى ونفرتا منه على حين أنها معاً ابناً زهيرة؟ لا سبب إلا احترام وصية المعلم عزيز من ناحية، والشبة الملحوظ بين وجهه ووجه المرحومة أمها، فهو يذكر المرأتين بالراحلة المقيدة.

وتبقى بعد ذلك الهوة الفاصلة بين فرانسيس وبيه السمعة مثله وبين كريمة المعلم عزيز ذات الأصل والأبهة. ولكنه يحبها حباً ملك عليه حواسه وعقله، ويلمس في نظره عينيها المتألقتين استعداداً طيباً وميلاً واضحاً، فهل يتهيب حظه السعيد كالجبناء؟!

وأدرك ما فعله أبوه بشرطه فعادت به على ذلك معاتبة ساخنة. ومنعه من التدخل في العمل وهو يقول:

-ستعيش راضياً هكراً.

ولكن أبياه كان مصدر إزعاج لا يتهدى. إدمانه الخمر مهلك للصحة

والكرامة . يسهر كل ليلة في البوظة ، ويتسلى ببيت شكاته من ابنه ،
يقول :

- يعاملنى كمال لو كنت أنا الابن وهو الأب ، يحاسبنى حساب
الملكين ..

أو يتساءل وهو يقهقه :

- هل سمعتم عن ابن يزجر أباه لأنه يروح عن نفسه بقرعة أو
قرعتين ؟

وكان يتكلم بحب لا عن حقد ، ويمضي في التساؤل :
- هل نسى وصية ربنا بالوالدين ؟

وعجز جلال عن أن يجعل من أبيه رجلا محترما . وقد أراد ذلك عن
حب من ناحية ، ورغبة في محق عقبة من العقبات التي تعرّض طريق
حبه من ناحية أخرى . وحزن عبد ربه لإساءته غير المقصودة لابنه
الجميل . قال له مرة كالمعذر :

- أملك كانت السبب ، انظر إلى نهايات من أحبوها من الرجال ..
وقطب جلال متحجا ، فقال عبد ربه :

- محمد أنور شنق ، نوح الغراب قتل ، المأمور نفي ، عزيز مات غما ،
أما أنا فأسعدهم حظا ..

فقال جلال متوكلا :

- تحب ذكر أمى بسوء يا أبي ..

فتمتم :

- لا تحزن ولكن فكر ، ت يريد أن تتزوج من قمر ، لا تظننى عقبة يا بني ،
ذكرى المرحومة هي العقبة ، كيف تصورت أن ألفت هاتم تعطى
كريمتها لابن زهيرة ؟ !

فهتف جلال :

- لا تعبث بجراحى ..

فقال له الرجل بحنان :

- أنصحك ألا تتزوج من امرأة تخبها، وألا تحب امرأة إذا تزوجتها.

اقنع بالمعاشرة واللودة واحذر الحب فإنه مكيدة ..

١٧

وعلم جلال ذات ليلة أن أباه يعربد في ساحة التكية. هرع إليه من فوره فوجده يحاكي الأناشيد بصوت منكر، فساقه إلى البيت من ذراعه وهو يقول له :

- الخارة تغفر أي شيء إلا هذا.

ولما نام الرجل وجد جلال من نفسه رغبة حارة للعودة إلى الساحة. لم يدخل إلى نفسه أمام التكية من قبل. وكانت الليلة حالكة السوداء. توارى النجوم فوق سحب شتوية كثيفة. وكان البرد قارسا فحبك العباءة حوله وطوق وجهه باللائحة. وغمerte الأناشيد مثل أمواج دافئة. تذكر رواد المكان من آل الناجي. الجد الأول الذي ذاب فيه مثل سر مكنون. وهمس له صوت إنما يمتاز الرجال بتحدى الصعاب وسرعان ما ملاً أعطاوه إلهام سخى بالبشر والفوز.

عقد صدقة مع الظلمة، مع الصوت، مع البرد، مع الدنيا كلها. صمم على الطيران فوق العقبات مثل طائر خرافى ..

٤١٥

وفي أثناء ذلك . اشتري راضى محل الغلال بماله الموروث عن أمه وتزوج من نعيمة حفيدة نوح الغراب . تشجع جلال فقابل عزيزة هانم ، وقال لها بثبات :

- يا ستنا النبيلة ، أريد يد قمر حفيدتك ..

فنظرت إليه طويلاً بعينيها الذابلتين ، وقالت بصراحة العجائز :

- افترحت يوماً أن يتزوجها راضى ولكن ألفت رفضت !
فقال جلال بثقة :

- إنه جلال من يطلبها هذه المرة .

- ألا تعلم لما رفضت ؟

فسكت مقطياً ، فقالت بصراحة السافرة :

- علماً بأن راضى ذو مزايا ليست لك !
فقال بحدة :

- لست فقيراً ، ثم إنني من آل الناجي ..

فقالت بضجر :

- قد قلت ما عندى .

فقال بإصرار وعناد :

- أبلغيها الطلب .

- لك هذا .

وغادرها وهو يغضن بخيبة ترابية .

ولكن ثمة مفاجأة مزلزلة كانت تترىص بدار المرحوم عزيز . فقد رفضت ألفت هانم الدهشورى يد جلال ، غير أن قمر انطوت على نفسها كالموعكة .

وسألتها جدتھا عزيزة هانم :

- تريدينہ زوجا لك؟

فأجابتها بشجاعة نادرة :

- نعم .

فهاجت ألفت هاتفة :

- إنه ابن زهيرة .

فهزت منكبيها استهانة . غير أن الأم تجاهلت رغبة ابنتها بعناد وحشى . ورحبت بخاطب من آل الدهشورى ، ولكن قمر أعلنت رفضها له بلا تردد .

وانهالت ألفت على ابنتها باللوم والتقرير ، ولكنها أصرت على رأيها حتى قالت :

- فلأبقى بلا زواج ..

فصاحت أمها :

- حللت بك روح زهيرة الشريرة ..

فبكى قمر ولكن ألفت لم ترق لها وقالت بعناد :

- ابقى بلا زواج فهو عندي أفضل ..

وتدهرت صحة عزيزة هائم فجأة بحكم الشيخوخة والأحزان.
ذابت ذبولا شديدا وتغير لونها وسرعان ما عجزت عن الحركة فلزمت
الفراس . لم تفارقها ألفت . جزعت للوحدة التي تهددها في الدار
الكبيرة . غير أن عزيزة قالت لها :
- لا تخافي سيمُن الله على بالشفاء ..

وصدقتها كما اعتادت أن تصدقها دائما ، ولكن العجوز تمنت
بصوت كأنه صوت شخص آخر :
- إنها النهاية يا ألفت ..

وضعف بصرها حتى لم تعد ترى . ورغم ذلك تطلعت إلى لا شيء
وراحت تنادي قرة وعزيز فارتعدت ألفت وشعرت بأن الموت اقترب
المخدع وأنه يتظاهر في ركن وأنه أقوى الثلاثة حضورا . وغرت ببرة
باكية :

- ليرحمنا الله .

فقالت عزيزة :

- إنى المعدبة أم المعذبين . أملأ الأخير في ذى الجلال .
فهتفت ألفت :

- اللهم خفف عنها !

فقالت :

- أوصيك باثنين !

فحملقت فيها باهتمام ، فقالت العجوز :

- لا تعذبى حفيدة قرة .
وتنهدت بعمق ثم قالت :
- لا تعذبى ابنة عزيز .
وجاءها الاحتضار ، ثم فاضت روحها مجللة بالحب والنبل ..

٢١

مضت ستة أشهر من عام الحداد . تمنت ألفت الدهشورى ألا يتنهى هذا العام أبداً ، ولكنها أضمرت لوصية عزيزة كل إجلال . داعبها أمل فى أن تتغير قمر نفسها ولكنه أمل لم يتحقق .
واستدعاى المعلم راضى أخاه جلال وقال له :
- أهتئك بالقبول ..
فاجت啊ه تيار سماوى من الأفراح أخرىه .
واقترح راضى أن تعلن الخطوبة فوراً على أن تؤجل الدخلة لما بعد الحداد .
ولم يعد في الإمكان أن تقتلع هذه اللحظة من ذاكرة جلال إلى الأبد .

٢٢

وما كاد يمر شهراً على الخطبة حتى طالب جلال باللحاح بعقد القران بلا حفل على أن تؤجل الدخلة والحفل حتى يتنهى عام الحداد . وتم له ما أراد . كأنما أراد أن يستحوذ على الطمأنينة ويتحقق الأوهام .

٤١٩

وأن يبتدر حظه مغلقا الأبواب في وجه القوى المجهولة. صار بذلك «الرجل السعيد». وشهدت الأيام أقصى درجة من الثراء في سجاياه الحميدة. حتى أبوه السكير لم يعد يحاسبه. ودلل عماله وذويهم. وترنم بالغناء، وهو يعمل وهو يتابع مصارعة الديوك. ازدهر جماله وتضخمت قوته. وسهر الليالي بالساحة يستمع الغناء ويتهلل بالدعاء. وتردد على عروسه محملا بالهدايا، ومنها تلقى مسبحة من الكهرمان يتظممها سلك من الذهب هدية معطرة. غدت حياته وأمله وسعادته ورؤيته الذهبية.

رأها أجمل خلق الله رغم أن كثيرين نوهوا بتفوق جماله الباهر، ولكن عنديتها فاقت كل الحدود.

وتراجعت ألفت هام عن فتورها فأبدلت الرضا والألفة، ونعتته بالابن الطيب، وشرعت ترسم للمستقبل صورة جديدة، مقتربة عليه مشاركة راضي في محل الغلال مستعينا بمال قمر.

ومرة قال جلال لقمر:

- لقد تحجلت عظمة آل الناجي في أشياء وأشياء، ها هي ذي تتجلى اليوم في الحب..

فابتسمت في دلال فقال:

- الحب يصنع المعجزات..

فقالت بعذوبية:

- لا تنس دورى في صنع المعجزة!
فضمها إلى صدره وهو يهيم من الوجود.

وجاء بأبيه ليزور ألفت هانم وقمر. جاء الرجل مفيناً ولكن بـ
كالسكران بنظرته الثقيلة الغائمة ونبرته المترنحة ورأسه المتقلقل. أدرك
أنه يمثل دور الوجه وأنه غريب عن ذاته وأحواله. ونظر إلى ألفت
هانم بتهيب، وشعر بأنه يتحول من شخص إلى مخلوق آخر، وعجب
كيف أنه ملك ذات يوم جمالاً يزري بهذا الجمال كلـه. وقال لألفت
هانم :

- إنـى كـما تـعلمـين يا هـانـم ولـكـنـ اـبـنـىـ جـوـهـرـةـ . . .

فـتـمـتـ مـلاـطـةـ :

- أـنتـ رـجـلـ طـيـبـ يـاـ مـعـلـمـ عـبـدـ رـبـهـ . . .

واهـتـزـ لـذـلـكـ الـاحـتـرامـ الذـىـ لـمـ يـحـظـ بـثـلـهـ أـبـدـاـ،ـ وـقـالـ مـشـيرـاـ إـلـىـ
جلـالـ :

- إـنـهـ يـسـتـحـقـ السـعـادـةـ جـزـاءـ بـرـهـ بـوـالـدـهـ . . .

وضـحـكـ ضـحـكةـ عـالـيـةـ بـلـاسـبـبـ،ـ وـسـرـعـانـ ماـ اـرـتـدـ إـلـىـ الـوـقـارـ
مـرـتـبـكـاـ.

وعـنـدـمـاـ غـادـرـ الدـارـ هوـ وـجـلـالـ سـأـلـهـ اـبـنـهـ :

- لـمـ تـقـدـمـ الـهـدـيـةـ لـلـعـرـوـسـ؟

تـذـكـرـ الـهـدـيـةـ التـىـ أـعـطـاهـ جـلـالـ إـيـاـهـاـ لـيـقـدـمـهـاـ لـلـعـرـوـسـ بـيـدـهـ فـلـمـ يـنـبـسـ،ـ
فـسـأـلـهـ جـلـالـ بـضـيقـ :

- نـسـيـتـ؟ـ . . .

فـقـالـ بـرـقةـ :

- إنها جوهرة ليس عروسك في حاجة إليها على حين أنتى في أشد الحاجة إليها.

فقال جلال بعتاب:

- هل قصرت في حقك؟

فربت ظهره قائلاً:

- أبداً ولكن مطالب الحياة كثيرة.

٤٢

وجاءت الأيام الأخيرة من عام الحداد في خريف أبيض يتنفس في عذوبة فائقة. وامتلأت السحب الشفافة بالأحلام. وألمت وعكة برد بقمر غير أنها لم تعطل الاستعدادات الموثبة للزفاف. واندفعت الوعكة في طريق مجهول فارتقت الحرارة، واضطربت الأنفاس، واشتدت الآلام، وتسلل الذبول إلى الوردة الناضرة مثل عدو ماكر خسيس خائن. ولزمت الفراش بلا حول فخبت نظرتها، واصفرَ لونها، ووهن صوتها. توارت تحت الأغطية الثقيلة، متاؤهة، تتغذى بالكراوية والليمون، وتعصب بكمادات الخل. وسهدت ألفت هام متتشنجة الأفكار، وقلق جلال فنفد صبره في انتظار ساعة الشفاء.

وخيّم على الدار شعور غامض لا يريد أن يفصح عن ذاته، وطافت بخيال ألفت اللحظات الأخيرة من حياة عزيز وعزيزة، وخيل إليها وهي تكاد تجنب أن كائناً مجهولاً قد حلَّ بالدار، وأنه يكمن في ركن من أركانها لا يريد أن ييرح.

وذات ليلة حلم جلال بأن والده يعني بطريقته الهمجية الساخرة في

٤٢٢

ساحة التكية . واستيقظ ثقيل القلب فتبين له أنه إنما استيقظ حقاً على صوت يدوى في الخارج . صوت من نوع خاص لا علاقة له بالغناء ولا بالتكية . صوات في جوف الليل يعلن صعود روح إلى مستقرها !

٢٥

شعر جلال بأن كائناً خرافياً يحل في جسده . إنه يملك حواس جديدة ويرى عالماً غريباً . عقله يفكّر بقوانين غير مألوفة وها هي ذي الحقيقة تكشف له عن وجهها .

رنا إلى الجثة المسجاة طويلاً . طوى الغطاء عن الوجه . إنه ذكرى لا حقيقة . موجود وغير موجود . ساكن بعيد منفصل عنه ببعد لا يمكن أن يقطع . غريب كل الغرابة ، ينكر ببرود أى معرفة له . متعال متعلق بالغيب . غائب في المجهول . مستحيل غامض متدفع في السفر . خائن ، ساخر ، قاس ، معذب ، محير ، مخيف ، لا نهائي ، وحيد .
وغمغم بذهول وتحذر :
- كلا .

يد غطت الوجه فأغلقت باب الأبدية . تهدمت الأركان تماماً . لسان يلعب له هازئاً . ثمة عدو يتحرك وسوف يننزله . لن يتأنوه . لم يذرف دمعة واحدة . لم يقل شيئاً . تحرك لسانه مرة أخرى مغمضاً :
- كلا .

رأى رأس أمه المنهش . خيال تراءى واختفى قبل أن تطبع صورته في وعيه . رأى الديك وهو يفقأ عينقاره الوردي عين خصمه . رأى السماء

تشتعل بالنيران . رأى بركة الدم الأحمر . ووعده المجهول بإدراك كل شيء إذا كشف الغطاء عن الوجه مرة أخرى . مديده ولكن بدا أمسكت بيده وصوت قال :

- وحد الله !

رباه أيوجد معه آخرون ؟ أيوجد آخرون في الدنيا ؟ من قال إذن إن الدنيا خالية ؟ خالية من الحركة واللون والصوت . خالية من الحقيقة . خالية من الحزن والأسى والندم . إنه في الواقع متحرر . لا حب ولا حزن . ذهب العذاب إلى الأبد . حل السلام . وثمة صداقة مت渥حة مطروحة على القوى العاتية . هنيئاً لمن يروم أن تكون النجوم خلانه ، والسحب أقرانه ، والهواء نديمه ، والليل رفيقه .

وللمرة الثالثة يغمغم :

- كلا .

٢٦

تخلى جلال عن العمل لوكيله . وجداً الراحة في المشي . يتمشى في الحرارة ، وفي الحمى ، بين البوابات والقلاع ، يجلس في القهوة وحده يدخن البوري .

وفي الليل وقف قبالة التكية . مرت به الأنعام . باستهانة طرق الباب . لم يتوقع رداً . عرف لم لا يردون . إنهم الموت الحالد الذي يتعالى عن الرد .

تساءل :

- أليس للعجار حق ؟

وأنصت للغناء فانساب الصوت في عذوبة:
صيحدم مرغ جمن با كل نوخاسته كفت
نازكم کن که درين باغ بي جون نوشكت

٢٧

واعتراض مسيرته ذات يوم الشيخ خليل الدهشان شيخ الزاوية،
فابتسم إليه برقة وقال:
- لا بأس من كلمة تقال ..
فنظر إليه ببرود فقال الشيخ:
- إن الله يمتحن من عباده الصديقين .
فقال بازدراء:
- لا جديد ، فهذا ما يقوله الديك عندما يصبح في الفجر .
فقال الرجل:
- كلنا أموات أولاد أموات .
فقال بيقين:
- لا أحد يموت .

٢٨

وكان يمر أمام البوطة في جوف الليل عندما رأى شبحاً متربعاً عرفاً
فيه أباًه عبد ربه . تأبطن ذراعه فتساءل الرجل :

٤٢٥

- من؟

- جلال يا أبي ..

وصمت السكران قليلا ثم قال:

- إنى خجلان يا بني ..

- لماذا؟

- كان الأجر أن أذهب أنا لا هي ..

- لماذا؟

- هو العدل يا بني.

فقال باستخفاف:

- يوجد شيء حقيقي واحد يا أبي هو الموت.

فقال عبد ربه معتذرا:

- ما كان يليق أن أشرب في هذه الأيام ولكنى عاجز.

فقال له وهو يسنده:

- تتمتع بحياتك يا أبي ..

٢٩

ومضى الخريف يولى ويقبل الشتاء بقوته القاهرة. وراح الهواء
البارد يسفع الجدران ويلسع العظام. وتطلع جلال إلى سحابة مظلمة
فهم بالمستحيل. ورأى ذات مرة ألفت هامن وهى راجعة من القرافة
فكرها من صميم فؤاده وبصق فى خياله على صورتها المتورمة. قبلته
كارهة ثم تخلصت منه بالموت. والموت عندها طقوس وفطائر. كلهم

٤٢٦

يقدسون الموت ويعبدونه فيشجعونه حتى صار حقيقة خالدة. لا شك في أنها اغتاظت عندما تسلم نصيبه من تركة قمر. لذلك أخذه كاملاً. ثم وزعه على الفقراء خفية. وقال لنفسه «إن علامـة الشفاء عنده أن يحطم رأس الهاـمـ المتعـجـرـةـ».

٣٠

وصادف في طريقـه جـبـرـيلـ الفـصـ شـيـخـ الـحـارـةـ فـحـيـاهـ الرـجـلـ وـقـالـ :
ـ لـ تـرـىـ يـاـ مـعـلـمـ جـلالـ إـلـاـ ذـاهـبـاـ أوـ آـثـابـاـ ،ـ عـمـ تـبـحـثـ؟ـ
ـ فـأـجـابـهـ باـزـدـرـاءـ :ـ
ـ أـجـدـ مـاـ لـأـبـحـثـ عـنـهـ وـأـبـحـثـ عـمـاـ لـأـجـدـ .ـ

٣١

وانفرد بنفسـهـ تلكـ اللـيـلـةـ فـيـ سـاحـةـ التـكـيـةـ .ـ لـاـ التـمـاسـ لـلـبـرـكـةـ وـلـكـنـ
ـ تـحدـيـاـ لـلـظـلـمـةـ وـالـبـرـدـ .ـ هـنـاـ خـلـوـةـ عـاـشـورـ .ـ هـنـاـ الـلـاشـيـءـ .ـ وـقـالـ إـنـهـ يـعـتـرـفـ
ـ بـأـنـهـ لـيـسـ عـاـشـقاـ .ـ لـاـ حـزـنـ عـلـىـ حـبـ ضـائـعـ .ـ أـنـاـ لـأـ أـحـبـ .ـ أـنـاـ أـكـرـهـ .ـ
ـ الـكـراـهـيـةـ وـالـكـراـهـيـةـ فـقـطـ .ـ أـكـرـهـ قـمـرـ .ـ هـذـهـ هـىـ الـحـقـيقـةـ .ـ هـىـ الـأـلـمـ
ـ وـالـجـنـونـ .ـ هـىـ الـوـهـمـ .ـ لـوـ عـاـشـتـ لـاـنـقـلـبـتـ عـلـىـ مـثـالـ أـمـهـاـ .ـ تـحـكـمـ بـالـغـباءـ
ـ وـتـضـاحـكـ التـافـهـ وـتـقـلـدـ الـأـمـرـاءـ وـهـىـ حـفـنةـ مـنـ تـرـابـ .ـ كـيـفـ هـىـ الـآنـ فـيـ
ـ قـبـرـهـ؟ـ قـرـبـةـ مـتـفـخـةـ تـفـوحـ مـنـهـ رـوـائـحـ عـفـنةـ ،ـ وـتـسـبـحـ فـيـ سـوـائلـ سـامـةـ
ـ تـرـقـصـ فـيـهـاـ الـدـيـدـانـ .ـ لـاـ تـخـزـنـ عـلـىـ مـخـلـوقـ سـرـعـانـ مـاـ اـنـهـزـمـ .ـ لـمـ يـحـفـظـ

٤٢٧

العهد. لم يحترم الحب. لم يتمسك بالحياة. ففتح صدره للموت. إننا نعيش ونموت بيارادتنا. ما أقبح الصحايا! دعاة الهرزيمة. الهاتفون بأن الموت نهاية كل حي. وبأنه الحق. إنه من صنع ضعفهم وأوهامهم. نحن خالدون ولا نموت إلا بالخيانة والضعف. عاشور حي. أشفق على الناس من مواجهة خلوده فاختفى. أنا خالد. وجدت ما أبحث عنه. وما يغلق الدراويش الأبواب إلا لأنهم خالدون. من شهد جنازة لهم؟ إنهم خالدون. يتغذون بالخلود ولكن لم يفهمهم أحد.

وتمل بشراب الليل المثلج.

مضى نحو القبر وهو يغمغم:

- آه يا قمر!

٣٢

وتجسدت الأفكار المحمومة في صورة نسر محلق ذي صرير يدك الأبنية.
وسأله أبوه ذات صباح وهو يتثاءب:
- لم تأخرت عن تسليم الإتاوة لسمكة العلاج?
فأجابه ببساطة وثقة:
- لا يفعل ذلك إلا الضعفاء الجبناء.
حملق الأب في وجهه برعب وسأله:
- تحدي الفتوة؟
فقال ببرود:
- أنا الفتوة يا أبي.

٤٢٨

وتعمد أن يمر أمام مجلس الفتاة بمجلسه في المقهي فسرعان ما جاء
صبي القهوة قائلاً:

- المعلم سمكة يسأل عن الصحة؟

فقال بنبرة عالية:

- أخبره بأن الصحة طيبة تتحدى الجهلاء.

اقتحم الجواب الفتاة مثل لفحة نار. وسرعان ما اندفع معاونه خرطوشة - الوحيد من رجاله الذي تصادف وجوده معه - وبسرعة خاطفة رفع جلال مقعداً خشياً وضربه به ضربة صادقة فانطرح على ظهره فاقد الوعي . وأخذ جلال نبوته ووقف ينتظر سمكة العلاج الذي أقبل مثل وحش ضار . وتدفق سيل المترجين ، وتنادي رجال الفتاة من الأركان . وتبادل الرجال ضربتين ، ولكن حسمت المعركة في ثوان . كان جلال قوة خارقة حقاً . تهاوى سمكة العلاج مثل ثور ذبيح .

وقف جلال بجسمه العملاق في حالة من لهيب التحدى والغضب .
وغزا الخوف قلوب الرجال فلم يكن في العصابة من هو جدير بخلافة
سمكة إلا خرطوشة المنظر إلى جانبه . وبعض الرجال من يضمرون
الحقد للعصابة أنهال على أفرادها بالطوب منضمين إلى جلال .
وسرعان ما تقررت السيادة لمن يستحقها .

هكذا وثبت جلال عبد ربه بن زهيرة إلى الفتونة بكل جدار، وهكذا
رجعت الفتونة إلى آل الناجي ..

٣٥

قال له أبوه ووجهه يومض بالفرح :
ـ ما تصورت أن تكون فتوة رغم قوتك الهائلة ..
فقال جلال باسمه :
ـ وما تصورت ذلك ولا جرى لى فى بال ..
فقال عبد ربه بفخار :
ـ كنت مثلك في القوة ولكن الفتونة قلب وطموح !
ـ صدقت يا أبي ، كنت أعد نفسي للواجهة ، ثم جاءنى ذلك في
جوف خاطر مباغت ..
فضحك الأب وقال :
ـ كأنك عاشرت نفسه في قوته فأسعد نفسك ، وأسعد أهل حارتكم ..
فقال بتؤدة :
ـ فلنؤجل الحديث عن السعادة يا أبي ..

٣٦

أصبح يتحرك بإلهام القوة والخلود . رسم لنفسه طريقا . تحدى
فتوات الحارات ليستثمر فائض قوته . تغلب على العطوف والدراسة

٤٣٠

وكفر الزغاوى والحسينية وبولاق . كل يوم كان المزمار يزف للحارة
بشرى نصر جديد .

غدا فتوة الفتوات وتاج القوة والسيادة كما كان عاشور وكما كان
شمس الدين .

وسعد الحرافيش مؤملين فيما عرف عنه من كرم وسجايا حميده ،
كما انزعج الوجهاء وتوقعوا حياة موسومة بالكبح والعنا .

٣٧

وتاه عبد ربه عزة وكرامة ، وراح يبشر فى البوطة بالعهد الجديد . إنه
يستقبل الآن بالإجلال والإكبار ، ويلتف حوله السكارى يتسمون منه
الأخبار فيقول :

- رجع عاشور الناجى .

ويفرغ القرعة فى جوفه ويواصل :

- فليسعد الحرافيش ، ليسعد كل محب للعدل ، سيتوافق الرزق لكل
مسكين ، سيعرف الوجهاء أن الله حق !

فيسأل سنقر الشمام الخمار :

- وعد بذلك المعلم جلال ؟

فيقول بثقة وثبات :

- ما طمح إلى الفتونة إلا من أجل ذلك !

٤٣١

دان له الأصدقاء والأعداء. ليس ثمة قوة تتحداه ولا مشكلة تشغله بالله.

يتمتع طيلة الوقت بالسيادة والجاه والمال. اكتنفه الفراغ وتسلل إليه التشاوب. ترکر تفكيره في ذاته. تجسست له حياته في صورة بارزة واضحة المعالم والألوان حتى النهاية الحادة العابثة. بدءاً من رأس أمه المهمش، ومعاناة الحرارة المهيضة، وموت قمر الساخر، وقوته المهيمنة بلا حدود، وقبر شمس الدين الذي يتضرر الركب راحلاً في إثر راحل. ما جدوى الحزن؟ ما فائدة السرور؟ ما مغزى القوة؟ ما معنى الموت؟ لماذا يوجد المستحيل؟

وسأله أبوه ذات صباح:
 - الناس يتساءلون متى يتحقق العدل؟
 فابتسم جلال بامتعاض وتمتنع متسائلاً:
 - ما أهمية ذلك؟
 فقال عبد ربه بدهشة:
 - إنه كل شيء يا بنى...
 فقال بازدراء:

- إنهم يموتون كل يوم وهم مع ذلك راضون!

- الموت علينا حق، أما الفقر والذل فيبيك محقهما!

فصاح جلال :

- اللعنة على الغباء.

فتسائل عبد ربه بأسى :

- ألا ت يريد أن تختذل مثال عاشر الناجي؟

- أين عاشر الناجي؟

- في أعلى عليين يا بني.

فقال بازدراء :

- لا أهمية لذلك ..

- أعوذ بالله من الكفر ..

فقال بوحشية :

- أعوذ بالله من اللاشىء !

- لا أتصور أن يمضى ابني كما مضى سمكة العلاج ..

- لقد انتهى سمكة العلاج كما انتهى عاشر.

- كلا، جاء كل من طريق مختلف وذهب إلى طريق مختلف ..

فنهض محتدا وقال :

- لا تزد من همى يا أبي، لا تطالبنى بشئء، لا يغرنك ما بلغت

واعلم أن ابنك رجل غير سعيد ..

يئس عبد ربه وكف عن الحديث عن الفردوس المعهود. وقال وهو في غاية من السكر:

إرادة الله فوق كل إرادة وما علينا إلا الرضا.

ويئس الحرافيش وتساءلوا:

لم لا نشك في الماضي ليرتاح بالناد؟!

واستنام الوجهاء إلى الطمأنينة، أدوا الإتاوات، وقدموا الهدايا بلا حساب.

ومضى جلال بقلب أجوف تتلاطم فيه رياح الكآبة والقلق، وبظاهر متألق ينضح بالقوة والسيادة والنهم. بدا أول ما بدا أنه وقع أسير العشق المال والتملك. شارك أخاه راضى في محل الغلال، كما شارك الشباب والبنان والعطار وغيرهم. لا شبع من ناحيته. وترحيب حار من ناحيتهم ليثبتوه في أرض الوجاهة والسؤدد. غدا أكبر فتوة وأكبر تاجر وأغنى غنى، وفي الوقت نفسه لم يتهاون في جمع الإتاوات وتقبل الهدايا، ولم ينعم بخيره إلا رجال عصابته حتى عبدوه عبادة. وشيد عمارات كثيرة، كما شيد إلى يمين السبيل دارا خيالية، سميـت بحق بالقلعة لجلالها وكبرها، وفرشها بفاخر الأناث، وحلـلاها بالتحف، كأنـه حلم الحالـدين. ورفـل في الثيـاب الغـالية، وتنـقل بالدوـكار والـكارـنة، وتوهـج الـذهب فيـ أسنانـه وأـصـابـعـه.

ولم يكتـرث لحالـ الحرـافـيش ولاـ عـهـدـ النـاجـيـ، لاـ عنـ أناـنـيةـ أوـ ضـعـفـ أـمامـ مـغـريـاتـ الـحـيـاةـ، ولـكـنـ اـزـدـرـاءـ لـهـمـوـهـمـ، وـاستـهـانـةـ بـمـكـلـاتـهـمـ.

والعجب أنه كان بطبعه أميل إلى الزهد، واحتقار مطالب البدن، وكان ما يدفعه إلى الجاه والمال والتملك قوة عمياء مجهرة، جوهرها القلق والخوف، كأنما كان يتحصن ضد الموت، أو يوثق علاقته بالأرض حذرا من غدره. لقد غرق في خضم الدنيا ولكنه لم يغفل قط عن خداعها، لم تخدره ابتسامتها، لم يطربه عذب حديثها، كان حاد الشعور بلعبتها المرسومة، وغايتها المقصودة. لم يأنس للخمر ولا المخدر ولا الهوى ولا التكية، وكان إذا خلا إلى نفسه تأوه قائلا:

ـ ما أشد عذابك أيها القلب !

٤١

ويوما سأله أخوه راضى ولعله كان صديقه الوحيدة:
ـ لم لا تتزوج يا أخي؟

فضحك جلال ولم يجب فراح راضى يقول:
ـ الأعزب موضع تساؤل دائما.
فسؤاله ساخرا:

ـ لم الزواج يا راضى?
ـ إنه المتعة والأبوة والخلد.

فضحك جلال عاليا وقال:
ـ ما أكثر الأكاذيب يا أخي!

فتساءل راضى:
ـ من تجمع هذه الأموال؟

يا له من سؤال! أليس الأجدر بهثله أن يحيا حياة الدراويش؟ ها هو ذا

٤٣٥

الموت يطارده دائماً. ها هو ذا رأس زهيرة ووجه قمر يتجسدان من جديد. لن تنفعه القلعة ولا النبوت. سيذوي بهاء هذا الجمال المتألق. ستتقوص أعمدة هذه القوة الشامخة. سيرث المال قوم آخرون وهم يغمزونه بالسخريات. ستعقب الانتصارات الباهرة هزيمة أبدية.

٤٢

على أريكة الفتونة يتربع في المقهي. تمثال من الجمال والقوة يبهر الأنوار ويهاز القلوب. تتكاثف الظلمات في جمجمته لا يدرى بها أحد. يتسلل شعاع إلى الظلمات في صورة بسمة متألقة بالتحية والإغراء. بسمة ترك أثرا في الظلام. من هذه المرأة؟ امرأة من بنات الهوى، تقيم في شقة صغيرة فوق بنك الرهونات، يعشقها الوجهاء. تحبيه كلما مرّت التحية اللائقة بسيد الأحياء.

لا يرفض التحية ولا يستجيب لها. ولا ينكر أثرها الملطف لعذاباته، متوسطة التكوين، ريانة الجسد. جذابة الملامح. زينات. وأنها تصيغ شعرها بلون الذهب دعيت زينات الشقراء. لا ينكر أثرها الملطف لعذاباته ولكنه لا يريد أن يستجيب لها. طالما كبحت شهواته تحت ضغط انهماكه في القتال، والبناء، وجمع المال، ومعانقة الملل.

٤٣

وذات مساء استأنفت زينات الشقراء في مقابلته. استقبلها في بهو الضيوف. تركها تنبهر بالأثاث، بالتحف، بالقناديل المزركشة. تجردت

من ملاعاتها وبرقها ، جلست على ديوان قطعة من الفتنة المسلحة .
وتساءلت برشاقة :

- ترى كيف أعمل حضوري؟ أأقول مثلا إنني أريد تأجير شقة في
عمارتك الجديدة؟

فوجد نفسه يجاملها قائلاً :
- لن يطالبك أحد بتعليق ..

فضحكت راضية وقالت بصراحة :

- قلت لنفسي فلتزره ما دام يدخل علينا بالزيارة ..

شعر بأنه هبط أولى درجات الإغراء ولكنه لم يحفل بذلك وقال :
- حللت أهلاً وسهلاً !

- شجعني لطفك الذي تقابلني به كل أصيل ..
ابتسم . وتردد سؤال خلف الابتسامة : إلام آل حال قمر في قبرها
اليوم؟ وسألته بجرأة عجيبة :

- ألم أعجبك؟

قال بصدق :

- إنك تحفة ..

- وهل مثلك يشعر ولا يفعل؟!

فتمتم في حيرة :

- غابت عنك أشياء ..

- إنك أقوى الرجال فكيف تنام كما ينام الفقراء؟
قال ساخراً :

- الفقراء ينامون نوماً عميقاً!

- وكيف تنام أنت؟

- لعلى لا أنام !

فضحكت بعذوبة وقالت :

- سمعت من أهل العلم أنك ما شربت في حياتك قرعة ولا دخنت نفسا ولا مسست امرأة ، أهذا صحيح ؟

لم يدر بماذا يجيب ولكنه شعر بأنها ستتحقق ما تريده . أما زينات فواصلت :

- أقول لك إن الحياة ليست إلا الحب والطرب .
فتساءل متظاهرا بالدهشة :
- حقاً ؟

- ما عدا ذلك فإننا نتركه وراءنا للغير !
فقال بامتعاض :

- ونترك أيضا الحب والطرب !
- كلا ، إنما يمتصان بالجسد والروح ولا يرثهما أحد !
- يا لها من لعبة سخيفة !

فقالت بحرارة :
- لا عشت يوما بلا حب أو طرب ..

- إنك امرأة مدهشة ..
- امرأة وكفى !

- لا يهمك الموت ؟!
- إنه علينا حق ولكنني لا أحب سيرته ..
حق ؟ حق ! وسألتها :

- أتعرفين شيئا من سيرة شمس الدين الناجي ؟
فقالت بفخار :

- طبعاً، من حارب متحدياً الكبر ..

- تحدى الكبر بعناد.

فقالت بنعومة :

- السعداء حقاً من ينعمون بشيخوخة هادئة!

فقال بتحدى :

- السعداء حقاً من لا يعرفون الشيخوخة!

فانقضت لتغييره وقالت بإغراء :

- أنت لا تملك إلا هذه الساعة ..

فقال ضاحكا :

- موعدة مناسبة لمقدم الليل ..

فأغمضت عينيها مرهفة السمع حتى وضح زفيف الرياح وسمع
هطول الأمطار فوق النوافذ المغلقة.

٤٤

وسرعان ما صارت زينات الشقراء عشيقة لجلال عبد ربه الناجي.
دهش الناس ولكنهم قالوا هو خير على أى حال من سوء الذكر وحيد.
وتتجنبها عشاقها القدامي فأصبحت له وحده. علمته كل شيء. انضمت
إلى تحف الدار قرعة مذهبة وجوزة مدندرة. لم يأسف على شيء،
وقال إن للحياة مذاقا لا يأس به. وأحبته زينات حباً ملك عليها نفسها،
وداعبها حلم غريب أن تصبح حليلة له ذات يوم. ومن عجب أن حبه
القديم لقمر بعث أيضاً كذكراً خالدة مفعمة بالعذوبة. أدرك أنه لم

يهجره أبداً. لا شيء يزول. ولا حب أمه. سيظل مدينا لرأس أمه ووجه قمر بمعرفة مأساة الحياة، ولحن الحزن الخافت المتردد تحت سطح الأنوار الباهرة والانتصارات المتألقة. ولم يعرف لزيادات عمراً، لعلها تماثله في عمره أو تكبره، وسيظل ذلك سراً، وقد تعلق بها، فهو حب جديد؟ وتعلق بالقرعة والجوزة. إنه مدين لها أيضاً بفاتن جوهرية مثيرة للفرح والقلق، ولا يرى أساساً من التسليم للتيار.

٤٥

ورأى أباه «المعلم» عبد ربه يخلو إليه باهتمام، ويسأله:
- لم لا تتزوج؟ أليس الحلال أفضل من الحرام؟
فلم يحر جواباً فقال عبد ربه:
- ولتكن زينات كما فعل عاشور..
فهزَّ رأسه منكراً فقال الأب:
- على أي حال لقد صدقت عزيمتي أنا على الزواج!
فقال جلال بذهول:
- إنك يا أبي في الستين!
- لم لا؟!
وضحك عبد ربه ثم قال:
- صحتي حسنة بالرغم من كل شيء، واعتمادي بعد الله على المعلم
عبد الخالق العطار..
- ومن العروس؟

فقال بباهة :

- بنت زوجة الفسخاني ، بنت حلال في العشرين من عمرها ..

فسألها باسما :

- أليس الأفضل أن تختار سيدة تقاربك في السن؟

- كلا ، لا يرجع الشباب إلا الشباب ..

فتم جلال :

- فليسعدك الله يا أبي ..

وجعل عبد ربه ينوه بالعطار وسحره ، وقدرته على رد الإنسان إلى
شبابه ..

٤٦

زفت فريدة الفسخاني إلى المعلم عبد ربه . وأقاما في جناح بالقلعة
دار جلال الفخيمة . وطيلة الوقت كان جلال يفكر في سحر المعلم
عبد الخالق العطار .

ودعاه ذات ليلة إلى داره فانسطلما معا ، وتسليا بتناول الفاكهة
والحلوى . وقال له جلال بجدية :

- ما يدور بيننا فهو سر ..

فوعد المعلم عبدالخالق بذلك سعيداً بالنزلة الجديدة التي أنزله الفتوة
فيها وسأله جلال :

- علمت أنك ترد الكهول إلى الشباب؟

وبابتسامة ثقة أجاب العطار :

- بعون الله تعالى.

فقال جلال باهتمام :

- لعله أيسر لك أن تحافظ على الشباب؟

- هذا مسلم به.

فتتور وجه جلال بالارتياح وتنعم :

- لعلك أدركت ما تعنيه دعوتي لك يا معلم عبد الخالق.

فتتظر العطار ملياً متهدباً ثقل الأمانة وقال :

- ولكن العطارة ليست بكل شيء. لابد أن تسبقها وتسايرها إرادة عاقلة ..

- ماذا تعنى؟

فقال عبد الخالق بحذر :

- لا بد من الصراحة فهل تشعر بأي ضعف من أي نوع كان؟

- إنى في تمام العافية!

- عظيم، عليك أن تتبع نظاماً دقيقاً لحد التقديس ..

- تكلم ولا تلغز!

- الطعام ضروري ولكن المغالاة ضارة.

فقال جلال بارتياح :

- هذا ما تتطلبه تقالييد الفتونة الرشيدة ..

- الشرب قليله منشط وكثيره ضار.

- معقول.

- الجنس يجب أن تتم ممارسته في نطاق الطاقة بلا تحمل ..

- لا بأس.

- الإيمان عظيم الفائدة.

- جميل.

فقال المعلم عبد الخالق :

- عندما يتوافر ذلك كله تجئ وصفة العطار بالمعجزات ..

- أهى مجربة؟

- بشهادة كثيرين من الوجهاء! بعضهم يحافظ على شبابه حتى يرعب من حوله!

فلماعت عينا جلال بضوء بهيج ، فقال عبد الخالق :

- بنصيحتى وياذن الله يجب أن يعمر الإنسان حتى المائة ، وليس ما يمنع من أن يعيش بعد ذلك حتى يتمنى قدوم الأجل !

فابتسم جلال بشيء من الوجوم ثم تسأله :

- وبعد ذلك؟

فقال العطار باستسلام :

- الموت علينا حق ..

ولعن جلال في سره الشيطان وقال إنهم متفقون أجمعون على
تقديس الموت ..

٤٧

وذات ليلة سأله زينات الشقراء وهم في غاية من الانسجام
والانبساط :

- لم لا تحقق آمال الحرافيس؟

فرمقها بدھشة وسألها :

٤٤٣

- مَاذَا يهْمِكُ مِنْ ذَلِكَ؟

فَقَبْلَتِهِ وَقَالَتْ بِإِخْلَاصٍ:

- كَيْ تَطَارِدُ الْحَسَدَ فَالْحَسَدُ قَاتِلٌ!

فَهَزَّ مِنْكِيهِ اسْتِهَانَةً وَقَالَ:

- أَصَارَ حَكَّ بِأَنِّي أَحْتَقِرُ النَّاسَ ..

- وَلَكُنْهُمْ مَسَاكِينٌ!

- لِذَلِكَ أَحْتَقِرُهُمْ!

وَتَقْلُصَ وَجْهُهُ الْجَمِيلِ تَقْزِزًا ثُمَّ قَالَ:

- لَا تَشْغُلُهُمْ إِلَّا لِقَمَةِ الْعِيشِ ..

فَقَالَتْ بِإِشْفَاقٍ:

- أَفْكَارُكَ تَخِيفُنِي ..

- لَمْ لَا يَسْلِمُونَ لِلْجَوْعِ كَمَا يَسْلِمُونَ لِلْمَوْتِ؟!

اجتاحتها ذكريات صباها مثل عاصفة ترابية خانقة فقلت:

- الجَوْعُ أَفْظَعُ مِنَ الْمَوْتِ ..

ابتسم مسبلاً جفنيه على نظرة احتقار باردة.

مضت الأيام وجلال يزداد قوة وجمالاً وبهاء. يمشي الزمن على
أديمه غير تارك أثراً كأنه الماء يمشي على مرآة مصقوله. زينات نفسها
تغير كما يتغير كل شيء من حولها، رغم عنايتها الكبيرة بجمالها.
وادرك جلال أنه يخوض بعناد المعركة المصيرية الحقيقة المقدسة. وقال

لنفسه : «إنه من المؤسف حقاً أن الختام حتم، قد يؤجل بعض الوقت ولكن أين منه المفر؟».

٤٩

وتوثقت الصداقة بينه وبين المعلم عبد الخالق العطار. وكان من رأى المعلم عبد الخالق أنه لو لا فداحة تكاليف الوصفة لصارت حارتهم حارة المعربين .

وفكر جلال أكثر من مرة في أن يشرك زينات في الوصفة السحرية ولكنه كان يتراجع عن فكره دائمًا . لعله بدأ يخشى سيطرتها وسحرها فكره تحصينها ضد الزمن الجبار . كان يحبها أكثر الوقت ولكن تمر لحظات يود أن يتقم منها ويتصدقها في أقرب مزبلة . لم تكن علاقته بها بسيطة واضحة . كانت تنداح في شبكة معقدة من العلاقات فتتدخل مع ذكري أمه ، ذكري قمر ، عدوته للموت ، كرامته ، وتعلقه الآسر بها وكان ما يحنته أكثر من سواه ما ييدو عليها أحياناً من طمأنينة راسخة وثقة بالنفس لا حدود لها ، ما هي ذي ترهق بالشراب والشهر ، ويلتهب جلدتها بالمساحيق ، فهل تلحظه خفية بالحسد؟

٥٠

وسائل مرة المعلم عبد الخالق :

- سمعت ولا شك عن حكاية عاشور الناجي؟

٤٤٥

- حكاية محفوظة يا معلم ..

فقال جلال بعد تردد :

- إنى أعتقد أنه ما زال حيا !

فذهل عبد الخالق ولم يدر بماذا يجيب . كان يعلم أن عاشر ولى عند قوم ولص لقيط عند آخرين ، ولكنهم يسلمون جميعاً بموته . وواصل جلال قائلاً :

- وإنه لم يمت !

وقال عبد الخالق :

- كان عاشر رجلاً صالحاً والموت لا يخطئ الصالحين ..

فتساءل جلال متحجاً :

- أينبغي أن يكون الإنسان شريراً كي يخلد ؟

- الموت حق ، ولكن لا يتطلع إلى الخلود مؤمناً !

- أعلى يقين أنت من ذلك ؟

فخاف عبد الخالق وقال :

- هكذا يقولون والله أعلم ..

- لم ؟

- أعتقد أن الخلود لا يتاح لإنسان إلا بمؤاخاة الجن ..

فاشتعل جلال باهتمام داهم حاد وقال :

- حدثني عن ذلك ..

- مؤاخاة الجن ، الخلود واللعنة الأبدية ، التحام الإنسان بالشيطان إلى الأبد ..

فتساءل جلال وهو يتمادي في الاهتمام :

- حقيقة هذا أم هذيان ؟

فتردد عبد الخالق ثم قال :

- لعله حقيقة !

- زدنا تفسيرا ..

- لماذا ؟ أتفكر حقاً في تلك المغامرة ؟

فضحشك جلال ضحكة عصبية وقال :

- ليس إلا أنني أحب أن أعرف كل شيء ..

فقال عبد الخالق ببطء :

- يقال إن .. شاور ..

فتسائل جلال :

- ذلك الشيخ المجهول الذي يدعى قراءة المستقبل ؟

ذلك عمله الظاهر ، ولكنه ينطوي على أسرار مرعبة ..

- لم أسمع عن شيء من ذلك ..

- إنه يخاف المؤمنين ..

- وهل تصدق ذلك ؟

- لا أدري يا معلم ولكنه أمر لعين ..

- الخلود ؟

- مؤاخاة الجن !

- إنك تخاف الخلود !

- يحق لي ذلك ، تصور أن أبقى حتى أشهد زوال دنياي . يذهب الناس رجالا ونساء ، وأبقى غريبا وسط غرباء ، أفر من مكان إلى مكان ، أبيت مطاردا أبدا ، أجن ، أغمى الموت ..

- وتحافظ على شبابك إلى الأبد ؟

- وتنجب أبناء وتفر منهم ، وكل جيل تعد نفسك لحياة جديدة ، وكل

جيل تبكي الزوجة والأبناء ، وتنجنس بجنسية الغربة الأبدية ، لا يربطك بأحد اهتمام أو فكر أو عاطفة ..

وهتف جلال :

- كفى ..

وضحك الرجالان طويلا ، وتعتم جلال :

- ياله من حلم !

٥١

كان شاور يقيم فى بدروم كبير يقع أمام حوض الدواب مباشرة . متعدد الحجرات ، وبه للنساء قاعة استقبال ، وللرجال قاعة . وهو شخصية خفية لم تقع عليها عين . يستقبل مريديه فى حجرة مظلمة فى الليل ، فيسمع صوته ولا يرى له أثر . أكثر زياته من النساء ولكن الملمات قد تدفع بعض الرجال إلى حجرته المظلمة . يسأل ويجيب ويقدم الحلوان عادة إلى جارية جبشية تدعى حواء .

أرسل جلال فى طلبه ولكن طلبه قوبيل بالرفض ، وقيل له إنه يفقد خواصه الساحرة خارج حجرته . كان على جلال إذن أن يتستر ، يتسلل بليل إلى مقامه ، متأخرا حتى يضمن خلو المكان .

مضت به حواء إلى الحجرة . أجلسته على شلتة طرية وذهبت . وجد نفسه فى ظلام حalk . حملق فلم ير شيئا كأنما فقد الزمان والمكان والبصر . وقد نبه عليه أن يلوذ بالصمت ، ألا يبدأ بالكلام ، أن يجيب على قدر السؤال . مضى الوقت ثقيلا خانقا . كأنه نسى تماما . أى سخرية ؟ لم يلق مهانة كهذه منذ تبوأ عرش الفتونة . أين جلال الجبار ؟

٤٤٨

حتماً يصبر ويتضرر؟ الويل للإنس والجن إذا تمحضت مغامرته عن لا
شىء ..

٥٢

انطلق من الظلام صوت عميق مؤثر هادئ يسأل:
- اسمك؟

تنهد في ارتياح وأجاب:
- جلال الفتوة.

- أجب على قدر السؤال، اسمك؟
فوسع صدره وأجاب:
- جلال عبد ربه الناجي.

- على قدر السؤال اسمك؟
فأجاب بحدة:
- جلال.

- اسم أمك؟

غلى دمه بسرعة مخيفة. رأى رغم الظلمة ألواناً جهنمية.
سؤال الصوت بالالية وتحدى:

- اسم أمك؟

أجاب كاظماً:

- زهيرة.

- ماذا تريدين؟

٤٤٩

تردد قليلاً ولكن الصوت لم يمهله فتساءل:

ـ ماذا تريـد؟

ـ أن أعرف ما يقال عن مؤاخاة الجن.

ـ ماذا تريـد؟

ـ لقد قلت.

ـ ماذا تريـد؟

فاجتـاحـه الغضـب وتسـاءـلـ منـذـرا:

ـ ألم تـعـرـفـ منـ أـكـوـنـ؟

ـ جلالـ بنـ زـهـيرـةـ.

ـ أـسـتـطـعـ أـطـحـنـكـ بـضـرـبةـ وـاحـدـةـ.

ـ كـلـاـ.

ـ قـيـلـتـ بـكـلـ ثـقـةـ وـطـمـانـيـةـ فـهـتـ جـلالـ:

ـ تـرـيـدـ أـنـ تـجـربـ؟

ـ فـتـسـاءـلـ الصـوتـ بـبـرـودـ وـلـاـ مـبـالـةـ:

ـ ماـذاـ تـرـيـدـ؟

ـ لـمـ يـجـبـ.ـ لـمـ يـقـدـمـ عـلـىـ فعلـ.ـ عـادـ الصـوتـ:

ـ ماـذاـ تـرـيـدـ؟

ـ أـجـابـ مـتـنـازـلـاـ عـنـ كـلـ شـيـءـ:

ـ الـخـلـودـ.

ـ لـمـاـذاـ؟

ـ هـذـاـ شـائـنـيـ.

ـ الـمـؤـمـنـ لـاـ يـتـحدـىـ إـرـادـةـ اللـهـ.

ـ أـرـيـدـ ذـلـكـ وـأـنـ مـؤـمـنـ.

- إن ما تطلب خطير .
- فليكن .
- سترى الموت ولن تناه .
فقال بقلب خفاقي :
- ليكن .

سكت الصوت . هل ذهب ؟ وقع مرة أخرى في الضياع . تلهف عليه
بأعصاب مزعجة . حملق بقوة ولكنه لم ير شيئا .

٥٣

ورجع الصوت بعد عذاب . تساءل :
- أأنت على استعداد لتقديم ما يطلب منك ؟
أجاب بلا تردد :
- أجل .

- أن توقف على جاري حواء كبرى عماراتك للتکفير بريوها عن
ذنبى .

تفكر قليلا ثم قال :
- أوفق .

- أن تشيد مئذنة ارتفاعها عشرة طوابق .
- في الزاوية ؟

- كلا .

- زاوية جديدة ؟

٤٥١

- كلاماً مثذنة مستقلة . .
- ولكن . .
- دون مناقشة .
- أوافق .
- عش عاماً كاملاً في جناحك ، لا ترى أحداً ، لا يراك إلا خادمك
تجنب ما يذهلك عن نفسك . .
- فانقضض قلبه ولكن قال :
- أوافق .
- في اليوم الأخير يتم الالتحام بينك وبين الجنى ثم لا تذوق الموت
أبداً .

٥٤

أوقف جلال عبد ربه الناجي كبرى عماراته على حواء الجارية الحبشية . اتفق مع مقاول على تشيد المذذنة العملاقة في إحدى الخرابات ، وقد امثل الرجل لما يطلب منه ؛ طمعاً في المال ، وخوفاً من البطش . وعهد بالعصابة إلى وكيله مؤنس العمال مزوداً إياه بكافة الإرشادات . أُعلن عن عام اعتزاله معتلاً بأنه يوفى بنذر نذرته . وقع في جناحه يسجل الأيام كما فعل سماحة في مهجره ، متجلباً القرعة والجوزة وزينات الشقراء . ومني نفسه بالفوز في أكبر معركة خاضها بشر .

تلقت زينات الشقراء قراره كأنه ضربة قاتلة. قطيعة أليمة غير مسبوقة بتمهيد، وبلا سبب مقنع. إنها المرارة والخوف واليأس. ألم يكونا كالزبدة والعسل حلاوة وامتزاجا؟ وأمنت بأنها ملكته إلى الأبد. ها هو ذا يغلق الباب مثل دراويش التكية هاجر أحبابه في الحيرة والعذاب. بكت طويلاً والخدم يصدونها عن الجناح. زارت أخاه المعلم راضى فوجده فى حيرة ماثلة.

جالست أبا عبد ربه في جناحه. لقد تغير العجوز فلم يعد يزور البوظة إلا فيما ندر. استقام وخشع. وهو مثلها في حيرة من أمر ابنه. قال:

- لا أستطيع رؤيته رغم أننا في دار واحدة ..

عانت زينات حياة معذبة. لم يكن المال ينقصها ولكنها فقدت تاج الحياة، تزعزع ثقتها بنفسها، وتجهمها المستقبل الغامض.

وجزعت العصابة وأضطررت. لم يملا مؤنس العال عين أحد ولكنهم التزموا بطاعته. وتساءلوا أى نذر نذر، ولم يعهد بالفتونة لآخر، وتجارته وأملاكه للأخие راضى؟

وتسرب النبأ الخطير إلى الحوارى المنافسة، وبرور الزمن أعلن

الفتوات التحدى من جديد . وتلقى مؤنس العال أولى هزائمه على يد فتوة العطوف ، ثم تابعت الهزائم أمام كفر الزغاوى والحسينية وغيرهما ، حتى اضطر مؤنس العال لشراء أمن الحارة وسلامتها بالإتاوات . وأراد رجاله إبلاغه بما آل الحال إليه ولكن حيل بينهم وبين ذلك ، وكأنه الموت قد انتزع فتوتهم منهم ودفنه فى جناح محكم الإغلاق .

٥٧

وتبع الناس بذهول بناء المذنة الغربية ، وتواصل ارتفاعها إلى ما لا نهاية ، من أصل ثابت فى الأرض بلا جامع أو زاوية ، لا يعرف لها هدف أو وظيفة ، حتى الذى يقوم بتشييدها لا يعرف شيئاً عنها . وتساءل قوم :

ـ هل مسه جنون؟

أما الحرافيش فقد قالوا إنها اللعنة حلت به جراء خيانته لعهد جده العظيم ، وتجاهله لرجاله الحقيقيين ، وجشعه الذى لا يقنع بشيء .

٥٨

ومرت الأيام وهو مستغرق فى عزلته . يقتلع كل يوم من قلبه جذور العالم الخارجى ، الفتونة والمال والمرأة المحبة الجميلة . يستسلم للصمت والوعى والصبر . يسلبه الأمل والفوز الذى لم يطمح إليه إنسان من

٤٥٤

قبل . عاشر الزمن وجهاً لوجه بلا شريك . بلا ملهاة ولا مخدر . واجهه في جموده وتوقفه وثقله .

إنه شيءٌ عنيد ثابت كثيف وهو الذي يتحرك في ثنائيه كما يتحرك النائم في كابوس . إنه جدار غليظ مرهق متجمد . غير محتمل إذا انفرد بمنزه عن الناس والعمل . كأننا لا نعمل ولا نصادق ولا نحب ولا نلهم إلا فراراً من الزمن .

الشكوى من قصره ومروره أرحم من الشكوى من توقفه . عندما يدركه الخلود سيجرب آلاف الأعمال بلا خوف وبلا كسل . سيخوض المارك بلا تدبر . سيسخر من الحكمة كما يسخر من الحماقة . سيتقلد ذات يوم عمادة الأسرة البشرية . أما اليوم وهو يزحف فوق الثنائي فهو يسطر راحتيه سائلاً الرحمة . . ويتساءل : متى يجيء الجان؟ وكيف يؤاخيه؟ هل يراه رؤية العين؟ هل يسمع صوته؟ أم أنه يتلحم به مثل الهواء الذي يتنفسه . إنه مرهق ضجر ، لكنه لن يلين للخور . لن يخسر المعركة . ليتألم وليبك إذا شاء . إنه مؤمن بما يفعل . لن يتراجع . لن يخشى الخلود . لن يعرف الموت . سيظل الكون خاضعاً لتقلبات الفصول الأربع ، أما هو فربيع دائم . سيكون طليعة كون جديد . أول مستكشف للحياة بلا موت ، أول رافض للحياة الأبدية . القوة الظاهرة الخفية . إنما يخشى الحياة الضعفاء . أما معاشرة الزمن وجهاً لوجه فعذاب لا يعرفه الخيال . .

وقف جلال عارياً أمام نافذة مفتوحة في آخر يوم من العام المكتوب . استقبل شعاع شمس مغسولاً بروطبة الشتاء ، وتلقى نفحات باردة من

ريح متأنية. آن للمتصبر أن يجني ثمرة تصره. آن للليل الضنى والإرهاق والوحدة أن يتنهى. لم يعد جلال عبد ربه الإنسان الفانى . إنه ثمل بروح جديدة تملأً أعطافه، تسكره بالإلهام، تفخمه بالقوة والثقة. بوسعيه أن يحدث نفسه فيحدث الآخر في آن، وأن يشق كل الثقة بما يهمس في ضميره. انتصر على الزمن بعد صموده أمامه وجهاً لوجه بلا رفيق. لا خوف منه بعد اليوم.

فليهدد غيره بجريانه المنحوس. لن يبتلى بالتجاعيد ولا بالشيب ولا بالوهن. لن تخونه الروح، لن يحمله نعش، لن يضممه قبر. لن يتحلل هذا الجسد الصلب، لن يتحول إلى تراب. لن يذوق حسرة الوداع.

تجول عارياً في الحجرة وهو يقول بطمأنينة:
- مباركة هذه الحياة الأبدية ..

٦٠

فتح الباب بعصبية واقتحمت الحجرة زينات الشقراء. طارت نحوه مجنونة بالأسواق فذاباً في عنق حار طويل. انتحبت باكية. سأله بتعاب حار:

- ماذا فعلت؟

قبل خديها وشفتيها فعادت تتساءل:

- كيف هنت عليك؟

اجتاحته الحنين إليها. شئء ثمرين جميل عابر. يراها شابة جميلة وعجوزاً دمية. كذبة عذبة. كان الإخلاص أصبح مستحيلا. قال لها:

- لنسس ما فات . .
- ولكنى أريد أن أعرف . .
- كأنه مرض وانتهى . .
- يا لك من خائن !
- يا لك من امرأة مليحة !
- أتدرى ماذا حصل للدنيا فى غيابك ؟
- فلنؤجل الحديث عن ذلك . .
فتراجع رأسها وقالت بانبهار :
- ما أجمل منظرك !
فانقبض قلبه وتختتم وهو يرمقها برثاء :
- آسف على ما عانيت . .
فقالت بعناد :
- سأسترد صحتى بعد ساعات . . ولكن ما سرك ؟
فقال بعد تردد :
- كنت مريضاً وشفيت . .
- كان ينبغي أن ألزم جانبك . .
- كان العلاج هو الوحيدة !
وضمته إلى صدرها وهي تقول بشغف :
- دعني أرى إن كان الحب ما زال هو الحب . . ، أما آلامي وأحزاني
فسأشحدثك عنها فيما بعد . .

جلس فى بھو الضيوف فاستقبل المعلم عبد ربه والمعلم راضى فى عناق صادق . وسرعان ما جاء مؤنس العال ورجال العصابة . قبلوه باحترام وقال له مؤنس محزونا :
 - ضاع كل شيء لم يكن باليد حيلة . .

وفي موكب من رجاله خرج إلى الحارة ، ومضى إلى المقهى .
 اجتمعت الحارة كلها في الطريق تحبيه فاختلط المحب بالكاره ، والمعجب بالخاسد . ومال نحو مؤنس العال فسألة :

- ألم يظن بي أحد الجنون ؟

فهتف الرجل :

- أعوذ بالله يا معلم ..

فقال له وهو يرمي الجمهمور بازدراء :

- فليذهبوا إلى أعمالهم مشكورين ..

ثم غمم :

- ما أكثر الكره وما أقل الحب !

وزار المئذنة وبصحبته عبد ربه راضى . رسخت قاعدتها وسط خراية ، وأزيل الحصى والقاذورات مما حولها . قاعدة مربعة في مساحة

بهؤ ذات باب خشبي مقوس مصقول . ويواصل جسمها المتين ارتفاعه ، لا ترى له قمة ، لا يعلوه بناء ، ويعلو أضعافا فوق كل شيء ، توحى أضلاعه بالقوة ، ولونه الأحمر بالغرابة والرعب .

وتساءل عبد ربه :

- لو سلمنا بأنها مئذنة فأين الجامع ؟

فلم يجب ، فقال راضى :

- كلفتنا مبلغا طائلا ..

وعاد الأب يسأل :

- ما معنى هذا يا بنى ؟

فضحك جلال وقال :

- الله أعلم ..

- منذتم بناؤه ولا حديث للناس سواه ..

فقال جلال بازدراء :

- لا تهتم بالناس ، إنه من النذر يا أبي ، وقد يرتكب الإنسان حماقات كثيرة ليبلغ في النهاية حكمة فريدة ..

وهم الأب بمعاودة السؤال ولكنه سبقه بنبرة قاطعة :

- انظر ، ها هي ذي المئذنة ، سيفنى كل شيء في الحرارة وتبقى هي ،

اطرح عليها أسئلتك وسوف تحييك إذا شاءت ..

٦٣

وانفرد المعلم عبد الخالق العطار وسأله بجدية مخيفة :

- ماذا ظنت باعتزالي ؟

فقال الرجل بصدق وقلبه يخفق بالخوف :

- رددت قولك بلا زيادة .

- وماذا ظنتن بالمتذنة ؟

فقال الرجل بعد تردد :

- لعلها من النذر يا معلم ..

فسأله متوجهما :

- ألمست رجالا حكيمـا يا عبد الخالق ؟

فبادر الرجل يقول :

- إن تفشت همسة واحدة فاعتبرنى المذنب !

٦٤

في جوف الليل تسلل إلى المذنة . رقى سلمها درجة درجة حتى انتهى إلى شرفتها العليا . تحدى جو الشتاء القارص في تسلطه الشامل على الوجود . تطاول رأسه إلى مهرجان النجوم الساحرة المتشربة فوقه كمظلة . آلاف الأعين تومض فوقه ، وكل شيء تحته غارق في الظلام . لعله لم يصعد ولكن قامته طالت كما ينبغي لها . عليه ، أن يرتفع ، أن يرتفع دائما ، فلا سبيل إلى النقاء إلا بالارتفاع . وفوق القمة تسمع لغة الكواكب ، وهمسات الفضاء ، وأمانى القوة والخلود ، بعيدا عن أنان الشكوى والخور وروائح العفن . الآن تشدوا الحان التكية بأغنيات الخلود ، وتعرضن الحقيقة العشرات من وجوهها الخفية ، وينكشف الغيب عن شتى المصائر . من هذه الشرفة يستطيع أن يتبع الأجيال في

٤٦٠

تعاقبها، وأن يؤدى لكل جيل دورا، وأن ينضم بصفة نهائية إلى أسرة الأجرام السماوية ..

٦٥

وقاد رجاله ليؤدب أعداءه وليعيده إلى حارته مكانتها السابقة. في فترة قصيرة أحرز انتصارات باهرة على العطوف والحسينية وبولاق وكفر الزغاوى والدراسة. كان يرمى بنفسه على خصومه فيتطايرون أمامه تسحّقهم الهزيمة والذل. عرف بأنه القوة التي لا تقاوم، التي لا تجدى معها قوة أو شجاعة ..

٦٦

وتغيير أسلوبه في الحياة. أصبح يأكل فيفطر في الأكل، ويشرب فيفطر في الشرب، ويدخن فيفطر في التدخين. وكلما غازلتة غانية استجاب لها مستعينا بالسرية والستر. وسرعان ما تحرر من سطوة زينات فلم تعد إلا وردة جميلة في حديقة ملأى بالورود. وترامت أنباء مغامراته إلى المرأة فاشتعل بجوانحه جنون الغيرة والخسنان، ورأت وجهها في مرآة المستقبل متلاشيا في ظلمة النسيان والضياع. طالما وجدت فيه الطفل البريء ذا المذاهب الخارجية. وفتحت لها براءته أبواب الأمل بعيد، فضمنت الحب وطمحت إلى الزواج. ولعل السلوك عن الحياة نفسها أهون من السلوك عنه وقد تجسدت فيه القوة والجمال والشباب والعظمة غير المحدودة. ولكنه خرج من عزلته مخلوقا آخر،

٤٦١

مخلوقاً يبهر بالقوة والجمال، ويرعب بالتقلب والجنون والخنكة والاستهانة. وشعرت بأنها تدق وتنحل وتتضاءل، بل وتلاشى أمام سيادته المرعبة المجهولة. ولم تجد ما تذرع به حياله إلا الضعف والابتهاج والهزيمة، ولكنه اعترضها بنعومة متكبرة، معتزة بشموخها، متعطفة بحنان بارد متحصنة بتعال لا متناهٍ وقال لها:

- اقنعني بمنزلة تحسدين عليها..

ورأت أنها تذبل بقدر ما يزدهر، وأنهما ينطلقان في طريقين متضادين فاحتقن قلبها بالحب والتعasse..

٦٧

ورزق عبد ربه الأب بذكر سماه خالد. وسرعان ما تاب وأقلع عن البوظة بصفة نهائية، ووجد سروره في الصلاة والعبادة، فاتخذ من الشيخ خليل الدهشان نجيه وصديقه..

وداخله قلق مرعب من ناحية جلال وقلق أشد من ناحية المذنة المخيفة خُلِّي إليه أن علاقة الأبوة تهتك، وأن ابنه أصبح غريباً لا يمت إليه بصلة، بل أصبح غريباً بين الناس غرابة المذنة بين الأبنية. إنه مثلها قوى وجميل وعقيم وغامض. وقال له:

- لن يطمئن قلبي حتى تتزوج وتنجب..

فقال جلال:

- في الوقت متسع يا أبي..

فقال بتوصل:

- وحتى تبعث عهد الناجي العظيم..

٤٦٢

فابتسم ولم يجب ، فقال الأب :
- حتى تتوّب عن المنكر وتتّبع سبيل الله ..
وتذكّر ماضي أبيه القريب والبعيد فقهه بصوت كالطبل .

٦٨

مررت الأيام لا يخشى من مرورها . وتابعت الفصول بلا جزع .
وارتفعت الإرادة الصلبة فوق قوى الطبيعة المتصارعة . ولم يعد الغيب
يضمّر ما يخيف .

وفي هاوية اليأس والحزن تلقت زينات الشقراء دعوة للحب . طالما
انتظرتها ، طالما تلهفت عليها ، طالما تهيأ لها قلبها المكلوم .

ها هو ذا يجود بليلة من لياليه ، ها هي ذي قضى إلى داره ينطق
ظاهرها بالرضا والقناعة . وفتحت النوافذ وإنجابت الستائر لتوسيع
نسائم بشّنس . لقيته بالبشر والمرح وكتمت في الأعناق أحزانها .
تعلّمت أن تعامله بحذر الخائف ، فراحت تعد الشراب والأقداح ،
وتهمس في أذنه :

- اشرب يا حبيبي ..

فيقول لها وهو يعب من الخمر عبا .

- ما ألطفك !

وقالت لنفسها إنه فقد قلبه كما فقد براءاته ، وإنه يتبااهي وهو لا يدرى
بقوسّته مثل الشتاء ، وقالت لنفسها أيضا إنها تتحرّبوعي وإرادة ..

ورمقها وهو يتوغّل في السكر ، وتمتن :

- إن صبح نظري فلست كالعهد بك ..

فقالت بعذوبة :

- إنه وقار الحب ..

فضحك قائلًا :

- لا وقار لشىء ..

وعابت خصلة من شعرها الذهبي وقال :

- ما زلت في أعز مكانة ، ولكنك امرأة طموحة ..

فاندفعت قائلة :

- ما أنا إلا امرأة حزينة ..

- تذكرى نصائحك الغالية عن قصر الحياة ..

- كان ذلك في زمان الحب ..

- ها أنا ذا أعمل بها فشكرا لك ..

وقالت لنفسها : «إنه لا يدرى ما يعنيه كلامه ، وإنها تعلم الغيب أكثر منه بقيراط ، وإن الشر يرفع الإنسان على رغمه إلى مرتبة الملائكة». ورنت إليه طويلا بشغف وهى تقاوم رغبة فى البكاء . واستنامت إلى نسائم بشنس وقالت لنفسها : «إنه شهر غدار ، سرعان ما تدهمـه الخمسين فينقلب شيطانا مغيرا يفتـك بالربيع». واحتواها بين ذراعيه فضمته إلى صدرها بقوـة جنونية ..

٦٩

تخلص من ذراعيها ومضى ينزع عنه ملابسه حتى بدا كتمثال من نور . ونهض قائما . راح يتمشى في المخدع ، وسرعان ما ترنح حتى ضحك .

٤٦٤

قالت:

- شربت بحرا ..
- مازلت ظمآن ..

فغمغمت كأنما تخاطب نفسها:

- ذهب زمان الحب ..

وترنح متطروحا حتى تهاوى فوق ديوان. وضحك عاليا. قالت:

- إنه السكر ..
فقال متوجهما:

- كلا، شيء أثقل، كأنه النوم ..
حاول القيام ولكنه استسلم متماما:
- إنه النوم يجيء بلا دعوة ..

غضبت على شفتها. هكذا سينتهى العالم ذات يوم. وأنعش الناس
من ينشد النصر في الهزيمة.

وقالت له بصوت مبحوح:

- حاول أن تنهض ..

فقال بتراخ وقور:

- لا داعي لهذا ..

- ألا تستطيع يا حبيبي؟

- بلـى، إنها نار الجحيم والنوم ..

فانتفضت قائمة. تراجعت إلى مركز المخدع وهي تنظر إليه بوحشية
حلت محل العذوبة الحزينة. أصبحت قطعة من التحفز المشرب بالمارأة
والحزن. نظر نحوها بعينين غائمتين، حول بصره إلى لا شيء. قال
بنفس ثقيل:

- ما بال النوم يزحف؟!
فقالت بنبرة اعتراف مقدسة:
- ليس النوم يا حبيبي ..
- لعله الثور الذى يحمل الدنيا على قرنه؟
- ولا هو الثور يا حبيبي ..
- إنك مضحكة يا زينات ، لماذا؟
- بل إنى أنتحر ..
- هه؟
- إنه الموت يا حبيبي !
- الموت؟!
- لقد جرعت من السم ما يكفى لقتل فيل ..
- أنت؟!
- أنت يا حبيبي ..
وضحك ، ولكن سرعان ما كف عن الضحك فى إعياء ، فقالت
وهي تبكي :
- قتلتك لأقتل حياة العذاب !
حاول الضحك مرة أخرى وتم:
- جلال لا يموت ..
- الموت يطل من عينيك الجميلتين ..
- الموت مات يا جاهلة ..
واستجتمع كل قوته حتى وقف ممتدًا فى فضاء الحجرة . تراجعت إلى
الوراء فى رعب ، ثم اندفعت هاربة مجنونة ..

كأنه يحمل المئذنة المرعبة فوق كاهله . الموت ينطحه كما ينطح أي حيوان أعمى صخرة صلدة . وهتف بلا خوف :
ـ ما أشد الألم !

سار متربحا نحو الخارج وهو عار تماما . تتمم وهو يغادر الدار إلى ظلام الحارة :

ـ جلال يتآلم ، ولكنه لا يموت ..

تقدما ببطء شديد يخوض الظلمة الحالكة مغموما بصوت غير مسموع :
ـ النار .. أريد ماء ..

وجعل يتحرك في الظلام ببطء شديد ، يغمغم متشكيا وهو يعتقد أنه يملأ الدنيا صياحا . وتساءل : أين الناس ؟ أين الأتباع ؟ أين الماء ؟ أين زينات الجرمة ؟ وقال إنه الكابوس في ثقله وسماجته ولكنها ليس الموت . القوى المجهولة تعمل الآن بكل طاقتها لترده إلى الحياة والضحالة .. ولكن ما أشد الألم ! ما أفعع الظلماء !

وعثر في تخبطة بجسم بارد . آه إنه حوض الدواب ! اجتاحته فرحة النجا . انحنى فوق حافة الحوض . فتهاوى إلى أسفل . مد ذراعيه فغرقتا في الماء . لامست شفاته الماء المشبع بالعلف . شرب بنهم . شرب بجنون . صرخ صرخة مدوية ممزقة بوحشية الألم . غاص نصفه الأعلى في الماء العكر ، تقوض نصفه الأسفل فوق أرض مغطاة بالروث ، كفنته الظلمة الحالكة في تلك الليلة المثيرة المفزعة من ليالي الرياح ..

Twitter: @ketab_n

الأشباح

الحكاية الثامنة من ملحمة الحرافيش

١

دهر طويل كان ينبغي أن يمر قبل أن تنسى الحارة منظر جثة جلال المنطرحة على حافة حوض الدواب. جثة عملقة بقضاء ملقاء بين العلف والروث. هيكلها العظيم يوحى بالخلود، سلبيتها المتهافة تشهد بالفناء وفوقها يتسبّع الجو على ضوء المشاعل بالسخرية المرعبة.

انتهى القوى الشامخ في عنفوان شبابه. تلاشى ظله ذو المائة عين والألف قبضة. حمله أبوه عبد ربه وأخوه راضي إلى داره العظيمة. شيع في جنازة مهيبة إلى قبر شمس الدين الناجي. خلد ذكراه في سجل الفتوات العظام بالرغم من صفاته الشيطانية.

يذهب الإنسان بخيره وشره ولكن تبقى الأساطير.

٢

تولى الفتونة بعده مؤنس العال. ورغم ما خلفه موت جلال من ارتياح عام إلا أن الحارة فقدت توازنها وداهمتها مخاوف جديدة. وسرعان ما نزلت عن مكانتها المرموقة فمضت في ركب الحمى حارة من الحارات، وتلاشت فتونة فتوة الفتوات، وراح مؤنس العال يهادن ويصادق، أو يخوض معارك خاسرة، ويضطر أحياناً لشراء السلامة

بالإتاوة والهدايا، أما داخل الحرارة فلم يتصور أحد أن يخلص مؤنس العال للعهد الذي خانه جلال حفيد الناجي ومعجزة القوة والنصر.

٣

وورث التركة الضخمة رجلان، الأب عبد ربه، والأخ راضى. وعلل موت جلال بإفراطه في الخمر والمخدرات. أما انطراحه بين العلف والروث عارياً فاعتبر جزءاً إلهياً لصلفه وشمومه وتعاليه على البشر. وبقيت المئذنة بلا وريث، متتمادية في الضخامة والارتفاع والعقم، آية على الغطرسة والجنون.

٤

وبعد حين فتح المعلم عبد الخالق العطار فاه. همس بالغامرة العجيبة، بمؤاخاة الجن، بدور الرجل الغامض شاور. هكذا ذاع السر وتناقله الناس، وأكدت زينات الشقراء الظنون بما روت عنه من اعتقاده بأنه لا يموت. واختفى شاور وجاريته هرباً من غضب الخلق. واقتصر كثيرون هدم المئذنة ولكن الأغلبية خافت أن يكون الجن قد سكنها حقاً، فيخشى على الحرارة من هدمها أن يلحقها من الأذى ما لا يدريه بشر. هكذا تركت، يتتجنبها القوم، يلعنها الرائع والغادى، تمتلئ جوانحها بالحيات والخفافيش والغاريات.

وقال الحرافيش إن ما حل بجلال هو الجزاء العادل لمن يخون عهد الناجي العظيم . من ينسى دعاءه الخالد بأن يهبه الله القوة ل يجعلها في خدمة الناس . وعندما يخون حفدة الناجي عهده تخل بهم اللعنة ويفتك بهم الجنون . حتى المعلم عبد ربه ناله من ازدراء الحرافيش ما ناله ، وكذلك المعلم راضى ، ولم يغُن عنهما مالهما الغزير .

وعاشت زينات الشقراء فترة من الرعب والترقب ولكن أحدا لم يشر إليها باتهام . حتى من ساوره شك في دورها تغاضى عن ظنونه حاما لها فعلها المجهول . ولم تنعم المرأة بانتقامها ، فعاشت وحيدة زاهدة بلا قلب ولا راحة . واكتشفت عقب موت جلال بفترة من الزمن أن جبهما قد خلق في بطنهما ثمرة فحرست عليها بقوة حبها الخالد ، وملكتها شعور بالفخار رغم أنها ثمرة غير مشروعة . وأنجحت ذكرافسمته جلال بكل جراءة وصراحة متحدية به التقاليد .

ووهبته حبين ، حب الأمومة ، وحب العاشقة الخالدة لأبيه الراحل . ونشأ جلال في أحضان أمه حياة متواضعة ، آثرتها أمه على العودة إلى

حياة الغانيات ، ولم تنس قط أنه الوريث الحقيقي لتركة جلال الخيالية .
وسرت إلى المعلم عبد ربه ، ثم إلى المعلم راضى ، لينزلها للصغير عن
شيء من ماله ولكنهما قاطعاها بحدة دلت على أنهما يتهمانها بدور
فاصل فى مصرع جلال . وقال المعلم راضى :
ـ امرأة مثلها كيف تعرف من يكون أبا لابنها ؟ !

٨

وترعرع جلال كابن من أبناء الحارة ، مجهول النسب ، يشار إليه
بوصفه ابن حرام ، كما كان يشار إلى أبيه بوصفه ابن زهيرة . ولكن نموه
المطرد أثبت لكل ذي عينين أنه ابن جلال دون غيره . أجل لم يكن له
قوته ولا جماله ولا عملقته ولكن لا يخطئ أحد في ربط الصورة
المتواضعة بالأصل البائد .

٩

ودخل جلال الكُتاب عامين ، ثم عمل سواقا عند «الجدع» صاحب
العربات الكارو . وكانت زينات قد أنفقت مدخراها فلم تستطع أن توفر
لجلال عملاً أفضل ، وكانت فخوراً بابنها كما كانت فخوراً بتصبرها
 واستمساكها بالحياة الشريفة . ورغم تجاوزها للأربعين كانت ماتزال
على قدر من الجمال جعل المعلم الجدع يطمع في ضمها إلى حريميه . لم
ترحب زينات برغبة المعلم وخافت في الوقت نفسه أن يسىء معاملة

ابنها، ولكن الرجل نبذ رغبته عندما قال له مجاهد إبراهيم شيخ الحارة
الذى خلف خليل الفص بعد وفاته ، قال :

- كيف تركن لامرأة قتلت ذات يوم رجلها؟!

وعرف جلال -مع الأيام - أنه ابن جلال صاحب المئذنة وحفيد
زهيرة ، وأن عبد ربه جده ، والوجبه راضي عمه . عرف تاريخه الحزين
كما عرف تاريخ الناجي ، ولبسه لقب ابن الحرام كقدر لا مفر منه ولا
تكذيب له . وقال له المعلم الجدع ذات يوم :

- إياك أن تعمد إلى العنف ، اصبر وما صبرك إلا بالله ، وإنما فابحث
عن رزقك في مكان آخر ..

وقال له الشيخ سيد عثمان شيخ الزاوية (خليفة المرحوم الشيخ خليل
الدهشان) :

- مؤنس العال يرقبك باهتمام بوصفك من حفدة الناجي ، حذر أن
 تستغل قوتك فتهلك ..

فصبر جلال مؤثراً السلام ، واستحق باجتهاده وأمانته تقدير
المجدع ..

١٠

وتمر الأيام وتنبت من جديد آمال . تشجعت زينات بعطف الجدع
على جلال وراحت تخطب له عفيفة ابنة المعلم . وكان الرجل فظا
صربيحاً عندما أجاب قائلاً :

- جلال ولد طيب ولكنني لا أزوج ابنتي من ابن حرام ..
ويكت زينات منفعلة أما جلال فقد تحمل الطعنة صابرًا ..

ومات الجدع عقب تناوله صينية فول بالخلطة وصينية كنافة بالقشدة، وقد تجاوز السبعين من عمره. وانتظرت زينات عام الحداد، ثم طلبت عفيفة من أمها فوافقت المرأة بناء على ما آنست من ميل ابنتها للفتى .. هكذا أزفت عفيفة الجدع إلى جلال عبد الله .

وبالزواج ترقى جلال عبد الله من سواق كارو إلى صاحب كارو وإن لم تكن عفيفة هي المالكة الحقيقة. أحسن الإدارة وتحسن أحواله المعيشية ثم توج حظه بالأبوة. وتتابعت أيام مريحة أنجب فيها بنت، ثم رزق بذكر سرعان ما أسماه شمس الدين جلال الناجي. أعلن بالتسمية عن كبرياته الدفين مثل النار في الصوان. وسلم الجميع بصدق التسمية غير أن آل الناجي الأكابر - مثل الوجيه راضي - امتعضوا عنها. أما الحرافيش وسائر الناس فلم ينسوا أن جلال الأب ابن غير شرعاً للمجنون صاحب المئذنة الشيطانية. وقال عنبة الفوال صاحب البوظة وخليفة المرحوم سنقر الشمام :

- ما أكثر الذين يسمون بعاشور وشمس الدين في حارتنا !
أجل لم يبق من تراث الناجي الحالد إلا الأسماء. أما العهود والأفعال فتعيش في الخيال مع الأساطير والمعجزات المسريلة بالمحسرات .

وتمر أيام ريبة ومرحة في حياة جلال عبد الله وأسرته ويعرف الرجل بالطيبة والأمانة وحسن الخلق والورع . ويتوافق له الرزق ، ويعشق العبادة ، ويصبح من أقرب المقربين للشيخ سيد عثمان شيخ الزاوية ، وتتوثق علاقته بزوجته عفيفة .

ويقنع بمعاشرتها ، ويحسن تنشئة شمس الدين ، ويظل الابن البار لأمه زينات رغم ما أورثته من سوء سمعة وألم . وتدل البشائر على أن هذه الأسرة ستشق طريقها في يسر وبلا تاريخ ..

عندما بلغ المعلم جلال عبد الله الخمسين من عمره انقلب حاله ودهمته العجائب من زوايا المجهول . في البدء كانت وفاة أمه . ماتت زينات فجأة عن ثمانين عاما . ومن عجب أن جلال - رغم كهولته ورغم شيخوخة أمه - قد صدم صدمة عنيفة زعزعت توازنه . رئي في الجنازة وهو يبكي ويتحبب ، ثم غشيته كآبة ثقيلة خنقته ثلاثة أشهر حتى ظن به التدهور . ولم يفهم حزنه وسخر منه كثيرون . وهو نفسه كان يقول إنه طلما أحبها حباً جماً ، ولكنه ما كان يتصور أن يفعل به موتها ما فعل . أما الأعجب من ذلك فهو ما حصل له عقب انفصال الكآبة . لقد ولد شخص جديد مجهول الأصل . كأنما قذفه قبو مسكن بالعفاريت . تبدى له حبه لأمه عاطفة غريبة مضللة كأنها سحر أسود . تبخرت في

الهواء مخلفة حجرا باردا شديد القسوة. أصبح يثور لذكرها ويلعنها.
لم يبق في قلبه أثر لحزن أو بر أو وفاء. وثمة صوت يهمس له في ذهوله
بأنها كانت ينبوع العداوة والمقت في حياته. وأنه ضحيتها الأبدية.
وتساءل ذات يوم :

- هل حزنت لموتها حقا؟ .. يا لها من نزوة جنونية أمام الموت !

ومرة كان يجالس مجاهد إبراهيم شيخ الحرارة فقال له :

- كانت أمي ذات صفات كريهة وسمعة سيئة ونوايا خبيثة ..

فدهش شيخ الحرارة وقال له :

- لا أكاد أصدق أذني ..

- أومن الآن بأنها حرقا قتلت أبي. وقد كانت عربيبة مدمنة
للمخدرات. إنني أتقزز من ذكرها ..

- اذكروا حسنات موتاكم ..

فهتف بحقد لم يعرف عنه :

- لا حسنة واحدة لها !

ثم بغيظ أشد :

- لقد تعمت بعمر طويل مريح لا تستحقه ..

١٥

وتغير سلوكه فيما يشبه الانهيار.
كف عن الصلاة، هجر الزاوية، ماج بانفعالات عنيفة. وإذا به
يقتحم البوطة لأول مرة في حياته. كان هناك الفتوة مؤنس العال وبعض
رجاله. فلما رأه صاح ساخرا :

- أخيراً عرف الحمار الضال حظيرته ..
ووضح الحاضرون بالضحك . أما جلال فابتسم في شيء من الارتباك
ثم رفع القرعة إلى فيه الظمآن .

وسأله مؤنس العال :

- ماذا أغراك بتقليد الرجال؟

فقال بسرور :

- الاقتداء بالرجال شرف يا معلم ..

ولما انصرف الفتوة راح جلال يعني :

على باب حارتنا حسن القهوجى

وسكر وانبسط وراح يقول :

- حلمت أمس بأنني تسللت إلى مثذنة أبي ، وأن شخصاً جميلاً
صعد بي إلى شرفتها العليا ، ثم دعاني إلى ملابعته الحجلة فرحت
أحجل حتى اختل توازني فسقطت من الفتحة العالية . ولكنني لم
أصب بأدنى أذى ..

فقال له عنبة الفوال الحمار :

- خير ما تفعل أن تجرب ذلك في يقظتك ..

فراح يعني من جديد :

باسم نعم بالليل عشق البنات البكارى

هدمنى الحبيل

١٦

وَجَدْ عَفِيفَةً مُسْتِيقَظَةً تَتَنَظَّرُ . لَمْ يَسْبُقْ لَهُ مِثْلُ هَذَا السَّهْرُ . وَتَطَالِبُتْ
إِلَى أَنْفُهَا رَائِحَةَ الْبَوْزَةِ فَضَرَبَتْ صَدْرَهَا بِرَاحِتَهَا هَاتِفَةً :
- سَكْرَانْ؟ !

فَرَاحَ يَرْقُصُ وَيَقُولُ :
- أَنَا جَدْعٌ يَا بَنْتَ الْجَدْعِ .

١٧

وَذَاعَتْ أَخْبَارُهُ، فَعَجَبَ النَّاسُ وَقَالُوا «مَجْنُونُ ابْنُ مَجْنُونٍ» .
وَاعْتَرَضَهُ الشَّيْخُ سَيْدُ عُشَمَانَ ذَاتَ يَوْمٍ وَسَأَلَهُ :
- مَاذَا قَطَعْتَ عَنَا؟
فَلَمْ يَجْبِهِ فَسَأَلَهُ بِأَسْيٍ :
- أَحَقُّ مَا يَقُولُ عَنْكَ؟
فَهَمَّجَرَهُ مَاضِيَا فِي سَبِيلِهِ .

١٨

وَكَانَ إِذَا سَكَرَ وَفَقَدَ الْوَعْيَ تَقْتَحِمُهُ مَغْرِيَاتٌ جَدِيدَةٌ كَأَنَّا تَفَجَّرُ عَنْهَا
غَرَائِزُ رَجُلٍ آخَرَ . كَانَ يَنْجذَبُ إِلَى الْبَنَاتِ الْمَرَاهِقَاتِ أَوْ مِنْ دُونِهِنَّ

بقليل، بقوة غشوم، فيعاكسهن ويغاظلهن. وإذا خلا إلى إحداهم انبثق من إهابه وحش نهم. لذلك كان يتحاشى السكر في النهار خشية العواقب، ويتسلل ليلاً إلى الخرابات مثل ذئب جائع..
وقادته قدماء ذات ليلة إلى مسكن «دلال» الغانية، وانفرط منه الزمام..

١٩

غدا رجل الانحلال والفضائح. أوتى قوة كبيرة على الاستهانة بكل شيء. ولعل ما ربطه بدلال أنها كانت صغيرة السن وذات وجه مطبوع بطابع الطفولة، وأنها كانت تتسامح في زرواته الغريبة فتوفر لها بدلال من أن تقصيه عنها أو تعنفه بسببها. وقالت له مرة بصراحة:
ـ إنني أحب الجنون فلا يهمك ما يقال!

فهتف جلال:

ـ أخيراً عثرت على امرأة عظيمة مثل جدتي زهيرة!
وانظرت على ظهره في تراخ وارتياح وراح يعترف لها قائلاً:
ـ استيقظت ذات صباح فوجدتني سكران بلا خمر، كان يتحقق بصدرى قلب جديد، كرهت حاضرى وذكرياتى، حتى التجارة والربح. ومشاكل البنات المتزوجات. وكرهت امثال ابني شمس الدين الذى يعمل سواقاً عندي وكأنه حمار يسوق حماراً، وكرهت أمه التى يمضى محصناً ببركاتها، ورأيتها تستنزفني بلا وجه حق، كما استنزفتنى أمى من قبل بطريقة أخرى. وثار القلب والعقل والكبد وأعضاء التناسل وهتفت بشري للشياطين..

فقالت دلال ضاحكة :

- إنك ألد رجل في العالم ..

فقال بثقة :

- سمعت أن الرجال يولدون من جديد في سن الخمسين ..

فقالت بيقين :

- ومرة أخرى في الستين .. والسبعين ..

فتأوه قائلاً :

- لولا غيره امرأة شريرة خلد أبي وحطمت كأس المنون ..

فقالت له دلال :

- لولا أنك معجزة ما أحبيتك قط ..

٢٠

تابعت الضربات وانهالت بعنف على رأس عفيفة. تقوضت دنياها، تبدد حلمها، تبخرت سعادتها، اعتقدت أن «عملاً» عمل لزوجها فطافت بأضরحة الأولياء وقراء الغيب، التزمت بكل نصيحة نصحت بها، ولكن جلال توغل في ضلاله بلا هوادة. لقد أهمل عمله أو كاد، واذهب على السكر والعربدة، التصدق بدلال، استباح كرامته في مغازلة البنات.

لولا الخوف من العواقب لفكرت في أن تشکوه إلى مؤنس العال. ولم تجد في حزنها ووحدتها إلا ابنها شمس الدين فبشتة حزنها وأماساتها، وقالت له :

- حدثه يا شمس فربما لأن لك.

وكان بين عفيفة وشمس الدين علاقة حميمة فاقت كل تصور، فحزن الفتى لأمه، حزنه على سمعته وكرامته. وتشجع فصارح أباه بأحزانه، ولكن الرجل غضب، وهزء بعنف، قائلاً:

- أتريد أن تربيني يا ولد؟!

فأنطوى الفتى على أحزانه. كان يماطل أباه في قوته وملاحته وأخلاقه المأثورة التي تقوضت فجأة. ولم يدر ماذا يفعل، وراح يعاني ثورة من عواطفه تتحدى بنوته وبره ودماثته. ولم تكف أمه عن شكاها، فتلقي منها نفحات متواصلة من المرارة والحنق. وطالما حذرته:

- سيبدد كل شيء، سيتركك متسللاً ..

وبداله أن أسرته تعانى من لعنة أبدية. تستعين بالجنون والدعارة والموت. وتقلص قلبها فأخذ يجف من الوفاء والحب، ويتحدى المجهول بالقوة والقهر وعجب متسائلاً:

- لم قبلت أمي الزواج من مثل هذا الرجل؟!

٢١

وجعلت الأمور تسير من سبي إلى أسوأ كعقود نهار الصيف الماضية نحو الظاهرة المتلذبة. وأخذ قلب شمس الدين يتلون بالسوداد ويتشرب بالرفض والحنق. وترامي إليه وهو جالس في القهوة أن أباه يرقص في البوظة شبه عار. وجئَ الفتى فانطلق من فوره إلى البوظة بقلب محزون وإرادة مصممة. رأى أباه وهو يرقص وليس عليه إلا سرواله. والسكاري يصفقون ويعنون:

٤٨٢

عومى على الميه

لم يتتبه المعلم جلال لقدم ابنه فواصل الرقص في غاية من الانسجام
ورأى بعض السكارى شمس الدين فكفوا عن التصفيق والغناء داعين
الآخرين إلى ذلك وقال أحدهم بإغراء شرير:

- فلنشهد منظرا طريفا!

ويتوقف التصفيق والغناء توقف المعلم جلال عن الرقص محتاجا.
وعند ذاك انتبه إلى وجود ابنه، كما فطن إلى غضبه وتحديه فغضب
بدوره وصاح به متسائلا:

- ماذا جاء بك يا غلام؟

فقال شمس بأدب:

- تفضل يا أبي بارتداء ملابسك ..

فصاح المخمور:

- ماذا جاء بك يا وقح؟!

فقال بإصرار:

- أتوسل إليك أن ترتدى ملابسك.

فانقض عليه متربنا ولطمه لطمة شديدة صفت فى البوطة
الصادمة، وصاح أكثر من صوت فى تحريض وسرور:

- عفارم!

وانهال الرجل على ابنه لطما حتى خارت قواه من شدة السكر
فتهاوى على الأرض فاقد الوعي ..

وندت ضحكة ثم ساد الصمت وقال صوت:

- قتلت أباك يا شمس الدين ..

وقال آخر:

- حتى الشهادة لم ينطق بها!
وانكب شمس الدين على أبيه يلبسه ثيابه، ثم حمله بين يديه،
ومضى به مشيعاً بقهقهات غليظة ساخرة.

٢٢

أفاق المعلم جلال بعد قليل فوق فراشه بمسكنه الشرعى . جالت عيناه
الحمراوان فيما حوله فرأى عفيفة وشمس الدين ومعالم الحجرة
الكريهة . سرعان ما تذكر كل شيء . إنه الليل وكان ينبغي أن يكون في
فراش دلال . وهذا الفتى قد جعل منه سخرية السكارى وأعدم هيبة
الأبوة . جلس في الفراش وهو ينفخ . وثبت إلى الأرض . انقض على
شمس الدين وراح يكيل له الضربات . رمت عفيفة نفسها بينهما باكية .
تحول جلال إليها فاقد الرشد . قبض على عنقها وشد بوحشية . عباثاً
حاوت المرأة التخلص من قبضتيه . تحلت في وجهها اليائس معالم
الاختناق والموت . صاح شمس الدين :
ـ دعها .. إنك قتلتها ..

لم يحفل به متishiماً بوحشية الجريمة . فزع شمس الدين إلى مقعد
خشبي فرفعه وهو يهوي به على رأسه بقوة جنونية ..

٢٣

حل هدوء ثقيل محل الصراخ والانفعال الأحمر . استلقى المعلم
جلال فوق فراشه مضرجاً في دمه . اقتحم المسكن جيران وجاء أيضاً

٤٨٤

مجاحد إبراهيم شيخ الحارة . وقدم الخلاق لتقديم الإسعافات الضرورية وإيقاف الدم السائل ، على حين انزوى شمس الدين فى زاوية مستسلماً للأقدار ..

وغاب الزمن تماماً . وانداحت لحظة ساخرة مفعمة بالاحتمالات كافة . لحظة عشوائية أقوى من جميع سائل التفكير والتدبر كافة .. وأدركت عفيفة كما أدرك شمس الدين أن الحاضر يدفع الماضي ويعدهم ويدفعه .. وتعتم مجاهد إبراهيم :

- أى قدر يبعث بأب ووحيده ..

فولولت عفيفة هاتفة :

- إنه الشيطان ..

وخيمن صمت فوق جلال مثل جبل . ما زال صدره يعلو وينخفض .

هتف مجاهد إبراهيم :

- يا معلم جلال !

وهتفت عفيفة :

- لتشملنا رحمة الله القدير .

وسأل شيخ الحارة الخلاق :

- ماذا تجد ؟

فأجاب الخلاق وهو لا يكف عن عمله :

- العمر بيد الله وحده ..

- ولكن لك خبرتك أيضاً ؟

فاقترب منه وهمس في أذنه :

- لا نجاة من تلك الضربة ..

فتح جلال عبد الله عينيه المظلمتين . لم يكدر يعرف أحدا . طال صمته حتى حطم أعصاب من حوله ولكنه أخذ يستعيد قبضات من إدراكه . تتمت :

- إنى راحل !

فتأوهت عفيفة قائلة :

- بعد الشر عنك ..

فعاد يتمتم :

- إنى لا أخشى الظلام ..

- إنك بخير .

- لتكن إرادة الله ..

اقترب مجاهد إبراهيم من الفراش وقال :

- يا معلم جلال ، أنا مجاهد إبراهيم ، تكلم أمام هؤلاء الشهدود ..

فتساءل جلال بصوت ضعيف :

- أين شمس الدين ؟

فدعاه مجاهد إبراهيم إلى الاقتراب فاقترب وقال شيخ الحارة :

- ها هو ذا ابنك ..

- إنى راحل ..

فسأله شيخ الحارة :

- ماذا حصل ؟

- قضاء الله ..

- من الذي ضربك؟

وسكت الرجل ، فألح مجاهد إبراهيم قائلاً :

- تكلم يا معلم جلال .

- إني راحل ..

- من الذي ضربك؟

فقال متنهداً :

- أبي !

- الأموات لا يضربون ، يجب أن تتكلم ..

فتنهى مرة أخرى وقال :

- لا أدرى ..

- كيف؟

- الحرارة مظلمة .

- هل اعتدى عليك في الحرارة؟

- أو في مدخل البيت ..

- لا شك في أنك عرفت الجاني .

- كلا .. أخفاء الظلام والغدر ..

- لك أعداء؟

- لا أعرف ..

- هل تشک في أحد؟

- كلا ..

- أنت لا تعرف الجاني ولا تشک في أحد؟

- بلـى ، استغثت بابنـى ، فجاء ليحملـنى ثم غـبت عن الـوجود ..

سـكت مجـاهـد إـبرـاهـيم . حـدقـتـ الأـعـيـنـ بـجـلالـ وـكانـ يـحـضـرـ ..

ذهل شمس الدين وهو يصغي إلى صوت أبيه قبل أن ينقطع . خانته الشجاعة فلم ينس بكلمة . تلقى حنان أبيه المحتضر بخشوع وجبن وندم . زاغ من نظرات مجاهد إبراهيم فدفن وجهه في يديه وبكى . وطيلة يوم الجنائزه وأيام المأتم لم يغمض له جفن . تحرك بين الناس شبحاً تطارده أشباح الجحيم . لقد جن جده وجنت جدة أبيه وارتكب نفر من السلالة أبغض الانحرافات ، ولكنه أول من يقتل أبوه من آل الناجي الملعونين .

ولما خلا إلى أمه قالت تشجعه :

- إنك لم تقتل أباك ولكنك دفعت إلى الدفاع عن أمك ..

وأيضاً ساءلت :

- أليس الله تعالى كل شيء !؟

ثم قالت بحرارة :

- إن الشهادة التي حماك بها خليقة بالتكفير عن ذنبه جميماً ،
وسوف يلقى ربه بريثاً ظاهراً مثل طفل وليد ..

وأغرق شمس الدين في البكاء وتمت :

- لقد قتلت أبي !

ودعاه المعلم عبد ربه للقاء في «القلعة» دار جلال صاحب المثلثة .
كان يعلم أنه والد جده جلال وأنه في المائة من عمره . وجده هرماً لا

يفارق داره، ولا حجرته، ولكنك كان بالقياس إلى عمره موфор الصحة والنشاط، وقورا، يرى الأشياء ويسمع الأصوات ويعي الأمور. عجب شمس الدين لتعمير الرجل بعد وفاة ابنه وحفيده، ولم يحمل له ذرة من حب أو احترام، ولا ينسى مقاطعته لأبيه ..

تفحصه طويلا وهو يقربه من وجهه ثم قال:

- البقية في حياتك ..

فرد عليه ببرود، فقال عبد ربه:

- في وجهك شبه من جلال بن زهيرة ..

فقال ببرود:

- لقد قاطعت أبي ..

فقال بهدوء:

- كانت الأمور معقدة ..

فقال بتحذ:

- بل الطمع في التركة!

- كل تركة عدا عهد عاشر فهى لعنة ..

- ولكنك تتمتع بها الآخر لحظة في حياتك ..

فقال العجوز بنبرة مضطربة:

- دعوتك لأعزيك، خذ نصيبك من التركة إذا شئت ..

فقال شمس الدين وكأنه يكفر عن جريمته:

- إنى أرفض كرمك ..

- إنك عنيد يا بنى ..

- إنى أنكر من أنكر أبي ..

عنذ ذاك أغمض العجوز عينيه، فغادر شمس الدين المكان.

لم يجد شمس الدين بدا من مواجهة الحياة. انطبع وجهه بجدية تكبره بنصف قرن. أخذ نفسه بالتقوى والاستقامة. حل محل أبيه في إدارة العربات فهرب من ذاته بالإغرار في العمل. عرف في الحارة بقاتل أبيه. اعتبر لعنة متحركة في مقابل المذنة تلك اللعنة الثابتة. ويتساءل أناس ماذا تتوقعون من شاب أبوه ابن حرام وجده صاحب المذنة؟ صمم شمس الدين على تحدي اللعنة بوجهه الصارم وإرادته الصلبة وقلبه المترع بالندم. أخلص لدينه، تصدق على الفقراء، عامل زبائنه بالحسنى، مضى في الحياة منفيا ملعونا. استقرت في عينيه نظرة كثيبة، كره الفاكهة، تجنب الغناء والطرب، حذر من البوظة والغرزة. لفتحته مشاعر الناس فكره الناس ولكنه تمسك بالحياة..

ولم تجد عفيفة الجدع من دواء لحال شمس الدين خيرا من أن تزوجه. أعجبتها صادقة بنت بيع الفول فخطبتها له مزكية إيه بعمله وأصله ولكن الأسرة أبى أن تزوج ابنتها من قاتل أبيه. ولم يكن شمس الدين يهتم كثيرا بالزواج. ولكن الرفض عميق جراحته فصمم على الزواج بأى ثمن..

وكانت هناك توجد راقصة تدعى نور الصباح العجمى ، مجھولة

الأصل متهتكة . أujeبه منظرها فزارها متسترا بالظلام ، لا ليعاشرها كما توقعت ولكن ليخطبها ! ودهشت البنت . وظلت يرسم لاستغلالها ولكنه قال لها بصدق :

- بل أريدك ست بيت بكل معنى الكلمة ..
فأضاء وجهها بالفرح وقالت :
- إنك شاب نبيل وإنى أستحق ذلك !

٢٩

وحزنت عفيفة فقالت محتاجة :

- إنها بنت داعرة .

فقال شمس الدين بكآبة :

- مثل جدتي زينات !

ثم متممما بسخرية :

- ما أكثر الداعرات في أسرتنا المجيدة !

- لا تيأس بسرعة يا بنى ..

فقال بامتعاض :

- إنها الوحيدة التي تقبلني بلا امتعاض ..

٣٠

وزفت نور الصباح العجمى إلى شمس الدين جلال الناجى . وهتك شمس الدين ستار الانكماش فأقام حفلا شهده عماله وأهل أمه ،

٤٩١

وتجاهل من يتغاهلونه. وسخرت الحارة من الزيجة فجرى على الألسنة
ذكر زينات وزهيرة، وذكريات الأسرة التى هبطت من السماء لتتمرغ
أخيرا فى الوحل. بكل قحة قال عنبة الفوال الخمار:
ـ ألم يكن عاشر نفسه لقيطا؟! .. ألم تكن أم الأسرة الأولى عاملة
فى هذه البوطة؟!

٣١

وقيض للزواج أن ينجح. تحولت نور الصباح العجمى إلى ست
بيت. سعد بها شمس الدين فاستقر جانب من جوانبه القلقة. ولم
ينغص صفو البيت من آن إلا المشاحنات بين عفيفة ونور الصباح.
وبقدر ما كانت عفيفة صارمة غير متسامحة كانت نور الصباح حادة
سليبة اللسان. ولكن المعاشرة لم تتحطم، وأنجحت صباح من البنات
ثلاث، وأخيراً جادت بسماحة شمس الدين الناجي.

٣٢

وبتقديم الزمن تناهى شمس الدين همومه وذنبه ما أمكن، ولكن
الكابة كانت قد صارت له طبعا. ونشأ سماحة وليس له جمال أبيه أو
جده ولكنه يبشر ببنيان أشد. وولعت به أمه وجده فحافظا عليه ككتز
غال. ولم يتحقق نجاحا في الكتاب. وتشاجر ذات يوم مع قرين فضريبه
باللوح فكاد يفقد عينه وأوقع أباه في مشكلة لم يخلص منها إلا

٤٩٢

بتوعيض لا يستهان به . وقسما عليه فضربه حتى أحزن أمه وجده . وجراه
إلى العمل في الخزفية قبل الأوان وهو يقول له :

- تعلم أدب الحياة بين الحمير ..

. وإنما سماحة تحت رعاية أبيه الكثيب وسرعان ما شارف المراحلة ..

٣٣

ورغم أن الفتى لم يكن يغيب عن عيني أبيه من الصباح حتى النوم
فإنه لم يطمئن إلى أحواله تماما ، فأنس منه جموحا وتوقع منه المتاعب .
وذات يوم جاءه مجاهد إبراهيم شيخ الحرارة وقال له :

- أول ما شطح نطح !

شعر بأنه يعني ابنه سماحة ولكنه لم يصدق لشدة إحكام قبضته حول
الفتى . وتساءل عما هنالك فقال شيخ الحرارة :

- هل تصدق أن ابنك مرافق كريمة العنايبى ؟

فذهل شمس الدين . متى يفعل ذلك ؟ قال :

- إنه لا يغيب عن ناظري حتى أودعه فراشه !

فضحوك مجاهد إبراهيم وقال :

- ثم يتسلل من البيت وأنت نائم ..

وذهل شمس الدين مرة أخرى لأن كريمة العنايبى أرملة تقترب من
الستين من عمرها وابنه مراهق ليس إلا . وقال له مجاهد إبراهيم :

- احذر أن يعتاد الفولد البرمجة !

وتربيص شمس الدين فى الظلام أمام باب دار كريمة العنابى . جاء
بعد أن تأكد من أن الولد قد غادر فراشه وها هو ذا يتضرر . وقبيل الفجر
بساعة فتح الباب وتسلل منه شبح . سقط فى يد أبيه ، فزع أول الأمر ،
همَّ بضربه لو لا أن عرف صوته فانقهرا .

- أيها الخنزير ..

وشده بعنف فشم رائحته فصاح :
- وسکران أيضاً !

ولطمها لطمة طيرت الخمر من رأسه . وفي البيت عنفه وضربه حتى
استيقظت نور الصباح وعفيفة ، ومضت الحقيقة تتكتشف لهما من خلال
اللطمات والكلمات . وقال سماحة :

- كفى يا أبي وجهى يتحطم .

- إنك تستحق القتل ، تخدعني ؟

- تبت وأنا في عرضك !

وقالت عفيفة :

- إنها أكبر مني المجرمة ..

فصاح شمس الدين وهو يشير إلى سماحة :

- هو المذنب ولا أحد سواه !

وقال شمس الدين لنفسه إن المقدمات تندربأو خم العواقب . وإن من يبدأ بعشق امرأة في سن جدته فكيف يتنهى؟ وقد رأى كريمة هانم العنابي في بعض مشاويرها فهاله تصايبها وزواقها وبدانتها المفرطة ، وأمن بأن أسوأ ما ينشأ عليه مراهق أن يألف أن تنفق عليه امرأة .

وفي ذلك الوقت توفي مؤنس العال فخلفه في الفتونة سمعة الكلبishi فازدادت أحوال الحارة حطة وإظلاما . وتلقى الحرافيش البلوي كقدر مكتوب لا مفر منه ، فلم تعد الفتونة - بصرف النظر عن هوية الفتوة - إلا بلوى قائمة .

وتُوفى الجد عبد ربه فشيع في جنازة كبيرة لم يشتراك فيها شمس الدين ولا سماحة . وعرف بعد ذلك أنه أوصى للفتى سماحة بخمسينية جنيه . وطالب سماحة بغير أنه ، ولكن أبياه أبي أن يسلمه إليها إلا أن يبلغ رشدته . وشدد الرقابة عليه حتى عانى الفتى حياة مريرة . وذات مرة حانت من شمس الدين نظرة إلى الفتى وهو ما يعملان في الخظيرة فضبط في عينيه نظرة جدباء انقبض لها صدره فقال لنفسه :

- الولد لا يحبني !

وتنهد مغتما وقال :

- لا يدرك الأحمق أننى أعمل لما فيه خيره ..

وتدافعت الأحداث مثل زيد النهر الأغبر . ولاحظ شمس الدين ذات صباح وهو يحتسى قهوته فى بيته قلقاً أسود يلف عفيفة ونور الصباح فخفق قلبه وتساءل :

- سماحة؟!

فتلقى صمتاً مريباً ضاعف من أحزانه فسأل بحدة :

- ما الجديد من متاعبه؟

بكى نور الصباح وقالت عفيفة بنبرة متشرقة :

- ليس في البيت ..

- رجع إلى التسلل؟

- بل غادرنا!

- هرب؟!

ومضى مشحوناً بسوء الظن إلى السحارة فاكتشف اختفاء الميراث فصاح :

- لص أيضاً ..

فقالت أمها:

- حلمك يا بني ، إنه ماله .. .

فقال بإصرار :

- لص هارب!

ونقل عينيه بارتياح بين المرأتين وتساءل :

- ماذا يحدث وراء ظهرى؟!

تصور أنه لائذ بدار كريمة العنابي . أفضى بظنونه إلى شيخ الحارة مجاهد إبراهيم . وقام الرجل بتحرياته ثم قال له :
 - لا أثر لسماحة في حارتنا !

وأيقن أن الله يعاقبه على جريمته . عليه أن يكفر عن جريمته كما كفر عن جرائم الآخرين . ولا يبعد أن يقتله الفتى ذات يوم . لم لا ؟ .. إنه لا يحسن بهذه الدنيا ظنا . وألقى على المثذنة نظرة وحشية وتساءل :
 - لم يبقون على هذه اللعنة قائمة ؟ !

لم يعثر على أثر لسماحة رغم أن شمس الدين أوصى جميع السواقين عنده باليقظة والتحرى . ها هو ذا الفتى يمضي في أثر المختفين من رجال الأسرة ونسائهم .

وتتلاحق الأعوام . أما عفيفة فقد ماتت في أعقاب مرض طويل ، وأمانور الصباح فقد أمرت الأيام ما كان منها حلوا . ومضى شمس الدين يحمل أثقاله ، ويغمغم كلما حز به ألم « أمرك يا رب » .

ولكن غيبة سماحة لم تدم كما دامت من قبل غيبة عاشور أو قرة.
 رجع إلى الحرارة ذات يوم وقد بلغ رشده. بلغ رشده ولكنه فقد أشياء
 ثمينة لا تعوض. امتلاً جسده بالقوة والشراسة. اختفى جماله وراء
 غلالة من التجهم ونسيج متقطع من الكدمات والعاهات المستديمة.
 أكان يعاشر قطاع الطرق؟ حتى أبوه لم يعرفه لأول وهلة. ولما اكتشف
 حقيقته واجتاحته موجة من السرور والأسى.. اضطرب بين الشكر
 والخنق. تمزق بين الحب والسخط. وتبادل النظر طويلاً في الحظيرة بين
 السواقين والحمير. وتنحى به جانباً وسأله بإشفاق:

ـ ماذا فعلت بنفسك؟

وجعل يرددتها الآخر صامت مستغنية بمنظره عن أي بيان. وسأله:

ـ بددت القود؟

فحنى رأسه. آه! البعض يستمر والبعض يبدد. وتنهد من الأعمق وتتم:

ـ لعل الحياة قد لقتك درساً مفيدة..

ولما ضاق بصمته قال له:

ـ اذهب إلى أمك ..

وسرعان ما انطفأ الأمل الضعيف الذي ساور شمس الدين. أفاق من
 عاطفة الأبوة الملتاعة التي اجتاحته. رأى العناد والاعوجاج والسفه في

صورة جديدة من قوة شرسة متحجرة . ومع ذلك لم يستسلم للإيأس
فقال له برقة :

- إلى العمل يابني ، درب نفسك على إدارة ما مستكون صاحبه غدا .
وشعجه نور الصباح بحنانها وتوسلاتها . أما سماحة فقد أبى العمل
كسواعق فأبقاء أبوه معه في الحظيرة مشركا إياه في صميم عمله . غير أنه
تعلمل وغالى في طلب النقود . ولم يعد في وسع الأب أن يعامله كغلام
فراح يسهر في البوظة والغرزة وبيوت الدعارة متجاهلاً صاحبته الأولى
كريمة العنابي .

وقال له شمس الدين بحضور أمه :

- خير ما تفعل أن تتزوج ..

فقال ساخرا :

- لا توجد بنت جديرة حقاً بحفيد الناجي العظيم !

فأله أبوه :

- هل تدرك ما يعنيه اسم الناجي ؟

فقال بقحة ما بعدها قحة :

- معناه التفرد بالمعجزات مثل بناء مئذنة العفاريت !

فهتف شمس الدين مغيظاً محنتاً :

- إنك لجنون !

ومضى الأب حاله وهو يقول لنفسه :

- إنه يكرهني ما في ذلك من شك ..

وتهرب من هاجسه حيناً غير أنه قال بوجوم :

- سيقتلنى ذات يوم ..

واكتشف المعلم شمس الدين سرقة قدر من مال العمل لا يستهان به .
 عرف في الحال ما يعنيه ذلك . وأدرك أنه قد يفلس يوماً من جراء حماقة
 بهذه . ولم يتردد فذهب من توه إلى البوطة . وجد سماحة يجالس
 سمعة الكلبishi ورجاله كأنه واحد منهم . أشار إليه أن يتبعه ولكن الفتى
 لم يستجب . تاه في سكره وطالع أباه بنظرة متحدبة . وكظم الأب غيظه
 وقال له : ..

- أنت تعلم بما دفعني إليك ..

فقال ببرود :

- إنها نقودي كما هي نقودك ، وإنني أنفقها على خير وجه ..

فقال سمعة الكلبishi :

- أحسنت ..

فقال شمس الدين لسماحة :

- إنك تعرضت للخراب ..

فقال سماحة بلسان ملتو :

- أنفق ما في الجيب يأتيك ما في الغيب ..

فقال سمعة الكلبishi :

- هذا الولد حكيم !

واقترب عنبه الفوال من شمس الدين وهمس في أذنه محذراً :
 - وحد الله !

ولكن الغضب اجتاحه فصاح :

- اشهدوا جمیعا على أننى أطرب هذا الابن العاقد من بيته ، وأننى
أتبرأ منه إلى يوم القيمة ..

٤٣

وتلقت نور الصباح الخبر كمصيبة دهماء فصرخت :

- لن أفرط في ابني أبدا ..

فكرها شمس الدين في تلك اللحظة بكل قوة حنقه وغشه وصاح :

- لن يدخل هذا البيت ما حييت ..

- ابني .. لن أفرط فيه ..

فقال بلاوعي :

- إنه ينضح بأصلك القذر ..

فأجابته فاقدة الوعي أيضا من اليأس والغضب :

- ليس في أصلى دعارة أو جنون ..

فاطمها لطمة أسقطتها على أرض الحجرة فجنت من الغضب

وبصقت على وجهه . عند ذاك صرخ :

- اذهبى فأنت طالق بالثلاثة !

٤٤

أقامت نور الصباح وسماحة في شقة واحدة . انخرط الفتى في عصابة سمعة الكلبishi ولكنها لشدة إسرافه لم يذق الرضا قط . ولم

يُخفِّف كراهيته لأبيه عن أحد، وخاصٌّ في معايير آل الناجي بكل قحة
كأنه أكبر أعدائهم.

وعاش شمس الدين وحيداً. ولم يعد ينعم بالأمان أو الطمأنينة.
وتوقع لنفسه نهاية مثل نهاية أبيه أو أفعى. وتُوَثِّب للدفاع عن نفسه بكل
وسيلة. كان يغدق على عماله ليربح قلوبهم، ويحكم إغلاق شقته ببابا
ونوافذ. وبذل العطاء لسمعة الكلبشي وتودد إليه ما استطاع إلى ذلك
سبلا.

٤٥

وزاره يوماً شيخ الحرارة مجاهد إبراهيم وقال له :
- أنصحك بالحكمة يا معلم شمس الدين ..

فسألَه بوجوم :

- ماذا تعنى ؟

- خفف من العداوة ، أجر عليه بعض المال ..

فلاذ شمس الدين بالصمت ، فقال شيخ الحرارة :

- سمعته أمس في البوظة يمني الندماء بسهرات خلابة عندما ..

وتوقف الرجل فقال شمس الدين بكأبة :

- عندما أموت أو أقتل !

- لم يجر للقتل ذكر ، ولكن ليس هناك أبشع من أن يتمنى ابن
موت أبيه أو يتمنى الأب موت ابنه ..

- ولكني لا أتمنى موته ..

فقال مجاهد إبراهيم بوضوح:
- نحن بشر يا معلم!

٤٦

شعر شمس الدين بطائر الخوف يحلق فوقه . وذات يوم مضى إلى
دار سمعة الكلبى طاويا جوانحه على مغامرة فريدة . حيّاه بإجلال
وقال :

- أريد أن أتشرف بيد كريمتكم
ففاحصه الفتوة مليا ثم قال :

- من ناحية السن فليس ثمة ما يمنع من أن تتزوج بنت السادسة عشرة
من رجل في الأربعين ..

فحنى شمس الدين رأسه في خشوع ، فقال سمعة الكلبى :
- أصلك كريم ومالك وغير!

فواصل شمس الدين خشوعه ورضاه فسألها الفتوة :

- كم تدفع مهرا؟
فقال شمس الدين بقلق دفين :

- ما تأمر به يا معلم ..

- خمسمائة جنيه ..

فقال بحكمة :

- إنه مبلغ جسيم ولكن المطلوب أغلى وأعز ..
فمد له يده قائلا :

- لنقرأ الفاتحة ..

٤٧

زفت سنبلة سمعة الكلبى إلى شمس الدين جلال الناجى .
احتفلت الحارة كلها بالزفاف . صار شمس الدين فى أعز وأمن
مكان . لم تكن سنبلة جميلة ولكنها كانت غضة الشباب كما كانت ابنة
الفتوة .

٤٨

وتولى الذعر نور الصباح وابنها سماحة . وقال سماحة :
- تبدد حلم الميراث . . .
فقالت عفيفة وهى لا تصدق نفسها :
- ولكن حرك لا يمس . . .
فقال سماحة :
- هل تتصورين أن الكلبى سيترك الأمور للشرع؟!
فقالت نور الصباح محذرة :
- الحياة أغلى من المال . . .
فقال بغضب :
- إن أعين رجاله ترقبني ليل نهار ، كالمتبع مع المخيفين من آل
الناجى ، وها هو ذا ظرف جديد يدفعه إلى المزيد من الخدر !

٥٠٤

فتأوهت نور الصباح وقالت :

ـ الحذر يا بني ، لعنة الله على أيك ، وليحفظك الله .

٤٩

اقتنع سماحة بأن حياته باتت مهددة ليخلص الميراث لسبيلة وحدها ،
وليأمن الفتوة جانبها على فتونه بصفة نهائية .

والعجب أن شمس الدين نفسه لم يستنم طويلاً إلى سبات الطمأنينة العذب . ماذا يحول بين سماحة وبين الانتقام منه وهو أدرى الناس بطبيعة المستهتر ؟ وهل يوجد سيد للموقفاليوم أقوى من سمعة الكلبشي ؟ لقد وضعه الخوف من الموت بين فكى الموت نفسه ، ولن يستكن الفتوة حتى يتزعز منه ماله إلى آخر مليم . وهو لم يمل حقاً لسبيلة ، وعاوده حنينه إلى نور الصباح ، ولكن كان عليه أن يحمل ثقل تلك المعاشرة مع انتقال حياته الأخرى . وثمة حقيقة تتشبث أظافرها في لحمه وهي أن الأمس لا يمكن أن يرجع أبداً ..

٥٠

وزاره سمعة الكلبشي ذات ليلة . أشار إلى ابنته فغادرت الحجرة فتوقع أمراً لا يسر . ما معنى زيارة لليلة ؟ كره منظر وجهه الشبيه بكرة كثيرة الندوب ، كما كره ثقته الموحية بأنه يجلس في بيته وبين أهله . وراح يتكلّم عن عجائب المصادفات ونوارد الدهر والقوى الخفية

٥٠٥

المسيطرة على مصائر البشر، وشمس الدين في حيرة من تأملاته، حتى قال الفتوة:

ـ انظر مثلاً كيف أن وجود شخص معين غير مرحب لكلينا!
أدرك من أول وهلة ما يعنيه. تجسدت لعيشه صورة ابنه سماحة.
انذعر لموافقة الرأي لأمانية الخفية أكثر من انذعارة إشفاقاً على وحيده.
وتساءل متجاهلاً ومتعانياً:

ـ أي شخص تعني يا معلم؟
فقال الكلبishi بازدراء:

ـ لا.. لا.. ، لا تستغفل الكلبishi يا أبيا سماحة!

فتساءل بارتياح:
ـ تقصد سماحة؟

ـ هو ما تقصده أنت!
ـ إنه ابني.

ـ كما كنت ابن أبيك!
فقطب متألماً وقال:

ـ إنك قوة لا يجوز عليها أن تخشى أحداً..

ـ دعك من هذا الكلام الفارغ، ثم إنك لم تفهم غرضي!
فقال شمس الدين بامتعاض:

ـ زدني إيضاها!

ـ بع أملاكك بيعا صوريا لزوجتك. يأس سماحة ثم يرحل!
فغاص قلبه في صدره وقال كالمستغيث بأى شيء:

ـ أو يحفزه ذلك على الانتقام مني!
ـ لن يمسك سوء ما دمت حيا!

رأى الشرك فاغرًا فاه . رأى الصائد مكشرا عن أنيابه . الفقر أو الموت أو الاثنين معا . محال أن يقبل ومحال أن يرفض . قال بتسلل :

- أعطنى مهلة للتفكير ..

فعبس الفتوة محنقا وقال :

- ما سمعت مثل ذلك من قبل ..

قال بضراعة :

- مهلة قصيرة ..

فنهض الرجل وهو يقول :

- صباح الغد . عندك الليل بطوله ..

٥١

لم يغمض لشمس الدين جفن . ترك سنبلة في زيتها تنتظر حتى غلبها النوم . أطفأ المصباح ، تدثر بعباته اتقاء للبرد ، رأى في الظلمة الأشباح . أشباح الماضي كلها . ما هذا التدهور بعد الصمود؟ ألم يحمل أثقاله ويمضي بها؟ ألم يكفر عنها بالصبر والألم؟ ألم يتلزم بالجدية والاستقامة والجلد؟ كيف جاء التدهور ليirth نصاله كله بلا دفاع؟ لقد حدث ذلك بسبب سقوطه في هاوية الخوف . الخوف أصل البلاء . خاف ابنه فطرده ثم طلق أمه ، ثم مضى بقدميه إلى وكر الشيطان . بلا تفكير سليم مضى . وكيف يتهيأ التفكير السليم لمنذعر؟ عندما صرخ الخوف واجه الحياة بكبرياء . لم تقض عليه نوائب السمعة السيئة والجريمة البشعة واحتقار الحرارة . واجه الحياة بكبرياء . طوع اليأس لخدمته ، بنى على أساس داعر أسرة كريمة ، نجح في العمل ، حاز القوة

والشراء، عندما صرخ الخوف. اليوم يطالب بالتزول عن ثروته، غدا يقتله سماحة، بعد غد يؤخذ سماحة بجريمته، يفوز الكلبى بالمال والأمان. يقول شبح فى الظلام: لا تقتل ابنك، لا تحمل ابنك على قتلك، لا تذعن للطاغية، لا تستسلم للخوف، طوع اليأس لخدمتك، ابحث فى الموت عن عزاء كريم إذا تعذر الحياة..

وعصفت ريح الشتاء فى الخارج كالنواح فتخيل - مأخذوا بنشرة الخيال - أن عاشور أصغى لها ذات ليلة فى بدر ومه الحالى ..

٥٢

في الصباح سقط رذاذ مشبع بروح أمشير النقبة المتقلبة الثائرة، ونفذت البرودة إلى نخاع العظام. مضى شمس الدين فوق الأرض الزلقة متوكلاً على عصاه الغليظة. رحب به سمعة الكلبى وهو متربع فوق أريكته بالقهوة:

- أهلاً بالعلم شمس الدين ..

ـ دعاه إلى جانبه فجلس ثم سأله هامساً:

- نشرع في إجراءات البيع؟

ـ فأجاب شمس الدين بهدوء مريض:

- كلا ..

- كلا؟!

- لا بيع ولا شراء ..

ـ فاصفر وجه الفتورة وتمتن:

- يا له من قرار جنونى !

٥٠٨

- بل هو عين الصواب ..

ارتسمت في أساريره صورة كالمحة للشر وقال :

- تعتمد على مصاہرتی؟

فقال شمس الدين بهدوئه المصمم :

- أعتمد بعد الله على نفسي !

- تتحدىني؟!

- بل أصارحك برأيي ليس إلا ..

اجتاحت الغضب سمعة فلسطمه بقسوة . جن جتون الآخر فرد اللطمة بأشد منها . وثبت الرجالان في لحظة واحدة شاهرين نبوتيهما . وسرعان ما التحاما في معركة قاسية . كان شمس الدين قويا وأصغر من سمعة عشر سنوات ولكنه لم يمارس المعارك . وجاء رجال الفتوة من جميع الأحياء ويسرعاً مذهلاً ، وبينهم سماحة . أحاطوا بالمتعارضين دون تدخل من جانبهم احتراماً للتقاليد المرعية . وتمكن سمعة الكلبishi من خصميه واستجمع قوته ليوجه إليه ضربة قاضية . في تلك اللحظة وثبت سماحة وثبة مفاجئة فهوئ بنبوته على رأس الفتوة فتفوض ببنائه وانظر أرضاً . وقع ذلك بسرعة خاطفة . صرخ الرجال وانقضوا على شمس الدين وسماحة ، ولكن ثمة مفاجأة أخرى كانت متربصة ، انضم نفر من الرجال إلى سماحة وشمس الدين ! هفت أصوات :

- خيانة وضيعة !

والتحم الفريقان بضراوة ووحشية . تصادمت النبابيت ، تلاطم الأجسام ، فرقعت الصناث ، تطايرت اللعنات تحت الرذاذ ، سالت الدماء ، استحررت الأحقاد ، أغلقت الدكاكين ، هرولت العربات ، تجمعت الناس في طرفى الحارة ، اكتظت النوافذ والمشريات . علا الصريح والعويل ..

حمل شمس الدين إلى بيته محطماً. استطاع سماحة أن يرجع إلى مسكنه بجهد شديد ثم رقد وهو بين الحياة والموت. أما سمعة الكلبishi فقد أصابه العجز وتلاشت أسطورته، وانهزم رجاله.

وتكتشفت حقائق في اليوم نفسه. عرف أن سماحة طمح إلى الفتونة، وأنه نجح في ضم بعض الرجال إليه سراً. وأنه كان يرسم للقضاء على الفتوة والسيطرة على أبيه، فلما بوغت بالمعركة بين الفتوة وأبيه انقض في اللحظة المناسبة لحماية شمس الدين وإعلان ثورته، ونجح مشروعه ولكنه رقد بين الحياة والموت..

تواصل سقوط الرذاذ طيلة النهار. تشرب الجو بظلال كستنائية ونعاس. نقش أديم الأرض الزلقة بحوافر الدواب. أما المعلم شمس الدين فقد انطرح فوق فراشه يحتضر في رعاية جاره بعد أن هجرته سنبلة. لم يفتح عيناً، لم ينبعس بكلمة، ندت عنه حركات مبهمة، تبدى متخلياً عن كل شيء، وعند جثوم الليل أسلم الروح..

سارق النغمة

الحكاية التاسعة من ملحمة الحرافيش

كتبت لسماحة شمس الدين جلال الناجي النجاة من الموت . استعاد صحته رويدا ثم استرد قوته . وأضافت المعركة الأخيرة إلى وجهه تشوهات جديدة فانقلب ذا وجه قبيح ينذر بالشر والإرهاب . وتبوا الفتونة دون منازع فبشرت فتونته بسيطرة غير محدودة . وسررت نور الصباح العجمي أمه بحظها ، وبانتصارها الخامس على ضرتها سنبلة بنت الفتوة السابق سمعة الكلبishi . ورجعت سنبلة إلى أبيها العاجز حيث أنجبت ولیدها ابن شمس الدين الذي أسمته فتح الباب باسم جدها لأمها . واقتسمت ثروة شمس الدين بين ابنيه سماحة وفتح الباب وأرمنته سنبلة . وصار سماحة وصيا على أخيه بحكم القرابة ، ولم ينزعه أحد في ذلك خوفا من بطشه ، هكذا عاد جل ثروة أبيه إلى قبضته الحديدية . وقال سماحة لسبنة :

- لقد هجرت أبي ، تركته يحضر وحيدا ، وإنه لظلم أن ترثى بعض ماله ، فلا تنتظري مليما من مستحقات فتح الباب . اعتبرى بعضه إتاوة والبعض الآخر عقوبة لك ..

وخلق سماحة أسطورة حول ذاته . أذاع أنه ما خاض المعركة ضد الكلبishi إلا دفاعا عن أبيه رغم ما كان بينهما من خلاف وعداوة ، وأن

انضم من انضم إليه من رجال العصابة كان بداع الشهامة وحدها . ولكن ذلك لم يجز على أحد . كان قد عرف ما عرف عن اتتماره على فتوته وإغرائه بعض الرجال للانضمام إليه ، وأنه انتهز فرصة نشوب المعركة بين أبيه والكلبishi لينفذ مؤامرته دفاعاً عن أبيه . بل لقد اتهم من بعض كارهيه بأنه لم يدافع عن أبيه شمس الدين كما يجب ، وأنه سُرّ لوفاته . غير أن شيئاً من همساتهم لم يبلغه ، وظل مزهوها بالأسطورة التي خلقها . . وانداحت فتوته على الحارة كجبل شاهق ، ولكنه أدب فتوات الحارات فرفع منزلتها في الحي جميعه وأرجع إليها الهيبة والجلال . وأنشأ بماله وما لأخيه فتح الباب داراً جميلة أقامت بها نور الصباح العجمي أمّه ، أما هو فكان يتنقل ما بين البوظة والغرزة وبيوت العاهرات . .

٣

ومات سمعة الكلبishi ، فورثت سنبلة عنه ثروة لا بأس بها ، كان لها من الأخوات عشر . وما لبثت أن تزوجت من كاتب في بنك الرهونات . ولم يلق فتح الباب ترحيباً من زوج أمّه ، وضاق به أكثر عندما أنجبت له سنبلة بنين وبنات . نشأ الغلام في جو حزين ، فكان يلوذ بأمه ويتجنب رب البيت ، وضاعفت حساسيته من ألمه ووحدته ، ولم يشفع له تفوقه في الكتاب ولا حسن خلقه ووداعته . لذلك ما إن بلغ التاسعة حتى مضت به سنبلة إلى الفتوة سماحة وقالت له :

- هذا أخوك فتح الباب وقد آن له أن يعيش تحت جناحك . .

وتفحصه سماحة فوجده جميلاً رقيقاً حزيناً ولكن قلبه لم يرق له ،
وقال :

- ماله يبدو جائعاً !

فقالت سنبلة :

- كلا، لكنه غلام رقيق.

- لا يصدق من يراه أنه ولد من صلب فتوات من ناحيتي أمه وأبيه !
- هكذا هو !

فقال محاولا التخلص منه :

- لك أن تختفظي به ..

فاغرورقت عينها وقالت :
- لا يوفر بيتي له السعادة ..

واضطر سماحة إلى احتضانه ومضى به إلى أمه نور الصباح ولكنها
كرهت إيواءه وقالت لابنها :
- لم تعدلني طاقة على رعاية الأطفال ..

الحق أنها أبنت تربية ابن ضرتها سنبلة . وحار سماحة ماذا يفعل ،
وتجرب الغلام الذل والأسى بصبر . وعند ذاك طوّعت عجوز من
صديقات نور الصباح باحتضانه . تلك كانت سحر الداية . أرملة بلا
ذرية ، ومن سلالة الناجي . وكانت تقىم فى بدرؤوم من حجرتين بإحدى
عمارات جلال صاحب المثلثة ، وكانت طيبة القلب ومعتزه بأصلها
فلقى فتح الباب فى رحابها أول حياة دافئة خالية من الكدر ، وأعانه ذلك
على تحمل فراق أمه سنبلة ..

٤

ورأى سماحة الفتوة ذات يوم فتاة جميلة وصغيرة فأعجبته . لم تكن
فى متناول اليد كغيرها من نسائه . رآها فى دوكار وعرف الدار . وأنس

من وجهها الحسن ألفة تنم عن تقارب روحي خفى ما لبث أن كشف أسبابه . تبين له أنها فردوس حفيدة المرحوم المعلم راضى محمد أنور من زهيرة ، أخي جلال صاحب المثلذة . وكان إعجابه شهوة ورغبة فى الامتلاك ولكنهما كانتا من القوة بحيث جعلاه يفكر فى الزواج جادا لأول مرة فى حياته البهيمية . وأغراء بها إلى ذلك ملكيتها محل الغلال واتمامؤها مثله لآل الناجى . وقد دهشت أمه عندما طلب إليها أن تخطبها له ، ولكنها سرت لذلك سرورا لا مزيد عليه . وقال لها سماحة وهو يقهقه :

– حسبي وحسبها أنا ننتمى إلى زهيرة الجميلة المجنونة قتالة الرجال !
وكان قبحه وسلوكه جديرين برفضه ولكن منذا الذى يرفض يد فتوة؟!

٥

زفت فردوس إلى سماحة . التحم ذو الوجه القبيح بذات الوجه العذب . وقد كان جميلا ذات يوم ، ولكن النبابيت أعادت خلق وجهه . أما اعتزازه بأصله وفحولته فلا حدود له . فرغم كل شيء نجح الزواج وجاد بسعادة ساخنة . وبفضله أصبح سماحة مديرًا محل الغلال ومالكه الفعلى . ومن حجرة الإدارة استلت إرادة من صوان تصرف فى شئون المال والمعارك معا . ووهب الزواج عطايا من العذوبة والنصارة ، ورغدا من حياة القصور وأساليب المعيشة الرفيعة ، وإطارا ثريا من الرياش والتحف ومباهج الترف . ولم ينقطع عن العربية ولكنه وفرها لعشة الشرعى ، فانتقلت إلى القائمة المذهبة الجوزة والقرعة . وعلمه محل

الغلال وأبهة الإدارة حب المال وجمعه فقرر أن يعيد سيرة جده جلال صاحب الخوارق المجنونة، وأن يفرض سيطرته - بعد الناس - على الأشياء الثمينة.

٦

وأثبتت فردوس أنها ذكية بقدر ما هي حسنة الحظ. لقد أحببت زوجها. ومضت تنجذب له ذرية من خلق الحب ودفنه. فلم تأل جهداً في تهديبه وامتلاكه بتسليл عذب لا تحدى فيه ولا كبرباء. لم تكن تحترم الفتونة ولكنها لم تنكر مزاياها. وكسائر آل الناجي كانت تتوه بذكريات الفتونة الأسطورية القديمة، بعدالتها ونقايتها، ولكنها في الوقت نفسه بحكم انتماها إلى الوجهة تنفر من تلك الفتونة النقية التي تؤثر الفقر والبطولة وتشكم السادة والوجهاء. وإذا فلتبق الذكرى موضعاً للتبرك والفخر، ولتبق فتنية اليوم واقعاً يحقق القوة والسيادة والثراء. وما من بأس على سماحة أن يفعل ما يشاء تحت شرط أن يفعله في دارها، وفي غشاء من خيوطها الذهبية المحكمة.

وتمر الأيام وهي سعيدة بحياتها، والأغنياء يزدادون غنى والفقراe يزدادون فقرا..

٧

واصل فتح الباب تعلمه في الكتاب وحفظ ما تيسر من القرآن. طابت نفسه بجو الحنان في مقامه الجديد فانزاح غطاء الخوف من نفسه

عن كنوز من عواطف غنية وخيال بديع . غلام قمحى اللون أسود العينين رائق البشرة ، فى ذقنه ثغرة ، وفى قده رشاقة ، ينضح بالعذوبة والفطنة . تناسى أمه كما تناسته وتعلق بسحر الداية قلبها . أحبها وقدسها ، وتلقى منها أنوارا لم تخطر له على بال .

كانت تقول له فى ليالى السمر :

- نحن من أصل واحد مبارك هو عاشور الناجى ..

طالما تحدثت بيقين عن ماضى غابر كأنما كانت حقاً تتنفس فيه .

- أبل الأصول كان أصله ، وخفاف عليه أبوه من غضب فتوة ظالم ، وجاءه فى المنام من أمره بأن يترك ولديه فى الممر فى رعاية التكية ، وما تردد أن فعل ..

ولعن فتح الباب من تقولوا على جده بأنه كان لقيطا ، فقالت سحر :

- من أبل الأصول كان أصله ، وقد ترعرع فى أحضان رجل خير ، وغا شابا قويا ، وذات مرة أمره ملاك فى المنام أن يهجر الحرارة اتقاء للوباء ودعا الناس إلى الهجرة ولكنهم سخروا منه فمضى محزونا بزوجه وولده ، ولا رجع أنقذ الحرارة من العذاب والذل كما أنقذه الله من الموت ..

وراحت تحكى له قصة عاشور ، عودته ، مقامه فى دار البنان ، فتونته ، عهده ، حتى امتلأت عينا الصبي بالوجود والدموع ، فقالت سحر :

- وقد اختفى ذات يوم ، وطال اختفاوه حتى آمن الناس بموته ، أما الحقيقة التى لا شك فيها ، فهو أنه لم يمت ..

فسألها فتح الباب بدھشة وأمل :

- حتى الآن يا جدتى ؟

- وحتى الغد !

- ولم لا يرجع؟
- علم ذلك عند الله وحده ..
- قد يرجع فجأة؟
- لم لا؟!
- هل علم بما فعل أخي سماحة؟
- طبعاً يا بنى .
- ولم سكت عنه؟
- من يدرى يا بنى؟
- هل يرضيه الظلم يا جدتي؟
- كلاً يا بنى .
- لم يسكت عنه؟
- من يدرى يا بنى ، ربما لسخطه على تهاون الناس مع الظالم ..
وسكت فتح الباب ملياً ثم عاد يسأل:
- كل ذلك حقيقي يا جدتي؟
- هل كذبت جدتك قط؟!

٨

ويذهب فتح الباب إلى الكتاب ويحيى . يرى جده عاشور في كل مكان . إنه ينبض في قلبه وخياله . ويشتعل في أشواقه وأماله . يراه في الزاوية والسبيل والخوض . يراه في المر وفى الساحة أمام التكية . طالما نظرت عيناه إلى هذا السور العتيق ، إلى هذا الباب المغلق ، إلى أشجار التوت الفارغة ، كما ينظر هو إليها الآن . ما زال الجو مخضلاً بأنفاسه

ونجواه . ورغائبه وأحلامه . وسره مطوى في الغيب لا تكشفه هذه الأشعة السائلة . حتما سيجيء ذات يوم . هكذا تكلمت جدته الصادقة . سيلوح بعصاه العجراء فيتلاشى سماحة ذو الوجه القبيح . يتلاشى بظلمه الأسود وجشعه الأحمر وما له المكتنز . وبهلهل الحرافييش ليوم الخلاص ويسبحون في بحر النور . وتتقوض مئذنة الجنون فتراتكم أنقاضها فوق الغدر والخيانة والسفه . أم أنه يتجاهلنا لتهاوننا مع الظالم حقاً؟ إنه يحب جده . يود أن يحظى برضاه . ولكن من أين له القوة وقد خلق رقيقا كالخيال؟ من أين له القوة؟!

٩

ولما ناهز فتح الباب المراهقة فكرت سحر مستقبله . وشاورت عم مجاهد إبراهيم شيخ الحارة فقال لها :

- اختارى له حرفه .

قالت باعتزاز :

- إنه من خيرة من تعلم في الكتاب .

فسألها الرجل :

- ألسنت داية فردوس هانم؟

فأجابت بالإيجاب فقال لها :

- حدثيها بشأنه ، ومن ناحيتي سأمهد له عند المعلم سماحة ..

١٠

وقالت سحر لفردوس هانم :
- فتح الباب ولد ممتاز ، وهو من دمكم ، وأولى الناس بالعمل في
محل أخيه ..
ورحبت الهانم بذلك ووعدت بإقناع زوجها .

١١

وتفحص سماحة أخاه فتح الباب بعناية وعمق بازدراء :
- رقيق مثل فتاة ..
فقالت سحر :
- هكذا خلق ولكل شيء نفعه ..
فتساءل ببرود :
- وما نفعه ؟
- يحفظ القرآن ، يكتب ويعرف الحساب ..
فتح حول نحو الفتى وسألة متهكمًا :
- ألمين أنت أم طويل اليد مثل بقية الأسرة المجيدة ؟
فقال فتح الباب بحرارة :
- إنني أخاف الله وأحب جدي ..
- جدك جلال صاحب المئذنة ؟

٥٢٠

- جدى عاشور الناجى !

قطب سماحة وتغير وجهه فبادرت سحر تقول :

- إنه طفل برىء ..

فقال سماحة بوحشية :

- جدك عاشور أول من علمتنا السرقة !

ذهل فتح الباب وتألم . خافت سحر أن ينبع بكلمة تسد طريقه
قال :

- إنى أضمن أمانته وجده والله شهيد ..

هكذا الحق فتح الباب بالمخزن مساعدًا لأمينه ..

١٢

تفانى فتح الباب فى عمله . كان المخزن يشغل بدوره ما مترًا مياميل
فى اتساعه مساحة محل كله . ترمى فيه أجولة الغلال على الأرفف
والأرض ، ولكنها تتعرض لحركة يومية بين المجىء والذهاب ، فلم يكن
الميزان يكف عن العمل ولا يده تكف عن التسجيل . وبحكم عمله كان
يحظى بمقابلة أخيه سماحة مرة على الأقل كل صباح ليطلعه على حركة
الوارد وال الصادر . وارتاح الفتوة إلى نشاطه ويقظته ووجد فيه عيناً تلقائية
على أمين المخزن . وقال له بأسلوبه :

- إنى أشجع المجتهد وأبطش بالكسول ..

وعملابن بصيحة سحر زار نور الصباح العجمى أم معلمه ليقدم لها فروض الطاعة. لم يكن قد بقى من جمالها شيء، وقد رحبت به بفتور دلًّا على أنها لا يمكن أن تنسى إساءة. وإذا بها تسأله :

- كيف حال سنبلة أمك؟

وأجاب بذل :

- لم أرها منذ فارقتها لكراهية زوجها لى !

فقالت بحنق :

- لا عنذر لها سوى أنها بلا قلب ..

وغادرها مضمراً ألا يراها مرة أخرى.

وبتوجيهه جدته أيضاً زار فردوس هانم. وقد عطفت عليه فبهره جمالها وأناقتها. قالت :

- سمعت عن نشاطك ما يسر الخاطر .

ولكنه لاحظ أنها لم تعرفه إلى أبنائهما. لعلها أبىت أن تقدم عاملًا بسيطاً مثله بصفته عمهم. وألمه ذلك ولكنه صمم على تجاهله وتناسيه. وغادرها معطراً بشذا جمالها وأناقتها. ومضمراً في الوقت نفسه ألا يزورها مرة أخرى ..

وبالعمل اكتسب ثقة وعزّة. مضى يتشبه بالرجال فربى شاربه، وطوق رأسه باللائحة. وعرف طريقه إلى الزاوية فتوثقت صلته بالشيخ سيد عثمان.

وكان يجلس في القهوة ساعة من الليل فيشرب القرفة ويدخن البوري، ثم لا يرجع إلى جدته حتى يطوف بالساحة، فقد أدركه عشق الأناث.

واضطررت أعصابه بألم مجهول. وفاض قلبه بالحنين وتلظى بلهب خفي. مناظر النساء سحرته، أصواتهن أرتعشت قلبه. ومن أقرانه تلقى سيراً من دعوات الإغراء للتعرف إلى البوطة والغرزة وبيوت الدعاية ولكن الماضي كان يصرخ في أذنيه محذراً. الماضي المرهق بذكريات المئذنة والانحرافات والشهوات التي قضت على أصالة أسرته. وكان جدته كانت تقرأ أفكاره فقالت له ذات يوم:

ـ آن لك أن تتزوج ..

وطرب للفكرة ووجد فيها الخلاص المنشود..
ولكن سرعان ما اكفر الأفق وأنذر بعواصف لم تخطر على البال..

جاءت الهمسات من خارج الحارة حاملة نذراً من نوع غريب. قالت إن فيضان ذلك العام شحيح أو أنه لن يأتي. ما معنى ذلك يا ترى؟ قالت إنه الوييلات تتلاحم حتى لا تبقى على شيء. حقاً؟ سيندر الطعام، وربما اختفى تماماً، والعاقل من يخزن اليوم ما يتبلغ به غداً. وعمل بالحكمة القادرون، وترامق الحرافيش وهم يضحكون، ولم يصدقوا أنهم سيحرمون من اللقمة التي يتزعونها بالعرق أو يتصدق بها عليهم المتصدقون..

وامتلاً الجو بالطنين، واصطيغ بصفرة منفرة، فزحفت أشباح القلق بالليل والنهار..

واندفعت عجلة البلاء بلا تدرج. ارتفعت الأسعار ساعة بعد ساعة. تلبد الأفق بسحب سوداء. عملت حوانين الغذاء نصف يوم لندرة الأطعمة. تلاطم الشكاوى والآنات. وتكونت أمام محال الدقيق والفول مظاهرات. لم يعد للناس من الحديث إلا الطعام. لهجوا به في البوظة والغرزة والقهوة. اندلع الشرر فاشتعل ناراً. حتى الوجهاء جهروا بالشكوى ولكن لم يصدقهم أحد وفضحthem وجههم الريانة الموردة. وقال عنبة الخمار:

إنه الوباء!

وتمادت الأسعار في الارتفاع، وبخاصة الغلال. وراح سماحة
يُصيّح:

لم يعد يبقى ما يكفي العصافير ..

غير أن فتح الباب قال بحدته ليلاً:

ما أكذبه يا جدتي! المخزن ملآن ..

وقال لها أيضًا:

ما الأسعار التي يفرضها إلا إتاوة جديدة ..

فقالت له بإشفاق:

احفظ لسانك يا بنى ..

فقال متأنلاً:

إنه وحش لا تعرف الرحمة قلبه ..

١٩

وازداد الجو عبوسة ودمامة. وامتنعت الأسعار الجنون. ندر القول
والعدس والشاي والبن، واختفى الأرز والسكر، وتدلل الرغيف.
وندت عن الأعصاب المرهقة بوادر استهانة، فتعددت السرقات،
وعاقب خطف الدجاج والأرانب، وبعض السائرين ليلاً نهبو أمام
بيوتهم، وانبرى رجال العصابة ينذرون ويهددون، ويدعون إلى
الأخلاق والتضامن بحناجر قوية وبطون مكتنزة.

وكشفت الأيام عن أنيباها الحادة القاسية، وتضخم شبح الجوع
كالمئذنة المجنونة، فشاع أن الناس يأكلون الخيل والحمير والكلاب
والقطط، وأنهم عما قليل سياكل بعضهم بعضاً ..

وفي ذلك الوقت البارد الأصفر تصدى يوم غريب كأغا هبط من كون آخر . فقد زفت إحسان بنت الفتونة سماحة إلى ابن صاحب وكالة الخشب . أقيم حفل خيالى لم تشهد له الحارة مثيلا ، تحدى الزمن والجوع . وأعلنت فردوس هامن أنها ستطعم جميع الحرافيش . وتجمهر الجماع فى ساحة العرس . وما إن ظهرت الصوانى على رأس الخدم حتى هجم الحرافيش كالوحش الضاربة . تخاطفوا الطعام وتخالطوا مثل ذرات الغبار فى يوم عااصف . وانتشر الشد والجذب والخطف ، ثم التلامم والشجار حتى امتزج الدم بالمرق . وتمل الناس بالفوضى والشغب ، واندفعت موجة منهم إلى البوظة فاكتسحتها ، التهمت المزة وعيت من برAMIL البوظة ، ثم انطلقو فى الحارة مهلاين ، وقدروا بالطوب أشباح الخرابات . وخضعت الحارة للعربدة الهوجاء حتى مطلع الفجر ..

فى اليوم التالي تعرضت الحارة لحملة تأديب وإرهاب . انتشر فيها رجال سماحة ، ومضى الفتوة يقطعها من القبو حتى مشارف الميدان ذهابا وإيابا . ولم ينج حرفوش من علقة أو إهانة ، وتفشى الذعر فخلت الحارة من السابلة وأغلقت الدكاكين وهجرت القهوة والغرز حتى الزاوية لم يقصدها عايد فى ذلك النهار .

وجلس فتح الباب إلى جدته كثيما محزونا، وجعل يقول :

- جدى عاشر لمن يرجع !

فرمقته العجوز بنظرة حزينة فقال :

- ما زال غاضبا علينا !

فتمتت سحر :

- أيام أشد من أيام الوباء ..

- وفي التكية ما زالوا ينشدون للطرب !

- لعلها دعوات يا بني !

فتساءل فتح الباب بقلق :

- ألا يجدر بهم أن يجودوا على الناس ببعض ما عندهم ؟

فقالت سحر بحرارة :

- لا يجوز عتابهم ..

- عندهم التوت والأرض مزروعة بالخضر ..

فلوحت بيدها محذرة ، فقال متنهدا :

- أما أخرى سماحة فهو الشيطان نفسه ..

في الظلام مرقت ذرة نور ، في الصمت اندست همسة حنان . ولم يجاوز السر خرابات الحرافيش . حرصوا على الكتمان ووجدوا في

الكتمان حياتهم فثمة صرة حاوية لطعام تدس في يد أحدهم، تعقبها
خمسة تقول «من عاشر الناجي» وسرعان ما يذوب شبح في الظلام.
حدثت ذلك أول مرة في القبو، ومرة ثانية وقع في الممر، وتكرر في
الخرابات. وتهامس به الحرافيش. عرفوا بالفطرة أن السر يسعى وراءهم
وأنهم المقصودون بالاتصال. تلقو من الغيب لقمة. أدركوا أن معجزة
تخلق في ظلام الليل. أن نافذة للرحمة قد فتحت. أن عاشر الناجي
أو روحه تضرب فيما بينهم. أن الكون الصلد المصمت تششق جدرانه
ويطل منها المجهول. وجرت الدماء في عروقهم، ونبضت قلوبهم
بالحياة من جديد.

صرة الرحمة وخمسة عاشر الناجي ..

٢٤

وبعثت نشوة الفرح حياة في الألسنة فرققت على أنغام أمانها.
تردد اسم عاشر حتى تجسد. لم يذكر شيء عن الصرة ولكن انتشر أن
عاشر يبعث في ظلام الليل. وسخر رجال سماحة من الخرافة. قالوا
إنهم يسحرون الليل فلا يلقون أحدا. ودعى سماحة الشيخ سيد عثمان
شيخ الزاوية وقال له :

- جنّ الناس من الجوع ..

فحنى الشيخ رأسه فسألة :

- هل بلغك ما يقال عن عودة عاشر؟

فحنى الشيخ رأسه بالإيجاب فسألة :

- ما رأيك فيه؟

٥٢٨

- لا يصدق ..

- لكنه كفر أيضا!

فقال الشيخ ياشفاق :

- إنه لكفر ..

فقال سماحة بنبرة حاسمة :

- قم بواجبك ..

وراح الشيخ يخطب الناس محذرا إياهم من الخرافية والكفر، وقال الرجل «لو بعث عاشور حقاً لجاءكم بالطعام» فسخر منه الحرافيش وازدادوا إيمانا.

٢٥

انقلب الظلام قناعة سحرية للاتصال بين الأرواح. ثم الفضاء بالهمسات السحرية. في غفلة من الرقباء تدفقت النجوى مفعمة بالحرارة. ويتسائل الرجل :
- أأنت عاشور الناجي؟

ولكن الهامس سرعان ما يذوب في الظلام مثل روح شارد. همسة تدعو النائم أن يستيقظ. همسة توكل أن المخازن مليئة بالخير. همسة تلعن الجشع، الجشع عدو الإنسان لا القحط. همسة تتساءل أليست المغامرة أفضل من الموت جوعا؟ وهمسة تنبه إلى أنه توجد ساعة ينام فيها رجل العصابة فتخلى عنهم قوتهم. وهمسة تسأل ماذا يمكن أن يقف في وجه الكثرة إذا اندفعت؟ وهمسة تحذر، كيف ترددون ومعكم عاشور الناجي؟

٥٢٩

انقلب الظلام قناء سحرية للاتصال بين الأرواح . ثمل الفضاء
بالهمسات السحرية . شحن الغيب بالقوى المجهولة ..

٢٦

وكانت ثمة قوة أخرى تعمل بلا هواة حتى وقفت على سر
الطعام والمجهول . وكشف سماحة عن الخزى في صميم محله .
وسرعان ما صرخ ضامر الحسني أمين مخزن الفتوة من الرعب وقال
بحراره :

- إنى برىء يا معلم وليشهد الله ..

فقال سماحة بوحشية :

- سرق من المخزن أكثر من نصفه .

- إنى برىء يا معلم ..

- إنك مجرم حتى تثبت براءتك .

- لا تخسر رجلا وهبك حياته لخدمتك !

- معك أنت المفاتيح .

- أسلمهها لك كل مساء ..

- ولكنني أجدها مكانها كل صباح وأعيدها إليك ..

- يمكن أن تؤخذ فيما بين ذلك وتعاد !

- وأنا لا أدري ؟

فقال ضامر الحسني بابتهاه :

- إذا كان السارق من يتربدون على حجرتك بلا إذن !

استقرت في عيني سماحة نظرة صلبة محتقنة بالنار كأنما تناهى
الشياطين من أوكرارها، وتمتم وجهه ينضح بالدمامة والغل:
ـ إن تكون كاذبا فقد هلكت، والويل لل مجرم ..

٢٧

من وراء السبيل، في ظلمة كثيفة، تسلل فتح الباب إلى باب
المخزن. أدار المفتاح بحذر ودفع الباب برقة. ورد الباب وتقدم خطوات
مستهديا بنور الذاكرة.

اشتعل مصباح فجأة فألقى على المكان ضوءاً فاضحاً. انذعر فتح
الباب وتسمر في موضعه. بربت من الظلمة على ضوء المصباح وجوه
مخيفة قاسية، وجه سماحة، وجه ضامر الحسني، وجوه نفر من أشداء
العصابة. تلاطم النظارات في ارتظام عنيف. انغرز الصمت في
النفوس وأز في الآذان مثل فحيح الأفاغي. احترق الجو بأنفاس حارة
منطلقة من غرائز بدائية وحشية. وملأته نظرة أخيه. نفذت إلى أعماقه
فاقتلت أعضاء من جذورها. شعر بالسم يسري في جوارحه،
وبالهزم المطلقة، بالضياع في غياب الفناء. انجلت عنه هموم الأمل
فغاص في اليأس، وانتظر كلمة القضاء كأنها تخصن شخصاً آخر.

وجاءه الصوت يسأل بارداً ساخراً حانقاً:

ـ ماذا جاء بك في هذه الساعة من الليل؟

لم يبق له إلا الاعتراف والشجاعة والتوكّل على الله. أجاب بهدوء
غير متوقع: .

ـ لقد علمت كل شيء ..

٥٣١

- ماذا جاء بك في هذه الساعة من الليل؟
فقال بشجاعة أكثر:
- جئت لأنقذ أرواحاً من الموت ..
- وهذا جزاء من يحسن إليك؟
فقال بهدوء:
- هذا ما ينبغي فعله ..
- إذن فأنت عاشور الناجي؟!
فلاذ بالصمت. فقال سماحة بغل:
- ستعلق من قدميك في السقف يا معلم عاشور حتى تصفي روحك
نقطة بعد نقطة ..

٢٨

ووقيعت الواقعة. رسبت الهمسات في أعماق الحرافيش فتحولت إلى قوة مدمرة. اجتاح الحرارة طوفان لم تعرفه من قبل. هكذا قسم الحرافيش أنفسهم إلى جماعات، وتسلى كل جماعة إلى مسكن رجل من رجال العصابة. تم ذلك قبيل الفجر في ساعة النوم العميق. هوجم الرجال في أسرتهم، دهمتهم الكثرة، غلبوا على أمرهم، انهزوا، نهبت دورهم، زالت عنهم غشاوة السحر مخلفة وراءها عاهات مستديمة. ولم يسمع أذان الفجر من صياحهم. خرجوا من دور العصابة كالسيل، غمرروا الحرارة، اقتحموا المخازن، نهبوا كل مخزون بها، دمروها تدميراً. وأول هدف لهم كان مخزن سماحة الفتوة. بل لم يترك قائم في المحل كله. نهب الغلال حتى آخر حبة. ورئى فتح الباب معلقاً في عرق من عروق السقف، مدللي الذراعين، مغمى عليه أو

ميتا، ففك وثاقه وطرح على الأرض بين الحياة والموت. سيطروا على الحرارة تماما حتى شعشع أول ضوء للنهار. ذعر الناس في النوافذ والمشربيات وارتفع الصراخ، عند ذاك فتح باب الفتوة سماحة، وتجلى الرجل مثل وحش قابضا على نبوته..

٢٩

تطلعت إليه الأ بصار. تسمروا في حقد وتصميم ولكن استيقوا إلى السكوت والتوقع. ها هو ذا الوحش المخيف ولكنهم سكارى بالنصر لا يخافون، وفي الوقت نفسه يتrepidون. لعله انتظر أن ينضم إليه رجاله فلم يعرف بعد ما حاصل بهم. لا شك في أنه سيفطن إلى ما وقع إن لم يكن قد فطن إليه بالفعل. إنه وحده يواجه الخرافيش، هو وقوته ونبوته وسحره الخرافى. وتساءل بصوت فاجر:

- ما معنى هذا؟

فلم يجبه أحد، ومن النوافذ هبطت إليه استغاثات، وأبناء النهب والسلب. تسأله مرة أخرى:

- ماذا فعلتم يا أولاد الزوانى؟

لم ينسوا، لم ينخدلوا ولم يتشجعوا، فتسأله بوحشية:

- ماذا فعلتم يا أبناء الزوانى؟

فانطلق صوت كالحجر صائحا:

- جدك كان ابن الزانية..

وارتفع هدير من القهقهات فوثب سماحة وثبة قوية ملوحا بنبوته وصاح:

- اثبتو إن كان في أسمالكم رجل!

فانحط الصمت عليهم كصخرة ولكن لم يتراجع أحد. وتهياً سماحة للانقضاض. عند ذاك ظهر فتح الباب شاحباً مخلخل القدمين وهتف وهو يستند إلى جدار:

- اقذفوه بالطوب ..

سرعان ما انفجر الحرافيش وانهال الطوب على الرجل. توقف هجومه تماماً تحت المطر. استبقيت الدماء من جراحه حتى تخضب بها وجهه والثياب. ترتعش متراجعاً وهو يخور. أفلت النبوت من يده. تقوض بنائه فوق عتبة الدار ..

وانقض الجميع على الدار. فرّ عنها أهلها من السطح إلى الأسطح المجاورة. نهبت ودمرت ثم تركت خرابة مسورة ..

٣٠

سرعان ما عرف دور فتح الباب في المعركة. تمجد أسطورة ونودى به فتوة للحارة. وقد ارتبك الفتى تحيراً. لم يغره النصر، ولم يضل في تقدير ذاته، فهو لم يقبض في حياته على نبوت، وجسمه الهش لا يصمد لضربية يد. وقال لمحبيه:

- نختار فتوة ونأخذ عليه عهداً بأن يحكم كما حكم عاشور ..

ولكنهم وقعوا في أسرا الانفعال فصاحوا:

- أنت أنت الفتوة ولا فتوة غيرك!

هكذا وجد فتح الباب شمس الدين جلال الناجي نفسه فتوة دون منازع ..

ويفضل رجلين في العصابة - دنقل وحميدة - حافظت الفتونة على هيبتها سواء في الحرارة أم في الحرارات المجاورة. وكان دنقل وحميدة من رجال العصابة السابقين، وكذلك كان غالبية رجالهما، ولكن فتح الباب سيطر سيطرة مطلقة بسحره الخاص وقوة الحرافيش المتمثلة في كثرتهم المنتشية بالنصر والثورة.

وفي تلك الأيام ماتت نور الصباح العجمي، وأوت فردوس هانم وأبناؤها إلى دار أسرتها من آل راضى بعد أن فقدت جل ثروتها فهبطت من طبقة إلى طبقة.

وتطلع الناس إلى العدل. عمرت قلوب الحرافيش بالأمل وامتلأت أنفس الوجهاء بالمخاوف. واقتنع فتح الباب بأن العدل لا يجوز أن يتأخرا يوما واحدا.

وقال لمعانيه :

- علينا أن نحيي عهد عاشور الناجي ..

ونشط الرجال في توزيع الخبرات والوعود والأمال، ومضت الجراح تندمل. ولاحظ فتح الباب أن الرجلين ينوبان عنه في جمع الإتاوات وتوزيعها، كما لاحظ أن رجال العصابة ما زالوا يتمتعون

بامتيازاتهم، يستولون على نسبة من الإتاوة ويعيشون عيشة البطالة والبلطجة . ساورته المخاوف، وأشفق من أن ترجع الأمور رويدا إلى مجريها القديم . واجتمع برجاله وقال لهم .

- أين العدل؟ أين عهد عاشور؟

فقال له دنقل :

- تغير الوضع ولكن علينا أن نسير بعد ذلك خطوة خطوة ..

فقال فتح الباب بامتعاض :

- العدل لا يقبل التأجيل ..

عند ذاك قال دنقل بجرأة جديدة :

- لا يمكن أن يرضى رجالك بحياة بسيطة مثل بقية الناس !

فهتف بحرارة :

- إذا لم نبدأ بأنفسنا فلن يتحقق خير ..

- إذا بدأنا بأنفسنا تزعزعت أركان الفتونة ..

- ألم يكن عاشور يتعيش من عرق جيشه؟

فقال حميده :

- تلك أيام لا يمكن أن ترجع ..

- لا يمكن !

فقال دنقل بفتور :

- خطوة .. خطوة ..

ولو كان فتوة حقا لجسم الأمر بكلمة واحدة .. وسائل نفسه محزونا :

- ما الفائدة ما دمت لا أملك قوة جدى عاشور؟

والحرافيش ترى هل نسوا قوتهم المدمرة !

وفي لحظة يأس وغضب معا صارح فتح الباب دنقل وحميدة بأنه سيعلن تخليه عن الفتونة . وجزع الرجالن واستمهلاه واعدين إياه بتحقيق مطالبه . واجتمع الرجالن بصديقهما مجاهد إبراهيم شيخ الحرارة ، وقال له دنقل :

- فتوتنا ناقم ، لا وفاق بيننا وبينه ، فما رأيك ؟

فأجاب العجوز بحق :

- يريد أن يرجع عهد الناجي ، أليس كذلك ؟

- نعم .

- أن يسود الحرافيش ويستدل الوجهاء و يجعلنا أضحوكة بين الحوارى !

فقال له دنقل بكآبة :

- لقد هدد بالتخلى عن الفتونة ..

فهتف مجاهد إبراهيم :

- ليس الآن ، ليق الصورة والأمل حتى نطمئن تماما إلى أن الحرافيش لم يعودوا إلا الحرافيش فقط ، وأنهم نسوا تماما هبتهم الجنونية ، حققا له نصف مطالبه ..

فقال حميده ساخطا :

- الكل أو لا شيء ، ذلك مطلبه !

فتفكر مجاهد إبراهيم مكفرها ثم قال بإصرار :

- فليبق فتوة فترة أخرى ولو بالقوة والقهر !

وزار دنقل وحميدة فتح الباب في مسكنه المتواضع . انفردا به وقال له
دنقل :

- نحن نبذل الجهد ولكننا نلقى عقبات كالجحيم ، ورجال العصابة
غاضبون ، يتوعدون بالشر والدم ..

فتمت فتح الباب بذهول :

- ولكنكم أقوى الرجال ..

- هم الكثرة وهم العذر ..

فقال بإصرار :

- سأخلّي عن الفتونة !

فقال حميدة :

- لا نضمن لك الحياة إن فعلت ..

وقال دنقل :

- لا تغادر مسكنك ، أبدا ، ستلقى لدى أول خطوة خارجه
مضرعك !

أدرك فتح الباب موقفه عاريا . قال بحدته سحر :
- ما أنا إلا أسير محاصر !

فتأوهت العجوز وقالت:

- ما باليد حيلة ، اقنع بنصف الأمل ..

فنهض بأسى عميق :

- على اللعنة إن خنت جدى لحظة واحدة !

- وكيف تحدى القوة ؟

فتفكر متثيرا وهو يغمغم :

- الحرافيش !

فقال بإشراق :

- سيقتلونك قبل أن تتصل بأحد منهم !

٣٦

لبث فتح الباب في الأسر ، لا يدرى أحد ما سر انزواله ، ويؤول بالزهد تارة أو بالمرض . كانت الأعين ترصده نهاراً وليلاً ، وحتى جدته حيل بينها وبين الخروج . وكان يعلم علم اليقين بأن حياته رهن بتحمّس الحرافيش ، وأنه سيتلاشى يوم تتلاشى أسطورتهم ويركبهم الهوان . واشتد الخذر بالعصابة ، ولم يتوانوا عن مراقبة الحرافيش ومارسة الإرهاب والعنف .

وذات يوم وثب حميدة على دنقل فبطش به واستثار لنفسه بالمركز الأول في العصابة . وعندما اطمأن جانبه من ناحية الحرافيش أعلن نفسه فتوة على الحارة ..

وظن فتح الباب أن أسره قد انتهى ولم يعد له مبرر أو معنى . قال للفتوة الجديد :

- ما مضى قد مضى ، دعنى أمارس حياتى العادية وأرتزق من عمل
مثلك بقية خلق الله ..

ولكن حميده رفض مطلبه وقال له :

- إنك غير مأمون الجانب ، فابق حيث أنت ، وسيجيئك رزقك بلا
تعب !

٣٧

هكذا انتهت سيرة فتح الباب وجهاهه . مثل صحوة قصيرة مشرقة فى
يوم طويل ملبد بالغيوم . وذات صباح عثر عليه ، جثة مهشمة فى أسفل
المئذنة المجنونة . خفقت قلوب كثيرة فى أسى وفرحت قلوب . وقيل فى
تفسير ذلك إنه جن حزنا على ضياع الفتونة من بين يديه ، فتسلى ليلا
إلى مئذنة جده المجنون ، فرقى فيها إلى أعلى شرفة ، ثم رمى بنفسه
للهلاك والكفر ..

هكذا انتهت سيرة فتح الباب وجهاهه ..

التوت والنبوت

الحكاية العاشرة من ملحمة الحرافيش

بجوت فتح الباب صحت الحارة من حلمها الوردي ، ارتطمت بصخرة الواقع ، انطوت على أحزانها ، تكاثف ظل حميدة السفاح حتى حجب نور الشمس .

لم يبق من صفوه ذرية الناجي إلا بنتاً فردوس أرملة سماحة ذى الوجه القبيح وبكريها ربيع سماحة الناجي . أما البنات فقد ذبن في عامة أهل الحارة ، وأما ربيع فقد نشأ فقيراً ، ولم تكن أمّه تملك مالاً يذكر ، فعمل كاتباً في محل البناء ، ومارس حياة غاية في البساطة . رغم ذلك كان يعد خير آل الناجي . لم يستدر ذلك رحمة أحد . فعلاً تعلق الحرافيش بسير عاشور وشمس الدين وفتح الباب ، فقد أضمروا الاحتقار والمقت لسائر آل الناجي لخيانتهم لعهد جدهم العظيم ، ولانحرافهم في سلك المجرمين والبلطجية .

وقد أراد ربيع أن يتزوج من أسرة كريمة ، ولكن طلبه رفض فأدرك أن أصله لا يغنى عن فقره وتفاهة عمله ، وأن الفقر يفضح معایب يسترها الشراء عادة ، مثل انتمائه إلى سماحة ذى الوجه القبيح وجلال الجنون وزهيرة السفاحة ، وزينات الشقراء الداعرة ونور الصباح العجمي الغانية . سلسلة صدقة من الدعاية والإجرام والجنون . لذلك غشيتها كآبة ثقيلة متدة . فقرر أن يمضى حياته أعزب متسرلاً بالوحدة والكبراء . وماتت فردوس هائم بعد أنجاوز الخمسين ، فاضطر إلى أن

يقيم في شقة صغيرة من حجرتين وحيداً . ولم يطق الوحيدة المطلقة
وضاق بإهمال بيته الصغير فبحث عن من يقوم بخدمته فجاءه أولاد الحلال
بأرمطة في الثلاثين من آل الناجي تدعى حليمة البركة . وجدها جادة
وأمينة مقبولة الصورة ، قوية الشخصية رغم فقرها ، فكانت تنظف البيت
وتعد الطعام ثم تذهب للميت في بدرورها . ومع الأيام مالت نفسه إليها
فرغب أن يتزوج منها خليلة ، ولكن المرأة أبت ذلك في حزم وقالت له :
- سأذهب يا سيدي ولكنني لن أعود ..

وجد نفسه وحيداً بائساً كما كان أو أشد بأساً ، ولم يعد في وسعه أن
يتحمل الوحيدة والحرمان العاطفي ، إلى خوف من المرض والموت
وحنين إلى الذرية ، فعرض على المرأة الزواج وسرعان ما قبلت وهي
سعيدة . هكذا تزوج ربيع سماحة الناجي من حليمة البركة بعد أن عبر
الخمسين بثلاث سنوات . وسعد بحياته الزوجية ، ووجد في شريكه
سيدة بيت حازمة ، ورعة متدينة ، فخوراً بانتمامها إلى الناجي ، مسحورة
بأمجاد الأسرة الأصيلة ، وأنجب منها ثلاثة ، فائز وضياء وعاشر .
ومات ربيع وبكريه فائز في العاشرة وضياء في الثامنة وعاشر في
ال السادسة ، مات دون أن يترك لأسرته مليماً واحداً ..

٢

تركت حليمة البركة لتواجه الحياة وحيدة . كان أهلها من الحرافيش
فقررت أن تعتمد على نفسها ، مستعينة بالعزيمة لا بالدموع . انتقلت
إلى بدرور مكون من حجرة ودهليز ، باعت فائض الأثاث البسيط ،
استغلت مواهبها في بيع المخلل والمفتقة والخدمة كبلانة ودلالة . لم تولع

بترديد الشكوى والحسرة على الماضي ، وواجهت زبائتها بوجه مشرق
كأنه سعيد ، ولم تخل من أحلام عذبة عن مستقبل مجهول .
أدخلت أبناءها الكتاب ، وعند السن المناسب عمل فائز سواق كارو ،
وضياء شيئاً في محل النحاس . وهانت شدة الحياة قليلاً ، ولكن لم
تزل تطالب حلية بالعمل وقد بلغت الخمسين .

وكان فائز أول من واجه الحياة من أسرته . وجدتها معادية معاندة ،
وأنه يؤخذ فيها على جرائم أجداد وجدادات لم يعرفهم . كان طويلاً ،
نحيلًا ، بارز الأنف ، ضيق العينين ، قوى الشدقين ، وكان يزدرد
السخريات ويكتب مشاعره ويمضي في عمله . عرف عن أمه جانباً
مضيناً من تاريخ الأسرة ولكنه عرف جانبها المظلم في الحرارة بين
الناس . في البيت تلقن معانى الزاوية والسبيل والكتاب والحوض ، وفي
الخارج دهمه مغزى المثذنة العملاقة المجنونة . وهذه الدور الرائعة التي
كانت مقاماً لأجداده ثم أصبحت مساكن للتجار والوجهاء الأغرب .
كم يتأملها بغرابة ويحلم ، كم يتخيّل تلك الأيام الخواли ، ولا يخلو
دماغه منها حتى وهو ينخر الحمار لينطلق بالكارو في أرجاء الحى
العتيق . إذن فهذه هي الدنيا ، ولكن كيف ينبغي أن تعامل معها؟

٣

وأعلن سخطه على مسمع من أمه وأخويه فقالت له حلية :
ـ كان جدك عاشور ولها !

فقال فائز بحدة :

ـ مضى زمن المعجزات أما الدور فهي في قبضة الآخرين ..

قالت الأم بحرارة:

- من الحرام جاءت وفي سبيل الحرام هلكت ..

فهتف بتذمر كالمحتج :

- الحرام؟!

- اقنع بتصنيك ، ماذا تريده؟

- ما أنا إلا خادم حمار وما أنت إلا خادمة أو غاد ..

قالت باعتزاز :

- نحن نعمل ونحن شرفاء ..

فقهه . وكان قد طاف بالبوطة قبل رجوعه وشرب قرعتين .

٤

واشتغل عاشور الابن الأصغر صبيا لغنم يدعى أمين الراعي ، تعهد إليه الأسر بما تملك من ماعز فيسرح بها في الخلاء لتمرح وتنعم بالشمس والهواء والأعشاب ، وذلك نظير أجرا معلوم . بذلك ارتاح بالحليمة البركة فقد أصبح أبناؤها الثلاثة عملا يرزقون ، ووهبتها الحياة بسمة صافية . ومضت الحياة بمسراتها الصغيرة وأحزانها المألوفة حتى بلغ فائز العشرين من عمره . وسألته أمه في ساعة صفاء :

- متى تكمل دينك يا بني؟

فابتسمت ابتسامة غامضة وقال :

- صبرك يا أمي وما صبرك إلا بالله ..

ولم يرجع فائز من مشاويره في ميعاده المألف . مضى أكثر الليل ولم يرجع . ذهب عاشر إلى البوطة يبحث عنه ، وتشمم ضياء أخباره في الغرز ، ولكن لم يعثر له على أثر . وفي الصباح مضت حليمة البركة إلى المعلم موسى الأعور صاحب الكارو مستطلعة عن خبر ابنها فوجده قلقا ساخطا ، وقال لها :

ـ لا خبر عنه ..

فأنز عجت الأم وقالت :

ـ نذهب إلى القسم ؟

فقال المعلم :

ـ ولا خبر عنه في القسم ..

ثم تتم بحث :

ـ فلننتظر والله المستعان !

ومضى يوم في قفا يوم ، القلوب مشتعلة وفائز لا يعود .

وصاح المعلم موسى الأعور :

ـ سرقه رب الكعبة ، سرق الكارو واحتفى ، ولكن له الويل ..

وهتفت بركة في جزع :

ـ ألم تجرب أمانته طوال تلك الأعوام ؟

فقال بغضب :

ـ إنه مؤذ كثعبان ..

وبكت حليمة طويلاً كما بكى ضياء وعاشور.. وتعاقبت الأيام والأسابيع والأشهر. لم يعد أحد يشك في الهارب وجريمته. وقال حسونة السبع الفتوة الجديد ساخراً:

ـ كانوا يسرقون الدور الفخيمة فأصبحوا يسرقون الكارو!

ولجأ موسى الأعور إلى الشيخ جليل العالم شيخ الزاوية وعم يونس السياسي شيخ الحرارة فأفتيا بأن على ست حليمة وابنيها - ضياء وعاشور - أن يؤدوا ثمن العربية والحمار إلى موسى الأعور. وأدت الأسرة الشمن مقسطاً وهي حزينة وصابرة.

وقعت حادثة لا تعتبر غريبة بمقاييس ما يقع في الحرارة ولكنها هزت قلوب الأسرة هزاً. كانت حليمة تقدم الخدمات كافة لدار الفتوة حسونة السبع بلا مقابل، بلا كلمة شكر. حتى هنا لا غرابة ولا تعجب، فقد كان حسونة من أفعط الفتوات الذين سيطروا على الحرارة وأذلوها. كان يستغل حتى أفق الفقراء. وكان يجادل بيده وقدمه لا بلسانه وينشر الرعب مع الهواء. وكان على شراسته وقوته حذراً كثعلب. هو الذي أوجب على جميع أتباعه بأن يستأثروا لأنفسهم بزقاق لا يقيم فيه أحد غيرهم ليتجنبوا مؤامرة كالتى دبرت للفتوات أيام فتح الباب. وهو نفسه شيد داره في نهاية الزقاق.

وقد حدث أن تأخرت حليمة في صنع صفيحة مفتقة بسبب وعكة طارئة، ولما ذهبت بها إلى الدار لعنها بعف وصفعها! ورجعت المرأة دامعة العينين ولكنها أخفت الخبر عن ابنيها - ضياء وعاشور. غير أن ضياء كان يتrepid أحياناً على البوطة، وفي مرة سأله زين علبية الخمار:

- ألم تعلم بما حدث للست الوالدة؟

هكذا تلقى ضياء الإهانة ثم قذف بها دامية في قلب عاشور. وتلظى ضياء بالغضب، ولكن شرره لم يجاوز جدران البدروم، أما عاشور فغاص في الحزن حتى قمة هامته. كان قوياً ومهذباً. غطى تهذيبه على قوته فوارها عن الأعين. وكان نبيل الرأس، غليظ القسمات، غامق السمرة، وفي وجنتيه بروز وفي فكيه صلابة. ولم يطق البقاء في البدروم مع أحزانه فخرج إلى الظلام، مسوقاً بقوة خفية نحو ساحة التكية، نحو خلود جده عاشور. جلس القرفصاء دافنا رأسه بين ركتبيه في جو جامد لا يتنفس تسبح فيه الأنأشيد وحدها. أصغى طويلاً وغمغم:

- ما أشد ألمي يا جدي!

وناجته الأنأشيد بلغتها الغامضة:

بى مهر رخت روز مرا نور نماندست

وزعمر مرا جز شب ديجور نماندست

٨

واستقرت الإهانة في الأعمق، فهي لا تهضم ولا إلى الخارج تُقذف. وكان عاشور ينمو غوا فذا كشجرة توت، يذكر هيكله المتمادي

في العملقة وملامحه الغليظة الجذابة بما قيل في وصف جده عاشور.
أصبح منظر راعي الغنم جديراً بلفت الأنظار. وخافت حليمة أن تثير
قوته هواجس الوحش حسونة السبع فحدرته قائلة:

- تناس قوتك، تظاهر بالجبن فهو أرحم، ليتنى ما سميتك بعاشور!
ولكن الفتى كان فطناً، مستغنى بفطنته عن التحذير. وكان يمضى
طيلة نهاره في الخلاء بين الماعز بصحبة معلمه أمين الراعي. لم يظهر قط
في البوطة أو الغرزة أو القهوة. لم يستعمل قوته قط إلا في المتابرة
والصبر. أجل مزقته الإهانة. غضب حتى تخيل أركان الحارة وهي
تهادم ويبعث من في القبور، ولكنه لم يتھور، ضبط نفسه، لم يتتجاهل
القوة الغشوم المتربصة الخذرة القاسية ونبابيتها المتأهبة. وكلما ضاق
صدره مضى إلى ساحة التكية، يؤاخى الظلام، ويندوب في الأناشيد.
وتساءل مرة في حيرة:

- ترى أيدعون لنا أم يصيرون علينا اللعنات؟

وتساءل مرة أخرى في أسى:

- منذا يحل لنا هذه الألغاز؟

وتنهد طويلاً ثم استطرد:

- إنهم يغلقون الأبواب لأننا غير أهل لأن تفتح في وجوهنا الأبواب!

وكان يجد ضياء في البدرورم، صاحباً بالغضب. ومرة قال ضياء:

- لو لا أنها صرنا حرافيش ما تعرضت أمنا للإهانة..

فقال له عاشور:

- حرافيش أم وجهاء لا يهم، ستدرك الإهانة دائماً من يتقبلها!

- ماذا علينا أن نفعل؟

فচمت عاشور ملياً ثم تعم:

- لا أدرى يا أخي!

خافت حليمة عواقب الأفكار المحتدمة ، فقالت ببساطة وصراحة :
ـ ما أصابني لا يعد إهانة في حارتنا !

وصممت على أن تجتاز بهما تلك المحن ، ففكرت جادة في
تزويجهما . لقد فقدت فائز وها هوذا الزمن يمضي مسرعا بلا أمل .
سيبعث الزواج ثبات جديدة في هذه الحياة الراكرة . سيجعل منها
رجلين أكثر تعقلا ، وأشد حذرا ، وأبعد عن المغامرات الفاتكة .
وسألتهما :

ـ ما رأيكما في بنت الحال ؟

ورحبا بارتياح . كانا فقيرين مكتوبتين فرحبا . وقالت حليمة :
ـ ننتقل إلى بدرؤم أكبر يسعنا جميعا فهو للمعيشة أوفر ..

ووقع اختيار المرأة على فتحية وشكريه ابنتي محمد العجل العلاف
بحظيرة المعلم موسى الأعور . ولم يكن أحد منها قد رأى فاته ، ولكنهما
كانا يغليان بوقدة الشباب ، ويتوثب خيالهما الجامح لمعانقة أى أنثى .
هكذا قرئت الفاتحة .

وجاء إلى الحارة فتى غريب . نطق وجهه بالعافية ، رفل في عباءة
بنية ، اتعلل مرکوبا أحمر ، طوق رأسه بلا ثلاثة من الشاهي المننم ، في يده

مسبحة من الكهرمان . أول من رأه كان زين علبية الخمار . لم يعرفه إلا حين ابتسم فهتف الخمار :

- من؟ .. فائز بن ربيع الناجي ..

وتطلعت إليه الأعين غير أنه مضى من توه إلى القهوة ، إلى أريكة حسونة السبع ، انحنى فوق يده فلشمها ثم وقف ممثلا . قال حسونة وهو يتفحصه :

- ما شاء الله ها قد رجع الها رب !

فقال فائز :

- مصير الحى إلى أصله !

فقال حسونة السبع بلهجة ذات مغزى :

- آثار الشطارة بادية عليك .. .

فقال فائز بخشوع :

- هذا من فضل ربى .. .

ودخل القيمة عند ذاك موسى الأعور ، وفي أعقابه دخلشيخ الحرارة يونس السادس ، وهتف موسى :

- في ساحة فتوتنا يتحقق العدل .

فنهره الفتاة قائلا :

- لا تنهق كالحمار .. .

فقال الرجل :

- باع العربية والحرار ثم تاجر بمالى !

فسأل الفتاة فائز :

- ماذا فعلت بماله؟

فقال فائز :

- ورأس الحسين لقد سرقت الكارو وأنا نائم ، لذلك هربت .. .

فقال موسى :

- كذاب ! .. من أين لك هذا الجاه ؟

- العمل والحظ وفضل ربى ..

فتمت يونس السياس :

- قضية طريفة حقا ..

فقال فائز :

- إنه مالى ، لو كنت لصا ما رجعت ، وما أرجعني إلا حرصى على
تسديد دينى ..

وقدم للفتوة صرة وهو يقول :

- عامان مضيا بلا إتادة .

تناولها الفتوة . ابتسم لأول مرة . قال فائز :

- من أجلك يا معلم جئت أولا ، ولأرى أهلى أخيرا !

قال حسونة السبع :

- لص ? .. لا يهم ، ولكنك فهلوى ، إنى أصدقك !

فتسائل موسى الأعور :

- وأنا يا معلم ؟

فقال يونس السياس :

- لقد قبضت ثمن الكارو والحمار من ست حليمة البركة ..

فقال موسى الأعور :

- ماله فى الواقع هو مالى أنا ..

قال حسونة السبع :

- من حق موسى صرة مثل صرتى .

فلم يتتردد فائز فقدم للفتوة صرة أخرى . فطرب الرجال بالحكم

العادل فهتفوا معا :

- اسم الله عليه.. . اسم الله عليه.. .
ولكن حسونة السبع أبقى الصرة الجديدة في قبضته على حين تجلت
في عيني موسى الأعور نظرة يائسة. قال الفتوة يخاطب فائز:
- آن لك أن تذهب إلى أهلك.

١١

أمام البدر وجد حليمة في انتظاره. لدى بلوغ الخبر إليها خرجت
إلى الطريق. كأنه حلم أو خرافة أو معجزة ولكنها على أى حال سعادة
تفوق الاحتمال. ضمتها إلى صدرها وأجهشت في البكاء وظلت تردد:
- الشكر لك يا رب.. . الشكر لك يا رب.

واجتمع شمل الأسرة عقب عودة ضياء وعاشور. امتزجت الدهشة
بالسعادة مرة أخرى. لبث فائز بينهم في الحجرة الصغيرة كالملاسة في كوم
من الهشيم. يشع منها نور، ويسهل أمل يتجلى المستقبل على صوئه في
صورة خلابة لم يحلم بها أحد. تغيرت أحاسيس الأسرة، خلقت خلقة
جديدا. مضى فائز يقول:

- الناجح محسود، ستفتعل حولي الأقوال، ولكنني برىء والله
شهيد.. . فقالت حليمة بحرارة:
- قلبى يصدقك.. .

- ما الحكاية؟ .. بكل إيجاز لقد سرقت الكارو وأنا نائم، تحيرت،
قررت الهرب، لعله كان قرارا خاطئا ولكن ما حصل ..

تركزت عليه الأ بصار بقلوب مرحة مستعدة للتصديق. قال:

- همت على وجهى أيام بلا عمل حتى اتشلننى خواجا، الحكاية

طويلة ، عملت عنده خادما وسواقا ، حميتها من تحرش بعض الأراذل ، تعلمت على يديه سر العمل ، ثم جاءنى الحظ بىسمته العذبة ، لا بد من الحظ ، ربحت ورقة نصيب ، قررت أن أعمل لحسابي ، صادفني نجاح فاق كل تقدير ..

وسأله عاشور باهتمام :

- ما عملك بالضبط يا أخي ؟

- ليس من اليسير شرحه ، هل سمعت شيئا عن السمسرة والمضاربة ؟
حسن ، لا دكان لى ولا محل ، نعقد الصفقات فى الطريق فى المقاهى ، إنها أمور معقدة ، سنعود إليها بتفصيل أكثر ، ولكننى لن أشرككم فيها ، لقد رسمت للمستقبل صورة محدودة ومتعددة ومضمونة ..

فتوردت الوجوه من البهجة وعذوبة الحلم ولاذت بالصمت
والابتهاج فمضى يقول :

- إرادة الله العلي القدير أن يعود آل الناجى إلى مركزهم المرموق !

فتساءل عاشور هاماً :

- تعنى الفتنة يا أخي ؟

فضحلك قائلاً :

- لا .. لا .. أعنى الوجاهة والأبهة !

فقال ضياء بإشراف :

- ما أجمل هذا !

- يجب أن تتغير هذه الحياة الضحلة ، لن تكون بعد اليوم من الخرافيش ، لا راعى غنم ولا شياط ، هى إرادة الله العلي القدير ..

فهافت أمه :

- إنك ثمرة حبى ودعائى ..

فقال بجدية باللغة :

- علينا أن نفكر فيما ينبغي عمله بلا تردد ، فإن نشاطى يتطلب منى
رحلات بلا نهاية !

١٢

وحلت تغيرات حاسمة مثل تغييرات الفصول الأربعـة . ما بين يوم وليلة تحولت حليمة البركة إلى ست بيت فلا خدمة ولا بيع . استقال ضياء من محل النحاس كما استقال عاشر من رعى الأغنام . انتقلت الأسرة إلى شقة مؤقتة مكونة من أربع حجرات ، والأهم أنه شرع في تشييد دار للأسرة في خرابـة أمام بنـك الرهـونات واشتـرى فـائز وكـالة الفـحم تـارـكا إـدارـتها لـأخـويـه ، فجلس ضـيـاء وعاـشرـهـ في حـجـرةـ الإـادـةـ ، رـافـلـينـ فيـ العـبـاءـ الـفـضـاضـةـ ، نـاشـرـينـ منـ أعـطـافـهاـ شـذاـ المـسـكـ والـعـنـبرـ .
تـداـخـلـ الـحـلـمـ فـيـ الـحـقـيقـةـ وـتـداـخـلـ الـحـقـيقـةـ فـيـ الـحـلـمـ وـانـبـهـرـتـ الـأـعـيـنـ وـشـخـصـتـ الـأـبـصـارـ . عـنـدـ اـسـتـبـدـالـ الشـيـابـ الـفـاخـرـةـ بـالـأـسـمـالـ الـبـالـيـةـ شـعـرـ الـأـخـوانـ بـذـهـولـ وـرـهـبةـ ثـمـ بـسـعـادـةـ مـسـكـرـةـ . خـرـجاـ إـلـىـ الطـرـيقـ كـأنـهـماـ يـخـوضـانـ مـعـرـكـةـ . شـدـ منـظـرـهـماـ الـأـبـصـارـ ، أحـدـقـ بـهـمـاـ أـنـاسـ منـ الـحـرـافـيـشـ وـالـصـغـارـ . انـهـاـلـ عـلـيـهـمـاـ طـوفـانـ مـتـضـارـبـ منـ السـخـرـيـاتـ وـالـبـرـكـاتـ وـالـعـبـثـ وـالـجـلدـ وـالـغـمـ وـالـتـهـنـيـاتـ . وـمـاـ إـنـ اـرـتفـعـ الضـحـىـ حـتـىـ فـازـ الجـاهـ بـأـمـيـازـهـ وـاستـقـرـ فيـ مـرـكـزـهـ وـسـلـمـ الـجـمـيعـ بـقـضـاءـ الـمـقـادـرـ . وـكـمـ منـ قـلـوبـ أـحـرـقـهـاـ الـخـسـدـ ، وـكـمـ منـ قـلـوبـ دـوـخـهـاـ الـأـنـهـارـ ، وـكـمـ منـ قـلـوبـ ثـمـلتـ بـأـمـالـ مـجـهـولةـ .

وقف جليل العالم شيخ الزاوية ويونس السادس شيخ الحرارة
يتناجيان . قال يونس وهو يرمي عاشور :
- يقال إن هذا الفتى يشبه جده الأول .

فقال جليل :
- ثمة فرق هو ما بين الذهب الخالص والنحاس المطلى بالذهب !

١٣

واعتبرت الطريق المنبسط عقبة كالحة ، هي قراءة فاتحة شكرية
وفتحية ! فرضت نفسها عليهم من أول يوم . وقال ضياء لأمه معتاباً :
- لم تسرعت يا أمي ؟

فلم تدر حليمة بهم تحبيب . لم تعد سعيدة بالخطوبة ولا متسمسة لها ،
ولكنها تكره عادة أن تفعل ما تخجل منه ، كما أن تقوى الله تعالى قلبها .
وتمت :

- قسمة ونصيب !
فسألها بحدة :
- ماذ؟

قالت باستسلام :
- يقول المثل «خذوهن فقيرات يغنكם الله» .

- ولكن الله قد أغنانا من قبل أن نأخذهن !

- ألم يكوننا قدم السعد ؟
فتمتم ضياء في ضيق :

٥٥٦

- إنه لعبث!

ولبث عاشر صامتاً متوجهماً. إنه لم يعد سعيداً بالخطوبة، ولكنه يكره عادة أن يفعل ما يخجل منه - مثل أمه - عملاً التقوى قلبه. سأله حليمة:

- وأنت يا عاشر؟

فأجاب مغلوباً:

- لقد قرأتنا الفاتحة ..

فهتف ضياءً:

- كلا ، إنه قرار مؤسف لا يسر ، ولكن كلام كلام ..

فقالت حليمة بحزن :

- افعل ما تشاء ، بنفسك ، ولا تعتمد علىّ ..

١٤

وقابل ضياء ربيع الناجي عم يونس السايس شيخ الحرارة فرجاه أن يحمل اعتذاره إلى محمد العجل . وتأمل شيخ الحرارة وجه ضياء الصغير وقسماته الدقيقة ووسامته الشاحبة بلا معنى ، وقال في نفسه إنه وجد حقاً بالصورة والمضمون ولكنه قال له مداهناً:

- إنه لعدل ما تفعل ولن يلومك عليه إلا حاسد أو حاقد.

فقال ضياء مدارياً خجله :

- ما باليد حيلة ..

- وعاشر ، ماذا عنه؟

فقال ضياء بحقن :
- إنه طيب أحمق !

فضحك يونس السايس وقال :
- ستمتدحه ألسنة وهي تسخر من سذاجته !

١٥

وأثار فسخ خطوبة ضياء عاصفة من السخط والتهكم أسلهم فيها الطيبون بطبيتهم . والحاقدون بحقدهم وحسدهم . وغطت نذالة ضياء على شهامة عاشور فسرعان ما تجوهلت وانصبـت اللعنـات على الأسرةـ الخامـنةـ التـى تـتجـسـدـ قـسوـتهاـ وـأـنـانـيتهاـ فـىـ أمـثـلـةـ حـيـةـ ، وـتـذـوبـ قدـاستـهاـ فـىـ أـسـاطـيرـ غـابـرـةـ لـمـ يـشـهـدـهاـ أحدـ .

وكان المعلم عاشور ربيع الناجي ماضيا إلى وكالة الفحـمـ عندـماـ تـرامـىـ إـلـيـهـ صـوتـ غـليـظـ يـنـادـىـ بـنـبـرـةـ آـمـرـةـ :
- عـاشـورـ !

رأـىـ الفتـوـةـ حـسـوـنـةـ السـبـعـ مـتـرـبـعاـ فـوقـ أـرـيـكتـهـ وـسـطـ نـفـرـ منـ أـتـبـاعـهـ فـمضـىـ إـلـيـهـ بلاـ تـرـددـ وـأـدـىـ التـحـيـةـ الـلـائـقـةـ . وـلـمـ يـدـعـهـ الفتـوـةـ لـلـجـلوـسـ وـقـالـ لـهـ مـتـحدـيـاـ :
- إنـكـ أـنـذـالـ يـاـ آلـ النـاجـيـ ..

أـدرـكـ عـاشـورـ مـاـ وـرـاءـ ذـلـكـ مـنـ سـبـبـ . وـعـجـبـ لـمـ يـوجـهـ سـبـهـ إـلـىـ أـخـيـهـ . أـدرـكـ أـنـهـ يـمـتـحـنـ رـجـلـ الـأـسـرـةـ الـعـلـاقـ القـوـيـ . سـرـ عـانـ مـاـ لـاذـ بـنـصـيـحةـ أـمـهـ وـدـهـائـهـ الـفـطـرـىـ فـقـالـ بـأـدـبـ :
- لـيـغـفـرـ اللـهـ الذـنـوبـ !

- بسرعة تنسون أصلكم ، تنسون الجنون والدعاارة ، أليس محمد
العجل أشرف منكم ؟
فقال عاشور كاظما افعالاته :
- إنه رجل شريف ، وعما قريب سأنضم إلى أسرته ..
- كلا ..
- ولكنه الحق ..
- رفض الرجل النبيل أن تسعد إحدى ابنته على حساب الأخرى ..
- ولكن خطوبتي لم تفسخ !
- بل فسخت من ناحيته ، وهأنذا أبلغك بقراره ..
فصممت عاشور متوجهما فقال الفتوة :
- عليكم أن تعوضوه عما أصابه .
- نفعل ما يراه فتوتنا صوابا .

١٦

وانقشعـت السحابة المثقلة بالحقد والمراة والنـدم . ومـضـت الأيام
مـترـقرـقة بالـسعـد والإـقبال . غـدت وجـاهـة ضـيـاء وعاـشـور عـادـة يـومـية
مـأـلـوـفة . واستـقـرـت الدـارـ الفـاخـرـة أـمـامـ بنـكـ الرـهـونـات . وحملـ الدـوكـارـ
حـلـيمـةـ البرـكـةـ إـلـىـ مشـاـويرـها . أـمـاـ فـائزـ رـيـبعـ النـاجـىـ صـاحـبـ الجـاهـ وبـاعـهـ
فـكانـ يـزـورـ أـهـلـهـ وـيـتـفـقـدـ مـلـكـهـ عـلـىـ فـتـراتـ مـتـبـاعـدةـ .

وعشقت الأسرة الجاه واستنامت إليه . عاشر نفسه فرح في أعماقه بفسخ خطوبته وبخاصة أن فسخها لم يحمله إنما . وسعد بحياة النعيم فاعتبر أخاه فائز معجزة من معجزات الأسرة وعقرية من عقرياتها . وكان يتطلع بشغف إلى أقمار الأسر في العربات ، إذا كان يحب الجمال كما يحب التكية وكما يحب مجد أسرته الحقيقى الذى عبق الماضي بشذاته الطيب النقى . وكان يغدق بلا حساب على الفتوة وشيخ الحرارة ، وجدد الزاوية والسبيل والخوض والكتاب ، وتصدق على الحرافيش . وفيما يتعلق بالحرافيش قالت له أمه :

- لا تشر مخاوف حسونة السبع ، دعهم لى فإنـى أستطيع أن أوزع
الصدقات في الخفاء !

ووافق عاشر إذ كان يعلم أن ثورة الحرافيش لا تمحى من ذاكرة
الفتوات !

ولعل ضياء كان أسعـد الجميع . عـشق الجـاه بشـغـف وـشـراـهـة . نـعـمـ بالـكـبـرـيـاءـ فـيـ حـجـرـةـ الإـدـارـةـ ،ـ بـالـتـرـفـ فـيـ دـارـ النـاجـيـ الفـاخـرـةـ .ـ بـالـكـارـتـةـ والـدوـكـارـ ،ـ هـامـ بـالـثـيـابـ الـأـنـيقـةـ وـالـأـطـعـمـةـ الـفـريـدةـ ،ـ اـقـتنـىـ أـجـودـ أـنـوـاعـ الـبـوـظـةـ وـالـحـشـيشـ وـالـأـفـيـونـ وـالـمـزـولـ .ـ عـبـدـ فـيـ أـعـمـاـقـهـ أـخـاهـ فـائزـ ،ـ كـمـ عـبـدـ رـجـالـ الـأـسـرـةـ الـأـخـيـارـ مـنـهـمـ وـالـأـشـرـارـ عـلـىـ السـوـاءـ ،ـ وـكـانـ يـقـولـ مـتـبـاهـيـاـ :

- المهم أن تخـرقـ المـأـلـوفـ !

ولعل حلـيـمةـ كـانـتـ أـقـرـبـ الـأـسـرـةـ إـلـىـ الـقـصـدـ وـلـكـنـهاـ أـيـضـاـ نـعـمتـ

بالعز والجاه. وفي المواسم كانت تهرب الصدقات إلى الحرافيش، وغمرت أم فتحية وشكرية بخيرها حتى نسيت المرأة الإساءة وصارت من أقرب المقربات إليها.

١٨

وظل نداء خفى يدعى عاشر إلى ساحة التكية ليطرب مع الأناشيد، كما كان يدعوه أحياناً إلى الخلاء حيث كان يرعى الأغنام. وكانت سعادته سماء تظهر في جنباتها قطع السحاب، وأحياناً تركض حتى تخفي وجه الشمس. وقد يدهمها في أذب اللحظات قلق غامض فيفتر حماسه ويتساءل عما يعنيه ذلك.

ولاحظت حليمة ذلك فقالت له مرة:

- ما أضيع الرجل بلا زوجة يسكن إليها!

فقال باريلاح خفى:

- هو ذلك، ولكنه ليس كل شيء!

فسألة ضياء:

- ماذا تريد أكثر من ذلك؟

فقبل يده ظهراً وبطناً. ولكنه قال لنفسه إن إهانة الفتوة تستسكن في جوفه مثل خنجر، وإنه لا يدرى بأى وجه يلقى جده عاشر؟ وإن سعادته ينقصها شيء جوهرى. تسأله:

- لم يساور القلق إنساناً وهبه الله النعمة والكمال؟

فأجابته أمه بلا تردد:

- إنه الشيطان يا بني!

حقاً إنه الشيطان، ولكن أى شيطان؟!

وأعجب الشقيقان ضياء وعاشور بفتاتين من أغرق الأسر ، فخطب
ضياء سلمى الخشاب كريمة صاحب وكالة الخشب ، كما خطب عاشور
عزيزة العطار كريمة أكبر عطار في الحارة . وتبدى فائز في حفل الخطوبة
في أبهة ملك الملوك ..
ومضت الأيام متترفة بالسعادة والإقبال .

وفي ذات ليلة جاء فائز في غير ميعاده ..
كانت الأسرة مجتمعة في قاعة الجلوس ، وثمة مدفأة كبيرة من
النحاس تشتعل جمراتها . كانت الأم تسبح ، وعاشور يدخن البورى ،
وضياء ينسطل ، على حين عزفت في الخارج ريح باردة منذرة بالمطر .
جاء فائز في غير ميعاده إذ كان يجيء عادة - إذا جاء - في الضحى
مستعرضاً أبهته ودوكاره . هبَ الجميع لاستقباله . وسرعان ما لاحظوا
أن معجزة الأسرة فاتر النظرة ، متجمهم الوجه . جلس على ديوان ، أزاح
العباء عن منكبيه رغم شدة البرد . تسائلت بقلق :

- مالك؟

فتمتم في خمول :

- لا شيء ..

- بل يوجد شيء يابنى !
فقال بلا مبالاة :
- وعكة ..

وصمت وهو محظ الأنظار فتجلى وجهه بالتصلب الذى كان يطالعهم به قديما قبل أن يتصر على الحياة . قامت حليمة وهى تقول :

- أغلى لك كراوية ..

وتمتن ضياء :
- وتنام !

وأقبل جفنيه مليا ثم قال :
- لا مفر في بعض الأحيان من أن يحن الإنسان إلى بيته ..
فقال عاشور :
- شتاء هذا العام لعين ..
- أعن ما تصورو ..
- وأنت تعمل بطاقة تفوق احتمال البشر ..

فرد بغموض :
- احتمال البشر ..

فقال ضياء :

- للإنسان حق في الراحة ..

فقال بتسليم :
- قررت أن أحظى براحة عميقه .
وساد الصمت . ثم مالبث أن نهض قائلا :
- سأوى إلى فراشى ..
ومضى إلى مخدعه ..

وجاءت حليمة بقدح الكراوية فمضت في إثره . .
كان الشمعدان يضيء المخدع ، وكان فائز راقدا فوق الفراش
بملابسها .

قالت حليمة :
- لم لم تغير ملابسك ؟
وسرعان ما سقط القدح من يدها ، وصرخة مزقة انطلقت من
فيها . .

٢١

وقفوا يحدقون بأعين تطفح بالذهول والجنون .
فائز شاخص البصر ، ملقى الوجه بلا حول ، كأنه متجمد منذ ألف
عام . يسراه مدللة من حافة الفراش الوثير ، تتكون تحتها بحيرة من دم
فوق السجادة الشيرازى ، وثمة خنجر منظرح فوق القفطان الكمونى ذو
مقبض ذهبي . جرى ضياء يفتش تحت الديوان والفراش والصوان فى
الحجرة المغلقة التواخذ وهو يصبح :

- مستحيل . . ما معنى هذا ؟

وهتفت حليمة بصوت مبحوح :

- ليدركنا سيد الرسل !

وصرخ عاشور :

- الحلاق !

وغادر الحجرة بسرعة جنونية . وراحت حليمة تصوت فصالح بها
ضياء :

٥٦٤

- إنه حى !

فصرخت :

- انتهى ، لم فعلت بنفسك هذا يا بنى ؟!

سرعان ما جاء الحلاق ، تبعه يونس السياس والشيخ جليل العالم ، ثم رجال ونساء من آل الخشاب وآل العطار .

وتراجع الحلاق وهو يتمتم :

- سبحان من له الدوام .

اجتاحت الدار الأنيقة عاصفة من الجنون .

٢٢

قبيل متصف الليل جاء رجال السلطة ، فباشروا التحقيق مع الأهل والخدم ، وتفحصوا الأمكنة بدقة وعنایة بالغة . .

سؤال المأمور :

- ما تفسير ذلك في تقديركم ؟

فقالت حليمة :

- حتى أمس كان أسعد خلق الله .

- أتعرفون أعداء له ؟

- كلام .

- ماذا كان يعمل ؟

- كان رجل أعمال وسمسرة ومضاربات . .

- أين مكان عمله ؟

٥٦٥

- لا مكان محددا له ، له دار في الدراسة عند مشارف الجبل ..
- ماذا تعرفون عن شركائه وعملائه؟
- لا شيء ألبته!
- كيف كان ذلك؟
- هو الحق بلا زيادة ولا نقصان!

٢٣

أعلن أن فائز ربيع الناجي قد انتحر لأسباب لم يكشف التحقيق عنها بعد . ورغم انتحاره فقد شيع في جنازة جليلة ودفن إلى جوار شمس الدين .
ومضت أيام المأتم الثلاثة والأربعة في ذهول لا تدرى شيئاً عن كارثتها الكبرى ..

٢٤

لماذا انتحر فائز ربيع الناجي؟
ظل التساؤل يشد قلوب الأسرة ، يقرع وعيهم المترع بالحزن والذهول .
وها هي ذي السلطة - كما يؤكد يونس السياس شيخ الحرارة - جادة في البحث والتحري ، ولكن كيف خيم عليهم الجهل حتى اللحظة الأخيرة؟
كيف أصحابهم العمى فلم يروا شعاعا واحدا من النور؟ كان يغيب

٥٦٦

طويلاً، ويحتفظ بكافة أسرار عمله لنفسه، ولكن زياراته المتقطعة المتباعدة كانت تملأ الدار بهجة وسروراً وأملاً متواصلاً في الحاضر والمستقبل. حتى آخر زيارة كان شخصاً آخر، ماذا غيره، كيف صار الموت بغية وملادة؟!

وولولت حليمة قائلة:

- لقد حللت بنا اللعنة..

وتساءل ضياء:

- ما السر؟.. أكاد أن أجّن؟!

فقال عاشور:

- لن يكشف السر عما يسر، فالناس لا يتحررون بلا سبب..

٢٥

وتلاقت أنكار الشقيقين على تفقد دار الراحل كقراءة أولى لأسراره ومعاملاته ومصادر أمواله. وتم الاتفاق بينهما وبين السلطة على ذلك. كانت داراً ضخمة ذات فناء متراهم من ناحية الجبل. وجذب الأنظار كثرة المخادع الوثيرة، ومخازن الخمور والمخدرات، وغزارة التحف والرياش. ولما فتحت الخزائن وجدت خالية تماماً. لا عقد ولا خطاب ولا دفتر ولا مليم واحد. وتبادل الشقيقان نظرات حائرة. تسأله عاشور:

- ما معنى هذا؟

وتساءل ضياء:

- أين ثروة المرحوم؟

٥٦٧

وسائل عاشور المحقق :

- هل عرفتم جديدا من الأمر؟

فأجاب الرجل :

- لن يفلت منا خيط من الحقيقة ..

٢٦

رجع ضياء وعاشور من رحلتهم الاستكشافية الخائبة مذهولين.

اشتد اللغز غموضاً واكتنفته سحب دكناه فتوزعت القلوب الهواجس.

حقاً لقد أمن لهم شقيقهما الحياة قبل أن يذهب، فهما وأمهما الوارثون

لوكالة الفحم ولدارين رائعتين، ولكن ماذا عن ثروة فائز، وماذا عن

حياته المبهمة؟!

وتفكر ضياء ثم قال :

- لعله فقد ثروته فانتحر ..

فقال عاشور معترضاً :

- ولم ينتحر وهو ما زال مالك الوكالة والدارين؟

فهزَّ ضياء رأسه في حيرة وقتم :

- ترى لم ينتحر المت Hwyرون؟!

٢٧

واستأنثر انتشار فائز باهتمام السكارى فى البوظة. تسأله زين علبية

الخمار :

٥٦٨

- لم يتحرر رجل مثل فائز؟

فقال يونس السياسي شيخ الحارة:

- ليس بسبب الإفلاس، فقد ترك ثروة تجعله من كبار أغنياء
الحارة..

فقال له زين علبياً بلهجة تحريض:

- لا شك في أن عندك معلومات بوصفك من رجال السلطة..

وعز على يونس أن يعلن إفلاسه فقال بنبرة الحذر:

- إنهم يكتشفون جميع من كانت لهم صلة بالرجل.

عند ذاك قال حسونة السبع الفتوة متهمكاً:

- هناك سبب أقوى من الإفلاس..

واتجهت إليه الرءوس بكل إجلال فقهه قائلاً:

- الجنون!.. في دمائهم جنون موروث عن رجال ونساء، حتى

كبيرهم الأول المقدس، ألم يكن لقيطا ولصا؟!

٢٨

ومضت حياة آل الناجي ثقيلة كثيبة. أجل الزفاف بطبيعة الحال،
وواصل ضياء وعاشر حياتهما اليومية وقد انطفأت في نفسيهما جذوة
الإبداع والسعادة. أما حليمة البركة فقد اعتزلت في جناحها، تجتر
الأحزان وتعزى بالعبادة..

وذات مساء - وكان الشتاء ما زال يسعف الحرارة بسياطه - جاء عم يونس السايس إلى الدار، يسير بين يدي مأمور القسم وقوة من المخبرين. اجتمع المأمور وشيخ الحرارة بالأسرة في قاعة الاستقبال، وسرعان ما سأله المأمور:

- من وكالة الفحم والداران؟

فأجاب ضياء:

- كانت ملك المرحوم، وعنده ورثناها.

- إلى بوثائق الملكية.

ذهب ضياء ثم رجع بصناديق فضى متوسط الحجم، فمضى المأمور بطالع الوثائق، ثم ردد عينيه بين حليمة وابنيها وقال:

- كل شيء ملك للغير ..

لم يفقه أحد معنى لقوله، ولم تعكس وجوههم أى أثر، فقال يونس السايس:

- جميع ما في حوزتكم من تجارة وعقارات ملك للغير، لم يكن ملكا لفائزين، وبالتالي لا حق لكم فيه ..

صرخ ضياء:

- ما معنى ذلك؟

قال شيخ الحرارة:

- الأمر لله. عليكم أن تسلمو الدار والوكالة في الحال ..

- في الأمر خطأ ولا شك !
- لقد باع فائز كل شيء ، وقدم المالك الجديد المباعة وهي صحيحة لا شك فيها !
- تساءل عاشر بذهول :
- أحلاً ما تقول ؟
- فقال المأمور بهدوء وحزم معاً :
- لم نأت في هذه الساعة للمزاح ..
- إنه فوق ما يتصور العقل !
- ولكنه الواقع الذي لا شك فيه ..
- فتساءل ضياء بفزع :
- إذن فأين ثمن البيع ؟
- علم ذلك عند الله والمتتحر ..
- وسكت المأمور لحظات ثم استدرك :
- لعله كان يبعا صوريًا ، ولعله تم خلال مقامرة جنونية . التحقيق ماض في سبيله القدر !
- وقال ضياء :
- فوق ما يتصور العقل !
- وقال عاشر :
- إنها جريمة تسمى السرقة !
- فتساءل المأمور :
- لم انتحر بدل أن يبلغ عن السرقة ؟
- في الأمر جريمة يا حضرة المأمور .
- بل سلسلة من الجرائم ! .. ولكن لا بد أولاً من التفتيش !

لبيت الأسرة تنتظر مهيبة تحت حكم الإعدام. رجع المأمور وهو يقول:

- سلسلة من الجرائم، الجرائم البشعة...، هلموا معنا..

تساءلت حليمة بصوت متهدج:

- إلى أين؟

- إلى القسم..

وقال يونس السادس ملاطفاً:

- لا بد من استكمال التحقيق..

تساءل عاشر:

- أنحن متهمون؟

فقال المأمور بحزم:

- صبرك، وما صبرك إلا بالله..

جرى التحقيق طويلاً مرهقاً. وعلى ذمته حجزت الأسرة في سجن القسم أسبوعاً. ولكن ثبت بالدليل وشهادة الشهود أنه لم توجد علاقة بينهم وبين عمل فائز السرى الخارجى، فثبتت براءتهم وأطلق سراحهم فرجعوا إلى الحرارة، ثلاثة يركبهم الخزى والعار لا مأوى لهم.

وكانت الحقائق قد سبقتهم إلى الحارة مثل رائحة عفنة. عرف الكبير والصغرى، الصديق والعدو أن فائز بدأ مغامرته ببيع الكارو. أنه استمر ماله في الدعارة والقامار والبرمجة والمخدرات. وكان يقامر بثروات خيالية، وفي حال الخسران كان يستدرج الغريم مستعيناً بالنساء والمخدرات فيقتله ويستولى على النقود ثم يواريه في فناء داره. وفي آخر مقامرة خسر أمواله جميعاً، ثم اضطر إلى المقامرة بأمواله في شكل عقد بيع صورى فخسرها أيضاً، ولم يتمكن من قتل غريميه الذي فر بروحه وماله. ولما خسر كل شيء، وأصبح سره مهدداً بالانفصال انتحر. وقد تلقى رجال الأمن رسالة من مجھول - لعله كان شريكـ وهى التي دلت السلطة على سر الجرائم ومدافن الضحايا. هكذا كشف الغطاء عن سر فائز المفزع، نجاحه وانتحاره!

رجعوا إلى الحارة، ثلاثة يركبهم الخزي والعار لا مأوى لهم. غدت حكاياتهم نادرة الشامتين ومفزع التخيلين. وأضمرم نارها السبع وعلباوية والعجل. وبقوة الحقد أمطّرتهم الأفواه بصقاً والأكف صفعاً حتى هرولوا نحو القبو، ومنه تسللوا إلى المر، ثم استقرّوا في القرافة.. وأراد الشيخ جليل شيخ الزاوية أن يتشفّع لهم فقال:

- لا تزر وازرة وزر أخرى ..

فصاح به حسونة السبع :

- اسكت يا كافر وإلا شنقتك بشال عمتك!

وكان آل الخشاب وآل العطار في مقدمة من تبراً منهم ..

٣٤

أقامت الأسرة المطاردة في حجرة الرحمة بمدفن شمس الدين. في الجيوب قروش معدودة، وفي القلوب أسى جديد أنساهم أحزان الموت والإفلاس. تحجرت الأعين، حتى عينا حليمة البركة، جلسوا متقاربين، ينشدون النجاة من تلاصقهم، ويستدفعون بنبضات قلوبهم الشامل، وريح الشتاء تزمنجر بين شواهد القبور. وإذا بضياء يصبح :

- الكلاب !

فقالت حليمة برجاء :

- فلنفكر بحالنا ..

قال ضياء بمرارة وسخرية :

- لم يبق أمامنا إلا أن نعمل ترابية ..

فقالت الأم :

- معاشرة الجثت أطيب ..

وتتسائل عاشور بذهول :

- أقضى علينا حقاً بهجر حارتنا؟

قال له أخوه :

- ارجع لتعسل وجهك مرة أخرى ببصاقهم !

فقال عاشر بتحد :

- سنعيش حياتنا على أى حال ..

- لنرجع إلى التسول ..

وكان الربيع تزوج في الخارج بين شواهد القبور ..

٣٥

وفي اليوم التالي دخلوا في حال جديدة من الحزن امتازت بالهدوء والركود . قالت حليمة البركة :

- لا وقت لدينا نضيعه ..

فعلق ضياء على قولها بأنه لا وقت لديهم ولا مال ولا صديق ولا شيء ، فتساءلت :

- أين يجدر بنا أن نذهب ؟

فأجاب ضياء :

- بلاد الله لا حدود لها ..

أما عاشر فقال :

- لنبقى في المدفن غير بعيدين عن حارتنا حتى يتاح لنا الرجوع ..

تمضياء بازدراء :

- الرجوع !؟

- أجل ، لا بد من الرجوع ذات يوم ، وأكثر من ذلك ، لا حياة لنا إلا في حارتنا ..

٥٧٥

فحسمت حليمة الخلاف قائلة :
- لنبق هنا بعض الوقت على الأقل ..
عند ذاك قال ضياء :
- لم أنم ليلة أمس ، فكرت حتى سمع الأمواات نبضات فكري ،
صدقت عزيمتى على قرار ..
- ما هو ؟
- لا أبقى هنا ..
فتجاهلت أمه وقالت :
- عن نفسى أعود إلى ممارسة مهنتى السابقة فى أطراف الحى
البعيدة ..
فقال عاشر :
- سأسرح بفاكهة ..
تضائق ضياء من تجاهلهما رأيه فراح يؤكدہ قائلا :
- سأذهب ولو اضطربت إلى الانفصال عنكمما ..
فسألته أمه :
- أين ؟ وماذا تفعل ؟
فقال مواصلا انفعاله :
- لا أدري ، سأتخدى الحظ والقدر ..
فتساءلت بحزن :
- كما فعل الآخر ؟
فصاح بإصرار :
- كلا .. توجد سبل أخرى ..
- أعطنى مثلا .. ؟

- لست نبيا ..

وقال له عاشور برقه :

- أبق معنا فما أحوج بعضاً إلى البعض .

فقال بإصرار نهائى :

- كلا ، لقد قضى الأمر ..

٣٦

ودع ضياء أمه وأخاه وذهب . دمعت عينا حليمة وهي تودعه ولكن لم يكن ثمة متسعا للحزن . واستقبلت هي وعاشر حياة معاناة شاقة . سرحت بالافتقة والمخلل كالمتسولات ، وسرح عاشور بالفاكهة ، عملاقا يحمل مقططا . كأنما قد تعاهدا على الصبر وتجنب الشكوى وعدم نبش ذكرى ما مضى . ولكن الماضي لم يقتلع من أعماقهما . ذكرى الدار ذات الأجنحة ، والعيش الرغيد ، وأبهة الدوكار وحجرة الإدارة . ذكرى العباءة الفضفاضة والسبحة الكهرمانية وروائح المسك والعنبر والكلمات الطيبة . وعزيزة العطار باليشمك والابتسامة الهائلة . وإقبال يونس السياسي مداها . وقوله المأثور في الصباح « صبحك الله بالسعادة يا من يشرق النور من جبنته ». آه يا فائز ماذا فعلت بنفسك وبين؟ ! حتى جلال المجنون لم يقتل ويدفن الجثث . ما هذه اللعنة التي تطارد ذرية صاحب الولاية والمعجزة؟

ودأب على قضاء وقت راحته في الخلاء حيث رعى الغنم . حيث لجأ عاشور صاحب العهد وتلقى النعم . ذلك الجد الذي أحبه وأمن بعهده . وعبد خيره وقوته . أليس هو مثله حبا في الخير وامتلاكا للقوة؟ ولكن

ماذا فعل كلاهما بخيره وقوته؟ أما الجد فقد حدثت على يديه المعجزة،
وأما هو فيسرح بالخيار والقتاء والرطب.

وفي الليل دأب على التسلل إلى ساحة التكية. يتلiven بالظلم
ويستضيء بضوء النجوم. يردد البصر بين أشباح التوت والسور العتيق.
يقتعد مكان الناجي ويصفع إلى رقصات الأناشيد. ألا يبالغ رجال الله
 بما يقع خلق الله؟ متى إذن يفتحون الباب أو يهدمون الأسوار؟ يريد أن
يسألهم لماذا ارتكب فائز جرائمها. حتى متى تشفي حارتنا وتحنها؟ لم
ينعم الأنانيون وال مجرمون؟ لم يجهض الطيبون والمحبون؟ لم يغط في
النوم الحرافيش؟

هذا والجو يمتلىء بالأناشيد..

ديدى كه بار جز جور وستم نداشت
 بشكست عهد وز غم ماهيج غم نداشت

٣٧

وقالت حليمة لنفسها إنه يبدو دائمًا منشغل بالبال ، شارد اللب ، فيم
يحلم يا ترى؟ هل يمكن أن تمضي الحياة في معاناة متصلة بلا نسمة
ترطبه؟ وسألته بحنان:

- ماذا يشغلك يا عاشور؟

فلم يجب ، فتساءلت:

- ألا يحسن بنا أن نجد لك زوجة تؤنس وحشتك؟

فقال باسما:

- ما نجد اللقمة إلا بشق الأنفس...

- إذن فهناك ما يكدر صفوک .. ؟

فقال بصدق :

- كلا يا أمى ..

فلتصدقه ولكن ماذا يشغله؟ .. فى باطنه حياة كاملة مجهولة . لذلك
تشعر بالغيرة كما تشعر بالخوف ..

٣٨

وضاق بأسراره ذات ليلة . كان الوقت ربيعا وقد طاب الجلوس فى
مكان غير مسقوف من المدفن . وانبسست السماء متبرجة بما لا يحصى
من نجومها . كانوا يتناولان عشاء من المش والخيار . وقال عاشر:

- أتساءل أحياناً عما يفعل ضياء ..

فتهجدت حليمة وتمتنع :

- إنه نسياناً تماماً ..

وغرق عاشر في الصمت فلم يسمع إلا صوت تمتطهه ونباح الكلاب
عند مشارف القرافة . ثم عاد يقول :

- أخاف أن يفعل كما فعل فائز من قبل ..

فقالت الأم محتاجة :

- لقد ضرب لنا المرحوم مثلاً لا يمكن أن ينسى ..

- ولكننا ننسى دائماً يا أمى ..

- وهذا ما يشغلك يا عاشر؟

فحنى رأسه بالإيجاب في ضوء هلال شاحب . مضى يتساءل :

- لم سقط فائز؟ لم جن جلال؟ لم يفترسنا حسونة السبع؟

٥٧٩

- أليس عندنا من الهم ما يكفى؟
- إنه هم واحد متصل الحلقات ..
فاستعاذت حليمة بالله وقالت:
- اسمه الشيطان ..

- أجل، ولكن لم يغرس بنا بلا عناء؟
- إنه ينهزم أمام المؤمنين ...

ورجع للصمت وقد فرغ من العشاء وراح يدخن جوزة من المعلول ونباح الكلاب في اشتداد حتى انقلب في بعض خيوطه إلى عواء. وقال بغتة:
- إليك رأى يا أمى .. الشيطان يتصر بالتسليل من نقاط الضعف فينا .. فاستعاذت بالله من الشيطان الرجيم فواصل عاشر قائلاً:
- إليك رأى أيضاً، حبان يشكلان أضعف ما فينا، حب المال وحب السيطرة على العباد ..

فتمتمت حليمة:
- لعلهما شيء واحد ..
- ربما، المال والسيطرة ..
- حتى عهد جلدك انتكس ..

فرد بغموض:
- جدى!

فحذجته بنظرة متسائلة، فتساءل بدوره:
- ماذا كان ينقصه؟
- ينقصه؟!
- أعني لماذا انتكس؟
- لم يكن الذنب ذنبه ..

فتمتم بعجلة:

- طبعا ..

ولكنه تسأله في سره عما كان ينقصه، عما أفشل سعيه النبيل عقب وفاته أو عقب وفاة شمس الدين. ما دام يوجد خطأ فلا بد أن يوجد صواب. وإذا وجد الصواب مرة فيمكن أن يوجد مرة أخرى، وإذا كان قد انتكس بعد وجوده فيمكن أن نضمن له حياة لا تعرف الانتكasaة.

وعادت حليمة تسأله:

- أليس لديك من الهم ما يكفيك وزيادة؟!

٣٩

كلا، لم يقنع بما لديه من هم. وكيف يقنع من أدمي الوجود كل يوم ساعة في الخلاء وساعة أو ساعتين في ساحة التكية؟! كيف يقنع من ينطوى صدره على جذوة دائمة الاشتعال؟ كيف يقنع من تورقه الأحلام الملونة؟ كيف يقنع من بات يعتقد بلا جد له إلا عاشر الناجي؟
ورسم فوق رمال الخلاء طريقاً. وتخيله على ضوء النجوم في ساحة التكية. ونواجهه في تحواله ومنامه. حتى تجسد له كالسور العتيق قوة وصلابة وجلا.

٤٠

وتلکأ طويلاً في سوق الدراسة. في سوق الدراسة يتصلبك كثيرون من حرافيش الحارة. لقد كان يتجنّبه لذلك السبب، ومن أجل ذلك

٥٨١

يتلوكاً اليوم في جنباته . ومر أمام تجمعاتهم وهو ينادي متربعاً بالخيار .
سرعان ما عرفه بعضهم هتف هاتفهم :

- المعلم عاشور !

وسخر صوت قائلًا :

- أخو السفاح يسرح بالخيار ..

وأقبل عاشور نحوهم يحمل البشاشة في قسماته الغليظة . مد يده
وهو يقول :

- أترفضون هذه اليد مثل الآخرين ؟

فصافحوه بحرارة وقال أحدهم :

- عليهم اللعنة ..

وقال ثان :

- ما وجدنا منك إلا الخير .

- وأمك الطيبة كيف حالها ؟

فقال عاشور :

- برؤياكم رجعت روحى الشاردة إلى وطنها ..

وقضى بينهم ساعة سعيدة مترعة بالحنين والبهجة . ومنذ ذلك اليوم
لم يقطع قط عن سوق الدراسة .

٤١

بلقاء الحرافيش اشتعلت النار في كيانه كلها . تجمعت قواه الحيوية كلها
ودقت جدران قلبه ترید أن تنطلق . لا يمكن أن ينام من تضطرّب
جوانحه بهذه القوة كلها . إنه يتحدى المجهول كما تحدها فائز من قبل

وكما يتحداه ضياء اليوم ، ولكنه يشق طريقا آخر ، ويتطلع إلى آفاق أبعد .
إنه يواجه المجهول ويصافحه ويرمى بنفسه في خضمها . كأنما كتبت عليه
المغامرة والمقامرة وركوب المستحيل . إنه يحمل سرا عجيبة ، ينبع الأمن
والسلامة ، ويعشق الموت وما وراءه . ولقد رأى في منامه من اعتقاد أنه
عاشور الناجي ورغم أنه كان يبتسم فقد سأله بنبرة عتاب واضحة :

- بيدى أم بيدك ؟

وكررها مرتين فوجد عاشور نفسه يجيئه وكأنما أدرك ما يسأل عنه :

- بيدى !

فظل الناجي باسما ولكنه توارى كالغاضب مخلفا وراءه الخلاء .
وتساءل عاشور لدى استيقاظه عما عناه جده بسؤاله ، وعما عناه هو
بحجابه ، وتحير طويلا ولكن قلبه امتلاء بالهام التفاؤل والإقدام .

٤٢

وذات يوم طرح هذا السؤال على الحرفافيش في سوق الدراسة :

- ماذا يرجع حارتنا إلى عهدها السعيد ؟

وأجاب أكثر من صوت :

- أن يرجع عاشور الناجي .

فتساءل باسما :

- هل يرجع الموتى ؟

فأجاب أحدهم مقهقها :

- نعم .

قال بثبات :

- لا يحيا إلا الأحياء .

- نحن أحياء ولكن لا حياة لنا ..

فسؤال :

- ماذَا ينقصكم؟

- الرغيف ..

فقال عاشور :

- بل القوة!

- الرغيف أسهل منا ..

- كلا!

فسؤاله صوت :

- إنك قوى عملاق ، فهل تطمح إلى الفتونة؟

وقال آخر :

- ثم تنقلب كما انقلب وحيد وجلال وسماحة؟!

وقال ثالث :

- أو تُقتل كما قُتل فتح الباب ...

فقال عاشور :

- حتى لو صرت فتوة صالحاً فما يجدى ذلك؟

- نسعد في ظلك!

قال آخر :

- لن تكون صالحاً أكثر من ساعة!

فتسائل عاشور :

- حتى لو سعدتم في ظلّي ، فماذا بعدي؟

- ترجع ريمة لعادتها القديمة ..

وقال رجل :

- لا نفقة لنا في أحد، ولا فيك أنت!

فابتسم عاشور قائلاً :

- قول حكيم.

و卿قه الحرافيش فعاد عاشور يتساءل :

- ولكنكم تثقون في أنفسكم !

- وما قيمة أنفسنا؟ !

فتساءل عاشور باهتمام :

- أتحفظون السر؟

- نحفظه من أجل عيونك !

فقال عاشور بجدية :

- لقد رأيت حلماً عجيباً،رأيتك تحملون النبأيت ..

و卿قهوا طويلاً، ثم قال رجل مشيراً إلى عاشور:

- هذا الرجل معجون ولا شك، لذلك فإنني أحبه ..

٤٣

طرق طارق بباب حجرة الرحمة. كان عاشور يجالس أمه عقب العشاء متذمرين ببطانتين اتقاء برد الشتاء القارس. وفتح عاشور الباب فرأى على ضوء المصباح وجهها يعرفه، وسرعان ما هتف :
- أخي ضياء !

وثبت حليمة البركة وضمته إلى صدرها. ذابوا دقائق في حرارة ثم

أفاقوا فجلسوا على الشلت يتبادلون النظارات . تجلى ضياء بعباءته الغامقة ومرکوبه الأخضر ولا شئه المنمنة . تجلى بادى الصحة والسعادة . وانقبض قلب عاشر وثارت هواجسه . وختمت حليمة على ظنونها بابتسامة وحنان . وخرج ضياء من الصمت القصير قائلا :

- ما أطول الأيام !

ثم وهو يضحك :

- وما أقصر الأيام !

وختمت حليمة البركة وقد اغزورقت عينها :

- نسيتنا تماما يا ضياء ..

فقال ضياء بلهجة جمعت بين التشكي في ظاهرها والظفر في أعماقها :

- كانت الحياة شاقة فوق ما يتصور العقل ..

وأن أوان التحدث عن «الحاضر» ولكن حليمة وعاشر أحجمما بادئ الأمر عن الخوض فيه . ذكرهما المنظر منظر سابق لا يمحى من الذاكرة واستحوذ عليهما قلق خفى . وقرأ ضياء أفكارهما فقال :

- أخيراً أخذ الله بيدهنا !

فتمت حلمية تملصا من حرج الصمت :

- الحمد لله ..

وطالعته بوجه مستططلع فقال بهدوء :

- إنني اليوم مدير أكبر فندق ببولاق .. !

ونظر نحو عاشر متسائلا في مرح :

- وما رأيك ؟

فقال عاشر بصوت لا حياة فيه :

- عظيم!
- إنى أقرأ ما يدور بخاطرك!
- فتسائل عاشر:
- أليس الأمر مثيرا؟
- ولكنه عادى جداً، و مختلف جداً عن مأساة المرحوم ..
- ذلك ما أنوّقه.
- لقد عملت فى الفندق خادما، ثم عملت كاتبا لمعرفتي القراءة والكتابة، ثم حصل استلطاف بينى وبين كريمة صاحب الفندق ..
- سكت مليا ليغرس أقواله إلى عمق معقول ثم واصل:
- خفت أن أطلب يدها من أبيها فأخسر كل شيء. ولكن وفاته الأجل، تزوجنا، أصبحت مدير الفندق وصاحبته الفعلى ..
- و تمنت الأم:
- ليكتب الله لك التوفيق ..
- فرنا إلى عاشر ملية ثم تسأله:
- أخبارك شك فى أقوالى؟
- فقال عاشر بعجلة:
- كلا ..
- إن مأساة فائز لا تريد أن تمحى من ذاكرتك ..
- لا يمكن أن تمحى أبدا.
- لقد سلكت طريقا آخر.
- الحمد لله ..
- تصدقنى؟
- نعم.

فقال باعتزاز :

- لدى إقبال الدنيا سر عان ما تذكرت أمي وأخي ..

فقالت حليمة البركة :

- ليحفظك الله .

- ذلك أنت لم تخل عن حلم قديم .

فتساءل عاشر :

- حلم قديم ؟

- أن نرجع إلى حارتنا ، أن نسترد جاهنا ، أن نلتقي تحيات من بصقوا في وجوهنا ..

فقال عاشر بحزم :

- تخل عن حلمك يا أخي .

- حقاً؟ ماذا تخاف؟ إن سحر النقود يصنع المعجزات .

- لقد فقدنا الاحترام الحقيقى حتى ونحن أغنياء .

فتساءل باستياء :

- ما الاحترام الحقيقى ؟

هل يفضى إليه بحلمه أيضاً؟ ولكنه لم يجد فيه أى ثقة . يمكن التفاهم مع الحرافيش أما هذا الشخص الناجح المتهور فلا تفاهم معه .
أجاب بأسى :

- هو ما فقدناه من قديم .

رفع ضياء منكبيه استهانة وقال بضيق :

- على أى حال آن لكم أن تودعا هذه الحياة مع الأموات .

فقال عاشر بحزم :

- كلا .

- كلا! .. ترفض معونتى؟

- نعم.

- إنه الجنون بعينه.

- المال مال زوجتك ولا شأن لنا به.

- إنك تجرحني.

- معذرة يا ضياء، دعنا فيما نحن فيه.

- ما زلت تسىء بي الظن!

- كلا، أعتقد أنى واضح تماما.

فقال باستياء باد:

- لن أترك أمري.

فقالت حليمة بعجلة:

- إنك ابن طيب ولكتنى لن أهجر أخاك.

- أنت أيضاً تسيئين بي الظن!

- معاذ الله، ولكنى لن أهجره، دع الأمور للزمن ..

- حتى متى تقيمين فى مدفن بين الأموات؟!

- لم نعد كما كنا فقراء دقة، حالنا تتحسن يوما بعد يوم ..

فقال بقوه:

- بوسعي الآن أن أرجعكم مكرمين إلى حارتنا ..

فقالت حليمة متولدة بحرارة:

- دع الأمور للزمن ..

حنى ضياء رأسه متتمما:

- يا لها من خيبة أمل!

وعقب انصراف ضياء قالت حليمة :

- صددناه بعنف يا عاشور .

فقال بإصرار :

- لم يكن من الأمر بد .

- ألم تثق بأقواله ؟

- نعم ، لم أثق .

- إنني أصدقه .

- إنني على يقين من انحرافه .

- منذا الذي لا يتعظ بعد مأساة فائز ؟

- نحن ، ما تاريخ أسرتنا إلا سلسلة من الانحرافات والماسي

والدروس الضائعة ..

- ولكنني أصدقه .

- كما تشاءين ..

وتفكرت قليلا ثم قالت :

- حتى أسرارك لم تأمنه عليها ؟

فقال عاشور بأسف :

- نعم ، إنه لا يؤمن بما أؤمن به ..

- ألم يكن من المحتمل أن ينضم إليكم ؟

فقال عاشور بهدوء :

- إنه لا يؤمن بما أؤمن به .
حقاً لقد جاء ضياء في وقت غير مناسب إذ كان عاشور يتثبت - بعد
عناء طويل - للخطوة الخامسة ..

٤٥

وذات يوم عجيب ، والحرارة تعانى حباتها اليومية المألوفة الكثيبة ،
والشباء يولي موعدا ، انحدر من تحت القبور جل . عملاق الهيكل ،
يرفل في جلباب أزرق وطاقة بنية وبيده نبوت . سار بهدوء وثقة كأنه
راجع من غيبة ساعة لا بضع سنين . رأه أول من رأه محمد العجل فمد
إليه عينيه بذهول وتقى :

- من؟ .. عاشور!

فقال له عاشور بهدوء :

- سلام الله عليك يا عم محمد ..

سرعان ما شخصت إليه الأ بصار بدھشة ، من الدكاكين والنواخذ
وأرجاء الحرارة شخصت إليه . لم يلق بالا إلى أحد وشق طريقه إلى
المقهى وكان حسونة السابع متربعا فوق أريكته ، وفي حاشيته جلس
يونس السادس شيخ الحرارة والشيخ جليل العالم شيخ الزاوية . دخل
عاشور المقهى فاتجهت نحوه الأعين في ذهول . أما هو فمضى إلى ركن
وهو يقول :

- السلام عليكم .

لم يسمع ردا . وواضح أن الفتاة انتظر منه تحية خاصة مشفوعة
باستعطاف ، ولكنها مضى إلى مقعد بلا مبالاة وجلس . سرعان ما توقع
الناس أحداها . ولم يطق السابع صبرا فسألها بخشونة :

- ماذا أرجوك يا ولد؟

فأجاب بهدوء:

- لا بد يوماً أن يعود الإنسان إلى حارته.

فصاح به:

- ولكنك طردت منها منبوداً ملعوناً.

فقال عاشور بهدوئه المطمئن:

- كان ظلماً ولا بد للظلم من نهاية.

فتدخل الشيخ جليل قائلاً:

- تقدم إلى فتوتنا وأسألة العفو.

فقال عاشور ببرود:

- لم أجي لطلب العفو.

فهتف يونس السادس:

- ما عرفناك مغروراً ولا وقحاً.

فقال بسخرية:

- بالصدق نطبق.

عند ذاك نظر حسوة السبع ساقيه المتشابكتين نحو الأرض وسأله

مندراً:

- علام تعتمد في رجوعك إن لم يكن على عفو؟

فقال بصوت جهوري:

- اعتمد على الله جل شأنه.

فصاح السبع:

- اذهب على قدميك وإلا ذهبت على نقالة.

فوقف عاشور وشد على نبوته. اندفع صبي القهوة خارجاً منادياً

رجال العصابة. هرع الآخرون إلى الحرارة خوفاً. انقضى السبع بنبوته، وانقضى عاشور بنبوته، فارتطم النبوتان بعنف جدار متهدم، ونشبت معركة غاية في الشدة والقسوة.

وجاء رجال العصابة من شتى الأنهاء فاختفى الناس من الحرارة وأغلقت الدكاكين، وامتلأت النوافذ والمشريات.

وإذا بفاجأة تدهم الحرارة كزلزال. مفاجأة لم يتوقعها أحد. تدفق الحرافيش من الخرابات والأزقة، صائحين، ملوحين بما صادفه أيديهم من طوب وأخشاب ومقاعد وعصى. تدفقوا كسيل فاجتاحتوا رجال السبع الذين أخذوا، وبسرعة انقلبوا من الهجوم إلى الدفاع. وأصاب عاشور ساعد السبع فأفلت منه النبوت، عند ذلك هجم عليه وطوفه بذراعين، عصره حتى طقطق عظامه. ثم رفعه إلى ما فوق رأسه ورمي به في الحرارة فتهاوى فاقد الوعي والكرامة.

أحاط الحرافيش بالعصابة، انهالوا عليهم ضرباً بالعصى والطوب فكان السعيد من هرب وفيما دون الساعة لم يبق في الحرارة إلا جموع الحرافيش وعاشور.

٤٦

كانت معركة لم تسبق بثيل من حيث عدد من اشترك فيها. فالحرافيش أكثرية ساحقة. وفجأة تجمعت الأكثريّة واستولت على النيابية فاندفعت في البيوت والدور والوكالات رجفة مزلاة. تمزق الخيط الذي ينظم الأشياء وأصبح كل شيء ممكناً. غير أن الفتونة رجعت إلى آل الناجي، إلى عملائق خطير، تشكل عصابة لأول مرة

أكثرية أهل الحرارة. ولم تقع الفوضى المتوقعة، التف الحرافيش حول فتوتهم في تفان وامتثال، وانتصب بينهم مثل البناء الشامخ، توحى نظرة عينيه بالبناء لا بالهدم والتخريب.

٤٧

واجتمع بعاشور ليلاً يونس السادس وجليل العالم. كانا واضحى القلق، وقال شيخ الحرارة:

ـ المأمول ألا يقع ما يقتضي تدخل الشرطة..
قال عاشور في استياء:

ـ كم من جرائم ارتكبت تحت بصرك وكانت تقتضي تدخل الشرطة..

قال الرجل بلهفة:

ـ معذرة، إنك أدرى الناس بظروفنا، أود أن أذكرك أنك انتصرت بهم ولكنك غداً ستقع تحت رحمتهم!

قال عاشور بثقة:

ـ لن يقع أحد تحت رحمة أحد..

قال الشيخ جليل العالم بإشراق:

ـ لم يكتبهم في الماضي إلا التفرق والضعف..
قال عاشور بثقة أشد:

ـ إنني أعرفهم خيراً منك، عاشرتهم في الخلاء طويلاً، والعدل خير دواء..

فتردد يونس السايس قليلا ثم تساءل :

- والسادة والأعيان ماذا يكون مصيرهم؟

فقال عاشور بقوة ووضوح :

- إنى أحب العدل أكثر مما أحب الحرافيش وأكثر مما أكره الأعيان ..

٤٨

ولم يتوان عاشور ربيع الناجي ساعة واحدة عن تحقيق حلمه ذلك الحلم الذى جذب به الحرافيش إلى ساحتة ، ولقنهم تأويلا فى الخلاء ، وحولهم به من صعاليك ونشالين ومتسللين إلى أكبر عصابة عرفتها الحارة .

سرعان ما ساوي فى المعاملة بين الوجهاء والحرافيش ، وفرض على الأعيان إتاوات ثقيلة حتى ضاق كثيرون بحياتهم فهجرروا الحارة إلى أحياء بعيدة لا تعرف فتوة ولا فتونة . وحتم عاشور على الحرافيش أمرین . أن يدربوا أبناءهم على الفتونة حتى لا تهن قوتهم يوما فيتسلط عليهم وغد أو مغامر ، وأن يتعيش كل منهم من حرفة أو عمل يقيمه لهم من الإتاوات . وبدأ بنفسه فعمل فى بيع الفاكهة ، وأقام فى شقة صغيرة مع أمه .. وهكذا بعث عهد الفتونة البالغ أقصى درجات القوة وأنقى درجات النقاء . ولم يجد الشيخ جليل العالم بدا من الثناء عليه ، والجهر بالتنويه بعدلاته ، وكذلك يونس السايس فعل ، ولكنه ارتتاب فى ضميرهما ، ولم يشك فى أنهما يتحسنان على الهبات التى كانت تتسرّب إليهما من الأعيان ، وعند توزيع الإتاوات بين أفراد العصابة الهاوية .

وما لبث الشيخ جليل العالم أن هجر الحرارة، فعين مكانه الشيخ
أحمد بركات. ولما كان يونس الساييس معيناً من قبل السلطة فقد تعذر
عليه هجرها، وكان يغمغم وهو منفرد بنفسه في دكانه:

ـ لم تبق في الحرارة إلا الزباله!

وكان يفضي بذاته نفسه إلى زين علبية الخمار فيتساءل الرجل في
قلقه:

ـ حتى متى تدوم هذه الحال؟

فيقول يونس الساييس:

ـ لا أمل معبقاء الوحش على قيد الحياة..

ثم يتنهد موصلاً:

ـ لا شك في أن أناساً مثلنا تناجوا بما تناجى به الآن على عهد جده
الأول، فاصبر وما صبرك إلا بالله..

٤٩

وجدد عاشور الزاوية والسبيل والخوض والكتاب، وأنشأ كُتاباً
جديداً ليتسع لأبناء الحرافيش، ثم أقدم على ما لم يقدم عليه أحد من
قبل فاتفاق مع مقاول على هدم مئذنة جلال. وقد كان يصد السابقين عن
ذلك خوفهم من إغضاب العفاريت التي تسكنها ولكن الفتوة الجديدة لم
يخف العفاريت. وقام وهو في الحرارة عملاًقاً كالمئذنة ولكنه في الوقت
نفسه مستقر للعدل والنقاء والطمأنينة. ولم يبدأ بتحدى أحد من فتوات
الحارات ولكنه كان يؤدب من يتحداه ويجعل منه عظة لآخرين فتهيأت
له السيادة بلا معارك.

واعتقدت حليمة البركة أنه آن له أن يفكر في ذاته . وجاءه ضياء أخوه سعيدا ، وفي نيته أن يستعيد وكالة الفحم ، وأن يصير كبير الأعيان في كنف أخيه الفتوة ، ولكنه لم يلق منه تشجيعا ، فاضطر إلى الاستقرار في فندقه ، واقتصرت حليمة عليه أن يتزوج قائلة :

- ما زال في حارتنا نفر من الأعيان الطيبين الذين لم يفرطوا فيها . .
فتذكر عاشور موقف أسرته الخشاب والعطار بامتعاض شديد وقال لأمه :

- أشعر يا أمي أنك تطمحين إلى حياة أفضل مما نحن فيه . .
فقالت المرأة بصدق :
- ليس العدل أن تظلم نفسك !
فقال بقوة متحجا ورافضا :
- لا . .

قالها بقوة . . ليست قوة الرفض الحقيقى . بل قوة يدارى بها ضعفا يحس به أحيانا في أعماق خواطره . فكم يحن أحيانا إلى رغد العيش والجمال . كما يحلم بحياة الدور والمرأة الناعمة . لذلك قال لا بعنف وقوية . وقال لها :

- لن أهدم بيدي أعظم ما شيدت من بناء شامخ . .
وأصر على أن يجيء الرفض من ذاته لا حذرا من الحرافيش . إنه يريد أن يتتفوق على جده نفسه . لقد اعتمد جده على نفسه على حين خلق هو من الحرافيش قوة لا تقهـر ، ولقد مال مرة جده مع هواه وسوف يصمد هو مثل السور العتيق . ومرة أخرى قال بقوة :
- لا . .

وتم له أعظم نصر، وهو نصره على نفسه. وتزوج من بهية بنت عدلات الماشطة بعد مشاهدة واستقراء من جانبه. وعندما اقتلعت مئذنة جلال من جذورها أحيا حرارة ليلة رقص وطرب. وعقب متصف الليل ذهب إلى ساحة التكية لينفرد بنفسه في ضوء النجوم ورحاقي الأناسيد. تربع فوق الأرض مستنימה إلى الرضا ولطافة الجو. لحظة من لحظات الحياة النادرة التي تسفر فيها عن نور صاف. لا شكوى من عضو أو خاطرة أو زمان أو مكان. كان الأناسيد الفامضة تفصح عن أسرارها بألف لسان. وكأنما أدرك لم ترغموا طويلاً بالأعجمية وأغلقوا الأبواب.

* * *

وسبح في الظلام صرير فرنا إلى الباب الضخم بذهول. رأى هيكله وهو ينفتح بنعومة وثبات. ومنه قدم شبح دروش كقطعة مجسدة من أنفاس الليل. مال نحوه وهمس:

استعدوا بالزماء والطبل، غدا سيخرج الشيخ من خلوته، ويشق الحرارة بنوره، وسيهب كل فتى نبوتا من الخيزران وثمرة من التوت، استعدوا بالزماء والطبل ..

* * *

عاد إلى دنيا النجوم والأناسيد والليل والسور العتيق. قبض على أهداب الرؤية فغاصت قبضته في أمواج الظلام الجليل. وانتفض ناهضا

ثملا بالإلهام والقدرة ، فقال له قلبه لا تجزع فقد ينفتح الباب ذات يوم
تحية لمن يخوضون الحياة ببراءة الأطفال وطموح الملائكة ..

وهتفت الحناجر شادية :

دوش وقت سحر از غصه نجاتم دارند
واندر آن ظلمت شب آب حیاتم دارند

Twitter: @ketab_n

أعمال نجيب محفوظ

١٩٣٢	ترجمة	١ - مصر القديمة
١٩٣٨	مجموعة قصصية	٢ - همس الجنون
١٩٣٩	رواية تاريخية	٣ - عبث الأقدار
١٩٤٣	رواية تاريخية	٤ - رادويس
١٩٤٤	رواية تاريخية	٥ - كفاح طيبة
١٩٤٥	رواية	٦ - القاهرة الجديدة
١٩٤٦	رواية	٧ - خان الخليلى
١٩٤٧	رواية	٨ - زفاف المدق
١٩٤٨	رواية	٩ - السراب
١٩٤٩	رواية	١٠ - بداية ونهاية
١٩٥٦	رواية	١١ - بين القصرين
١٩٥٧	رواية	١٢ - قصر الشوق
١٩٥٧	رواية	١٣ - السكرية
١٩٦١	رواية	١٤ - اللص والكلاب
١٩٦٢	رواية	١٥ - السمان والخريف
١٩٦٢	مجموعة قصصية	١٦ - دنيا الله
١٩٦٤	رواية	١٧ - الطريق

١٩٦٥	مجموعة قصصية	بيت سين السمعة	- ١٨
١٩٦٥	رواية	الشحاذ	- ١٩
١٩٦٦	رواية	ثرثرة فوق النيل	- ٢٠
١٩٦٧	رواية	ميرامار	- ٢١
١٩٦٧	رواية	أولاد حارتنا	- ٢٢
١٩٦٩	مجموعة قصصية	خمارة القط الأسود	- ٢٣
١٩٦٩	مجموعة قصصية	تحت المظلة	- ٢٤
١٩٧١	مجموعة قصصية	حكاية بلا بداية ولا نهاية	- ٢٥
١٩٧١	مجموعة قصصية	شهر العسل	- ٢٦
١٩٧٢	رواية	المرايا	- ٢٧
١٩٧٣	رواية	الحب تحت المطر	- ٢٨
١٩٧٣	مجموعة قصصية	الجريدة	- ٢٩
١٩٧٤	رواية	الكرنك	- ٣٠
١٩٧٥	رواية	حكايات حارتنا	- ٣١
١٩٧٥	رواية	قلب الليل	- ٣٢
١٩٧٥	رواية	حضره المحترم	- ٣٣
١٩٧٧	رواية	الحرافيش	- ٣٤
١٩٧٩	مجموعة قصصية	الحب فوق هضبة الهرم	- ٣٥
١٩٧٩	مجموعة قصصية	الشيطان يعظ	- ٣٦
١٩٨٠	رواية	عصر الحب	- ٣٧
١٩٨١	رواية	أفراح القبة	- ٣٨
١٩٨٢	رواية	ليالي ألف ليلة	- ٣٩

١٩٨٢	مجموعة قصصية	رأيت فيما يرى النائم	- ٤٠
١٩٨٢	رواية	الباقي من الزمن ساعة	- ٤١
١٩٨٣	رواية	أمام العرش (حوار بين الحكام)	- ٤٢
١٩٨٣	رواية	رحلة ابن فطومة	- ٤٣
١٩٨٤	مجموعة قصصية	التنظيم السري	- ٤٤
١٩٨٥	رواية	العائش في الحقيقة	- ٤٥
١٩٨٥	رواية	يوم قتل الزعيم	- ٤٦
١٩٨٧	رواية	حديث الصباح والمساء	- ٤٧
١٩٨٧	مجموعة قصصية	صباح الورد	- ٤٨
١٩٨٨	رواية	شتاء	- ٤٩
١٩٨٨	مجموعة قصصية	الفجر الكاذب	- ٥٠
١٩٩٥	مجموعة قصصية	أصداء السيرة الذاتية	- ٥١
١٩٩٦	مجموعة قصصية	القرار الأخير	- ٥٢
١٩٩٩	مجموعة قصصية	صلى النساء	- ٥٣
٢٠٠١	مجموعة قصصية	فتوة العطوف	- ٥٤
٢٠٠٤	مجموعة قصصية	أحلام فترة النقاهة	- ٥٥



9 789770 915226